المهابهاراتا

* المهابهاراتا
* ترجمة وتقديم: عبد الإله الملّاح

* الطبعة الثانية 2017
* الناشـــــــر : ورد للنشـر والتوزيـع
سوريـة ـ دمشق ☎ 5141441
* الإشـراف الفني : د. مجد حيدر
* التـــــــوزيع : دار ورد ☎ 5141441 ص.ب 30249

المهابهاراتا

ملحمة الهند الكبرى

ترجمة وتقديم
عبد الإله الملّاح

إلى عمرو ودينا

لأنهما لم يدعا للزمان أن يضرب
على سمائهما حدوداً!

عبد الإله

المحتويات

كلمة لابد منها

كنت قبل سنوات قد قرأت «المهابهاراتا» برواية مختصرة، فشغفت بها أشد الشغف، مما حملني على تتبع رواياتها المتعددة، وقراءتها كاملة في اثني عشر مجلداً. ثم زين لي الفكر أن أقوم بترجمتها إلى العربية، لخلو المكتبة العربية من ترجمة لها. وقد واجهتني، عندئذ، مسألة اختيار النص الأفضل بين عدة نصوص وروايات. وكان أن تخيرت نص ب.لال (نيودلهي 1989) بالإنكليزية مرشداً ودليلاً أهتدي به، على الرغم مما كان يعتوره من نقص. ثم كنت أرجع في كل فصل إلى روايات أخرى، فأعمد إلى مقاطعة النصوص ببعضها البعض لأتبين النص الأصيل والأحداث الأساسية من الإضافات المتأخرة، وبذلك استطعت ترميم ما يعتوره من الثغرات. وقد كان أشد ما واجهته من المصاعب تلك الإضافات التي تقطع تسلسل الرواية ـ وكأنما هي ضرب من التداعيات ـ فتفسد أسلوب السرد. على أن هذا من طبيعة أدب الملاحم التي تستغرق من الزمن حقباً طويلة. وقد حرصت في هذا كله على إبقاء كل ما له صلة ببنية الملحمة ذاتها وأحداثها الأساسية وشخصياتها الرئيسة.

وقد أفدت في عملي هذا من روايات؛ راجا غو بالاتشاري (بومباي 1950)، وكملا سوبرا منيام (بومباي 1965)، ور.ك. نارايان (نيودلهي 1987)، وطبعة ب. سي. روي الموسعة في اثني عشر مجلداً (كالكوتا بلا تاريخ) التي كنت أرجع إليها دون انقطاع. كما أفدت من

عرض كتاب الأخت نيفيديت وأناند كومارسوامي للمهابهاراتا وكتاب البهغفات غيتا (لندن 1975).

لقد حرصت على أن تصدر هذه الطبعة أمينة للنص، والروح التي أملته، وأن يأتي العمل في بيان عربي قويم، قدر ما يسر لي الله. ثم أضفت ملحقاً للتعريف بأبطال الملحمة، والمصطلحات الفلسفية الهندية.

إلا أنني أبحت لنفسي تبسيط نطق الأسماء، دون الإخلال بها. ولم أجد ضيراً في هذا خاصة وأن الهنود أنفسهم يختلفون في لفظها باختلاف أقاليمهم ولهجاتهم. كذلك أسقطت اللاحقات التي ألف الهنود إضافتها إلى الأسماء توقيراً.

وبعد، فإنه لابد لي من الاعتراف، ولو متأخراً، بفضل شاعرنا الكبير «عمر أبو ريشة» في حثي على النهوض بترجمة هذا العمل والمثابرة عليه. وقد كنت أشفق على نفسي من التصدي لهذا المشروع، وكدت أتخلى عنه غير مرة، لولا تشجيعه، وكان رحمه الله لا ينقطع عن السؤال عما قطعت من مراحله. وظل هذا دأبه إلى أن غادرنا إلى بلد شقيق، قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى.

ولست أملك إلا الاعتراف بالفضل الذي طوقني به السيد راميش ن. مولي، سفير الهند بدمشق، قبل أن يغادرنا، حين وفر لي كل ما كنت أحتاج إليه من المراجع، مما كان يحملني على الإحساس بالحرج لشدة إثقالي عليه، وهو يقابلني دائماً بكرم فائق، فضلاً عن تشجيعه إياي للنهوض بهذا العمل. ولعلي أذكر له إشارته اللبقة إلى أهمية كتاب البهغفات غيتا في إنارة الأحداث والشخصيات في الملحمة وموقعه الخطير في الفلسفة الهندية؛ إذ ما قيمة مسرحية هاملت، إن خلت من هاملت ذاته؟ فحملني بذلك على تقديم أجزاء من هذا الكتاب في موقعه في سفر بهيشما.

ولكن الجهد الكبير في إنجاز هذا العمل، كما يطالعه القارئ بين دفتي الكتاب، إنما يعود لزوجتي، السيدة عطاف ماrديني، التي

قامت بمراجعة الترجمة بين فوضى الأوراق المعهودة بي. وكنت قد تفوقت هذه المرة حتى على نفسي. كذلك أفدت الكثير من ملاحظاتها في توضيح العديد من المواقع. أما جهدها في نسخ المسودات وتصحيح الأصول وبروفات الطبع - وقد بذلت في ذلك ليال بطولها، والكثير الكثير من الصبر مما يحمد لها - فإني عاجز عن التنويه به، والحق أنها كانت شريكي في هذا الكتاب مما يجعل نصيبها منه قدر ما أصبت.

وبعد فإن قصرت كنت وحدي المسؤول، وإن وفقت كان توفيقي من الله تعالى، وهو ولي التوفيق.

ع.م

مقدمة

المهابهاراتا، أو «فجيا»، أي أنشودة النصر، هي ملحمة الهند، ما انقطع الناس عن تردادها عبر القرون، فيأخذها الصغير عن الكبير ويرويها الداني للقاصي، ومازال هذا العهد بهم منذ ثلاثين قرناً، أو تزيد حتى غدت تصور روحهم، وفكرهم، وترسم لهم عالم القيم والمثل.

وإذن، فالمهابهاراتا باتت عند القوم كنزاً يأخذون منه أساطيرهم، وتاريخهم، وفلسفاتهم، وحكاياتهم، مما حمل الهندوس منهم على اعتبارها السفر الخامس من أسفار الحكمة، أو الفيدا، أو إحدى الأوبنيشادات، تلك التعاليم الجوانية العميقة التي تعتبر مصدراً غنياً من مصادر التصوف.

والحق أن المسلمين منهم أيضاً احتفلوا بهذه الملحمة منذ عهد بعيد، في أيام الإمبراطور أكبر، فقاموا بترجمتها إلى الأوردية ومازال هذا حالهم إلى اليوم، فلا تعجب إن رأيت علماءهم المتضلعين بالسنسكريتية يقبلون على ترجمتها ويصدرونها في طبعات متصلة لا تنقطع. وربما رأيتهم يخصونها بالدراسات مثلما يعنى بها العلماء الآخرون. بل ولربما أسقطوا عليها شيئاً من تاريخهم القديم. وذلك شاهد على انتماء هذه الملحمة إلى الأدب العظيم الذي يجد فيه القارئ ما يحمله على التفاعل مع أحداثها، وتذوقها في كل زمان. وليس أدل على أثرها في حياة الهند العقلية

من نسبتها إلى شخصية فياسا الأسطورية الذي تنسب إليه جميع أسفار الفيدا أو الحكمة. بيد أن أثر المهابهاراتا في الفلسفة والعقائد أعظم وأبعد من ذلك بكثير. ولعل الباحثين الاختصاصيين يلتفتون إلى هذا الجانب من الملحمة في يوم غير بعيد، فيسدون ثغرة هامة في تاريخ الأفكار والعقائد.

ولا ريب اليوم أن خبر هذه الملحمة شاع في القديم فبلغ الإغريق والرومان، في عهد الإسكندر المقدوني حين اتصل الفلاسفة الذين حملهم معه في غزوته للهند بثقافتها ثم عادوا إلى بلادهم، أو بعضهم على الأقل، حاملين شيئاً منها. ولربما استقر بعضهم في غير تلك البلاد مثل الإسكندرية، فأثرت في مدرستها. وليس يعنينا من هذا كله، إلا ذلك الصدى الذي خلفته تلك المواجهة بين العقلانية الإغريقية والمثالية الشرقية، وتجلى في تلك المسحة الصوفية التي غلبت على الفلسفة الهيلينية المتأخرة. وقد تسربت ملحمتنا إلى بلدان شرقية أخرى فامتد أثرها بعيداً، وكان لذلك شأن في فنون الشرق وآدابه.

ولسنا نعجب إن ظهر لنا دليل على معرفة العرب بها في الزمن القديم، فلعلهم عرفوا شيئاً منها عن طريق قوافل التجارة واتصالهم بالهند، ولكن المؤكد أن بعض ما حوته الملحمة من الحكايا قد وجد طريقه إلى العربية عن طريق ابن المقفع وكتابه «كليلة ودمنة». أما إغفال ابن النديم الإشارة إليها في الفهرست، فليس دليلاً يركن إليه في الاستنتاج بجهل العرب بها. إذ لعل ذلك يرجع إلى تحرّجه من ذكرها، أو لربما عرضت له تحت عنوان غير الذي نعرفها به اليوم، أما الجهل بها فأمر يدعو للاستغراب، خاصة وأن البرامكة في بغداد عنوا بترجمة آداب الهند إلى العربية، وليس يعقل أن يكونوا جاهلين بأمرها على احتفالهم بآداب الهند وثقافتها. أما إذا كانت قد ترجمت في ذلك العهد ولم نعثر على نسخة منها فالأرجح أن يكون السبب في ذلك قلة النسخ، ثم ضياع أثرها في تلك الظروف التي جرت بعد اجتياح المغول بغداد، وإحراقهم الكتب ورميها في دجلة.

أما الإشارة الواضحة إلى المهابهاراتا فقد وردت في كتاب البيروني، عن الهند، وتناول فيها الملحمة باقتضاب شديد. على أننا لم نجد أحداً منذ عهد البيروني في القرن الخامس الهجري ينهض لترجمة هذا الأثر العقلي العظيم إلى العربية، سوى ما بلغنا عن ترجمة محدودة التداول لم يقيض لنا أن نصادفها في المكتبات، أنجزها الأديب والمترجم وديع البستاني في مطلع القرن.

وقد يكون السبب في هذا القصور إشفاق المترجم على نفسه من النهوض بعمل على هذا القدر من الضخامة وحيداً بلا معين. فالمهابهاراتا تقع في مئة ألف بيت، فهي تبلغ إذن، ثمانية أضعاف الإلياذة والأوديسة مجتمعتين، وتكاد تبلغ ضعف حجم الشاهنامة.

إننا لا نعلم على وجه اليقين التاريخ الذي وضعت فيه المهابهاراتا. ولكن المرجح من إشارات في النص أنها تعود إلى ألف سنة قبل الميلاد، وقد ترجع إلى خمسمائة سنة أخرى قبل هذا التاريخ. ومما لا ريب فيه أن الملحمة كانت في بدايتها أكثر بساطة، واقتصرت على رواية قصة آل بهاراتا والحرب التي قامت بين عشيرتين من هذه القبيلة، موشاة بعرض للعقائد الفيدية القديمة. ثم لحقت بها إضافات كثيرة في العصور اللاحقة، ومن ذلك سفر البهغفات غيتا الذي يعود إلى عصر متأخر. ومما لا ريب فيه كذلك أن النص المدوّن كان يجري تداوله في وقت مبكر مع روايات الرواة.

ولقد تضخمت تلك القصة البسيطة في حبكتها، وأضيفت إليها حكايات رمزية وأساطير، وما عرض للهند من عقائد وفلسفات وديانات، وباتت بعدئذ أشبه بالمخبر، فدخلتها عقائد الآريين بعد الفيدية، وزادت فيها البوذية والجانية إلى الهندوسية، وكان أن أتى هذا المزيج، مع دخول عقيدة البهكتي الصوفية، بعقلية توفيقية فريدة وتجربة فكرية ذات خصوصية شديدة من سعيها إلى بلوغ الانسجام بين عناصر متباينة، ومهما يكن الأمر، فقد كان أثر المهابهاراتا على الفكر الهندي، والمجتمع الهندي قوياً بل وتجاوز حدود الهند،

إلى سواها من الأمصار. ولعلنا نرى هذا الأثر في الطرق والمذاهب التي تسربت من الهيلينية. ولذلك فإن من الخطأ البالغ، كما حذرنا الفيلسوف راداكريشنان، النظر إلى المهابهاراتا كما لو كانت تحفة قديمة يختص بها ذواقة الأدب.

والحق أن ملحمتنا تنتمي إلى الفكر الفلسفي والأخلاقي بالمعنى الرفيع. فبقدر ما هي حافظة لعقائد القوم وفلسفاتهم، هي شارح عظيم أيضاً لتلك التساؤلات التي ما انقطعت تدهم الإنسان في لحظات الأزمة كلما عرضت له. ثم تصوغ ذلك كله بلغة شعرية عميقة تبرز من أعماق النفس في حالتها الأولى وهي تمضي إلى موضوعاتها مباشرة دون وسيط أو تكلف أو تصنع: الكون، الإنسان، المجتمع، الحياة، الموت.

وتقدم المهابهاراتا نفسها في هذا كله كما يصفها لنا الفيلسوف المعاصر شري أوريبندو، في بناء أشبه بعمارة المعبد الهندوسي بكتلته واحتفاله بالتفاصيل المتصلة ببعضها، فلا تجد فراغاً في الإفريز إلا وقد ستره تمثال في وضع من الأوضاع، فتذهب بالعين وتتداخل المحسوسات فيها بالرموز، في حشد عظيم لا حدود له. كذلك تتداخل فيها الأحداث وتتفسح شأن القاعات والأروقة في المعبد إذ تتصل ببعضها فتبدو في كثير من الأحوال أقرب إلى المتاهة. ومع ذلك فثمة خيط رفيع يربط بين تلك الحكايات والأساطير التي تعمر بها ملحمتنا فتزيدها متعة وغنى، وإن زاغت بها الأبصار. وهي في ذلك كله تخفي تفاصيلها المعقدة وتخدع النظر بسرٍّ هندستها المحكمة.

تلكم هي، إذن، المهابهاراتا قصد بها أصحابها أن تروي قصة الهند (بهاراتا) فإذا بها تتسع وتصبح المهابهاراتا: بهرات العظمى: أم هل نقول «الكون»؟

تصور المهابهاراتا عالماً كاملاً بكل تفاصيله، منظوراً بعين الفلسفة، في لحظة اتصال العقل في بدايته وبراءته بالكون، مأهولاً

بشخصيات ذات سمات محددة وألوان خاصة؛ يوديشترا الباحث عن العدالة في عالم ظالم، أو يحسبه كذلك، يقابله دريودانا، ابن عمه، في الطرف الآخر مناصر الحق والنظام، وهناك أرجونا المحارب الذي يتوسل بالعلم والتقنية للتدمير باسم العدالة، أو ما يحسبها عدالة، والراجا ديتراشترا، الملك الكفيف الذي يعتمد الخبرة والحكمة ولا ينقطع عن البحث عن التوازن بين المتناقضات: العدالة مقابل الحق، العلم والحكمة. وبهيشما المدافع عن النظام والقانون، ورمز التقاليد والاستمرار.

وعالم مثل عالم المهابهاراتا، واسع شاسع تكاد تضيع تخومه، لا يتحدد بالزمان الفيزيائي كما نعرفه. بل لا بد له من مقياس زمني يناسب أغراضه. فهو إذن زمن ملحمي، أسطوري، مديد مثل جغرافيا بهاراتا، فلا يقاس بالوحدات الزمنية المعهودة من الساعة واليوم والشهر والسنة، وإنما يقاس بالأحقاب. ومفهومه بيولوجي بدائي: عهد البروز (كالبا) الذي تتفتح فيه قوى الكون ويمضي في آلاف الأحقاب. ثم ينتهي إلى عهد الإنحطاط (بيرلي) الذي تخمد فيه القوى وتفنى العوالم الثلاث: الأرض، والماء، والسماء. وقد قسمت الملحمة عهد كالبا إلى أربعة عصور فرعية، أو يوكا: كريتا يوكا، عصر الكمال، ويمتد مليوناً وسبعمئة وثمانية وعشرين ألف سنة، وهو عصر الكمال والبراءة، تحكمه طبقة واحدة، بلا تقسيم للعمل أو الجنس وعمر الفرد فيه أربعة آلاف سنة، ورمزه اللون الأبيض. والعصر الثاني يسمى التريتايوكا أو العصر الثلاثي، لأن ثلاثة أرباعه خير وربعه شر، ويمتد مليوناً ومائتين وستة وتسعين ألف سنة، ويبلغ متوسط عمر الإنسان فيه ثلاثة آلاف سنة، والتناسل فيه باللمس، وهدفه المعرفة، ورمزه الأحمر. والعصر الثالث هو دفابارا يوكا، عصر المهابهاراتا، ويستمر ثمانمائة وأربعة وستين ألف عام، ويمتد العمر فيه ألف عام، والتوالد هنا بالتزاوج والتلقيح، ويتساوى فيه الخير والشر، ورمزه الأصفر. فالكالي يوكا، عصر الظلام، ورمزه الأسود، عصرنا الحالي، وهو العصر الذي

يغلب فيه الشر ويحل الدمار بالعالم لفساده، ثم يكون صلاحه، ويبدأ يوم 17 – 18 من العام 3102 قبل الميلاد. أما الكالبا يوكا فيبلغ امتداده أربعة آلاف يوكا، ويعادل يوماً واحداً من أيام برهما.

ولقد تبدو الملحمة، على ما تصوره، ملحمة موت ودمار، ولعلها تظهر متجهمة، تنبئ بنهاية العالم، ولكن هذه الصورة وهذه النبوءة لا تخلوان مع ذلك من فكاهة وسخرية.

أما سر المهابهاراتا فهو في قولها بثبات عنصر ما في الإنسان، مهما يكن اصطلاحه، فسمّه، أتمن الروح، أو النفس، أو ما شئت فهذا خالد لا يفنى، وإنما يستمر ويتتالى حتى يحقق الغرض الذي يحتويه في جوهره.

وأما راحة الإنسان فإنما تكون كما تخبرنا الملحمة، بإخلاصه لواجبه لا يحيد عنه، حسب معايير معينة، أو قل حسب وضعه بالنسبة للعالم، فالإنسان هنا ليس كرة قُذف بها في فراغ. بل إنه محكوم بشروط. فالملحمة تذهب إلى استبعاد القدر العشوائي، المجهول، أو النزوة. فمصير الإنسان يتحدد بعمله، وهو حقه الوحيد كما قال كريشنا لصاحبه أرجونا في سفر البهغفات غيتا. فإذا قام بالعمل، وكان مخلصاً له بلا أمل بثواب أو خوف من عقاب، تحققت له حريته بإرادته ووعيه.

إذن، هذه هي ملحمة المهابهاراتا الهندية، أرجو للقارئ أن يجد فيها من متعة التذوق والفكر ما وجدت.

عبد الإله الملاّح

خريف 1990 الروضة، دمشق

السفر الأول

البداية

أُومْ
الكلمةُ القُدسْ
خيرُ فاتحة، وأفضلُ الصَلاة
على ناريانا ونارا
أعظمُ المخلَّدين
وأحسنُ الدعاءِ
إلى سارَسفاتي
رَبَّةُ المعْرفَة
نسألُهم أجمعين الرُشد لنا والفلاحْ
هذي روايةُ فياسا،
أعْرفُ العارفينْ.
روايةٌ، ما انقطعَ الناسُ يُرددونها
في السموات العُلى وفوق الثرى وعلى الأديم،
رواية يعْرفُها ذو الولادتين،
ولادة الجسم وولادة الروح،

وينتفع بها ذو اللُب

حسنةُ الحبكِ،

متنوعةُ المقامات

تعرضُ للإنسان

في يأسِه وبأسِه،

ضعتِه وسموه.

أخذ الليل يرخي سدوله، وفرغ القوم من صلواتهم وطقوسهم وجلسوا على الأرض في حلقة. انتظم عقدها عند كبيرهم كوبالاباتي المسمى بشوناكا البراهمي، وخلف الجمع بدا الأشرما، المعتكف، تكاد معالمه تضيع في العتمة، وبات عندئذ كأنما هو ظل من ظلال الأشجار التي تعمر غابة نايميشا.

كان السكون يعمُّ هذا المكان الذي اتخذه شوناكا في أعماق الغابة بعيداً عن المعمورة، فلا يقطعه سوى ما يتناهى من بعيد، من عواء ذئب يبحث عن طريدة، أو جلبة يحدثها أرنب يقفز هنا وهناك في حمى الأدغال، أو نعيب بوم على غصن شجرة يتحين عشاءه من مخلوقات الغابة. ولم يكن ضوء القمر يبدد الكثير من عتمة الليل، ولا كانت النار الموقدة في وسط الساحة تزيد المكان نوراً.

ولئن كان القوم قد ألفوا هذا المجمع في كل مساء، فإن اجتماعهم في تلك الأمسية بدا على غير ما ألفوه في كل ليلة. فعهدك بهم يتنادون، ويجتمعون إلى بعضهم، فيتداولون - بين محدث ومستمع - تجاربهم الروحية، ويخوضون في قضايا النفس وأحوالها، أو البعث والحلول، أو تراهم يتجادلون في طبيعة برهما، العلة الأولى، أو يتلون مقاطع من أسفار الفيدا، أو يُرجِّعون ما ترويه أسفار البورانا، أو التواريخ القديمة، عن خلق الكون ودماره، وتعاقب سلالات الآلهة، والأئمة السلف من البراهمة.

أما في ذلك المساء، فقد وجدت الصمت يرين على المكان،

والقوم ينتظرون قدوم ذلك الغريب الذي حل بينهم، قبل أيام، يفيد مما يفيد منه الجوالة عادة من مقام، وضيافة. وكان هذا الغريب خفيف الوطأة لم يعهد منه القوم ما يفسد عليهم خلوتهم واعتكافهم، إذ كان يؤثر الانتجاع في مكان قصي عنهم، منقطعاً إلى التأمل، منصرفاً بفكره إلى ما كان يشغله، تاركاً هذا الجمع من الزهاد في مشاغلهم، وكأنما الرجل عارف بأساليب أمثالهم من الذين كرسوا حياتهم لطلب المعرفة، وامتلاك الحكمة.

لكن ها هي أيام العدة قد انقضت، ونال هذا الغريب نصيبه من الراحة بعد عناء السفر، وبات عليه أن يعرِّف بنفسه ومقصده، كما جرت العادة، وقال به الأولون.

جلس الغريب يتوسط الدائرة، إلى اليمين من الحكيم شوناكا، فتطلع إليه القوم، وكان في نظرتهم ما ينبئ بفضول طغى عليه تهذيب ظاهر، إلا شيخهم فقد آثر الصمت، وبقي على حاله من الإطراق، حتى إذا جلس الرجل واستراح، التفت إليه فالتقطت عيناه صورته، فتبين له رجلاً معتدل القامة، لا هو بالضخم البدين، ولا هو بالضامر الهزيل، وإن غلب عليه شيء من النحول، وأما ملامحه الدقيقة فتنبئ عن محتد سام، وتخفي قوة داخلية تفصح عن نفسها بنظرات هادئة ثابتة تنبعث من عينيه السوداوين العميقتين. وكان يزيده بهاء ومهابة ذلك الإزار الأبيض الذي انسدل على إحدى كتفيه، ولف جذعه، فبرز لون بشرته السمراء التي لوحتها شمس الصيف.

بادره حكيم القوم شوناكا محيياً مرحباً بأدب ظاهر: «ليعذرنا السيد السري إن بدا منا تقصير في واجب، أو ظهر له إهمال، أو إعراض، فما قصدنا إلا أن نوفر له وقتاً لينفض عنه تعب السفر، ثم يكون لنا معاً حديث يخبرنا فيه عما يشاء من أمره أو يمسك إن شاء».

ردَّ الغريب بلهجة هادئة: «أنعم به من كرم يليق بأهله الأفاضل! وإذا شئتم أن تعلموا شيئاً من أمري فإني ههنا محدثكم:

«أنا شوتي الراوي، ابن لومارهارشانا، وقد كنت في طريقي عائداً من جولة قصدت فيها أرض كروكشيترا حيث دارت تلك المعركة الرهيبة بين آل باندو، وأبناء عمومتهم آل قوروش وقد حججت إلى تلك الأرض الطيبة بعدما سمعت رواية ملحمة الحرب على لسان فيسامبايانا يرويها الملك الصالح الزاهد جاناميجيا ولد الملك العظيم باركشيت بعد طقوس السنوات الاثنتي عشرة، بعدما سمعها من فياسا مصنف أسفار الفيدا ذاته.

إن هذه لملحمة عظيمة عرفتها الأقوام بالمهابهاراتا، وهي من العظمة ما جعل نارادا يرويها للديفا، وشوكا يلقنها للغانديرفا، والراكشا والياكشا.

أما الناس فقد بلغتهم من كبير حواريي فياسا الذي عرفتموه باسم فيسامبايانا.

وإذا شئتم، يا أهل الولادتين، رويتها لكم كما سمعتها من فيسامبايانا في قصر جاناميجيا لتعم فائدتها الإنسانية قاطبة.

سرت همهمة بين جمع البراهمة تنطق بالحماس لهذا الاقتراح، ولكنهم تركوا لحكيمهم شوناكا أن يعبر عن رغبتهم في سماع الرواية فالتفت إليه يهز رأسه قائلاً:

«لقد طالعنا الأخبار في أسفار البورانا أول الأسفار بعدما بلغتنا عن الحكيم العظيم دوايبايانا، وفتنّا بها لتنوع موضوعاتها وحسن سبكها وإحكام منطقها فلا يعلو عليها سفر، ونهلنا أشياء من أسفار الفيدا الأربعة المقدسة. وليس يحلو لنا الآن أكثر من أن نصيب معرفة من كتاب التاريخ الذي يعرف باسم المهابهاراتا أيضاً.

وقد علمنا أن فياسا وضع هذا التاريخ ليبدد الخوف من الشر في صدور الناس، كما تحققنا أن الحكيم فيسامبايانا قد سمعه من دوايبايانا ذاته أثناء تقديم القرابين التي أقامها الملك جاناميجيا للأفعى المقدسة».

قال شوتي الرواي: «إذن، فاسمعوا هذا التاريخ الذي بلغني من فيسامبايانا ذاته:

بعدما أحكم فياسا نظم قصيدته، شرع يفكر ويقلب الأمر على كل وجه، ولكنه كان كلما أمعن في التفكير ازداد حيرة، فلا يدري كيف يتدبر القالب الذي يناسب هذه القصيدة، لتبلغ البشرية وتعم الفائدة مما عرفه، وكان شاهداً عليه، وخبيراً. فلما ازدادت حيرته وعجز عن تدبر الأمر، توجه بفكره إلى الآلهة يسألها العون فيما اعتزم. وكان أن تجلى أمامه برهما فأخذ بجلال المشهد والمفاجأة، فوقف في مكانه، عاقداً ذراعيه حول كتفيه، لا يبدر منه سوى الوجل، حتى أشار له كبير الآلهة بأن يجلس، ويهدئ من روعه، سأله برهما عما يشغل فكره. فخاطبه قائلاً: أي برهما! لقد اكتملت عندي قصيدة، ما انقطعت تلحُّ علي، وتعرض ما كان من أمر الماضي، وتبسط ما يجري في زماننا، وترسم ما سوف يكون المستقبل، رواية تحكي ما يعصف بالبشرية من الانحطاط، والتفسخ، والموت، وتصور الوباء، والرعب. كذلك وصفت فيها مراتب المجتمع الأربع، وذكرت للزاهد أصول رياضة النفس، وحددت أبعاد الكواكب، والنجوم، وقد جهدت أن تحتوي تلخيصاً لأسفار الفيدا وشروحاً للفلسفات، وتعداداً للجبال، والأنهار، والمحيطات، ووصفاً للمناسك، والمدن الساحرة، وما احتوت الدنيا من العروق، واللغات على اختلافها. وإنك لواجد فيها أصول فن الحرب، وتدريباً على قواعد السلوك، والحكم، والسلطان، ولقد أردت أن تكون هذه القصيدة مستودعاً لكل المعارف والعلوم، وسجلاً للأحداث. بيد أني لم أعثر على من هو جدير بأن أملي عليه هذه الرواية!

قال برهما: «إني منبئك أن هذه قصيدة لن يأت بمثلها أحد ولسوف تُخلد إلى الأبد، ويردد أبياتها الناس جيلاً بعد جيل، على مر العصور. فاقصد غانيشا وأملها عليه. وإذ قال برهما هذا اختفى للتو من أمام ناظريه.

جلس فياسا متربعاً، ثم شحذ طاقة ذهنه ما وسعه، حتى استحضر غانيشا ذا وجه الفيل، مفرّج الكروب، ومزيل العقبات، ومحقق الأماني والرغبات.

بادره فياسا قائلاً: «أعرني سمعك! فلسوف أملي عليك ملحمة تفتق عنها الخيال، ورويت فيها قصة أمة، البهاراتا!».

ردَّ غانيشا: «وإني مجيب طلبك، شرط ألا تتوقف عن الإملاء، حتى لا ينقطع سيلان القلم بين أصابعي!».

وردَّ الحكيم فياسا بدوره: «وهذا ما سيكون، طالما كنت تستوعب ما أمليه عليك».

تهيأ غانيشا للكتابة فجلس متربعاً على الأرض، ونطق بكلمة «أوم»، ثم أخذ القلم، وشرع يدون ما كان يلقيه فياسا. فسمع منه أعمق الأقوال بأسلس عبارة، وأحسن بيان، بعبارات متدفقة لا تنقطع إلا حين يمسك عن التدوين ليلتقط معنى غاب عنه، أو ليتدبر جملة أشكل عليه أمرها، أو مقصداً فاته. فكان فياسا يستريح عندئذ ليزيد روايته متانة، وإحكاماً. ومازال هذا دأبه، تتدفق الرواية. على لسانه تدفق النهر العارم، حتى استهلك غانيشا قلمه، فانتزع أحد نابيه ليلحق بالرواي.

قال فياسا: كان الحكيم الزاهد برشارا يطوف البلاد قاصداً العتبات المقدسة، وبلغ في ترحاله بقعة أخذت تتسرب عندها إلى أنفه رائحة نفاذة، فمضى يستقصي مصدرها، ومازال يسعى في أثر هذه الرائحة، حتى إذا صارت في أشد زخمها، صادف ابنة كبير الصيادين في ذلك الصقع النائي، وعلم منها أن اسمها ستيافاتي ووجد الفتاة تصلح قارب أبيها. فاقترب منها حتى تأكد أنها مصدر هذا العبق من الرائحة.

كانت الفتاة مليحة القسمات، جميلة الوجه، ذات قوام فتّان، فاضطرمت الرغبة في أعماقه واستبدت به.

فراودها عن نفسها: «يابنة السحر، لقد فتنت بك، وطغى علي الوجد، أفلا تقبلين بي لأودعك حبي وشوقي».

هلعت الفتاة إذ وجدت هذا الشيخ المهيب يبرز أمامها، كأنما ولج إليها من أبواب الغيب ويخاطبها بما لاتقوى العذارى على سماعه، فقاطعته بصوت متحشرج به أثر من الذعر، قائلة: كيف يكون ذلك، أيها الشيخ، ومازلت عذراء في طاعة أبي، ولم يمسسني بشر، ولم أعرف المعصية من قبل!».

ردّ الشيخ، وكأن كلماتها وقعت على أذن صماء: «هيا، يا فتاة! فليس في هذا زلل، أو معصية معي، وأنا الشيخ الزاهد، هيا يا فتاة، فلقاؤنا لقاء الأقدار!».

لم تزد كلمات الشيخ الفتاة إلا خوفاً واضطراباً، وكأنما هي خطر يهدد هذه الحياة الهانئة الوادعة التي تعيش، وأخذت العبارات تتدفق منها مفصحة عن الوجل في أعماقها: «ويلي! أي مصير ينتظرني بعدما يتم لك مبتغاك؟ وماذا سيكون حالي بعد هذا وأنا في بيت والدي؟ يا لفضيحتي! ويا لعاري بعد هذا اليوم!».

قال الشيخ مقاطعاً: «هيا، أقدمي، ولا تترددي أمام قدرك! هيا، يا فتاة، فلن يمسسك سوء، ولن ينالك ضير!».

تضرجت وجنتاها بحمرة الخجل، وتابعت عباراتها، لا يخفف من وطأة الوجل ما سمعت من ذلك الشيخ من عبارات بدرت وكأنما قصد بها أن تهدئ من روعها: «ويلي! ويلي! كيف يخفى الأمر بعد هذا، والناس شهود من حولنا على هذا الذي تبغي!».

فَرَدَ الشيخ ذراعيه، فثار ضباب عظيم لفهما معاً، وإذ تلاشى عاد كل إلى حاله، وكأن أمراً لم يقع. ولكن ذلك ما كان ليخفف من اضطراب الفتاة ستيافاتي، وأخذت الأفكار تتناهبها من كل طرف، ولا تدري ما سيكون حالها بعد اليوم.

قال الشيخ وقد لحظ اضطرابها: «لابأس عليك، يا فتاة! فأنت مازلت على العفة، لم يمسسك سوء وحسبك هذا من الأمر!».

في ذلك اليوم المشهود، وضعت ستيافاتي في تلك الجزيرة الواقعة في منتصف نهر يامونا، طفلاً معجزة لم تلد النساء مثله من قبل! نطق الطفل أول ما أطل على العالم معلناً أنه يتخذ الزهد، منذ تلك اللحظة، طريقاً في الحياة، ثم ما أن أتم عباراته حتى نهض مغادراً، وهو يقول لأمه: «أي أم، إن احتجت لي في أمر، فحسبك أن تستدعيني بخاطرك، فأمثل أمامك في التو واللحظة!».

وعرف هذا الفتى منذ ذلك الحين باسم دوايبايانا، أي مولود الجزيرة، ونشأ على الفضيلة حتى تردد صدى اسمه عبر العصور، ثم قام على جمع الأسفار المقدسة لتفيد منها الإنسانية كلما داهمتها داهمة كحالها في كل عصر، وعرف لذلك باسم فياسا، أي جامع الأسفار.

* * *

نشأ ملك القوروش، براتيبا، على المعاناة فحملته تجاربه على اتخاذ طريق الزهد، ورياضة النفس. وهكذا أمضى سنين طوالاً مستغرقاً في التأمل على ضفاف نهر الغانج، حتى إذا كان ذات يوم تجلت أمامه إلهة النهر غانجا على هيئة فتاة أبدع الله جمالها، ولكن ذلك الحسن ما كان ليؤثر في براتيبا، بل استمر في تأمل عميق لا يقطعه انفعال أو إحساس. وعندئذ تقدمت منه غانجا وجلست على فخذه الأيمن، القوي الصلب كجذع شجرة الجوز، عندئذ اهتز براتيبا قليلاً ونظر إليها قائلاً: «ماذا تبغين، يا فتاة؟».

أجابت: «أبغيك زوجاً لي. ولا مهرب لك من ذلك، لأن الدارما، الشريعة، تمنع رفض الحرة إن أقبلت على رجل، والعقلاء من الناس لا يقرون هذا الإعراض!».

«ولكنني نذرت نفسي لأمر، ولست بالذي يحنث بقسمه. لقد قطعت على نفسي ألا أشتهي نساء الآخرين، أو أتزوج من غير بنات مرتبتي!».

صاحت غانجا منفعلة: «عجباً أيها الرجل أتراني قبيحة لتعرض هكذا عني؟ أم تراك تظن بي الظنون؟ هيا خذني زوجاً وتمتع بي، أنا التي تجري في عروقها أسمى الدماء! لقد أردتك زوجاً لي، فلا تشح عني».

«لقد أخبرتك بأمري، واعلمي بعد أني ميت لا محالة إن حنثت بما أقسمت عليك. إنك لذات جمال باهر لا يملك رجل أن يخطئه. على أنك اقتعدت فخذي اليمنى، وهو مكان البنت أو الكنة، أما الزوجة فلها اليسرى، فلا إلزام في هذا، ولاحنث بقسم، فكوني لي كنة، إن شئت، لأقدم لك ابني فيكون زوجك حين تلده أمه».

فكرت غانجا ملياً ثم قالت: «لابأس، طالما أن هذا شأنك. ولسوف تتشرف بي سلالة البهاراتا، حين يعقد علي ولدك، فعندئذ ستصيب من الأمجاد والفخار ما لاحد له ولا حصر، ولكن اعلم يا من ستكون لي حماً أن ليس لابنك حين يتزوج بي أن يعارضني في أمر، مهما يكن. ولسوف أكون له الزوج الصالحة، وأعرض له من السعادة ألواناً وأنجب له من الأبناء الكثيرين. بيد أني سأبقى حرة أتصرف كما يشاء لي الهوى، فليس لابنك الذي سيغدو لي زوجاً أن يقيدني بقيد، بأي حال من الأحوال».

قالت غانجا ذلك، ثم اختفت من أمام ناظريه. توالت الأيام، والسنون حتى بلغ الملك براتيبا من العمر عتياً، وهو في ملكه. في هاستينبورا، حتى كان ذات يوم، فولدت له زوجه الملكة العجوز طفلاً أسمياه شنتانو، أي الصالح، فنذراه ليرسي «الدارما» بين الناس. فيكسب بعمله الصالح مكاناً في الجنة.

شب شنتانو فتى حصيفاً أريباً، باهر الذكاء، شديد العزيمة، قوي البدن، كما لو كان الإله إندرا مجسداً على الأرض، فكان يمضي جلَّ وقته في الصيد، ثم يأتي في نهاية اليوم حاملاً فرائسه من الغزلان، والجواميس. وفيما كان يمضي ذات يوم، على ضفة نهر الغانج صادفته فتاة ذات جمال أخاذ، فسحر بما رأى من جمال

وجهها ودقة قسماتها، وتألق عينيها كزهرة اللوتس، وروعة أسنانها البيضاء كاللؤلؤ المنضود، ووقف يتأمل بهاء طلعتها، وظل ينهل من فتنة جمالها حتى ثمل بخمر جمالها الخلّاب، فلم يستطع أن يحيد بنظره عن مشهدها الساحر.

تقدم منها وخاطبها بلهجة رقيقة: «من أنت، أيتها الجميلة الرائعة؟ أتراك إلهة من الآلهة تجلت على هذه الأرض؟ أم لعلك مخلوقاً من تلك المخلوقات الإلهية التي تتبع كوفيرا، إله الغنى والثراء؟ أم لعلك من الأسورا الجنيات؟ أم من الناغا الأسطوريات؟ الحق أني لن أطيق البعد عنك بعد أن عرفت هذا الجمال الخارق. فهلا قبلت بي زوجاً، كائنة من تكونين، أيتها الحورية الرائعة؟».

وقعت كلماته الحلوة الرقيقة في قلبها أحسن موقع، فافتر ثغرها عن ابتسامة اكتمل بها سحر جمالها؟

«إني أقبل الزواج بك، والعيش إلى جانبك. ولكن لي شرطاً، هو ألا توجه إلي كلمة جارحة، وألا تتدخل في أمر يعرض لك مني، فإن أتيت يوماً بعبارة تؤذي مشاعري هجرتك في ذلك اليوم وتلك اللحظة، فإن قبلت بشرطي كنت لك الزوج كما ترغب!».

وكان أن قبل شنتانو هذا الشرط، فعقد عليها وعاشا معاً في سعادة وهناء. وكانت تبذل لإسعاده ما وسعها، وتعرض له من جمالها لينهل منه، ويقبل عليه ما طابت له نفسه. وكانت إذا وجدته قد خلد إلى الاسترخاء تعمد إلى آلات الطرب تعزف له الألحان الساحرة فتثير فيه أعمق النشوة، ثم تغني فيفتن، وتنهض فتدور وتنثني بجسمها اللدن فتحرك معها أشواقه، وهكذا مضت الأيام، والزوجان العاشقان يرشفان من كأس المتعة، لحظة فلحظة.

وفيما كان الزوجان غارقين في سعادتهما منهمكين في هنائهما ولد لهما ثمانية أطفال، كلٌّ آية من آيات الحسن والجمال، ولكن ما أن كانت الأم تضع مولودها حتى تحمله وترمي به في نهر الغانج. ثم تعود فتهدئ من روع زوجها المكلوم بقولها إنما فعلت

ما فعلت لصالحه فيسكن ويهدأ، فلما وضعت مولودها الثامن، خشي الرجل أن تلحقه الأم بمن سبقه من الأخوة، فاعترضها منفجراً بقوله «كلا ولن أسمح لك بقتل هذا الطفل أيضاً! فأي أم هذه التي ترمي بأولادها واحداً بعد الآخر ليموتوا في النهر؟ وأي فعل فظيع هذا الذي تقدمين عليه، وتبدين، بعد، وكأن ضميرك هانئ؟ أم لعلك قد فقدت كل إحساس، أو عاطفة! فمن أنت؟ وما شأنك يا امرأة؟».

«قد أمرت، وأمرك مطاع، ولسوف أبقي على هذا الطفل، طالما كانت هذه مشيئتك! ولكنك أخللت بالشرط. ولذلك فإني هاجرتك، منذ هذه اللحظة. أما وقد سألتني عن حالي فلك أن تعلم أني غانجا بنة جانو. وما هؤلاء الأطفال إلا مخلوقات سماوية، لا تقدر على حملها أمرأة سواي. وقد حلت عليهم اللعنة بأن يولدوا على هيئة بشر في هذا العالم، وقد بوركت بأن كنت لهم الأب. ولم يعد لي بعد أن وهبتك هذا الابن الأخير سوى مغادرتك. وإذا شئت له اسماً فادعه غانجاداتا، هبة الغانج».

قالت هذا، واختفت حاملة الطفل معها، تاركة شنتانو في غم، وحزن عظيمين، وظل الرجل يقوم على رعاية مملكته ورعاياه فلا يدع قلبه المكلوم، وفداحة الخطب، يطغيان على شؤون الحكم وعرف في عهده بصدق الكلام، وعفة اللسان، والجد في العمل، وأما رعاياه فكانوا يستلهمون في أخلاقهم سنة الدارما، والعمل الصالح. واستمر شنتانو على هذه الحال يحكم بالعدل بين الناس، طوال ست وثلاثين سنة، أمضاها محبوباً من الشعب، مهاب الجانب، حتى شاء أخيراً، أن يعتكف في الغابة ردحاً من الزمن منقطعاً للتأمل والعبادة.

وذات يوم، وفيما كان يطارد غزالاً أفلت منه، لاحظ مياه الغانج قريبة الغور بجانبه، وكان عهده به يجري متدفقاً من قبل.

فاستولت عليه الحيرة لهذا الأمر فجلس بالقرب من المكان يتساءل عما أصاب النهر المقدس في ذلك اليوم. وفجأة برز له من بين الأمواج فتى يتمنطق بأسلحة خارقة لم ير بين الناس أحداً يحمل

مثلها. ولم يدر شنتانو أن هذا الذي انتصب أمامه هو ابنه الذي غادرت به أمه بعد دقائق من ولادته. ومع ذلك فقد عرف الفتى أباه لحظة أن وقعت عليه عيناه، ولكنه لم يبق حتى يتم اللقاء، وإنما آثر الاختفاء عن ناظري الأب بقوة قدراته الإلهية.

أثار هذا المشهد في شنتانو أشد الشجون، وثار في أعماقه الحنين لرؤية ولده. ووقف على ضفة النهر وصاح منادياً: «أي غانجا! أظهري لي ابني!».

وللتو ظهرت غانجا تقود بيدها الفتى يرفل بأجمل هندام وأعظم حلية. قالت له مبادرة: «هاك ابنك الثامن. قد رعيته، وبذلت في تنشئته حتى أصبح عارفاً بأسفار الفيدا المقدسة، بارعاً في استعمال الأسلحة كلها، فإذا حمل القوس وجدته مجلياً في المعركة شأن الإله إندرا ذاته، وهو عارف فوق هذا وذاك، بأصول الحكم، وواجبات الملك».

فرح شنتانو بلقاء ابنه بعدما فقد كل رجاء بعودته، فحمله معه إلى عاصمة ملكه، وأعلنه ولياً للعهد، ليرث الحكم من بعده.

مضت سنوات أربع، والملك شنتانو في أهنأ حال وابنه إلى جانبه، فانقطع لممارسة هواياته المحببة، والاستمتاع بملذات الحياة. وفيما كان يتجول ذات يوم في الغابة بالقرب من نهر يامونا اجتذبه أريج عطر أخاذ تملّكه وسيطر على حواسه. فمضى يقتفي أثره حتى بلغ بقعة من الغابة كان ينبعث منها هذا الأريج، وهناك وقع نظره على فتاة ساحرة الجمال، ذات عينين سوداوين لم ير لهما نظيراً بين كل من عرف من الفاتنات. ولم تكن هذه إلا ستيافاتي.

ابتدرها سائلاً: «من أنت، يا فتاة؟ وما الذي جاء بك إلى هذه البقعة النائية؟».

أجابته: «إني ابنة كبير الصيادين، وأعمل في نقل الناس من ضفة إلى أخرى، فأستجلب الدعوات الصالحة لأبي».

أثار الأريج المنبعث من الفتاة وجمالها الأخاذ، الوجد في قلب شنتانو، ولم يقوَ على مقاومته، فما كان منه إلا أن عرض عليها الزواج. فأشارت عليه بأن يسأل أباها. وهكذا مضى إلى والدها، كما شاءت، ليطلب موافقته على الزواج.

وإذ عرض عليه الملك أمر الزواج، قال الصياد: «الزواج هو مآل كل فتاة. وما ابنتي إلا واحدة من الفتيات، وحري بمن كان لها مثل هذا الجمال والحسن أن تجتذب الخاطبين. ولسوف أقبل بك زوجاً لها، إن قطعت لي وعداً، فلا تعرض عني وأنت خير من أبتغيه زوجاً لابنتي!».

«وكيف أقطع لك وعداً لا أعرف كنهه. فاعرض أمرك، وعندئذ أنظر فيه، فلست بمن يعد بأمر هو به جاهل».

«أسألك أمراً واحداً، يا مولاي، ولا شيء سواه، وهو أن تجعل من تلده لك، وليس سواه، ولياً لعهدك».

قفل شنتانو عائداً إلى هاستنبورا، مثقل العقل والقلب بالهم والغم، وأمضى أياماً في الوحدة والتفكير، تتوارد إلى مخيلته، بلا انقطاع، صورة تلك الفتاة التي غدت تستبد بقلبه وعقله، ولقد لاحظ غانجاداتا هذا الهم الذي داهم أباه، ولكنه لم يشأ أن يتطفل على ما كان يشغل فكره، حتى صادفه ذات يوم ووجده على تلك الحال من الحزن، فلم يملك عندئذ سوى أن يفاتحه في أمره: «أي أبت، إنك الملك الذي يرهب سطوته المتسلطون. ومجدك في علو، وعهدك عهد رخاء واستقرار. فما الذي يكدر صفوك، يا سيدي ومولاي؟».

«لقد حل بي السقم والكدر، يا بني، ولن أكتمك سراً، وأنت ابني الوحيد، والحبيب إلى نفسي. إيه يا بني، إن الحياة حافلة بالمجهول، ولسنا ندري ما تخبئه لنا. تروَّ، يا بني، ولا تسيء فهم قصدي! فلست أقصد أنني سأتزوج من جديد. فأنا أعلم أنك ستحيا حياة مديدة، ولسوف تتزوج وتزيد في سلالتنا. ولكن القول قد جرى أن من له ولد واحد كان أشبه بمن لا ولد له إطلاقاً. كذلك أعلم أن

السماء قد باركتني بأن رزقت بك. ثم هاك وقد أصبحت جندياً عظيماً، أبداً مستعداً لخوض الحرب والطعان. فقد تدخل معركة يائسة، فيبادرك أحدهم بطعنة سيف، أو يصيبك بسهم، فتخسر حياتك. فأي مصير سوى الانقراض ينتظر سلالتنا، لو قدّر لي أن أفقدك أو داهمني الموت؟».

«أدرك غانجاداتا، وهو الفتى الذكي الأريب، مقصد أبيه، ولكنه لم يتمكن من معرفة حقيقة حيرته. فمضى الفتى إلى كبير الوزراء العارف بخفايا الأمور يسأله حقيقة الأمر، فأطلعه الشيخ على الشرط الذي اشترطه الصياد على الملك ليقبل بزواجه من ابنته، وإذ عرف الأمر على جليته، جهز قافلة من كبار القصر، وأركان البلاد، وسار بهم إلى حيث يقيم الصياد.

لم يبدد غانجاداتا أي وقت في المقدمات، فعرّف الرجل بنفسه وأخبره بمقصده: «ألا فاسمع الآن، أيها الصياد، هذا القسم الذي لم ينطق به إنسان من قبل، ولن يسمع مثله كائن من بعد! أقسم لك بأني لن أطلب الملك لنفسي، إن قضى والدي، ولسوف أنصّب من تلده ابنتك ملكاً على العرش، وله مني كل الولاء!».

ولكن الصياد شاء أن يزيد الأمر جلاء، بعدما سمع غانجاداتا يتنازل عن ولاية العهد، فرد عليه: ـ «أي غانجاداتا، إن صدقك وفضيلتك مشهودان في أرجاء العالم كله. ولا ريب في أنك ستلتزم بهذا العهد الذي قطعته على نفسك، فكيف لي أن أشكك في صدق عهدك؟ ذلك أمر ما كنت لأقبله لنفسي. ولكن لئن صدق وعدك الذي قطعت على نفسك، هل لي أن أطمئن إلى التزام أبنائك من بعدك بهذا العهد، أيضاً؟ اعذرني يا مولاي إن بدا من قولي ما يوحي بالشك، فأنا، بعد أب يحتم عليّ الواجب أن أرعى مصلحة ابنتي».

ـ «إذن، فاسمعني، يا كبير الصيادين! لقد تنازلت أمامك قبل دقائق عن حقي في العرش. وها أنا أقطع عهداً أمام هذا الجمع من رجال البلاد وكبارهم بألا أعقد على امرأة قط. فحسبي السماء من هذا العالم، فلا أنجب ولداً منذ هذه اللحظة».

طار لب الصياد من شدة الفرح لما سمع من غانجاداتا، وقال: «وها أنا أعطي ابنتي زوجاً للملك!».

وإذ ذاك تردد صدى هذا الحديث في أقاصي السماء والأرض، فكان يوماً مشهوداً لم يعرف العالم مثله، فأخذ الآلهة، والأبسارا الحوريات تنثر الورود والأزهار على رأس غانجاداتا، وصدحت أصوات الحكماء في السماء بالتهليل للتضحية التي لم يعرف العالم لها مثيلاً. وبلغ التأثر بمحفل الآلهة والحكماء والحوريات ما جعلهم يخلعون عليه لقباً ما انقطعت الإنسانية تذكره، فعرف منذ تلك اللحظة بـ «بهيشما» أي صاحب النذر العظيم.

التفت بهيشما إلى ابنة الصياد قائلاً: «هيا، يا أم، إلى العربة لنبلغ الملك في القصر!».

وإذ بلغ شنتانو العهد الذي قطعه بهيشما على نفسه، سر لما بدر من ابنه من البرّ بأبيه وعظم تضحيته، وغلب عليه التأثر فقال له: «لسوف تنال أحسن الجزاء، يا بني، فلا يأتيك الموت ما دمت راغباً في الحياة وإلى أن تشاء!».

وكان من هذا الزواج أن ولدت ستيافاتي لشنتانو ولدين، أحدهما تشيترانغادا، فكان فتى تجلت فيه علامات الشجاعة والذكاء، والآخر فيتشيترافيريا وعرف بمهارته في استعمال القوس والنشاب. وما هو إلا عهد حتى قضى شنتانو ورحل عن العالم، فقام بهيشما بتنصيب تشيترانغادا خليفة للملك الراحل.

ولقد سولت لملك قبائل الغانديرفا نفسه، وكان اسمه تشيترانغادا أيضاً، أن يستغل فرصة رحيل الملك المجرب شنتانو، وانتقال المُلك إلى ابنه الفتى الغر، بأن يستدرجه إلى معركة لا قبل له بها، فيهزمه ويضم ملكه إليه، وكان أن نشبت بين المملكتين حرب ضروس دامت ثلاثة أعوام، لم تضع أوزارها حتى تمكن ملك الغانديرفا من قتل غريمه الملك تشيترانغادا في موقعة كبيرة على ضفاف نهر السراسفاتي. ولكن بهيشما أسرع يتدبر الموقف

بالوصاية على ولي العهد فيتشيترافيريا، بطلب من الأم ستيافاتي، حتى يبلغ السن لتولي العرش، وحمل صولجان الحكم.

ولما بلغ الفتى فيتشيترا فيريا سن الحلم سعى أخوه بهيشما ليزوجه من فتاة ذات حسب ونسب وجمال وأدب. فبلغه أن بنات ملك فارناسي يعتزمن إقامة حفل جرياً على العادة ليخترن من يناسبهن من كرام الحضور أزواجاً. فأسرع إلى المدينة فوجدها تغص بالأباطرة والملوك الذين قدموا من أطراف الأرض، كل يمني النفس بأن يقع عليه خيار واحدة من الأميرات الثلاث اللواتي طبقت شهرتهن أرجاء العالم كله، حتى غدون مطلب كل ملك عظيم أو فاتح كبير.

جلس بهيشما في ساحة المدينة يسمع بين الحضور أسماء الخاطبين من الأباطرة، والملوك، والأمراء، والأبطال الذين شاعت أسماؤهم وطبقت الآفاق، فيتردد صدى تلك الأسماء في جوانب المدينة، والأطراف، ولكن بهيشما لم يشأ الانتظار حتى انتهاء المباراة التقليدية، بل نهض من موقعه، ومشى إلى حيث الأميرات الثلاث فحملهن إلى عربته قسراً بين دهشة الجمع ووجومهم لهذه الجرأة وكأنما لا يصدقون ما تراه أعينهم.

التفت بهيشما عندئذ إلى القوم، وقد استبد بهم الغضب، مخاطباً: «ألا فاسمعوا يا قوم ما قالت به الحكماء.. تُقدَّم الفتاة إلى الخاطب الشريف مجهزة حاملة صداقها الكبير بما يناسب مكانة أهلها. كما بلغنا عن أولئك الحكماء أن من الأهل من يمنح الفتاة مقايضة بعدد من الأبقار. وهناك من الفتيات من يقدمن قرابين، أو وفاء لنذر. وقد يؤثر الملك أن يُخطب من الفتاة، أما الحكيم فيؤثر أن تؤخذ الفتاة عنوة من بين جمع من الملوك. ولذلك فها إني آخذ الفتيات الثلاث عنوة من بينكم. فإن شئتم اعترضتموني وأخذتموهن مني قسراً، إن كنتم تجرؤون!».

هرع بهيشما وانطلق بعربته والفتيات الثلاث غير مبال بثورة الملوك والأبطال وتهديدهم ووعيدهم، وهم يمضون إلى أقواسهم

ليمطروه بآلاف السهام فترتد عن درعه، كأنما يأمرها بأن تعود إلى مصدرها. فدب الذعر عندئذ بين ذلك الجمع الكبير من الملوك والأبطال، بينما مضى بصيده إلى هاستينبورا لا يلوي على شيء.

وكان أن أسرع إلى اللحاق به واعتراضه المحارب المقدام شالفا، فناوره وكاد يقطع الطريق عليه، وهو يصيح أن قف، والحفل شهود على جرأة هذا المقاتل الشجاع.

فصاح بهيشما بسائق عربته أن عليك به ولسوف أصرعه كما يقتل طائر الغارودا الأفعى!».

فحوّل السائق العربة نحو شالفا، فلما تقاربت العربتان، بادر بهيشما سائق عربة غريمه بضربة من سيفه البتار، فأطاح برأسه واحتزه من العنق، فتدحرج على الأرض، والناس أمامه شهود صامتون، لا يدرون كيف يتدبرون أمر هذا المقاتل الذي حل عليهم كالعاصفة الهوجاء. وأما شالفا فقد تركه بهيشما وشأنه وهو في حال من الذلِّ شديد، ولما رأى القوم ما صار إليه شالفا من البؤس تفرق حشدهم، وشيئاً فشيئاً زالت معالم احتفال الخطوبة.

ولما بلغ بهيشما هاستينبورا أسرع بالفتيات الثلاث إلى فيتشيرافيريا، وقدمهن إليه بكل التقدير والكياسة كما لو كن من حريمه الخاص، فأمر للتو بالإعداد لمراسم الزواج، وتعهد وستيافاتي بكل التفاصيل والدقائق حتى يجري العرس كما لم تشهد مثله الأقوام من قبل.

وفيما كان القوم منشغلين بالاستعداد لليوم المشهود، جاءت كبرى الأخوات أمبا إلى بهيشما وابتدرته تشكو أمرها: «ناشدتك أن سمعتني! إن قلبي معلق بشالفا، وأبي يعرف هذا، وقد وافق على زواجي منه. ولقد عقدت عليه في خاطري لولا أنك اعترضت طريقي وحلْتَ بيني وما أرغب. والآن هل خليت عن هذه الحرة بعدما عرفت حقيقة أمرها لتعود إلى من كاد أن يكون زوجها، لولا أن تدخلت في الأمر، وكنت الحائل دون بلوغها مرامها!».

وما كان بهيشما بالرجل الذي يرضى لنفسه أن يقسر امرأة على ما لاترغب، فأطلقها وتركها لتعود إلى شالفا الذي آثرته زوجاً، واختارته على عادة بنات الشتريا، الملوك المحاربين، ثم التفت إلى الأختين أمبيكا وأمبيليكا، وقام على زواجهما من فيتشيرافيريا على أحسن ما يكون عليه الأمر. وكانت الأختان على قدر عظيم من الجمال، ممشوقتا القوام، تزيّنهما بشرة بلون التبر، وصدر عامر وأرداف ممتلئة حسنة الاستدارة، فكان أن أقبل فيتشيرافيريا ينهل من الملذات منهما طوال سبع سنوات من زهرة عمره حتى أصابه الإنهاك من فرط الشبق، ولم ينفع في ثنيه عما هو فيه نصيحة صديق أو قريب، فظل على حاله هذا إلى أن ذوى ثم أفل، تاركاً أمه ستيافاتي، وبهيشما في حزن وهم.

أما أمبا فإنها حين أطلقها بهيشما، أسرعت إلى شالفا تزف إليه بشرى عودتها فتاة حرة، لتكون زوجاً له. ولكن شالفا أشاح عنها، وذكرها بأنه حين خسرها أمام بهيشما لم يعد له أن يعقد عليها، لأنها ستذكره بحضورها دائماً بالخزي الذي لحق به بعد تلك المعركة المشهودة، ثم طلب إليها أن تعود إلى بهيشما، وتدخل في طاعته

انتاب الفتاة كدر عظيم لهذا الخذلان، ولكنها لم تجد بداً من العودة إلى بهيشما والامتثال له، حسب أعراف بنات مرتبتها.

ولكن القدر كان أشد قسوة، بعد، مما أصابها من شالفا. ذلك أن بهيشما أعرض عنها هو أيضاً، كما أعرض شالفا من قبله. فروى لها قصة العهد الذي قطعه على نفسه بأن يظل على العزوبة مادام على قيد الحياة.

ولما يئست من الإلحاح، عادت أدراجها إلى شالفا، وهي تأمل بأن تفلح في إقناعه بالزواج منها. ولكن الأمور لم تجر على ما كانت ترغب وتريد، فقد وجدت شالفا مقيماً على رأيه لا يتحول عنه.

ولم يكن لأمبا عندئذ إلا أن ترجع إلى بهيشما لترجوه أن يعقد عليها، وتغدو زوجاً له.

ومرة أخرى وجدت الفتاة بهيشما ثابتاً على عهده لا يتزحزح عنه. وكم حاولت حمله على الرجوع عن ذلك العهد الرهيب، إنما دون جدوى! فرأت بعد هذه المحاولات أن تتوسط فيتشيترافيريا في أمرها مع بهيشما. ولقد حاول فيتشيرافيريا ما وسعه ليثنيه عن هذا الأمر، فلم يزده ذلك إلا تشبثاً. ولما يئس من المحاولة، نصحها بأن تكرر المحاولة مع شالفا عل الرجل قد تحول عن حاله الأول.

ولقد شق الأمر على أمبا، فلم تكن لتجسر على مراجعته في أمر خبرت موقفه فيه. وهكذا بقيت الفتاة على حالها، ترجئ تنفيذ ما نصح به فيتشيترافيريا سنة بعد سنة.

ولم تتمالك في النهاية إلا أن تحزم أمرها، فتخاطب شالفا في حالها. ولكن الرجل عاد فردها على أعقابها، مثبتاً قسمه بألا يتزوجها بعد هزيمة.

استبد الحزن بأمبا وتلاشى من قلبها كل أمل، حتى تحولت عذوبتها ورقتها اللتين عرفت بهما إلى شراسة وكراهية، بعدما استولى عليها البغض والمقت فأفسدا عليها طلاوة الحياة والصبا.

لقد انصب كل ما في قلبها من الحقد على بهيشما، وأخذت تنهشها الضغينة، فانقطعت طوال ست سنوات إلى رياضة النفس، تتدرب على الكيد لمن كان السبب فيما أصابها من اليأس، ثم أخذت تطرق كل باب تسأل من ينتصر لها على بهيشما، فيقتله ويشفي غليلها. ولكن أحداً لم يجرؤ على التصدي لهذا البطل الذي شاع بأسه عند القاصي والداني. ولما أعياها العثور عمن ينتصر لها، اعتكفت للتأمل والتركيز ومجاهدة النفس وكان أن ظهر لها في النهاية الرب سوبرامانيا الذي سمع دعاءها ولبى النداء. فقدم لها عقداً عجيباً من أزهار اللوتس، وقال لها إنه كفيل بأن يحوّل من يتقلده إلى عدو لدود لبهيشما، ولن يعرف هدوء البال حتى يقضي عليه.

وللتو حملت أمبا العقد، ومضت من جديد تطرق باب كل من تقع عليه من الشتريا ليتقلد هذه الهدية من الرب ذي الوجوه الستة،

وينتصر لها على بهيشما. ولكنها لم تجد مع ذلك من يملك الجرأة للقيام بهذه المهمة. وكان أن عولت على الذهاب إلى الملك دروبدا لتسأله أن يجيب استغاثتها. ولكن الملك أعرض عن استقبالها. فتركت القصر مكلومة الفؤاد، ثم أخذت طريقها إلى الغابة، بعد أن علّقت العقد على أحد أبواب القصر الملكي.

وفيما كانت في طريقها إلى الغابة التقت بعض النساك الزهاد، فروت لهم حكايتها فاستولى عليهم التأثر لما نالها من الظلم والإثم فنصحها أحدهم بأن تقصد المتجلي بارا سوراما لتعرض أمرها.

أخذت أمبا بالنصيحة ومضت إلى بارا سوراما وروت له قصتها، فتأثر بما سمع وسألها: «وماذا تبغين مني الآن، يا فتاة؟ إذا شئت التمست من شالفا أن يعقد عليك!».

ردّت أمبا: «لقد عافت نفسي الزواج وزهدت بالأمومة والسعادة. وليس لدي سوى رغبة واحدة في هذه الحياة وهي الانتقام من بهيشما. إني لا أسألك إلا أمراً واحداً هو موت بهيشما!».

تأثر بارا سوراما أشد التأثر بما سمع من حكاية أمبا، وزاد من انفعاله أنه كان يحمل حقداً على طائفة الشتريا، فحمله ذلك على الانتصار للفتاة. ومضى لتوه إلى هذا الذي اختار خصومته، وطلبه للنزال، وكان أن احتدم القتال وطالت المعركة بين أعظم أبطال ذلك الزمان، ولم يتمكن أي منهما من الانتصار على خصمه. ولكن بارا سوراما لم يملك في النهاية إلا أن يعترف بالهزيمة ويعقد غار النصر على رأس بهيشما.

والتفت عندئذ إلى أمبا، وقال لها: «لقد بذلت ما وسعني لأحقق لك ما تبغين، ولكني عجزت عن ذلك. وإني لك لمن الناصحين بأن ترمي بنفسك عند قدمي بهيشما، فلعله يرقّ لحالك، ولست أرى غير هذا سبيلاً لتكون لك عنده حظوة».

ولكن ذلك لم يقع في أذن الفتاة موقعاً حسناً. بعدما استولى عليها الغم والغضب لفشل تدبيرها في الانتقام من بهيشما. فمضت

إلى جبال الهمالايا، وانقطعت هناك لرياضة النفس تسترضي بها الإله شيفا ليأخذ بناصرها، بعدما أعجز ذلك البشر. وما هو إلا وقت أمضته في الشدة ومجاهدة النفس حتى تجلى أمامها الإله شيفا بكل جلاله، فعرضت عليه أمرها، وسألته أن يمن عليها، فيلبي لها رغبتها. فأنبأها بأنه سيكون لها القضاء على بهيشما، إنما في حياة أخرى.

هدأ بال أمبا واستراح خاطرها لهذا الوعد الذي كفل لها شيفا أن تحققه، ولو بعد حين. ولكن سرعان ما ثار حقدها على بهيشما من جديد، ثم ازداد اتقاداً، ولم تعد تطيق الحياة إلا بقتل هذا الرجل الذي أهدر شبابها وفتك بأحلامها وبدد لها آمال المستقبل.

أخذت أمبا تستعجل مصيرها وتعد العدة لموت قريب وبعث جديد وكان أن أقامت محرقة عظيمة ثم اندفعت إليها بما ملكت من قوة فالتهمتها النار، وقلبها أشد اشتعالاً بالحقد من النار.

حقق الإله شيفا ما وعد، فبعث أمبا مرة أخرى في صورة ابنة الملك دروبدا. ولقد نشأت الطفلة كما تنشأ الفتيات لاهية عن كل هم، حتى كان ذات يوم رأت فيه عقد الأزهار المتفتحة أبداً الذي خلفته، في حياتها السابقة، مايزال معلقاً على باب القصر، لا يقربه أحد خوفاً وفزعاً وللتو التقطته وتقلدت به. ولكم فزع الأب حين رأى العقد حول عنقها! ولكم خشي من بطش بهيشما إن علم أن ابنته غدت تتزين بهذا العقد المشؤوم. فأمر الملك بنفي ابنته إلى الغابة تفادياً لشر لا يملك أن يدفعه عنه فلما بلغت منفاها في الغابة أخذت في ممارسة رياضة النفس، إلى أن صار لها أن تتحول إلى صورة رجل محارب عرف باسم شيخاندين. وقد كان لهذا المحارب شأن كبير في ساحة القتال في كروكشيترا.

أما إذ أفل فيتشيترافيريا، وغاب كالشهاب في حياته القصيرة بلا أثر وجدت ستيافاتي نفسها تنظر في ما يمكن أن يخبئه المستقبل، فتضيف إلى حزنها قلقاً. فرأت أن تكاشف بهيشما في مخاوفها، فمضت إليه تبسط له الأمر:

«أي بني، لقد رحل أخوك بلا عقب، وليس هناك سواك من يستطيع تدبير الأمر، فهاك أرملتيه! وكن لهما زوجاً واستولدهما، فما زالتا في ريعان الشباب وتقويان على الحمل وإنجاب الأطفال الذين بهم تقوى الأسر!».

«ماذا تقولين، يا أم؟ إنك تعلمين القسم الذي أقسمت، وتعلمين أني مقيم عليه. ولو خُيرت بين جنان الخلد والعوالم الثلاثة، على أن أنكث بقسمي لَمُتُّ دون هذا. فلتفقد الشمس عظمتها، وليقلع الإله دارما عن العدل، قبل أن أحنث بقسم!».

ابتسمت ستيافاتي حين سمعت مقال بهيشما، فعلقت:

«أي بني، إنك لرجل مشبع بالفضيلة ومحبة الحق، وإني أجد فيك كل الأمل لأواجه اليأس، فاعلم أن ولدي فياسا قطع لي قولاً. عندما غادرني بأن ينجدني إذا ما داهمتني داهمة. فأخبرني يا بهيشما إن كان يجدر بي أن أستدعيه في هذه اللحظة من الكرب!».

أجاب بهيشما: «إنه تصرف حكيم وعمل فاضل إذا كان منزهاً عن الأنانية فلا بأس بما ترتأين طالما أن فيه نفعاً، فتلك هي الفضيلة».

كان فياسا في أقاصي الأرض منشغلاً يبسط للناس أسفار الفيدا، حين لمعت في خاطره إشارة من عقل أمه. ولم تكن قد مضت لحظة بعد حينما وجدته ستيافاتي ماثلاً أمامها وحدها، خفياً عن كل عين أخرى. رش بعض الماء المثلج على عينيها، ففتحتهما حمراوين من شدة الانفعال والفرح، وهي تسمعه: «أي أمي! ها أناذا، فمريني بما تريدين!».

«يقال إن للأم حقاً على ولدها، مثل حق الأب يا بني، إن حاجتي إليك عظيمة، ولست أدري كيف أسألك هذا السؤال! ومع ذلك فإليك هذا الأمر الذي أنا فيه!».

لقد مات فيتشيترافيريا بلا عقب، أما بهيشما فقد اختار طريق

التبتل فلا يرضى أن يقرب امرأة. وإذا كان هذا حالنا فإننا سائرون إلى الانقراض. لذلك سألتك أن تضاجع كنتيَّ وتستولدهما.

رد فياسا: «إن امتثلت لما تطلبين فلأنك امرأة فاضلة حكيمة تنشدين الخير. ولسوف يكون لأخي أبناء يضارعون الإله ياما بأساً والإله فارونا مجداً. ولكن على الامرأتين أن تنذرا عاماً كاملاً للطهارة. فابعثيهما إلي عند تمام العام.»

قالت ستيافاتي وهي لا تخفي وجلها: «لا، فالوقت يتداركنا، ولا بد لنا من العقب سريعاً. إن الملك الذي لا يقوم عليه ملك يتلاشى ويزول ولا يبقى عندئذ من يرعى الدين والدارما، وينحبس المطر، وتغيب الآلهة».

عندئذ قال فياسا: «إن شئت الخلف الآن فعليك أن تعدي الامرأتين لاحتمال شكلي ومظهري. فلسوف أظهر أمامهما قبيحاً أشد القبح، مخيفاً مروعاً، مرتدياً أردأ الأسمال، كما الزاهد. وأحسب أن في هذا تطهيراً يعادل العدة. فإذا رغبت أمبيكا في ولد كان عليها أن تحتملني على ما أنا عليه من القبح - فتقبل بشاعة وجهي، ورائحة النتن في جسدي، وتغض الطرف عن أسمالي البالية. مريها بأن تنتظرني في سريرها مغتسلة نظيفة، متبرجة معطرة مرتدية أجل أزيائها، مزينة بالحلي والجواهر».

وعندما فاتحت ستيافاتي الامرأتين بخطتها، وجدتهما تثوران في وجهها منددتين بما زيَّن لها الخاطر. ولكنها مازالت تناقشهما وتداورهما حتى لانت قناتهما، فقبلتا بما اقترحت، بعد أن أقنعتهما بأن بهيشما أفتى باتفاق تدبيرها والدارما. وكان أن استقر الرأي على أن يكون البدء بأمبيكا. فلما حان الأوان أخذتها ستيافاتي إلى الحمام فاغتسلت وتطيبت، ثم اقتادتها إلى المهجع ومشت بها حتى جلست على سريرها الفخم الوثير، واضطجعت، منتظرة دخول فياسا.

ولج مخدع المرأة والقنديل مازال يرسل ضوءه فسرت

قشعريرة الخوف في جسدها، حين رأت منظره الرهيب، وفزعت من بشاعة وجهه، وشعره الأصفر كالنحاس المنسدل على كتفيه، وعينيه الساكنتين مثل عيني المأخوذ، ولحيته السوداء المرسلة إلى صدره، واستولت عليها الرهبة فلم تملك أن تطلق صوتاً، فأغمضت عينيها، واستسلمت لمصيرها. سلك طريقه إلى جانبها في الفراش. ضاجعها ولم تقو على النظر لتشاهد هذا الرجل الذي شاركها الفراش، فظلت عيناها على إغماضهما مادام في المخدع.

سألته ستيافاتي، وكانت قابعة في القاعة تنتظر خروجه: «أتراها حملت البذرة لتأتينا بغلام!».

أجاب: «نعم ولسوف تلد ولداً ذكياً شجاعاً مقداماً، وسينجب مئة ولد. لكنه سيولد كفيفاً لأن أمه أغمضت عينيها وأنا أضاجعها!».

«ولكن أتحسب أنه سيأتي مجداً لقومه؟ هيا، يا بني، امنحنا ملكاً آخر!».

وكان أن وضعت أمبيكا طفلاً أعمى عرف باسم ديتراشترا.

مضى فياسا إلى زوجة أخيه الأخرى، أمبيليكيا، حسب الخطة المرسومة. ارتاعت المرأة إذا وجدته يدخل عليها، وحيدة، وهو على ما كان عليه من قبح الوجه وبشاعة المنظر وكريه الرائحة. ولكنها ثبتت مع ذلك حتى قضي الأمر.

كان الشحوب الذي أصاب أمبيليكا واضحاً، ولم يفت فياسا ولو في عتمة الليل أن يلاحظ هذا التبدل الذي طرأ على لون بشرتها، وإشاحة وجهها إلى الطرف الآخر حين لم تقو على احتمال رهبة حضوره. فقال لها عندئذ بصوت النبوءة: «لأنك شحبت وفزعت مني ستلدين ولداً أصفر البشرة، ولسوف يعرف باسم باندو، الشاحب!».

لم تجد ستيافاتي في هذا النبأ الذي حمله فياسا إليها ما يطيب الخاطر، فما كانت لترتاح إلى حفيد أصفر البشرة شاحب الوجه. فسألت ولدها أن يمنحها حفيداً ثالثاً. ومرة ثالثة استجاب ووافقها

فيما طلبت. وهكذا مضت إلى أمبيكا تطلب منها أن تحمل من جديد ولداً من فياسا. إلا أن المرأة كرهت التجربة، فلم توافق إلا بلسانها مرغمة، وهي عازمة على أن تتفادى اجتماعها وذلك الرجل ذو المنظر البغيض والرائحة المنفرة. فدبرت للأمر جارية جميلة من الجواري، وألبستها أجمل ما لديها من الثياب. وقلدتها من حليها وجواهرها، وأحلتها في مخدعها تتقبل بدلاً عنها مداعبات هذا الكائن الذي جاهدت أشد الجهاد لتتقبله لحظات خالت أنها الدهر كله.

نهضت الفتاة من مقعدها حيث كانت، حين أقبل عليها فياسا، تأدباً واحتراماً، ثم جلست بجانبه، كما رسمت لها أمبيكا، حريصة على اتباع إرشاداتها أشد الحرص.

ومرة أخرى نطق فياسا بنبوءة، وقال لهذه المرأة التي خرجت من أدنى الطبقات: «لقد أصبحت يا سيدتي العذبة منذ اللحظة حرة وقري عيناً فلسوف تلدين ابناً يعرف في كل أرجاء الأرض بين أشد من عرفتهم البشرية حكمة ونبلاً!» وقد كان لهذه المرأة أن تلد فيدورا، أخاً لديتراشترا وباندو، وقد عرف منذ صغره بالهدوء والرصانة، وكان أن برز في فن الحكم والسياسة، وأصبح أشبه بالإله دارما في الاستقامة ورجاحة العقل.

لم يطل بفياسا المقام، فاختفى بعدما أعلم ستيافاتي بخديعة أمبيكا.

ولقد قام بهيشما على رعاية ديتراشترا وباندو وفيدورا وحدب عليهم حدب الأب على أبنائه، ولم يقصر في تنشئتهم. وكان أن برّز كل منهم وتفوق في مهارة خاصة، فكان أن جلى باندو في استعمال القوس، وعرف ديتراشترا بقوته الخارقة، أما فيدورا فلم يكن هناك في العوالم الثلاثة من يبلغ شأوه في الحكمة الفاضلة، ولكن المُلك كان من نصيب باندو وحده، دون أخوية ديتراشترا الأعمى وفيدورا الذي حرم من المنافسة على العرش بسبب من منبت أمه المتواضع.

ولما بلغ الفتيان الثلاثة مبلغ الشباب. استدعاهم بهيشما وخاطبهم قائلاً: «لقد أنشأتكم وقمت على تربيتكم لتقوى بكم سلالتنا. وحان لكم الوقت للزواج وإنجاب الأبناء لتعمر أسرتنا وتستمر. وها إني علمت أن هنالك ثلاث فتيات من أصل رفيع لا تشوب دماءهن شائبة. وقد وجدتهن لائقات بالانتساب إلى هذه السلالة.

واعلموا أن إحداهن هي ابنة ملك اليادفا، والأخرى ابنة ملك شوبالا، والثالثة أميرة مدراس. فهاكم الأمر ولكم أن تتخيروهن، أو إذا شئتم صرفنا النظر».

فبادر فيدورا بالقول: «لقد كنت لنا بمثابة الأب والأم، وكنت المعلم المرشد أيضاً. فلك الرأي والقول. ولكلمتك عندنا مقام القانون. فمر ومنا الطاعة!».

ولما بلغ بهيشما أن الإله شيفا قد منح قندهاري، ابنة الملك شوبالا، بركته بأن تلد مئة ولد، أسرع بإرسال المبعوثين لخطبتها من أبيها.

استقبل الملك وفد الخاطبين وسمع منهم طلب الخطوبة، واستطاب هذه المصاهرة بين الأسرتين، ولكنه شاء أيضاً أن يعرض الأمر على ابنته ويستطلع رأيها. وكان أن بسط لها ما جاء من أجله هذا الوفد من هاستينبورا، واختتم حديثه بأن حذرها من أن الخاطب هوديتراشترا. فتناولت الفتاة قطعة من القماش وعصبت عينيها، وظلت هذه العصابة تلازمها ما بقيت على الأرض، احتراماً وإجلالاً لزوجها. وللتو حملها شقيقها شاكوني لتزفّ في هاستينبورا، وهناك أقام بهيشما عرساً بذل فيه ما بذل حتى طارت أخباره إلى القاصي والداني.

أما كونتي، الفتاة الأخرى، فكانت ابنة متبناة لملك قبيلة اليادفا، وعرفت بجمال خارق لا مثيل له على وجه الأرض. كذلك خبرت خبرة ذات شأن، ولمّا تزل بعد في طلاوة العمر. فقد شاء

الحكيم دورفاس رغم ما عرف عنه من فظاظة الطبع. وغلظة الخلق، أن يباركها لتفانيها في خدمته. فلقنها ترنيمة، مانترا، تستدعي بنطقها من تشاء من الآلهة.

فما كان منها إلا أن استبد بها الفضول، وأرادت أن تجرب هذه الترنيمة بأن استدعت بها إله الشمس سوريا.

وللتو تمثل لها سوريا شعلة هائلة من النار واللهب: «ها أنذا ألبي نداءك، يا ذات العينين السوداوين، فأخبريني بغرضك!».

أجابت الفتاة، وفرائصها ترتعد لهول الحدث، تتعثر الكلمات على لسانها وتتلعثم فلا تدري كيف تتدبر الأمر مع هذا الإله الجليل المخيف. قالت بلهجة الرجاء: «عفوك، أيها الإله فما أردت شيئاً وما سعيت إلى أمر حين استدعيتك، وإنما أردت أن أمتحن المانترا السحرية وفعلها. فغفرانك أيها الإله العظيم إذ أخطأت فكلفتك المجيء بهذه الدعوة!».

ردّ الإله سوريا: «إذا لم تكن لديك رغبة لأحققها لك، فإن بي رغبة، يا كونتي، فهلا حققتها لي. ولاتخشي ضيراً فلن ينالك مني إلا ما في نفسي من الحب والشوق إلى عناقك. وتذكري أنك إنما استدعيتني لا لغرض سوى العبث!».

ومضى الإله سوريا يهدئ من روع الفتاة ويحتال عليها بمعسول الكلام، وهي تصده وتأبى عليه، والوجل مازال يمتلكها خوفاً على عذريتها وذعراً من أن يفتضح أمرها بين أهلها. ولكن الإله مازال يلح عليها ويزيد في الإلحاح، ويذكرها بقدرته حتى رضخت وأذعنت.

وكان إله الشمس عند عهده لكونتي فظل يقيم على رعايتها حتى وضعت ولداً خارقاً ولدته من أذنها، وقدر له أن يعرف فيما بعد بـ «الأذن»، كارنا. فأتى الطفل غريباً كأنما هو من خوارق الطبيعة: طفل ذو جلد غريب سميك كالدرع، أذناه ميزنتان بقرطين كبيرين. وإذ وضعت المرأة حملها اطمأن سوريا إلى تمام عذريتها،

ثم غادرها بلا أثر خلفه. ولكن ذلك ماكان ليبدد شيئاً مما أصابها من الخوف والخجل، فحملت الطفل وألقت به في النهر خشية الفضيحة. وشاء القدر أن تحمله الأمواج إلى حيث التقطته الراعية رادا وزوجها أديراثا الحوذي، فأنقذاه وقاما بتربيته. وعندما شاءا له اسماً أسمياه فاسوسينا، أي المُكرَّم، بسبب الدرع الذي كان يكسو جسمه والقرطين اللذين حملتهما أذناه.

وقد عرف فاسوسينا منذ صباه بالاحتفال بالبراهمة وقضاء نهاره كاشفاً ظهره للشمس يمتص أشعتها فيزداد قوة وحيوية.

وقد كان له شأن مع كبير الآلهة إندرا، حين أراد هذه الإله أن يعين ابنه أرجونا، فقصده متخفياً في صورة أحد البراهمة وسأله أن يهبه درعه. ولم يتردد الفتى في إعطائه الدرع هبة كما طلب، فسُرَّ إندرا لاستجابته وكافأه بأن قدم له قوساً خارقاً، وقال له: «هاك هذا القوس، واحرص عليه! فإن له من القوة ما يمكنك إن شئت، أن تقتل به واحداً من الآلهة، أو الشياطين، أو البشر، أو الغانديرفا، أو الناغا الأفاعي الأسطورية.»

أما كونتي فقد أزعج أباها قصور اللائقين عن خطبتها، إذ فاتهم ملاحظة جمالها وأدبها وظرفها، وما تلقته من التدريب لتكون الزوج الصالحة والأم الرؤوم. وشاء أن يعوض عن هذا فأقام لها حفل السفيامفيارا التقليدي ودعا إليه الملوك العظام والأمراء الكبار لتختار من بينهم من تشاء ليكون زوجاً لها. وهناك في الحفل، اجتذبها باندو بانتصاب قامته، وعرض منكبيه، وصدره، وما تجلى عليه من الشجاعة، والاعتداد، فلم تتمالك من أن تتقدم منه، وتطوق بيدين مرتعشتين، من فرط الانفعال، عنقه بعقد من الزهور، إعلاناً بأنها اختارته زوجاً، وما أن تمت مراسم الزواج حتى حملها الزوج عائداً بها إلى قصره، بين حاشيته الكبيرة، تلاحقه دعوات الشيوخ، فغدت منذ ذلك اليوم ملكة إلى جانبه، وعاشا ينعمان برغد الملك.

ولكن بهيشما شاء لباندو أن يتزوج زواجاً ثانياً فكان أن

تجهز بجيش عرمرم وسار إلى شاليا ملك مدراس الذي استقبله أحسن استقبال وأحلّه أحسن محل.

استراح بهيشما فترة، ثم مضى بعدئذ إلى الملك فوجده قد فرش له سجادة بيضاء، وهيأ له الماء ليغسل قدميه. ثم تبادل المضيف والضيف عبارات المجاملة، وعندئذ مضى بهيشما وبسط للملك غرضه من هذه الزيارة: «قد حملني على القدوم إليك مهمة انتدبني إليها الملك باندو لأبلغك رغبته في أن تقوم بينكما مصاهرة. فلقد بلغنا ما لشقيقتكم الأميرة مدري من الجمال والفضيلة حتى تردد اسمها في أرجاء العالم الأربعة، والرأي عندي، أيها الملك، أن هذه المصاهرة أساس لحلف قوي، إن شئتم، وإني لأرتضيه لكم، وودي لو حظي برضاكم».

ردّ الملك: «الحق ما قلت، وإني لأنزع إلى رأيك، وقد كنت أجيبك إلى ما طلبت، لولا أن عائلتي جرت منذ القديم على تقليد لا أملك أن أعرض عنه، ويفرض علي استشارة شقيقتي فيما يمس مشاعرها وعواطفها».

قال بهيشما: «وأنا أعلم بهذا التقليد الذي تأخذون به، وأدرك أن التزام التقاليد هو من وصايا أهل الحكمة والعارفين. فشاوروا شقيقتكم، إذن، في هذا الأمر. ولعل الخير فيما تختار!».

قال هذا، ثم أشار بإحضار الهدايا لتقدم للملك شاليا، فكانت هدايا ملكية ثمينة، منها كنوز من الذهب الخالص، والحلي، وأحجار العقيق، والياقوت، والمرجان، وأرتال من الفيلة والجياد المطهمة، والعربات القوية الفخمة، والثياب الفاخرة، والديباج المزين، فسر الملك بالهدايا أيما سرور. وانتهى اللقاء بأن حمل بهيشما الأميرة إلى هاستينبورا، فرحاً كل الفرح بهذا الفوز.

وهكذا أمضى باندو شهراً منهمكاً في نهب الملذات، ثم تهيأ بعده لغزو العالم، فجرد جيشاً عظيماً، ووضع في القلب عدداً كبيراً من الفيلة والجياد وقوة من العربات اعتنى باختيارها بنفسه،

ليضمن التفوق لقواته على الخصوم. ومضى بعدئذ على رأس هذا الجيش العظيم مشفوعاً ببركة بهيشما ودعوات المواطنين له بالنصر. وكان أن قضى في طريقه على عصابات اللصوص وقطاع الطرق الذين كانوا يعملون في نهب الناس ويعيثون في المملكة فساداً. ثم التفت بعدئذ إلى أعدائه في الخارج فدبر قتل صاحب ماغدا الملك ديرغا الذي عرف بالتيه والجبروت، وأعمل نهباً في خزائنه. ثم انتقل لغزو مملكة ميثيلا فاجتاحها، وأخضع بعدها فيدها. وتابع المسير دون توقف فغزا بنارس وسمبها وبوندورا. ولما وجد الملوك الآخرين أنفسهم عاجزين عن مقاومته دفعوا له الإتاوة ذهباً وفضة.

عاد باندو في نهاية حملته إلى هاستينبورا حاملاً معه الغنائم من أبقار وفيلة، ودواب، وأغطية، وسجاد ثمين، وجلود الغزلان. وكان أول ما فعله عند دخوله العاصمة أنه مضى إلى بهيشما فركع عند قدميه إجلالاً وتعظيماً.

حينما سمع بهيشما أن للملك ديفاكا ابنة جميلة مولودة من امرأة من طبقة دنيا، قصده في زواجها إلى فيدورا. فعقد عليها وأنجبت له العديد من الأبناء.

حملت قندهاري زوج ديتراشترا، ودامت فترة حملها سنتين، وقد امتنعت عن زوجها، فتسري بإحدى القيان من طبقة الفيشيا فولدت له ولداً أسماه يويوتسو، ثم أعتقها ورتب لها أن يتزوجها ملك السند جيادراثا.

وضعت قندهاري مئة ولد خلال شهر وطفلة سميت دوشالا. وكان دريودانا أول الأبناء وقد ولد وهو يزعق ويصدر أصواتاً أثارت رعب من حوله. فدخل فيدورا إلى ديتراشترا وقال له: «إن ابنك البكر سيأتي إلينا بالهلاك والدمار، فانفه فإن في ذلك الخير لنا وللعالم. ولقد قيل إن التضحية بفرد تهون لتسلم الأسرة، وبأسرة لتسلم القرية، وبقرية لتسلم البلاد، وبالبلاد لتسلم الأرواح.»

لكن ديتراشترا رفض أن يستمع للنصيحة وامتنع عن التضحية بابنه.

وصادف أن كان باندو يتجول في الغابات عند سفوح الهمالايا، ووقع يومئذ على ظبيين يتزاوجان في خلوة، وتهيأ له أنه وقع على فريسة سهلة، فباغت الظبي بخمسة سهام ماضيات، فخر المسكين صريعاً، وهو يرسل صرخات ألم قوية. اهتزت لها الغابة. التفت الظبي الصريع إلى قاتله وحدجه بنظرة طويلة، وشرع ينطق بلسان البشر: «أي ذنب جنيت لتقتلني؟ أية قسوة، وأي طبع جلف حملاك على قتلي، وأنا لم آت ذنباً. ثم ها أنت تأتي في لحظة المتعة فتمنعها عني. إيه إن القساة الأجلاف ليغضون الطرف حين يرون الوحوش والبهائم تتزاوج. بل إن الأمم المتعادية لا تبادر إلى الحرب قبل أن ترسل إنذاراً. ولكنك تجاهلت كل الأعراف فداهمتني على حين غرة.

إذن، فاعلم أني كيميندااما، ابن براهمي، وقد نفرت من حياة المدينة وآثرت العيش حراً طليقاً في الغابة، واستترت عن الأعين على هيئة ظبي. ولذلك فلن يصيبك عقاب من يقتل البراهمي، طالما أنك تجهل أمري. فليكن عقابك بقدر فعلك! فاسمع لعنتي التي ستلاحقك: فلتغادرك الحياة، أيها القاسي، لحظة اتصالك بزوجك، لتموت مثل ميتتي الآن. وعندئذ ستلحق بك تلك المرأة. نعم لقد سلبتني لحظة الهناء والنشوة. فليكن هذا مصيرك أنت أيضاً!».

استولت الكآبة على باندو واشتد به الحزن لمقتل الظبي، أو قل البراهمي. وشرع يقدح زناد فكره ويقلِّب الأمر على كل وجوهه، وأخذ يحدث نفسه: «أفرط زوج أمي في الشهوات فمات، ولم يردعه عن طلب الملذات والإفراط ما تلقاه من التربية على يد أبيه شنتانو، وقد عرف بالعفة والفضيلة. وها أنذا أراني مقبلاً على الملذات، والشهوات تغلب علي مع أني ابن الحكيم فياسا، ولم يجد في ردعي شيء حتى صرعت الظبي في الغابة. فلأثب إلى الرشد وألتزم طريق الصلاح وأتخلص من آثامي: فلا أطلب العَقب لئلا يحول دوني

وطريق التحرر والانعتاق. وعهداً عليّ أن أدع الشهوات، فهي عائق كذلك. وليكن طريق الزهد ورياضة النفس باليوغا طريقي منذ الآن!».

ومضى باندو يعدّد نذوره:

حليق الرأس،

مغبر الجسم

سأمضي في العالم

أطرق الأبواب

ناشداً طعامي صدقة،

الأشجار والخرائب

مأواي أبداً،

الفرح والحزن

عندي سواء،

وليس للنفاق مني

إلا الإعراض

طريقي تمالك النفس عن الخفة والغضب

ولن أرضى بعد اليوم

بالهزء بإنسان

قد نذرت أن أمضي العمر

متبسماً،

ثابت الجنان.

قد أخذت بالرحمة،

فلتكن في الحب

حريتي

قد أعرضت منذ اللحظة

عن التمييز

فلا أرى في المخلوقات،

حتى الحشرات ودود الأرض

إلا أولادي!

لما علمت زوجتاه، كونتي ومدري بما عزم عليه وقراره بهجر العالم والاعتكاف، مضتا إليه وناشدتاه: «إننا لنسأم الحياة، إن هجرتنا، فالحق أن الموت دون هذا. فدعنا نلوذ بك، ولتكن مرشدنا في مجاهدة النفس واليوغا!».

ردَّ باندو: «أنتما وما شئتما. فإن كان هذا حقاً سعيكما فاعلما، إذن، أنكما قد خلفتما حياة الرفاه والسلطان وراءكما منذ اللحظة، وغدوتما على طريق التقشف وحياة الشظف. حسبكما من الطعام منذ اليوم ما يقدم لكما من النذور. ولن يزيد مأكلنا عن الفاكهة نلتقطها ناضجة أم فجة. هذا حالنا منذ الآن: الشدة في رياضة النفس حتى تأذن الساعة. فإن رضيتما بهذه الحياة مضينا معاً إلى مصيرنا!».

وللتو استدعى باندو البراهمة، وسلم جوهرة التاج وعقد الملك وأساوره وأقراطه وحليّ زوجتيه. وبعد إتمام المراسم نهض الملك الهاجر مخاطباً حاشيته، قائلاً: «قد بلغكم قراري، فامضوا إلى هاستينبورا، وأعلنوا للملأ أن باندو ذا المرحمة قد هجر وزوجتيه الملك وشهوات النفس والجسد!».

وقعت كلمات باندو كالصاعقة بين حاشيته، وتعالت الأصوات بين نشيج وبكاء وعويل، كل يحاول حمله على الإقلاع عن عزمه، ولكن بلا جدوى. فقد استقر قرار الرجل ولم يعد ثمة رجعة عنه. وهكذا مضى الجمع إلى هاستينبورا لينقلوا النبأ المفجع إلى عامة

الناس، وليؤدوا واجبهم في توزيع ما حملهم باندو على توزيعه على الفقراء والمساكين.

أما ديتراشترا فقد بلغ به التأثر لقرار أخيه بالتخلي عن الملك ما جعله يعاف الطعام والشراب، بل ولم يعد يرتاح إلى فراشه الوثير.

وكان ذلك آخر عهد لباندو بحياة الملك والسلطان، إذ انقطع منذ ذلك الحين للوفاء بعهده، وسلك طريق الزهد والتقشف، كما شاء لنفسه، في الغابة، وبات على نهج المجاهدة ورياضة النفس باليوغا لا ينقطع عنها. ولكن الرجل كان مع ذلك يضيق بقصوره عن إنجاب الخلف، بسبب تلك اللعنة التي نزلت به، ومازال هذا الخاطر يلح عليه حتى بادر كونتي ذات يوم بالقول: «الحق يا كونتي إنه ليس يجدي الرجل أن يؤدي النذور ويقوم على الطقوس وحسب، ولا يجدي في أمره كذلك أن يثري بالهدايا والعطايا، طالما كان بلا عقب. فلقد علمنا أن الإخوة يهرعون لنجدة الأخ الأكبر، إذا كان بلا خلف، فيحلون بذلك محل الولد، وأنت، يا كونتي، تعلمين بحالنا، إذ ولدنا من صلب فياسا. وإذن، فليس يضيرنا، ولا هو مخالف للدارما، إن ذهبت واستبضعت لنا ولداً!».

أصغت الزوجة الطيبة الصالحة إلى قول الزوج بانتباه، ثم أجابته: «لن أكتم سيدي ومولاي سراً. فقد منحني الحكيم دورفاس لورعي وتقواي مانترا أستدعي بها من أشاء من الآلهة، إن أردت ولداً، فليحدد مولاي الإله الذي يريده فأستدعيه ليعينني على أمري».

قال باندو: «إذن، فليكن إله العدل وأعظم الأرباب دارما!».

كان ذلك وقندهاري لا تتقدم كونتي إلا عاماً واحداً في الحمل. ولقد استدعت الإله دارما فتجلى لها بعربته، وسألته أن يجيب لها أمنيتها بالولد، فكان لها ما شاءت منه، فحملت من اتحادهما طفلاً رائعاً. وصدح يوم ولادته صوت من السماء يقول: «هذا يوديشترا! ولسوف يكون له شأن عظيم في حياته ويعلو مجده ويتلألأ في

العوالم الثلاثة، وهو الصادق الأمين بين العالمين!» ولقد وضعته قبل أن تلد قندهاري أبناءها المئة.

ولما اطمأن باندو إلى سلامة الولد التفت إلى كونتي: وقال: «إننا بحاجة الآن إلى أن يكون لنا طفل قوي نعدُّه ليكون من الشتريا، المحاربين ذوي البأس فامضي واستبضعي لنا طفلاً آخر ذا بأس وشدة!».

ومرة أخرى عادت كونتي فاستخدمت المانترا واستدعت إله الريح فايو. فظهر لها على ظهر غزال وكان لها منه بعد ذلك اللقاء بهيما الذي وضعته في اليوم ذاته وصادف ولادته يوم مولد دريودانا من قندهاري. ولقد قدِّر له أن يكون قوياً متين البنية مما جعل صوتاً من السماء يعلن أن العالم لن يعرف بمثل قوته وبأسه فتى بعد اليوم. وحسبكم أن تعلموا أن أمه كانت تحتضنه ذات يوم، فهبت على قدميها من الفزع حين رأت نمراً يقترب منها، فسقط الطفل على حجر فتحطم الحجر من شدة الصدمة.

انقطع باندو بعد ولادة بهيما للتوسل إلى الإله إندرا برياضة النفس، فكان يقف في مكانه لا يزيح عنه على رجل واحدة، رافعاً الأخرى، من شروق الشمس حتى المغيب، فلا يستريح لحظة. أما كونتي فقد التزمت بنذر أوصاها به باندو استرضاء لإندرا. وظل هذا دأبهما حتى تجلى لها قائلاً مبشراً أن تقر عيناً لأنها ستلد منه ولداً ليكون نقمة على أهل الشر والرذيلة، ومسرة لأهل الخير والفضيلة.

وكان أن ولدت أرجونا الذي بشر به صوت شق عنان السماء بأنه سيكون بقوة الإله شيفا والأثير عند الإله فيشنو، بارعاً في استعمال الأسلحة الخارقة. وكان ذلك صوتاً تردد في كل الأرجاء حتى بلغ الحكماء على الجبل العظيم ذي الذرى المئة، كما سمعته الآلهة في السماء وهلل له الجميع.

ثارت الغيرة في قلب مدري حين وجدت ضرتها كونتي تحمل

وتلد البنين، وازدادت تبرماً لما وجدت قندهاري تنجب مئة ولد. ورأت عندئذ أن تفاتح زوجها في هذا الأمر الذي بات ينغص عليها عيشها. فأقبلت عليه في النهاية، وقالت له: «ليس يضيرني يا مولاي إن راودتك بي الشكوك. ولست أعترض إن كنت تؤثر علي كونتي، وهي دوني أصلاً ومحتداً. وليس مما يشق علي أن أرى قندهاري تلد مئة ولد. ولكني أضيق وأبرم حين أرى كونتي تلد دوني، أنها ضرتي ويصعب علي أن أقصدها في أمر. ولعلها تجيب لك مطلباً إن سألتها أنت فتعينني في أمري».

وقع قول مدري في نفس باندو موقعاً حسناً، ومضى لتوه إلى كونتي: «هيا هبيني مزيداً من الأبناء، يا كونتي، بأن تعيني مدري على الإنجاب!».

امتثلت المرأة لما طلب زوجها، ومضت لتعين مدري على الحمل وسألتها أن تستحضر في ذهنها أحد الآلهة فكان أن ركزت طاقتها على الإلهين التوأمين الأشفين، فحملت بناكولا وسهديفا. وعاد باندو يسأل كونتي أن تعين مدري على الحمل من جديد ولكن المرأة قابلت مطلبه بالإعراض قائلة: «لقد مكرت بي الخبيثة سألتها أن تستحضر إلهاً فاستدعت التوأمين، وحملت بتوأمين. وهذا من كيد النساء. فإذا استمرت على هذا المنوال لأمسى لها من الأبناء أكثر مما لي. لا يا سيدي. إن المانترا ستبقى معي، ولن ألقنها لمدري ثانية!».

وهكذا غدا لباندو خمسة أبناء، فتية ليس لهم من يماثلهم وسامة وصحة وقوة، في العالم. فقرت بهم عينه، واستعاد صفاءه القديم المعهود، فكان يمضي في التجوال بين الغابات ساعات يروح فيها عن نفسه، ثم يعود إلى أهله ويتابع حياة الزهد. وهكذا ظل يمضي الأيام حتى كان يطوف في إحدى الغابات وبصحبته مدري، فهزه مشهد الطبيعة الفتان.

حسن خلّاب
من الأشجار الباسقة
والزهور تبتسم
ونحل يطير ثملاً
بالأريج العطر
وأغنية تصدح
تحت الأغصان
مع طنين النحل الأسود
والأشجار تنثني مع ثمارها وبراعم الزهور، والبحيرات تتألق كلها باللوتس الفوّاح.

حانت منه التفاتة إلى مدري، فوقعت عيناه على عينيها الجميلتين، ورأى محاسنها وراء غلالتها، وسرى الدم ملتهباً في عروقه وهو يملي النظر في انعطافات جسدها وخطوطه بين النور والظل، فاتقدت الشهوة قوية في جسده. فلم يتمالك عن ضمها بين ذراعيه، ويفلح معه ما بدا من اضطرابها وما جهدت في مقاومته. وكان القدر أقوى، فنسي اللعنة التي تطارده، واستسلم لرغبة حواسه، فهم بها، ولكنه وقع صريعاً في مكانه، وهو يكاد يبلغ منها رغبته.

وهكذا حمّ القضاء وخلّف الرجل أهله بين الحزن والغم. ومضت يومذاك مدري تنضم إلى الزوج المولى في أتون المحرقة. وكان ذلك طقساً تولاه فيدورا بكل تفاصيله، بعد مشاورة بهيشما، فاختار المكان المناسب للطقوس الأخيرة.

وعند ذلك اجتمع الأهل والكهان لإيقاد النار المقدسة وصب السمن الزكية بالطيب ليشتد لهيبها، فيما انشغل الأقارب والأصدقاء والأتباع في لف جسد الراحل وحملوه تحت مظلة إلى النار الموقدة. ولما بلغوا حرشاً عند ضفة الغانج أنزلوا الجسد وسجوه فغسلوه

بماء محلول في أوان ذهبية ثم دهنوه بمعجون معطر وفي النهاية انتهى الجسد إلى النار.

وإذ بلغت تلك الطقوس ختامها وأقبل الليل شاء الأهل النوم على الأرض، واقتفى البراهمة أثرهم في هذا، كفارة وزهداً، وكان ذلك بداية أربعة عشر يوماً من الحداد في المملكة.

مضت الأعوام وآل باندو يعيشون حياتهم كما ألفوها، دون أن يفسدها حدث ذو شأن، حتى كان يوم جاء فيه فياسا وقال لأمه: «ها إن أيام الهناء قد انقضت. وها هي ذي أيام الكارثة تبدأ. وإن الجريمة تعمّ والخداع يشيع والتسلط يتفشى في المملكة. وأرى أن تلجئي إلى الاعتزال والانسحاب إلى الغابة، وتنصرفي إلى رياضة النفس باليوغا، فليس من الحكمة أن يشهد المرء في شيخوخته أمته تصير إلى الانهيار».

رأت ستيافاتي الصواب في ما قال ابنها، فاستأذنت بهيشما، وانتجعت وكنتاها إلى الغابة، مقيمة على اليوغا سنة بعد سنة، إلى أن ذوت وأفلت حياتها بالموت.

نشأ أبناء باندو الخمسة في كنف العمين بهيشما وديتراشترا وكانت تتجلى عليهم أمارات النجابة، فبرّزوا في كل ما كان يعهد إليهم من الدرس والتدريب، وطغى أمرهم على أبناء العم ديتراشترا فتفوقوا عليهم في كل مجال. فعرف بهيما بسرعة العدو وإتقان استعمال القوس، كما ذاع صيته في النهم والمكر، إذ كان لاينقطع عن الإيقاع بمنافسيه والسخرية منهم، كما كان يجد كل المتعة في مغالبة الخصوم والمنافسين. وما كان يجدي هؤلاء الفرار من وجهه والهرب إلى أعالي الأشجار ليأتي بهيما ويهزها بقوة فيتساقط ثمرها ومن عليها معاً. ولكن إن فعل ذلك فعلى سبيل اللعب والمزاح ولا يعتوره شيء من سوء النية.

أما دريودانا فقد شب على كراهية بهيما والكيد له، وبلغ به

الحقد عليه. أن أخذ يدبر له مكيدة ليتخلص منه وإخوته مرة واحدة، فزين له الخاطر ذات مرة أن يداهمهم وهم نيام فيرمي بهيما في النهر ليغرق في عمق قاعه، ثم ينثني على يوديشترا وأرجونا فيزج بهما في السجن، فيخلو له الأمر وينفرد بالملك.

ولما استقر عزم دريودانا على تنفيذ المكيدة، أمر ببناء قصر عظيم على نهر الغانج، ووفر فيه كل أسباب التسلية والترفيه، وأطلق عليه اسم «قصر الرياضة المائية» واختار له أعظم الطهاة لإعداد الأطعمة والمأكولات الفاخرة النادرة التي لا يقوى على تقديمها إلا الذواقة الخبيرون. وكان ذلك قصراً عظيماً اختص به ورفع فوقه الرايات ليعلم الداني من بعيد مكانة صاحبه إعلاناً لمجده.

ولما اطمأن إلى اكتمال القصر، دعا أبناء باندو إلى قضاء فترة من الراحة فيه للترويح عن أنفسهم.

استجاب أبناء العم للدعوة فقدموا بلا حاشية، همهم الاستجمام في ربوع القصر الذي طار إليهم صيته. فأقبلوا عليه وأعجبهم ما رأوا من جمال الهندسة، وروعة البناء: قاعات واسعة، وسقوف عالية، ونوافير مياه تتوزع المساحات، وبحيرات تطفو على سطحها أزهار اللوتس فيعبق الجو بأريجها الساحر.

وهكذا استسلم القوم للراحة خدرين لا يشغلهم أمر من أمور الدنيا عن اللعب والمرح، غافلين عما كان يدبر لهم. وفيما كان هذا الجمع قد انهمك في حياة المتعة، وانشغل كل بنزواته، ذهب دريودانا يمزج السم الزعاف بطعام طيب يعرف شدة إقبال بهيما عليه، وراح يناديه بصوت رقيق عذب ويدعوه إلى طبق منه. ولكم فرح حين رأى الرجل يقبل على هذا الطعام ويزدرده إزدراداً، جاهلاً بما فيه وما يخبئه له.

عاد بهيما بعد استراحة قصيرة ليغطس في البركة ويسبح فترة، خرج بعدها من الماء يشكو التعب..هز دريودانا رأسه، وقال في ذات نفسه: «ها قد أخذ السم يفعل فعله!» ورأى الفتى أن يخلد إلى

الراحة علّه يستعيد قوته. ولكنه وجد النعاس يغلب عليه فاستسلم للرقاد. فلما اطمأن دريودانا إلى أن غريمه قد فقد الوعي، هب إلى حبل قوي أعده وقيد به بهيما، ثم جره إلى ضفة النهر وألقاه ليغرق في أعماقه. وما هي إلا دقائق حتى ابتلعه النهر فبلغ مملكة أفاعي الناغا، فهاجمته الآلاف منها من كل طرف وشرعت توسع لحمه لدغاً بأنيابها السامة، إلا صدره الذي صمد جلده القاسي فلم تقو على اختراقه. ولكن سمها بدلاً من أن يأتي له بالموت فَعل فِعل الترياق في جسمه. وبذلك استعاد حيويته. وانبرى يقاتل مهاجميه ويردهم عنه. فانسحب بعضهم وعادوا إلى ملكهم ليسألوه الدعم أمام الفتى الجبار. ولما استطلع الأمر الأفعوان أرياكا، وكان جداً لكونتي، وتبين له بهيما، أطلع ملك الأفاعي على حقيقة الفتى. فقال له الملك: «لنصله بصلة من المال والجواهر فنعوضه ونرسله إلى حيث أتى!».

رد أرياكا على قول الملك بأن الفتى لا يسعى إلى مال أو ثروة، وأشار عليه أن يقدم له رحيق الأفاعي لينهل منه ما طاب. فوافقه الملك على هذا الرأي وأمر بالرحيق لبهيما الذي أقبل ينهل منه ويعب حتى نال كفايته، وهو يتجه بوجهه طوال الوقت نحو المشرق. وسرعان ما غادره التعب وهدأت نفسه، وشعر بالنعاس يتسلل إلى جفونه، فأغمض عينيه واستسلم للرقاد على فراش هيأته له الأفاعي.

رجع إلى القصر بعد الاستراحة في ضيافة الأفاعي، وللتو أسرَّ إلى إخوته بما كان من مغامراته في تلك المملكة. فأشار عليه يوديشترا أن يبقي الأمر سراً وطلب إلى الجميع التزام الحذر بعد هذا اليوم.

ولقد حاول دريودانا دسّ السم لبهيما مرة أخرى، ولكن يويوتسو أفشى له السر، ففشلت المحاولة ومع ذلك فقد ظل يحيك وكارنا وشاكوني المؤامرة تلو المؤامرة ضد بهيما وإخوته، إنما عبثاً! وظل آل باندو يأخذون بنصيحة عمهم فيدورا بالصمت وكظم الغيظ.

تواترت الأخبار إلى ديتراشترا عن أبنائه وطيشهم فأقلقه الأمر، ورأى أن يوجههم إلى دراسة يفيدون منها وتشغل وقتهم عن الكسل وحياة الدعة. فاستقدم الحكيم كريبا المتفقه في أسفار الفيدا ليكون لهم معلماً ومرشداً. كذلك استقدم بهيشما درونا، أبا أشفاتمن، ذا الصوت الجهوري ليعلم الفتيان علوم الحرب ويدربهم على استعمال السلاح. وكان لدرونا شأن مع دروبدا ملك البانتشالا حمله على البحث عن حلفاء يكيدون له، فلجأ إلى هاستينبورا، وهناك أقام في بيت كريبا.

أخذ درونا في تدريب الفتية على استعمال السلاح كما عهد إليه، ولا ينقطع عن ملاحظتهم بعينه الحصيفة. فوجد الأخوة آل باندو ذات يوم يتقاذفون كرة كانوا يلهون بها، ورآهم يحتارون كيف يستردونها حين أفلتت منهم وسقطت في بئر بالجوار، فبرز لهم وجعل يسخر من قلة حيلتهم بعبارات قاسية يزيد من قسوتها أن قائلها أحد البراهمة: «يا للشتريا! أسياد السيف والرمح والسهم تزعمون أنكم من الشتريا ولا تملكون أن تستعيدوا كرة من بئر! هيا إني أراهنكم على عشاء الليلة، إن استطعت رفع الكرة ومعها هذا الخاتم» وخلع عندئذ خاتماً من إصبعه ورماه في البئر.

قال يوديشترا: أمر العشاء يسير، فاطلب شيئاً ذا بال!».

«إذن، فانظروا هذه الأعشاب الحادة المستقيمة كالسهم! لسوف أرسلها واحدة إثر الأخرى، فأجعل منها سلسلة منتهاها هنا فأجذب الكرة إليكم فراقبوا!».

وقف الجمع ينظرون في ذهول وهم يرون درونا يرسل العشبة كالسهم فتخترق الكرة. ثم يرسل الثانية فتثبت في ذيل الأولى، ثم يرسل الواحدة بعد الأخرى تباعاً فإذا هي سلسلة متصلة مستقيمة أمسك بذيلها عنده فسحبها بيسر والكرة معلقة برأسها، والفتية ينظرون المشهد مشدوهين يكادون لا يصدقون ما تشاهده أعينهم!

سُرَّ بهيشما أيما سرور بما رأى من مهارة درونا، فقر قراره على أن يولي الرجل أمر تدريب الفتية على استخدام السلاح.

سأله بهيشما عن سر براعته وما حمله على امتهان التعليم والتدريب. فأجابه: «اعلم أني قد أخذت العلم عن حكيم عالم من كبار العارفين، وكنت له تلميذاً وخادماً ملازماً له. وكان بين طلابه دروبدا، واتصل بيننا الود مما حمله ذات يوم على أن يعاهدني على إقطاعي أرضاً من مملكته متى تولى العرش. وما زلت أذكر العهود والمواثيق التي قطعها لي بعدما أنهى دراسته وغادرنا.

«وقد قدِّر بعد ذلك الحين أن أتزوج وأُرزق بابني أشفاتمن. وأذكر أن الطفل جاءني باكياً يوماً يخبرني أنه رأى أحد أقرانه من أبناء الأغنياء يجرع الحليب، فاشتهته نفسه ولم يجد في الجوار شيئاً منه. ولقد شق علي أن أرى الطفل يتوق إلى شيء ولا يناله، وآلمني أن أراه على هذه الحال من البؤس وأعجز عن تلبية رغبة تداعب نفسه. فنهضت أطرق الأبواب عليّ أجد من يجود عليَّ ببقرة ولو عجفاء تدر للطفل شيئاً من الحليب، إلى أن أعجزني الأمر. فلما عدت إلى البيت رأيته يرقص فرحاً وهو يلعق قطرات بيضاء على شفتيه، وعلمت عندئذ أن بعض رفاقه قدموا له رزاً مهروساً، فخيل له أنه الحليب. فازددت تألماً، وتألمت مرة أخرى إذ وجدت الناس يرون ما أنا عليه من الفقر، فأُقصر عن شراء الحليب لابني، فعزمت عندئذ على ألا أخدم إنساناً، فحملت زوجي وطفلي، ومضيت إلى صديقي العزيز القديم دروبدا، وقد غدا اليوم ملكاً، فقصدت مجلسه وذكرته بالصداقة التي جمعتنا ونحن في خدمة معلمنا وما كان من عهده لي. ولكن الملك، صديقي القديم، قابلني بالاستهزاء، وسخر من أقوالي. ولقد وصفني بالوقاحة، إذ وضعت نفسي، أنا البراهمي الفقير المعوز، في مصافه وهو الملك العظيم. أما ما كان من أمر الصداقة التي جمعت بيننا ذات يوم فقد أنكره واستنكره أشد الاستنكار، وقال لي إن الصداقة لا تكون إلا بين الأنداد ولغرض مقصود. فليست هناك صداقة بين غني وفقير، ولا بين الحمقى المغفلين والشيوخ العقلاء، ولا بين الشجعان والجبناء. ثم ندد بي لتواضع أصلي وحالي. نعم يا مولاي، لقد هزأ بي وسخر مني! ثم

أنكر العهد الذي قطعه لي وفي النهاية قال: «إن شئت مهجعاً تأوي إليه آويناك الليلة وأطعمناك! ولكني غادرت قصره لا ألوي على شيء، وقصدتك أنشد الملجأ عندك. فإذا شئت كنت في خدمتك. ولست أطلب أجراً سوى أن تعدني منذ الآن بتلبية مكرمة إن سألتك إياها!».

ابتسم بهيشما عندما بلغ الرجل نهاية حكايته. ولكنه لم يشأ وهو الشيخ المجرب العارف بمسالك الحياة ونال نصيباً من الحكمة، أن يطلب منه الإفصاح عن مراده. فآثر اختصار الحديث، وقال لمحدثه: «حسبك أن تشد وتر قوسك إلى أقصاه، أيها البراهمي، فتدرب أهلنا على السلاح. ولن نقصر في مكافأتك!».

وفي ذات يوم استدعى درونا تلاميذه الأمراء، فجاؤوه ورموا بأنفسهم عند قدميه. فألقى فيهم خطبة وسألهم العهد بأن يلبوا له ما يطلب، حينما ينجز تدريبهم. وجم الجمع عند سماع هذا القول، ووقفوا أمام المعلم صامتين لا ينبسون ببنت شفة، إلا أرجونا فأعطاه العهد. وللتو تقدم منه درونا يعانقه ويضمه إلى صدره، وكان أن سرى بين الرجلين شعوره نفذ بينهما وجمعهما إلى بعضهما. وبات أرجونا منذ ذلك الحين، يلازم مدربه ملازمة الظل ويأخذ عنه مهنة السلاح وفنون القتال.

ولقد شاع صيت درونا منذ ذلك الحين، فأخذ الأمراء يقصدونه من الممالك المجاورة، وأقبل عليه كل من يريد البروز في ميادين الحرب. وكان من بين هؤلاء فتى يقال له كارنا لم يعرف أبواه وجل ما عرف عنه أنه نشأ في كنف سائس في الاصطبلات الملكية. ولئن بدا مجهول الأصل فقد تجلى عليه ما ينبئ بعراقة المحتد. فلا عجب إن غدا هذا الفتى وأرجونا غريمين، دأبهما التنافس على الصدارة بين طلاب درونا الآخرين. وكان يميل بالمقابل إلى دريودانا وإخوته ويؤثرهم. فيقابله دريودانا ميلاً بميل وإيثاراً بإيثار. أما صلته بأبناء باندو فكانت أقرب إلى الفتور.

وكان أرجونا أشد المريدين إقبالاً على أخذ العلم عن هذا المعلم العظيم الذي استهواه هذا الإقبال وهذا الشغف من تلميذه. فأخذ يبذل له من معارفه. ويدأب على تلقينه الأصول ويبسط له الفروع في علوم السلاح، فلا يمسك عنه شيئاً مما يعرف من العلوم وفنون الأولين، ومازال على هذا الحال في تعليم تلميذه، حتى قدر له أن يبز أقرانه في الساحة.

بيد أن المعلم درونا كان، على الرغم من إخلاصه في تعليم تلامذته، يخص ولده أشفاتمن بالقدر الأعظم من عنايته، فينتهز الفرص كلما سنحت، أو غاب تلامذته، ليزيده تدريباً ومراناً. وبلغنا أنه اعتاد أن يرسل الفتيان ما بين الحين والحين، ليحملوا إليه الماء من نبع كان يقع على مسافة من الساحة. وكان يلجأ في هذا إلى تحميل الإخوة أبناء باندو جراراً كبيرة ضيقة العنق صغيرة الفوهة ولكن ذات بطن واسعة، بينما كانت جرة أشفاتمن واسعة العنق كبيرة الفوهة، إنما صغيرة الحجم ضيقة البطن. فلا عجب إن كان أسبقهم في العودة إلى والده ليزيد له في العلم والتدريب، ورفاقه الآخرون غافلون عن حقيقة الأمر. وقد ظل هذا شأنه إلى أن وعى أرجونا الأمر، واستطاع أن يتدبره بسلوك طريق مختصرة، فلا يلبث أن يلحق بأشفاتمن ويشاركه التدرب، فلا يزيد عنه هذا في شيء.

ثم كان أن عمد درونا إلى منع العشاء عن أرجونا، إلا في النور، دون العتمة. ولكن صادف أن هبت ريح شديدة ذات مساء، وهو يتناول عشاءه، فأطفأت القنديل في غرفته، فاضطر عندئذ لأن يتناول عشاءه في الظلام.

أوحت له هذه التجربة أن يتدرب على رمي القوس في الظلام، فدأب منذ ذلك الحين على هذا النهج، وغدا في النهاية متمكناً من إصابة الهدف في حلكة الليل. ولما بلغ هذا مدربه درونا ضمه بين ذراعيه قائلاً: «قسماً لأجعلنك أعظم رماة هذا العالم». وهكذا مضى المعلم في تدريب تلميذه، فحذق الرمي فارساً، وبرّز في التسديد

راجلاً، ثم تدرج في التدريب، فجلّى في فنون المبارزة بالسيف، والقتال بالرمح، والصولجان.

وشاء الأمراء الفتيان أن يمضوا ذات يوم في رحلة صيد في الغابة فأذن لهم شيخهم، فشدوا قافلتهم وفي إثرهم خادم وكلب. وفي لحظة من تلك الرحلة. افتقد الجمع الكلب، فوجدوه قد شرد وضل الطريق. وقد فاجأ الكلب منظر رجل داكن البشرة، وسخ البدن، طويل الشعر، وزاد من غرابة منظره ذلك الزي الأسود الذي كان يرتديه، فأخذ ينبح بقوة لشدة فزعه، وحين ضاق به الرجل رماه بسبعة سهام، وهو ملتفت عنه. فإذا بها تصيبه وتتجمع كلها في فمه. وانطلق الكلب متحاملاً على نفسه إلى حيث يوديشترا وإخوته ليروا حاله، ثم التفت وعاد من حيث أتى وأصحابه يتبعونه في مقصده ليوصلهم إلى ذلك الغريب. سألوه أن يعرِّفهم بنفسه. فأخبرهم الرجل بأنه إيكالافيا ملك النيشادا وتلميذ درونا.

قفل الجمع عائدين بعد ذلك اللقاء إلى المدينة، وشرع أرجونا يبحث لحظة وصوله عن درونا ليعاتبه وفي صوته نبرة من أصابه الخذلان. إذ كيف يقطع له الوعد بأن يجعل منه أعظم الرماة، ثم يبذل بعدئذ أسرار معرفته لايكالافيا هذا، وهو دونه أصلاً ومكانة!

قصد درونا ومعه أرجونا الغابة، وقد اعتزم أمراً مع ايكالافيا. فوجدا الرجل مستغرقاً في التدريب. فلما رآهما يقتربان من موقعه، هرع إليهما وانحنى يلمس أطراف قدم درونا ويرمي بنفسه إجلالاً له.

وللتو بادره درونا، قائلاً: «قد قصَّرت عن تسديد أجري، يا هذا!».

رد إيكالافيا: «فليشر إليَّ مولاي بالأجر الذي يشاء. ولن يجدني مقصراً عن أداء حقه عليّ».

قال درونا: «إذن، فاعطني إبهام يدك اليمنى!».

التقط ايكالافيا سكيناً من جانبه في لمح البصر وقطع الابهام،

كما رغب معلمه، وعلى وجهه علامات البشر والسعادة، ولكنه فقد منذ تلك اللحظة مرونة اليد والمهارة. وعندئذ هدأت نفس أرجونا.

مضى حين ودرونا يقوم على تدريب الفتية، ثم أراد اختبارهم. فاستدعاهم ذات يوم، وأشار إلى صورة نسر صنعه من الخشب فوق أعلى شجرة، وطلب إليهم عندئذ أن يتبينوا الهدف، ويحكموا التسديد، ويشدوا الوتر إلى نهايته لإطلاق السهام عند الإشارة، كل بدوره.

ثم التفت إلى يوديشترا وأشار إليه أن يتقدم، وقال حين أصبح الفتى قريباً منه: «لتكن أنت الأول: أطلقْ سهمك حينما أشير لك». التقط الفتى قوسه وشد الوتر، ووقف متهيئاً لإطلاق السهم عند الإشارة.

سأله درونا: «أترى الطير في أعلى الشجرة؟» أجاب يوديشترا أن نعم. بادره درونا عند سماع جوابه بأسئلة متلاحقة: «وماذا ترى؟ أتراني؟ أم أنك ترى إخوتك؟ أم الشجرة؟ أم الطير؟».

رد يوديشترا متأنياً متمهلاً: «إني أراك، وأرى إخوتي، كما أرى الشجرة والطيرة».

كرر درونا السؤال ثلاث مرات ليبلغه الجواب ذاته ثلاث مرات أيضاً، فاستولى عليه الغم لسماع هذا الجواب، ولم يملك إلا أن ينحيه جانباً، فإن يوديشترا ليس بالرجل الذي يسقط سهمه الطائر.

ومازال الأمراء والنبلاء يتعاقبون على الرمي، وكان درونا يسأل كل واحد منهم ذلك السؤال الذي طرحه على يوديشترا، فيجيب بمثل ما أجاب. ولم يبق من هؤلاء إلا شخصاً واحداً وقف ينتظر دوره، بينما درونا يكاد لا يمسك لسانه عن التنديد بخيبة مريديه عند التجربة ثم توقف في النهاية والتفت مبتسماً إلى تلميذه الأثير إلى قلبه، أرجونا، وقال له: «لم يبق، يا أرجونا، إلا سهمك ليسرع إلى هدفه والآن أخبرني، ووتر قوسك مشدود، ماذا ترى؟ أهو الطير، أم الشجرة، أم تراني أنا، أم أنك ترى أصحابك وأقرانك؟».

أجاب أرجونا دونما تردد: «إني أرى الطائر ولا أراك ولست أرى الشجرة كذلك!». سأله درونا باقتضاب «صفه، إذن!» أجاب أرجونا: «إني أرى رأسه فحسب».

قال درونا وهو لا يخفي غبطته: «فأرسل سهمك! وفي لمح البصر طار رأس الطائر. وللتو التفت إلى تلميذه وضمه إلى صدره بقوة، بينما ذهب بمخيلته إلى دروبدا وقد مثل أمامه مدحوراً، بعد هذا الانتصار الذي تحقق لتلميذه في ذلك اليوم.

رغب درونا بعد حين في إقامة عرض يظهر فيه ما بلغ طلابه من شأو عال في علومهم. فمضى عندئذ إلى الملك ديتراشترا يستأذنه فيما اعتزم، وخاطبه في هذا الأمر: «ها قد اكتمل تعليم أبنائك، يا مولاي، ونالوا ما ينبغي للمحاربين أن يصيبوا من علوم الحرب وفنون القتال. فهلا أذنتم، يا راجا، بأن يعرضوا أمامكم ما اكتسبوا من هذه المعارف وتلك المهارات؟».

أجاب ديتراشترا: «فلتحدد الزمان والمكان لهذا الاستعراض، أيها البراهمي النبيل. ولسوف يقوم فيدورا بإعداد ما ينبغي. ولكم يحزنني أن أكون كفيف البصر، فأحسد هؤلاء الذين أسعدهم الطالع بأن يشهدوا براعة أبنائي!».

وكان أن التفت درونا إلى اختيار موقع المباراة، ثم أوعز بإنشاء قاعة واسعة على تلك الأرض الجرداء التي رأى فيها ما يناسب الغرض، وحشد فيها صنوف الأسلحة. كذلك أنشأ قاعة تختص بالنساء ليشهدن المباراة والمبارزين، بينما جهز أهل الثروة أماكنهم ونصبوا الخيام الواسعة في مواقعهم.

وفي اليوم الموعود جاء الملك ديتراشترا في موكب عظيم ليرعى امتحان الفرسان يحف به وزراؤه من كل جانب وفي مقدمتهم بهيشما وكريبا. وإذ بلغ القاعة شقت أمامه الصفوف ليتخذ مكانه على كرسي من الذهب الخالص المطعم باللؤلؤ واللازورد، بينما اندفعت جموع الناس تتزاحم وقد استولى عليها الحماس، فبدا

المكان أشبه بمحيط من الضجيج، بين قرع الطبول وصداح الأبواق وضجة المشاهدين والحشود.

كان درونا آخر من دخلوا الساحة، لا يصحبه إلا ابنه أشفاتمن، وبدا بردائه الأبيض والخيط المقدس ولحيته وعقود الزهر حول عنقه، ومعجون الصندل الذي دهن به جسمه، أشبه بالقمر حين يواكبه كوكب المريخ في السماء الصافية. وللتو شرع البراهمة يتلون الترانيم، المانترا، بأصوات رخيمة وإيقاع محكم فسرت بين القوم رهبة، فهدأوا وسكنت حركتهم، وتسمروا في أماكنهم ينظرون إلى موكب الأبطال يتقدم أمامهم في الساحة. فأُخذوا بذلك المشهد وهم يرون الفرسان يمضون، أو يثبتون، بهاماتهم الفارعة وأجسادهم التي تتفجر قوة وحيوية ويزيدها بهاء ذلك التناسق بين الأعضاء، وما تنبئ عيونهم وتفصح عن شجاعة أصحابها وبأسهم.

وإذ اتخذ كل موقعه على الساحة أشار درونا إلى العازفين أن يبدأوا العزف، ثم تقدم وصاح بصوته الجهوري: «هاكم أرجونا الذي له مكانة الابن في قلبي يتقدم الآن ليعرض فنونه وبراعته في استعمال السلاح!».

برز أرجونا مرتدياً درعاً ذهبية، حاملاً قوسه وكنانته، فبدا عندئذ أشبه بسحابة ساعة الغسق حين تعكس الشمس وهي تغرب لحظة المغيب، وصور للحضور بهامته الممشوقة ودرعه وسلاحه صورة قوس قزح، وتهيأ لهم، في لحظة أخرى، أنهم إنما يشاهدون وميض البرق الخاطف.

صدح النافخون في أبواق من أصداف البحر بنغم يعلن بدء العرض، والحضور في ابتهاج وسرور للمشهد الأخاذ، فيما تابع درونا: «هاكم ابن كونتي صاحب المقام السامي، ثالث آل باندو، منقذ أمة القوروش، حامي الفضيلة، ومستودع المعرفة!».

تقدم أرجونا للتو يعرض براعته ومهارته، فيطلق سلاحه

الناري فإذا بالنار تندلع منه ويمتد اللهب مسافة بعيدة، ثم يطلق سلاحه المسمى بالفارونا فإذا بالماء يندفع اندفاعاً ويدفق دفقاً شديداً، وهكذا مضى ينتضي ما كان له من الأسلحة، ويعالجها فتثير ماشاء لها أن تثير، فرأى القوم سلاحاً من هذه الترسانة من الأسلحة الخارقة التي تعرف بالأنتار داهانا، يثير السحب، وآخر يطلق العواصف، ثم آخر يرسم الجبال. وكان أرجونا في كل هذا يصول ويجول في الساحة، فينتصب سامقاً حيناً، أو يتخذ شكل القزم حيناً، ويراه القوم عالي الهامة يكاد يخترق الأفق، ثم يرونه جالساً القرفصاء يكاد لا يلحظ كأنما تلاشى في الفراغ. ورآه الناس يطلق خمسة سهام من قوسه برمية واحدة فتتجمع في فك خنزير بري وضعه منظِّم المباراة ليكون دريئة متحركة لاختبار مهارة الرماة، ثم أذهلهم أن يروه يطلق على قرن ثور تدلى من حبل فيصيبه في تجويفه بعشرين من سهامه فلا يحيد واحد منها. وهكذا استمر يصول ويجول في الحلبة مرة بعد أخرى يعرض أمام الحاضرين براعته في استعمال السيف والرمح، والقوس والنشاب.

ثم إذا فرغ من عروضه تقدم كارنا، فبدا منتصب القامة، مهيباً، يطاول برأسه شجر النخيل، أخاذاً بوسامته وعينيه السوداوين الواسعتين، متألقاً بدرعه الطبيعي وقرطيه اللامعين، وإذا مشى لاح للجميع كأنما هو صخرة هائلة تتدحرج على الأرض، فلا يكاد يوجد من يقوى على اعتراضه. وهكذا مضى هذا البطل الصنديد في طريقه بخطوات واثقة، حتى إذا صادف أن اقترب من درونا وكريبا حياهما دونما تكلف ثم وقف ليعرض مهارته بدوره، وشرع عندئذ يبدي من المرونة والقوة والبراعة ما يجعله نداً لأرجونا الذي وقف يرقب المشهد يتآكل قلبه وعقله قلقاً وغضباً. ولما انتهى من عروضه تقدم منه دريودانا معانقاً مهنئاً مثنياً: «أهلاً بك في صفنا أيها المحارب النبيل! إنك لجدير أن تتولى مملكتنا إن شئت!».

رد كارنا: «هذا كرم منك وفضل!» ولكني ما جئت إلا لمنازلة أرجونا. وإذ بلغ أرجونا هذا الحديث اعترض كارنا، بقدر ظاهر من

الحنق، قائلاً: «إذن فلسوف تنال مني يا هذا ما هو جدير بالثقيل المتطفل وإني لقاتلك اليوم».

«أراك تكثر من التشدق والتبجح، يا أرجونا! ولعلك نسيت أن في الساح آخرين غيرك من المحاربين الشتريا، بل ولعل منهم من يفوقك قوة وشجاعة؟ أو أنك نسيت أيضاً أن العبارات الطنانة ليست من أسلحة المحاربين! هيا، ليكن حديثنا بالنزال والطعان، بالقوس والنبال، كما ينبغي أن يكون الحديث بين المحاربين!».

التفت أرجونا إلى إخوته وعانقهم، ثم مضى إلى جانب من الساحة، حيث كانت تجري مباريات الرمي.

وقع ما أذهل الناس، وحار المشاهدون في الظاهرة العجيبة التي عرضت لهم وأثارت فيهم الفرق. كان الجو يومذاك بديعاً رائعاً، والسماء زرقاء، رائقة صافية، لا تعكرها سحابة. ثم فجأة اكفهر وجه السماء وتلبدت بالغيوم، وحلت ظلمة شديدة، وكأنما النهار قد تحول إلى ليل. ولبث هذا الحال فترة لم يستطع القوم تقديرها، حتى انتصب في المكان قوس قزح، علامة إندرا، وبدت الغيوم ترسم في السماء صفوفاً من الأنياب المدببة.

وفي تلك اللحظة وقعت كونتي، أم أرجونا وكارنا مغشياً عليها. فتولاها فيدورا والوصيفات بمعجون خشب الصندل ورشوها بالماء، حتى انتعشت وأفاقت من الغيبوبة، فرأت أبناءها متهيئين بدروعهم، متنكبين أسلحتهم، فازدادت خوفاً على خوف وجزعاً فوق جزع.

ولما شاء الجمع استئناف النزال، وألحوا في الطلب وقد عرفوا بأس كل منهما، وخبروا براعته في استعمال السلاح، التفت كريبا العارف بقوانين المبارزة وتقاليد القتال وقال مخاطباً كارنا: «اعلم أنك تواجه أفتى أبناء كونتي: أرجونا من آل قوروش. فإلى من تنتسب أنت؟ وما هو أصلك؟ ومن يكن أبواك؟ فلا بد لك يا هذا من أن تأتي بنسب يماثل نسب أرجونا ابن الملوك الأصيل لتنازله. فأبناء الملوك لا ينازلون إلا أندادهم»!

امتقع وجه كارنا وتصبب عرقاً بارداً، وهو يسمع عبارات كريبا تخترق أذنيه كالصواعق.

تدخل دريودانا معترضاً الحديث قائلاً: «ولكن أليس حقاً، أيها الحكيم العارف، أن الأسفار المقدسة بينت أن ثلاثاً من الناس لهم الحق في الانتساب إلى المراتب العليا؛ من يجري في عروقه دم النبالة، والبطل المقدام، وقادة الجيوش؟ فإذا شاء أرجونا ألا ينازل إلا ملكاً فله الحق كل الحق في الإصرار على هذا. ولكن ها أناذا أسمِّي كارنا ملكاً، وأُقطعه مملكة أنغا. أفليس أهلاً الآن للتحدي والمنازلة؟» وللتو أحضر طعام ملكي، ورصفت الأزهار على الممر، وجلبت قدور من الماء، مما يدخل في مراسم تنصيب الملوك، وأُجلس كارنا على كرسي من الذهب، بينما كان البراهمة يتلون ترانيم المانترا المقدسة مباركين هذا التتويج، التفت كارنا متأثراً بهذا التكريم وسأل دريودانا: «كيف لي أن أرد لك هذه المكرمة؟».

ردَّ دريودانا: «حسبي منك صداقتك!» وفيما كان القوم منشغلين بهذا الحدث العظيم، أقبل سائق العربة أديراثا العجوز وهو يحاول شق طريقه إلى الجمع. لمحه كارنا فهرع إليه وجبينه مازال مغسلاً بالماء الذي مسح به عند التتويج، وضمه إلى صدره وهناك نادى أديراثا كارنا بصفة الابن أمام جميع الناس.

ردد بهيما هازئاً: «ابن حوذي، إذن! فلنأمل أن تلقى حتفك اليوم بجلال الملوك. إن لك حقاً في الملك مثلما للكلب حق في السمن المقدس الذي يغذي نار الطقوس!».

سمع كارنا مقالة بهيما، لكنه صمت ولم يأت بكلمة. ولولا رعشة بدت على شفتيه لحسبه المرء أصم. تنهد تنهيدة عميقة، ثم تحول بعينه إلى الشمس.

بدا دريودانا وكأنما قد ضاق صدره فنهض محنقاً وانتهر بهيما معنفاً: «إنك تلطخ فمك بهذه العبارات. إن ابن طبقة الشتريا جدير بقدر من الاحترام أعظم من هذا. وأي بطل من الشتريا خلت

سلالته من الشوائب؟ لقد ولد درونا في طست، وكريبا في غابة. وإذن فأي صلة هناك بين عراقة النسب والمبارزة الشريفة النزيهة؟ وأنا أعلم قصة مولدك حق العلم. وبعد، أتراك تحسب أن نمراً مثل كارنا قد يولد من غزال؟ وإذا كان هناك من يتبرم برعايتي له فليحمل عدته ويغادرنا إن شاء!».

ساد المكان هرج ومرج عند سماع قول دريودانا، وتعالى صياح الناس وأكثرهم مؤيد يستحسن موقفه. وفيما كانت الشمس تودع ذلك النهار الحافل أخذ دريودانا يخلي الطريق أمام كارنا ويمشي به على ضوء القناديل التي تبدد عتمة المساء، فيما انتجع آل باندو إلى رمابعهم، وشرعت جموع الحاضرين في الانصراف، وأصوات الهمهمات ماتزال تسمع بين معجب بأرجونا وآخر منحاز إلى كارنا. ليلتئذ باتت كونتي قريرة العين سعيدة بهذه الخاتمة. وكان هذا حال دريودانا أيضاً، إذ استراحت نفسه إلى كسب حليف يضارع أرجونا في قوته وبأسه.

كان قد مضى على ذلك الحدث حين أو بعض الحين، يوم ألح الخاطر على درونا أن يطالب تلامذته بتسديد دينهم له. ولم يكن له إلا أن يسألهم أن يأسروا له الملك دروبدا ولا شيء سوى ذلك.

وقد كان له العهد منهم بالسعي إلى دروبدا. فهيأ الأمراء حملة لغزو مملكته. فلما اجتاحوها انطلقوا بعدئذ لإحكام الحصار على عاصمته حتى فتحت أبوابها، فكان دريودانا وكارنا ويويوتسو أول من دخلها بالعربات، ثم لحق بهم الأمراء الآخرون على صهوات الجياد.

ولكن دروبدا فاجأ مهاجميه بأن حمل عليهم بعد أن نظم صفوف السكان لمقاومة الغزاة فكان أن واجهوا ما لم يكن منتظراً، وزاد من المفاجأة أن دروبدا ظهر بينهم، مندفعاً بعربته يمطر المهاجمين بسيل من النبال المتطايرة على الجانبين. ومازال الرجل

يحمل على مهاجميه ويشتد في حملته حتى تبعثرت صفوفهم في كل اتجاه وانكفؤوا على أعقابهم مدحورين فلجأوا في النهاية إلى حمى آل باندو.

ولما رأى أرجونا الهزيمة تنزل بفرقة القوروشيين، تهيأ لمتابعة الحملة وشد في الاندفاع لملاقاة دروبدا، بعد أن كلف ناكولا وسهديفا بحماية جناحيه، بينما قاد هو قلب الهجوم وبجانبه بهيما يصد الهجمات ويغير بالرمح في يده على المهاجمين: وكان أرجونا يندفع باتجاه الكتائب الكبيرة التي يدعم بها العدو نفسه، وبهيما يبادرها برمحه، حتى تشتت شمل القوات المعادية وتبعثر ما سلم من الفيلة في كل اتجاه، بينما كانت الفيلة التي واجهت صدمة الهجوم بأجسادها الضخمة تطلق صرخات الألم بعدما أثخنها رمح بهيما بالجراح. وفي لحظة لمح أرجونا دروبدا يحاول الهرب من بين الصفوف، فجد في إثره كطائر الغارودا حتى لحق به وتم له أسره.

أما وقد تم لأرجونا ما أراد وبرّ بوعده لمعلمه درونا، فإنه لم يشأ أن يتابع مطاردة فلول قوات دروبدا، فخلى عنهم وأطلقهم ليعودوا إلى أسرهم وأهلهم.

وهكذا اقتاد أرجونا دروبدا إلى درونا، لتكون المواجهة المشهودة.

وقف دروبدا أمام درونا يجلله عار الهزيمة، منتظراً حكم الانتقام.

تأمل درونا من كان صديقه بالأمس وغدا أسيره اليوم يقف أمامه صامتاً مطرق الرأس. وأخيراً قطع الصمت الثقيل الذي خيم على هذا اللقاء: «قد كانت بيننا صداقة وعهود ومواثيق، ثم أنكرت علي بقرة واحدة ليشرب من حليبها ابني الصغير. وها أنت قد بددت ملكك وأبحث عاصمتك، وبات مصيرك معلقاً على كلمة مني! لكننا معشر البراهمة قوم متسامحون لا ننزع إلى الضغينة، بل إننا نميل

إلى الصفح والمغفرة، وإن واجهتنا بالإساءة. فلا بأس عليك! لا بأس عليك!».

توقف لحظة وارتسمت على شفتيه ابتسامة رقيقة عذبة رصينة، ثم تابع: «لقد جمعتنا صداقة ذات يوم، أفترانا نستأنف عهدنا القديم؟ فإن شئت كان لك جنوب مملكتك، ولي الشمال. وبذلك تكون الصداقة بين الأنداد، كما علمتك تقول ذات مرة. فما قولك في هذا؟».

أجاب الملك دروبدا: «لا عجب فيما تقول! فالعهد بك أنك قادر ونبلك مشهود. وإني لأبادلك الآن صداقة بصداقة!».

ترك دروبدا المجلس حراً طليقاً حقاً، ولكن مكدر الفؤاد أيضاً لشدة هذا الهوان وهذا الذل اللذين نزلا به. ومضى الرجل والغل في قلبه يسري ويستولي على كيانه كله، متوجهاً إلى عاصمة ملكه الجديدة والحقد يجزي فيه مجرى الدم وتثور نفسه وتزداد ثورته اضطراماً، كلما فكر فيما آل إليه وعلم مبلغ عجزه عن دحر درونا واستعادة كامل ملكه. ولم يجد عندئذ رجاءه إلا في ولد يعده لليوم العظيم، يوم الثأر!

طفق الملك يبحث عمن يحقق له الأمل في خليفة يحمل هذه المهمة ويريحه مما يعتمل في قلبه، ويدور في خاطره. ووجد ذلك في البراهمي ياج الذي أوعز إليه أن يعدّ ناراً عظيمة.

اشتعلت النار واندلعت منها ألسنة لهب هائلة وكلما اضطرمت كان البراهمي يصب عليها الزبد مدراراً فتزداد لهيباً واشتعالاً ومازالت النار تتأجج حتى خرج من وسط اللهيب طفل يحمل ملامح الآلهة، مرتدياً درع الفرسان، في إحدى يديه قوس رهيب وفي الأخرى كنانة النبال. وصدح عندئذ صوت في عنان السماء يعلن أن هذا الطفل إنما جاء إلى العالم ليقضي على درونا، ويعلي مجد سلالة البانتشالا وينشره في العالم، ويحمل الختام للأسى الذي يعتصر قلب الملك.

تسمر القوم عند النار وهم يرون بعدئذ فتاة تنهض من وسطها

بين ألسنة اللهيب، ثم تبدت أمامهم حورية ذات عينين سوداوين واسعتين، ينسدل شعرها حتى الظهر كموج البحر الأزرق، على بشرة داكنة، ممتلئة القوام، عامرة الصدر، ضامرة الخصر، ممتلئة الأرداف، حلوة الأعطاف، يفوح منها أريج الورود.

ولقد سمى البراهمة الصبي دريشتديومنا، لأنه ولد يحمل درعه معه. أما الفتاة فغدا اسمها دروبدي، كما عرفت بالداكنة، كريشناء أيضاً.

عام مضى والناس يلحون على ديتراشترا أن ينصّب يوديشترا ولياً للعهد، يحملهم على هذا الإلحاح ما عرفوا من طيب خصاله حين جمع في ذاته؛ الحزم مع الأناة، والعطف مع الحب والصدق، حتى استأثر بولاء الشعب في كل المملكة. وما هو إلا عهد قصير حتى بات الرجل متمكناً من فنون الحكم، بل وتفوق في ذلك على أبيه الذي عرف برسوخ قدمه بعلم السياسة وفن الدهاء.

ولقد أزعج ديتراشترا ما بلغه عن آل باندو من الحظوة عند الناس، وكاشف وزيره كانيكا بما يعتمل في فكره وقلبه يسأله النصيحة.

وجاءته النصيحة من البراهمي: «ليعذرني مولاي إن وجد في قولي ما يزعجه ولكن ليعلم مولاي أن للملك مسالك في الحكم عديدة. ولكن أهم مواهب صاحب السلطان أن يحرص على إخفاء ضعفه شأن السلحفاة إذ تخفي رأسها، وقد يفيده أن يتظاهر بالصمم أو كلل البصر. ذلك أنه لن يجديه أن يرسم أو يأمر بما ليس إلى تنفيذه سبيل. أما إذا أسعفتك القدرة فدونك أعداءك اعمل في رقابهم السيف ولا تأخذك بهم رحمة، مهما يكن أحدهم، ابناً كان أم صديقاً أم أخاً، بل ويهون الأب والشيخ المرشد أيضاً. أظهر الابتسام حين تكون غاضباً، وليكن حديثك ليناً وصوتك رقيقاً عذباً. وإذا حانت الساعة، فاضرب دونما رحمة أو شفقة. فإذا قضي الأمر أظهر الحزن والأسى وابذل دموعك سخية على ضحاياك.

اجمع الثروات ما استطعت، ولا يردعنّك عن ذلك أمر فالعصي كلها سواء، إذا أردتها في قطف الثمر من الشجر.

واحذر أن تولي عدواً ثقتك. ابثث العيون والأرصاد في كل مكان، ولا تدع مكاناً إلا وتخبر أمره، يستوي في ذلك المعبد والحانة والحريم، وحيثما يأتلف الناس ويجتمعون.

ولتكن شأن الصياد بأن تثري باكتشاف أعدائك واجتثاث شأفتهم!.

لتكن رقيقاً في حديثك، ولكن ليكن قلبك شديداً قاسياً! تمالك جأشك ولا تكشف عن مشاعرك، بل اجعل من قلبك بئراً تستودعه عواطفك. ولتكن عزيمتك ماضية كحد السيف!.

وإذا عزمت على أمر اليوم فتدبر عاقبته غداً. وخلاصة القول، يا مولاي، إنك لتحسن صنعاً إن نهضت لتبحث أسباب مخاوفك من آل باندو».

وهكذا غادر كانيكا القصر إلى بيته، وديتراشترا في حال من التفكير والتأمل.

كان الحقد يغلي في قلب دريودانا، وهو يرى آل باندو يزدادون نفوذاً وقوة. وكان يضيق أشد الضيق حين يظهر أمامه بهيما بقوته وشدته، ويبرم أعظم البرم لمرأى أرجونا. ونظر الفتى حوله فوجد في كارنا وشاكوني ودوشاسنا حلفاء له في التآمر عليهم، واستقر القرار بينهم على التخلص منهم.

وكان أن مضى رأس المتآمرين دريودانا إلى أبيه ديتراشترا يعرض عليه الأمر، محذراً مما لآل باندو من الحظوة بين العامة ومالهم من القوة والبأس. وأضاف إلى مخاوف الأب الأعمى بأن ذكّره بالمصير الأليم الذي سينتهي إليه عقبه بعد وفاته فيغدون عالة على موائدهم. ثم سأله أن يأذن له بأن يتولاهم قبل فوات الأوان. وظل الأب يصغي إلى حديث ابنه حتى نهايته قبل أن يسمعه رأيه: «رويدك يا بني إن يوديشترا ابن عمك، وهو فتى عاقل يلزم الفضيلة

في المعاملة، وقد أخذ عن أبيه الحكمة ورجاحة العقل. ولست أظنه يتنكر لكم أو يمتهن كرامة ذوي القربى، في يوم من الأيام. ولابأس إن صانعت أبناء عمومتك الآخرين، فلست أراهم يحملون لك. في قلوبهم غلاً، ولعلك تضيق بما تسمع مني، ولكني إنما أقول هذا إشفاقاً عليك مما تدبره ولا قَبِل لك به. أجل النظر حولك ولسوف ترى الناس يوالون يوديشترا لطيب معشره، وقادة الجيوش يؤازرونه وقد كسب طاعتهم، ولو أتيت بأمر رأوا فيه مكروها لوجدت نفسك معرضاً من كل جانب بلا ظهير أو شفيع فتروّ يا بني، وإلا وجدت العامة تثور علينا. فلا تتهور يا بني ولا تطلق لسانك في ما يضرك، واستعن على قضاء حاجاتك بالكتمان».

ولكن دريودانا لم يقنع بنصيحة الأب، وبدا مصراً على المضي في خطته والتخلص من آل باندو خشية أن يستأثروا بالملك، فتذوي شجرة آل قوروش. وقال يطمئن الملك العجوز الأعمى: «أي أبت، إنك تتهيب أموراً لا سند لها من الواقع. فها قد كسبنا أشفاتمن، ابن درونا إلى صفنا، وبذلك كسبنا معه ـ الأب وقريبه كريبا. أما بهيشما فإنه سيلزم الحياد في أسوأ تقدير. وأما فيدورا فإنه عاجز عن معارضتنا، أو قل إنه لن يجاهر بالمعارضة. فأرسل يا أبت آل باندو. إلى فارانافاتا، فلقد ضاق صدري بهم، وما عدت أطيق وجودهم بيننا. وإذا رحلوا فرغت لتقوية حزبنا وتنظيم الصفوف فلا تبقى لهم حيلة أو رجاء معنا!».

وهكذا ظل دريودانا يلح على أبيه أن يأخذ برأيه، ويزين له إقصاء آل باندو إلى المنفى، دون أن يفلح في حمله على ذلك، فأخذ يرسل إليه رؤوس الفتنة الواحد بعد الآخر يحثونه على الاستجابة إلى رأي ابنه. وسمع من وزرائه ما أسعده عن جمال فارانافاتا، وزاد من سعادته أن المدينة أصبحت ترتدي أعظم حلة، وهي تستعد لاحتفال عظيم بعيد الإله شيفا. ولقد أشاع دريودانا وأصحابه خبر هذا الاحتفال حتى بلغ الإخوة أبناء باندو، وبات على كل لسان، يتحدث به القاصي والداني، والكبير والصغير، فلا عجب إن التقى

الجمع والملك ديتراشترا على هذا الحديث، ولا عجب إن حفزهم العم على الرحيل إلى تلك المدينة وحضور الاحتفال والمشاركة في الطقوس. ثم لا عجب أن استهواهم الأمر ودفعهم ميل الفتيان إلى الرحيل ومتعة تجواب الآفاق، فوافقوا العم وأجابوا الملك.

تهيأ الإخوة للرحيل إلى فارانافاتا وأعدوا للسفر عدته. ولم تمض إلا سويعات قلائل حتى بلغ دريودانا الخبر. وللتو استدعى صاحبه ومستودع أسراره بيوروشانا ليشاركه في المؤامرة، ومهد للأمر بأن بذل له العهود بأن يوليه أرفع المناصب ويقطعه الأراضي إن هو أصغى لما يقول وعمل بما يشير عليه. فأجابه بيوروشانا إلى ما أراد. وأوعز إلى من غدا شريكه في هذه المؤامرة أن يسرع من الساعة إلى فارانافاتا ويعمل على إشادة قصر منيف من اللك وأن يكثر من راتينج القنب، ويشبع الخشب بالزيت والزبد. ويزيد من اللك. وشدد عليه بالسرية فلا يدع أحداً يكتشف الفخ المنصوب. فإذا تم البناء عاد بيوروشانا إلى آل باندو والأم كونتي ودعاهم إلى المدينة فيحلون في القصر هناك حتى اليوم الموعود حين يضرم فيه النار والناس نيام. وخطط له أن تبدأ النار في مدخل القصر ليقطع على سكانها طريق الفرار. وأرشده في نهاية الحديث إلى أن يشيع الخبر بعد التهام النيران القصر بأن آل باندو قد قضوا في هذا الحادث.

ولئن حرص دريودانا على أن يكون هذا اللقاء سراً لا يعلم به أحد، لم يمنع هذا الحرص من أن يعلم فيدورا الحكيم به. فأراد أن ينبه يوديشترا إلى الخطب الذي ينتظره، فتعمد أن يلتقيه مصادفة، فوقف يتحدث إليه بصوت أقرب إلى الهمس، بلهجة لا يألفها إلا قلة من أهل البلاد، ويومئ إلى ما في ذهنه بإشارات: «إن الخطوب يا بن أخي تحل بأشكال وأشكال. وقد يلجأ من اعتزم الأذى إلى الخناجر، وقد يعتمد النار. فكن حذراً من أمرك، واعلم أن ابن آوى يحفر الأنفاق ليخلص من الخطر. فتيقظ وتثبت واحزم أمرك، ثم لا تخش

بأساً، فالآلهة ترعاك. واعلم أن في السفر فائدة ومعرفة». فأشار بوديشترا برأسه أن فهمت.

أسرع بيوروشانا وجدّ في طلب فارانافاتا كما أوعز دريودانا وتهيأ لبناء القصر، وأعدّه لاستقبال آل باندو على أحسن ما يكون الإعداد، وقام على فرشه بأفخم الديباج، والأسرة الوثيرة، والسجاد الفاخر، وجهز له أوسع مطبخ، وأقام عليه أمهر الطهاة وملأه بأطايب الطعام والشراب. ولما دخله آل باندو دهشوا بهذا «البيت المبارك»، كما عرف هذا الفخ القاتل، وظلوا يستمتعون بما أتاحه لهم من أسباب الراحة والرفاه، حتى كان ذات يوم تسربت إلى يوديشترا رائحة اللك تنبعث من الجدران. وشاء الفتى أن يكاشف إخوته في هذا الأمر ويشاورهم في ما ينبغي تدبيره بعد أن تكشفت المؤامرة.

وسمع الإخوة أرجونا يقترح العودة إلى مقرهم في هاستينبورا، لولا أن يوديشترا ارتأى أن يتجاهلوا ما دبر لهم، لئلا يفطن بيوروشانا إلى افتضاح مكيدته، فيعد لهم شركاً آخر يصعب عليهم اكتشافه. ثم أشار عليهم أن يحفروا تحت الأرض نفقاً ليهربوا عند لحظة الخطر.

ولم يكن اليوم قد انصرم حين وصلهم من فيدورا رجل يعمل حفاراً، وحدثهم بلغة المليخا محذراً بأن بيوروشانا قد حدد اليوم الرابع عشر من وصولهم موعداً لتنفيذ جريمته، وعرض عليهم المساعدة في حفر النفق.

وللتو شمر الجميع عن سواعدهم، وشرعوا في حفر نفق واسع يصل إلى خارج القصر، ثم غطوا مخرجه بأغصان الأشجار الخضراء، وأقاموا على خفارته على مدار الساعة، يتناوبون الحراسة فيما بينهم، وفي الصباح خرجوا إلى الصيد على مألوف عادتهم، وكأنما هو يوم آخر من الأيام. ولما كان اليوم الثالث عشر مضى الجمع إلى شؤونهم بين الرياضة واللعب، دون أن تساور الريبة أحداً، إلا أن يوديشترا انتهز مناسبة، يومذاك، وانتحى بإخوته

وقال لهم: «إن بيوروشانا مازال غافلاً عما دبرنا، ولا تراوده ريبة في أننا اكتشفنا أمره، ووجدنا المخرج من تدبيره، وها قد حان الوقت للهرب.. ولكننا سوف نضرم النار في البيت ونرد المكيدة، إلى نحر من كادوا لنا. والأحرى أن يموت بيوروشانا حرقاً بعد أن نغادر المكان».

وفي الليلة تلك طرق باب القصر جماعة من البراهمة وفي صحبتهم عدد من النساء، فحلوا فيه وأكلوا وشربوا ونعموا بالراحة، لما فرغوا رحلوا، إلا امرأة من عشيرة ناشيدا وأبناءها الخمسة، فقد أسكرتهم الخمرة فتقاعسوا عن القيام، ثم استسلموا لنوم عميق، فكانوا أقرب إلى الموت منهم إلى النوم، أو بالأحرى كانوا بيادق في لعبة القدر.

كان الليل يدخل نصفه الأخير، عندما هبت ريح قوية عصفت بغرف القصر فيما اندفع بهيما يشعل فيه النار هنا وهناك بادئاً بالباب.

شاهد أهل البلد ألسنة النار تندلع من القصر فهرعوا إليه، وعملوا على إخمادها ما وسعهم، مما استغرق الليل بكامله، دون أن يفلحوا. وظلت النيران متأججة تزداد قوة وكأنما تتغذى بنفسها حتى أتت على القصر والناس مشدوهون لهول هذه النار، فلما حطت على الأرض كتلة هائلة من اللهب لم يخامرهم شك بأن آل باندو قد قضوا فيها، وعندئذ أخذت الجموع تتفرق بين العجب والحزن.

أما أولئك فقد شقوا طريقهم في النفق ومازالوا يجدّون في المسير حتى بلغوا ضفة نهر الغانج، ثم ركبوا النهر في قارب كان يرسو هناك، وتابعوا الرحلة جنوباً دونما هاد سوى نجوم السماء. ولقد ظلوا في هذا المسير إلى أن بلغ بهم التعب والإرهاق والعطش أشد مبلغ. وكادوا أن يتوقفوا لولا أن بهيما العملاق حمل إخوته الأربعة والأم كونتي بين ذراعيه الجبارتين، وفوق منكبيه العريضين، ومضى يتابع الطريق حتى نال منه الإرهاق هو أيضاً،

فحط بهم في غابة كان قد بلغها، وهناك جلس بالقرب من أهله يحرسهم خشية أن يداهمهم خطر.

ومن بعيد كان هناك بالقرب من المكان، عفريت من الراكشا يدعى هيديمبا يتخذ من شجرة عالية مرتعاً له، وكان عفريتاً هائل الحجم يتدلى بطنه بطيات من الشحم من شدة نهمه، أحمر اللحية والرأس، مخيف الوجه، وكان فوق هذا كله يقبل على لحم البشر. فلما وقع على منظر هؤلاء القوم يدخلون عالم غابته سال لعابه لمرآهم، فالتفت إلى أخته هيديمبي قائلاً: «إن أسناني الثمانية لتتشوق إلى لحم البشر، وفمي ينتظر مذاق دم الإنسان الحار! فهيا وامضي واستطلعي أمر هؤلاء الذين اتخذوا غابتي مهجعاً، فإني أرى الليلة تحمل إلينا وليمة، ولسوف نرقص فوق جثث بشرية».

مضت العفريتة كما شاء أخوها فوجدت بهيما، فخلب لبها بقامته الفارعة، وعرض منكبيه، وقوة ذراعيه، واستقامة عنقه، وجمال عينيه كزهرة اللوتس، فأغرمت به، وحدثتها النفس أن تخطب الرجل زوجاً لها، فاتخذت هيئة امرأة ذات جمال فتان، ثم سعت إلى حيث كان هذا الذي ملك عليها القلب، واقتربت منه في غنج ودلال يزيدها طلاوة ابتسامة خفر على شفتيها، فوجدته جالساً بهدوء لا يتزحزح عن مكانه وهو يرقبها بعينين ثابتتين تتابعانها بنظرات الحذر. وإذ اقتربت منه بادرته بالحديث: «لقد لمحتك، أيها المولى العزيز، وصحبك تنزلون في هذه الغابة التي لا تحمل لك إلا الشر. أفما علمتم أنها موطن راكشا شرير. هو أخي هيديمبا؟ وهو عازم على قتلكم جميعاً، وما حملني على نقل هذا النذير إليك إلا خشيتي عليك فأنت من هويه قلبي وأملي أن تتخذني زوجاً!».

رد بهيما وقد ساءه استخفاف لمخه في المرأة واحتيال بالجمال والفتنة: «إن حسبت أني الرجل الذي تستطيعين استدراجه ليتخلى عن أمه وإخوته وهم نيام ليقضي منك وطره فأنت لا ريب واهمة». ولكن المرأة مازالت تلح على بهيما وتزيد في التوسل إليه أن يمضي معها وينقذ جلده وهو يأبى ويعاند.

واستمرت على دأبها ردحاً من الزمن، فافتقدها شقيقها هيديمبا، ثم وجدها قد اتخذت هيئة الأنثى وتحلت بحليتها وزينت عنقها بقلادة من الزهور فبدا وجهها بألق القمر وزاد من فتنتها ما اصطنعته من التبرج، ثار الحنق في قلبه واشتد به الغيظ فلم يتمالك نفسه وشرع يمطرها بالسباب والشتائم.

وكان الهياج قد تملكه واشتد به، فهم بها يريد قتلها، لولا أن اعترضه بهيما وحال دونه وإياها، صائحاً به: «علام اللوم! إن أردت اللوم فهاك إله الحب كاما! ولك أن تلومني لأني أثرت الحب في قلبها. ومهما يكن شأنك فليس هناك في الكون من يستطيع أن يرفع إصبعاً في وجه امرأة في حضوري. وإذا شئت فلك أن تنازلني، هذا حسبك ولا شيء سواه!».

اندفع هيديمبا بكل جبروته، والحقد الذي ملك عليه كل جانب، يريد الإطباق على بهيما، ولكن بهيما اعترضه، وأمسك بذراعه، وجد في لويها حتى طغى عليه الألم واستسلم لقوة خصمه، وإذ تأكد من سيطرته على هيديمبا جره ثم طوح به ورماه بعيداً، خشية أن يصحو الأهل على صراخ الألم الذي كان يزأر به زئيراً.

صحت كونتي على أنين هيديمبا كصوت الرعد في ليلة عاصفة، ولكن نظرها وقع أول ما وقع على أخته «الفاتنة» جالسة بالقرب منها: استغربت الأم وجود هذه الغريبة واستجلت منها الأمر، وعرفت أنها أخت الراكشا، ثم علمت منها أمر هواها.

كذلك كان شأن الإخوة الأربعة حين أيقظهم الصراخ وصوت العراك ليروا بهيما وهيديمبا يتصارعان صراع الأسود الضارية.

أمسك بهيما بالراكشا ووجه إليه ضربة من قبضته القوية أطاحت بصوابه، ثم شطره شطرين، فزعق عندئذ زعقة رددت الغابة صداها فأجفلت الحيوانات من هولها، ثم سقط على الأرض ميتاً.

ولما تم الأمر تهيأ الجمع للرحيل، ثم مضوا في طريقهم بين دروب الغابة، وهيديمبي تلحق بهم، وبهيما يلتفت إليها بين الفينة

والفينة، ويشير إليها أن تفارقهم، لكنها لم تكن لتأبه بإشاراته، فظلت في إثرهم حيث شاء لها الهوى أن تتبع من استولى على الفؤاد، ولم يكن يجدي في هذا تكرار الفتى وعيده بأنه سيلحقها بأخيها إن لم تفارق الدرب.

قال يوديشترا يحاول أن يهدئ من غضب بهيما: «دعها يا أخي، فما هي إلا امرأة؟ وأي شر يمكن أن تضمره لنا، وإن كانت من الراكشا».

ظل الجمع يجدّون في طريقهم، والمرأة تلاحق الخطى وراءهم، لا ينال منها تعب أو إرهاق. ولما أعياها الأمر في النهاية، ابتدرت كونتي قائلة: «يا أم! لقد ملك الفتى علي القلب والهوى. فهلا أعنتني على أن يكون لي زوجاً! فحسبي منه أن يمضي معي يوماً أو بعض اليوم يعود بعده إليك. فلست أريد الاستئثار به دونك وإخوته، فحسبي منه هذه السويعات، ولا شيء بعد هذا!»..

أطبق الصمت على كونتي ولم تأت بكلمة، وإنما تركت الحديث ليوديشترا: «أما أنك أحببت بهيما، فذلك أمر جلي لا يحتاج إلى بيان. فهاكه، وليمض معك إلى حيثما تشاءان. ولكن احرصي على أن تعودي به في الوقت الموعود عند مغيب الشمس!».

حملت بهيما وطارت به إلى الجبال،
إلى مراتع باركتها الآلهة،
غنية بالأبقار، تتردد بين أطرافها
ألحان ريفية عذبة،
وهناك بين أشجار الغابات،
وعلى الهضاب الموشاة
بألف لون ولون،
وعلى سطح البحيرات الموشاة بأزهار اللوتس والأقحوان،

على ضفاف الجداول عند التلال،
وبين الأنهار،
وعلى شواطئ البحار،
وفي الغابات حيث يسكن الزهاد،
وعند بحيرة مناسروفارا،
في الهمالايا،
أترعته كأس العسل
مرة بعد مرة،
حتى ارتوى وارتوت.

ولقد ولد عن هذا الاتحاد طفل فريد في قوته، عجيب في شكله، أذناه مدببتان كرأس النبال وذراعاه قويتان كأنما قدتا من معدن صلب، وكان ضخماً أشبه بالرجل، قوي العود منذ لحظة ولادته، وقد أسماه أبواه غاتوتكاشا.

لم تتلكأ الأم طويلاً، بعد هذا، فشدت الرحال وانطلقت بالطفل إلى الشمال، قاطعه العهد بأنهما سيعودان إلى الأهل في لحظة الشدة. وقد ذهب البعض إلى أن غاتوتكاشا إنما هو في الواقع من خليقة الإله إندرا الذي أبدعه ليوازن كارنا في قوته، بعدما سلحه بالقوس الخارق.

ظل آل باندو يتنقلون في تجوالهم من غابة إلى أخرى، ومروا في هذا التيه بالدول والممالك، البانتشالا والماتسيا والكيتشاكا، وكانوا يتخذون في تطوافهم مسلك الزهاد الفقراء، فيرتدون جلود الغزلان ويستترون بلحاء الأشجار، ويطلقون شعورهم، ومازالوا في هذا الترحال حتى قطعوا البراري والقفار، ثم حلوا حيث كان مقام جدهم فياسا.

جلس فياسا يستمع إلى أحفاده يروون له ما كان من أمرهم،

ويبثونه مرَّ الشكوى مما حلَّ بهم من ظلم ذوي القربى، والرجل يصغي مطرقاً. فلما انتهوا من حديثهم، قال فياسا: «لا ريب عندي أن دريودانا لن يدخر وسعاً في أن ينال منكم، ويحط من شأنكم، ولكن أعيروني سمعكم وخذوا بنصيحتي: دعكم من الماضي. فإن تذكرتم منه أمراً لم تذكروا سوى المآسي والآلام! تطلعوا إلى المستقبل! ففي هذا كل الخير. حقاً أني كنت في الماضي لا أقيم بينكم وبين أبناء ديتراشترا تمييزاً، إلا أن قلبي لينفطر لمحنتكم. وإني سأدلكم الآن إلى بلد آمن قريب. فأحسنوا التخفي، وامضوا إليه، وانتظروا قدومي إليكم هناك! وإني لأرى مصائركم تتبدل، فعليكم بالصبر. إن المستقبل يحمل النصر لمبادئكم. ولا يخامرنكم شك بأنكم عائدون إلى قصركم!» حمل الأحفاد نصيحة الجد الحكيم وشدوا الرحال إلى إيكاتشكرا. وهناك نزلوا في بيت أحد البراهمة آمنين مطمئنين لا ينال منهم كدر، سوى ذكرى مؤامرة أبناء العم. وكان يوديشترا يجهد ما وسعه الجهد ليعيد الطمأنينة إلى قلوب الجميع متوسلاً بالمناقشة الفلسفية حيناً وببث الأمل في النفوس حيناً. وسرعان ما أخذوا يعتادون حياتهم الجديدة، ثم سرعان ما أخذوا عن مضيفهم أسلوب البراهمة، فكانوا يتنقلون بين أحياء البلد يجمعون الصدقات، على عادة البراهمة، حتى غلب عليهم هذا التنكر. وكان من عادتهم أنهم إذا عادوا في المساء جمعوا ما توفر لهم وقدموه إلى الأم لتعمد إلى قسمته بينهم بالتساوي إلّا نصيب بهيما، فكان الأكبر لشدة شرهه.

مضت الأيام هادئة لا تحمل مفاجآت لهم، لولا أنهم لحظوا، ذات يوم، جو البيت من حولهم مكفهراً، ورأوا مضيفيهم يتداولون أمراً وهم يتهامسون فيما بينهم، بين الهم والغم وظل الإخوة يحاولون عبثاً التقاط ما كان يدور بين أهل البيت، فلم يتمالكوا من سؤالهم عن الخطب.

روى لهم صاحب الدار أن أحد الراكشا سكن في أطراف البلد منذ عهد وشرع يعيث فيا الخراب والدمار حتى ضاق به الناس.

ولطالما حاولوا حمله على الرحيل عن المنطقة، إلا أنه كان يزداد تشبثاً بالمكان، بل وفرض على الناس ضريبة ثقيلة بأن يدفعوا إليه كل يوم بعربة من الأرز واثنين من العجول وواحداً من الأهالي، فيلتهم هذا كله وينتظر حتى اليوم التالي، وهذا هو حالنا كل يوم، وها هو دور أسرتنا قد حل، وبات علينا أن نقدم أضحية من بيننا. وقد شئت أن أذهب أنا مع الإتاوة، لأوفر لأبنائي فرصة النجاة، فلعل يوماً يأتي ويتخلص فيه أهل البلد من هذا البلاء. ولكني وجدت أبنائي يتنافسون على التطوع، كل يريد أن يكون فداء الآخر. فأصبحت في حيرة لا أدري السبيل إلى حل هذه المشكلة. ويذهب بي الظن أن الأفضل أن نذهب جميعاً فيلتهمنا ذلك العفريت فلا يبقى بيننا من يندب الآخر!».

سمعت كونتي رواية البراهمي العجوز، وساءها، شأن أبنائها، أن تلم مصيبة بمضيفهم، وشرعت تفكر وتقلب الأمر على كل الوجوه، ثم قطعت الصمت بأن أشارت إلى بهيما أن يمضي بالطعام إلى الراكشا في ذلك اليوم فوافق بهيما في حين اعترض يوديشترا، وحاول منعه قائلاً: «إننا لا نملك أن نجازف ببهيما، ولا بأرجونا أو التوأمين، فهما ضئيلان دعوني أحمل الطعام إلى هذا الراكشا. فإن قتلني كان هناك بهيما وأرجونا لمواجهة المحن.

ولكن كونتي نحت هذا الاعتراض وكررت «بل بهيما يقوم بالمهمة كما شئت».

هيأ الجمع عربة الطعام والعجلين، ثم تولى بهيما قيادة القافلة الصغيرة وجد في المسير حتى بلغ أطراف المدينة حيث اتخذ الراكشا مأواه ثم أطلق العجلين من قيدهما، قبل أن يدخل الغابة مثيراً جلبة في طريقه ليتأكد من ابتعاد الراكشا عن ممره، ولما بدا الطريق خالياً توغل في الغابة، وشرع ينادي الراكشا باسمه باكا!... باكا!... هيا اخرج لمقابلتي! وجلس عندئذ إلى الطعام يأكل بالنهم الذي عرف به، وأخذ يصيح من جديد: «هيا اخرج أيها النذل! أيها البائس! هيا اخرج وانظر إلي وأنا أتناول الطعام!».

أطل عليه الراكشا بجسمه الهائل وشكله المفزع وهو يزعق كالرعد: «ومن تكن لتناديني باسمي؟».

لم يلتفت إليه بهيما وإنما استمر في الأكل متلذذاً بالطعام، بينما كان العفريت يتقدم من خلفه، وهو مايزال يزأر ويزعق. بل ولقد اشتد حنقه حين رآه يتابع أكله. بكثير من الاستخفاف والاحتقار، ولم يتمالك من أن يوجه إليه ضربة من خلفه. وظل بهيما يتابع أكله غير آبه، وكأنما لم تنل منه تلك الضربة أو لم تسبب له ألماً.

عاد الراكشا يصيح: «من تكون يا هذا فتأكل طعاماً خصبصه الناس لي؟ أين هي الحيوانات؟».

«هل تقصد العجلين؟ الحق أني تركتهما يرعيان في الحقل خارج الغابة. وأحسب أنك لن تنال طعاماً اليوم فاليوم هو يوم صيام لك!».

بدا الراكشا وكأن صدره قد ضاق لرعونة بهيما واستهتاره به، فعاد إلى ثورته، ثم شرع يحاول ضربه، وبهيما لا يبالي به وزاد الرجل من استفزاز الراكشا بأن خاطبه بلهجة التكبر: «هيا اغرب عني! فلست أستسيغ المزاح وأنا أتناول الطعام!» وما انفك المارد يهجم ويحاول أن ينال شيئاً من طعام يعرف أنه إتاوة له، وبهيما يدفعه عنه دون أن يتكلفْ حركة، فيزداد هو حنقاً، حتى لم يتمالك نفسه في النهاية، فهجم على خصمه وكان بهيما ينتظر منه مثل هذه الحركة، فتولاه بضربة أفقدته صوابه، فوقع على الأرض مغشياً عليه، ثم عاجله بضربة أخرى قبل أن يستعيد وعيه، ومازال به حتى قصم له ظهره وأنهى أمره.

هلل الناس بشراً لنبأ موت الراكشا وانقضاء شره. ولا عجب إن شخصت الأبصار إلى آل باندو بالامتنان والعرفان لهذا الجميل. ولكم تساءلوا كيف أمكن لبراهمي أن يتصدى لشر الراكشا. بعدما عجز عن ذلك أعتى القوم. بل ولقد ذهب بعضهم إلى الظن بأن هؤلاء الإخوة إنما هم في الحقيقة من الشتريا، وقد تخفوا في مظهر

البراهمة لسبب من الأسباب. ولكم خشي أبناء باندو من هذه الأقاويل أن يتداولها الناس فتبلغ أبناء العم. وتثور الشكوك، فيجدون في إثرهم، فجهدوا أن يؤكدوا لكل سائل أنهم من البراهمة، وما من سر في القضاء على الراكشا الشرير إلا في المانترا السحرية، التي يعرفون وحدهم سرها دون سواهم من العامة.

وهكذا ظل آل باندو يقيمون في البلد ونجمهم في صعود، ولم يطل بهم المقام كثيراً حتى قدم إليهم فياسا كما وعد، وتفقد حالهم، ثم كاشفهم في أمر استعجل مجيئه إليهم: «لقد بلغني أن ابنة عظيم من الحكماء أتت إحدى الذنوب في حياتها فكان جزاؤها، الكارما، أن حرمت من الزواج. فلما تضرعت إلى الإله شيفا وزادت في الضراعة أن يمنَّ عليها بزوج، تجلى لها الإله شيفا وقال لها، وقد قبل منها الضراعة، أنها ستكون زوجاً لخمسة، في حياتها المقبلة. فلما احتجت قال لها أنها تضرعت خمساً من أجل زوج. وخمس سيأتونها كما تضرعت. وها هي ذي تولد من جديد باسم دروبدي، ابنة الملك دروبدا... واستحثهم جدهم الحكيم أن يجدوا في الرحيل إلى عاصمة الملك ويسعوا في طلب الزواج منها.

قال فياسا هذا وأنهى بذلك مهمته، ثم قفل عائداً إلى موطنه أما آل باندو فهيأوا حملتهم واستعدوا للانطلاق إلى عاصمة مملكة البانتشالا. وكانوا يصادفون في طريقهم البراهمة وحوارييهم فينضمون إلى قافلتهم، ويتابعون المسير، ليكونوا في مقدمة من يحضرون افتتاح حفل الخطوبة، وقد علمتم أن من الفتيات الأحرار من يؤثرن اختيار أزواجهن بأنفسهن، فيقمن حفلاً واسعاً ضخماً يدعى إليه من يرى بنفسه الكفاءة من عظماء الأمم، ويعرض مواهبه، فإذا حقق الشرط وقع عليه الاختيار، وكانت الفتاة من نصيبه. ولا تسلوا مبلغ التنافس في مثل هذه الاحتفالات، فترون الملوك والأمراء والأبطال يقدمون ويتنافسون فيفوز من يفوز فيسعد، ويفشل من يفشل فيلوي ويعود خائباً.

وها هم آل باندو يسيرون إلى حيث وجههم الحكيم فياسا، وشاءت لهم تصاريف الأقدام. فإذا بلغوا أطراف المدينة حلوا في بيت صانع فخار بسيط متنكرين في زي البراهمة خشية أن يكتشف أمرهم أحد العيون أو الإرصاد.

وفي اليوم الموعود أمر الملك دروبدا بقوس قوي عظيم، وبوضع هدف عال ارتفع في قبة السماء. تزاحم المدعوون المتنافسون إلى ساحة الميدان وجلسوا ينتظرون من الملك بيانه. فلما استقر الجمع واكتمل الحضور، وقف معلناً أنه يزوّج ابنته لمن يقوى على الرمي بهذا القوس وإصابة الهدف.

كان جمعاً عظيماً قدم من كل جانب وصوب، وحفل بالعظماء من أبناء الزمان:

وكان حفلاً قصده أهل القداسة،
أمَّهُ بين الطامعين دريودانا وكارنا وبراهمة كثُر
وملوك عظام من ملوك الأرض
وحظوا من كرم الضيافة ما أصبح حديث الخافقين.
بين صيحات التهليل العاصفة،
والزينة ورائحة خشب الصندل المعطر،
وبريق الفضة من إطار النوافذ والجواهر الكريمة
على الجدران،
وعلى الأرض المفروشة بالسجاد الفاخر الكثيف
وأريج الزهور والورود،
جلس المتنادون ينتظرون،
لكل دوره ليعرض ويبرز.

خمسة عشر يوماً مضت والضيوف ينعمون كل في قصر اختص

به، قصر فخم حفل بكل الأطايب وما يخطر بالبال. خمسة عشر يوماً من الاستعداد والترقب والتحفز والقلق.

ها هي ذي عدة الضيافة قد انقضت، وها هو ذا اليوم المنتظر. تجمع الناس من جديد في الساحة ينتظرون بدء المباراة والتعرف على البطل المغوار الذي سيحقق المعجزة فيحمل القوس العظيم ويشد الوتر ويطلق فيصيب الهدف المحال.

ها هو ذا اليوم السادس عشر! أطلت دروبدي، عذراء، خفرة، فاتنة، ساحرة الزي، باهرة الخطى، وتقدمت حاملة صحناً من الذهب، وعقداً من الزهور. مشت يقودها أخوها دريشتديومنا معلناً بصوت جهوري أمسك عند سماعه الناس عما يدور بينهم من الحديث والهمس.

«ها كم هذا القوس ومعه خمسة سهام. ومن يصيب ذاك الهدف بهذه السهام فتتجمع في ذلك الثقب زوجته من أختي درويدي!».

قال قوله هذا والتفت إلى دروبدي، وشرع يعدد لها أسماء الحضور العظماء الذين قدموا إلى هذه المناسبة من مختلف أصقاع الأرض.

وكان كلما تلا اسماً نهض صاحبه فتتعرف إليه، ثم اتجه نحو القوس، وحاول حمله. وهكذا تعاقب الأبطال المشاهير على هذا القوس يحاولون حمله ويجهدون أشد الجهد، بل إن منهم من وقع من مبلغ ما أصابه من الإرهاق واستمر هذا الحال ردحاً من الزمن، وكاد الناس ييأسون من ظهور بطل يملك أن ينهض بهذا القوس.

برز كارنا، ابن إله الشمس. والناس، كما أخبرتكم في يأس، فالتقط القوس في يسر ورشاقة، وانطلق السهم من بين إصبعيه بجلال وسرعة خاطفة، كما الشهاب في السماء، فشده الناس لهذا المشهد العظيم، وتأكد لهم أن البطل المنتظر قد ظهر في النهاية ووضع حداً لحدث طال أمده. وكان بين الناس آل باندو، ورأوا ما

رأوه وإجادة الرمي وحسن الإصابة، وراودتهم الخشية من أن يكون الأمر قد تم.

بدا كأنما الحفل قد انتهى، وتهيأ جمع الناس للانصراف ليتركوا لأهل الدار تدبير الأمور، حتى وقفت دروبدي فجأة، وصاحت معترضة:

«ما كنت لأقبل لنفسي زوجاً من مرتبة دوني» ارتسمت ابتسامة مريرة على شفتي كارنا ولاح على وجهه حزن عميق، ولم يأت بشيء آخر سوى أنه نظر إلى الشمس، وأطبق ساكناً، ثم طوح بالقوس بعيداً.

عاد الأمل يراود المتنافسين، فبذلت حفنة منهم بعض المحاولات، فكان مصيرها الإخفاق. هكذا كان شأن النبيل شيشوبالا، وكذلك الملك جاراسندها والملك شاليا ودريودانا.

وحان دور أرجونا في النهاية. فتقدم ومشى نحو القوس وأنظار الحضور شاخصة إليه بين إعجاب وحسد. وسرت همهمة بين البراهمة وهم يعلقون على مهارته، هذا يؤكد وذاك ينفي.

بلغ موقع القوس وجال حوله جولة. أخذ يقدر حجمه ووزنه ويدرس شكله وصنعه. أغمض عينيه ودعا الإله المجير ذا النعم. وتضرع إليه أن يمد له يد العون أحنى رأسه خشوعاً واستدعى في خاطره كريشنا وفي لمح البصر اختطف القوس من مسنده. حمله، وضع السهم في موضعه، رفع القوس، شد الوتر، حدق في الهدف، ترك الوتر. انطلق السهم يسبح إلى هدفه مباشرة وكان السهم الثاني، فالثالث فالرابع فالخامس تجمعت الخمسة كلها في الهدف الدقيق، فتهاوى وسقط على الأرض.

تعالى التصفيق والهتاف من الحضور فملأ الساحة، وتناثرت الزهور تلقيها الآلهة مباركة على رأس أرجونا المنتصر.

جذلت دروبدي أشد الجذل لهذا النصر. والحق أنها مالت لأرجونا منذ أن وقعت عيناها عليه وتمنت له الفوز. وللتو مضت

فاستبدلت زيها بثوب أبيض وعادت لتضع حول عنقه قلادة الزهور، وتخرج مع من غدا لها زوجاً.

كانت الأحداث تجري وتدور والأم تنتظر في البيت، قلقة متوجسة، وقد طال بأبنائها الغياب، تخشى أن تكون نائبة قد نزلت بهم، أو افتضح أمرهم، فدبرت لهم مؤامرة أو وقعوا في فخ.

تناهى إلى سمعها صخب وضجيج تعرفهما، فهدأت نفسها، ثم سمعت صوتاً من الخارج يناديها: «ها قد أحضرنا لك يا أم هدية!».

«ردت كونتي من الداخل: «فلتقتسموها بينكم!» ولكن إذ خرجت إلى أبنائها ورأت بصحبتهم دروبدي، انتابها الحرج وأسفت لتسرعها في القول، فأخذت تعتذر: «عفوك يا بنيتي! فما أدراني أن معهم صبية كريمة، فقد حسبتهم جاؤوا بالنذور كعادتهم كل يوم» قالت هذا والتفتت إلى يوديشترا وسألته وهي في حيرة شديدة: «بماذا تشير علي الآن؟».

صمت يوديشترا واستغرق مفكراً، ثم التفت إلى أرجونا وقال: «أنت الذي فاز بها، فهي إذن من نصيبك، فأمسك بيدها وأشعل النار المقدسة!».

رد أرجونا: «لا! إن هذا خطأ. أنت أكبرنا، فهي لك فإن لم تشأ فهي لبهيما، فإن لم يشأ هو أيضاً، كنت أنا التالي، ومن بعدي ناكولا وسهديفا. فأخبرنا بما ينبغي أن يكون التصرف، ونحن طائعون نقبل بما ترى!».

التفت الجمع إلى دروبدي ينظرونها، ونظرت إليهم بدورها نظرة الحيرة، وهي في هذا الحال العجيب الذي وجدت نفسها فيه، وكان الإخوة في هذا كله يتبادلون النظر، فأدرك يوديشترا أن إله الحب كاما قد فعل فعله في قلوب هؤلاء الفتية، كما أدرك أن الشقاق بدأ يطرق الباب. استذكر عندئذ نصيحة الجد فياسا الحكيم، فنطق في النهاية بحكمه: «فلتكن زوجنا جميعاً، نشترك فيها ولا يستأثر بها واحد دون الآخر».

كان الإخوة منصرفين إلى أمورهم، فلم يلحظوا دريشتديومنا يتتبعهم ويرصد بيت صانع الفخار، ويرى الفتية يجوبون المدينة يتسولون قوتهم، ثم يسمع كونتي. تشير بحصة القربان للآلهة والبراهمة والضيوف، وتوزع ما تبقى بالتساوي بين الجميع. ثم رأى الإخوة يتناولون طعامهم ويهجعون للنوم فيستلقون جنباً إلى جنب، وتضطجع كونتي عند هذا الصف من الرؤوس ودروبدي عند الأقدام.

وإذ رأى الرجل ما رأى حمل الأخبار إلى الملك دروبدا، فهرع إلى بيت صانع الفخار، وهو مايزال يجهل حقيقة هؤلاء الإخوة، ويريد استطلاع أمرهم. ولقد صارحهم بحيرته، وسأل يوديشترا أن يكشف له عن حقيقة جماعته. ذلك أن وقت طقوس الزواج قد أزف، وحق له أن يعرف مكانة القوم. فإن كانوا من الشتريا أعد الطقوس بما يناسب مرتبتهم، أو من البراهمة فأجراها على نحو ما جرت عليه التقاليد عندهم، وبعد فلكل فئة ومرتبة طقوسها ومراسيمها.

سر الملك دروبدا أعظم السرور، حين أخبره محدثه أنه وإخوته أبناء الملك باندو، وسمع منه أن ابنته إنما تنتقل منذ الحين، كزهرة اللوتس، من بحيرة إلى بحيرة، فطلب إليه أن يسرع في استدعاء أرجونا ليعقد زواجه.

فقال يوديشيترا: «ولكني أنا أود الزواج أيضاً!» وردَّ الملك دروبدا: «إذن، فهي لك، إن شئت، أو ليعقد عليها من تشاءه لها من إخوتك!».

صعق الملك عندما سمع يوديشترا يخبره أن ابنته ستغدو زوجاً مشاعاً بين الإخوة الخمسة واحتقن وجهه بالغضب وصاح: «لم أسمع بمثل هذا من قبل! فأي فسق يأتي به لسانك، وأية أفكار شريرة حملتك على هذا القول، يا هذا؟».

رد يوديشترا: «هدئ من روعك أيها الملك. فهكذا شاءت أمنا. وقد اعتدنا على اقتسام كل شيء فما بيننا وهكذا سيكون شأن ابنتك

أيضاً. فلسوف تمسك بأيدينا الواحد تلو الآخر أمام النار المقدسة».

اعترضه الملك قائلاً: «لقد سمعت بتعدد الزوجات. وهذه أول مرة أسمع فيها بزوجة تعاشر عدة أزواج في آن واحد. إنك تعلم أن هذه معصية وإثم. وقد حرمتها أسفار الفيدا. وها أنت ذا تطلب ما هو حرام، أم تراك قد جننت؟».

أطرق يوديشترا لحظة، ثم قال: «إن تقدير ما هو من الأخلاق، والخير والشر وما ليس من الأخلاق مسألة عويصة. ولقد كنت أنشد الحق فيما أقول، والنأي عن الضلال. ولكني واثق من هذا الأمر ـ فقد أمرت أمنا به وهكذا شاءت، فأنا مطمئن الضمير. فحسبي أن تأمر أمي فأطيع أمرها».

قال الملك: «إذن فلتسووا أنت وأمك وولدي دريشتديومنا هذا الأمر فيما بينكم، ثم أخبروني بقراركم في الغد».

كان النقاش مازال يدور بين أخذ ورد بين الأسرتين، حين حل بالمدينة الحكيم فياسا وهو في تجواله، فقصد أحفاده آل باندو، وعلم من أمرهم ما علم.

ولقد شاءت دروبدي أن تقحمه في هذا الشأن الخطير الذي بات ينغص على القوم حياتهم، فأخذت تحاوره، فلعله ينحاز إلى صفها: «كيف يمكن، يا من عرف بالقداسة ورسوخ المعرفة بالأسفار المقدسة، أن تعاشر المرأة عدداً من الأزواج ولا تخل بالدارما؟».

رد فياسيا: «حقاً أن هذه عادة قديمة عف الزمن عنها. وحقاً أن الفيدا لا تقرها. ولكن ما هو رأيكم أنتم؟».

قال دريشتديومنا: «الحق أن الأخلاق مسألة عويصة. فكيف لا يكون في تحرش الأخ الكبير بزوج أخيه الأصغر ما يضير؟ ومن ذا الذي يملك أن يطلق حكماً مطلقاً فيقول هذا من الأخلاق وذاك ليس من الأخلاق في شيء؟... لكنني لن أدخل في جدل، ولن أكون مطمئن الضمير إن سمحت لأختي أن تغدو زوجاً لخمسة من الرجال».

وقال يوديشترا: «لقد أوردت البورانا قصة الفتاة غاتيلا وكانت فاضلة وزوجاً لسبعة من الحكماء. كذلك بلغني أن ابنة أحد الزاهدين تزوجت من عشرة إخوة. ثم أليس من النصح إطاعة أهل المقام؟ أليست الأم تحتل أعلى المقامات. وبعد فإننا إنما نطيع كونتي في ما تأمر وليس في هذا أي ضير قط».

قالت كونتي معلقة: «إن ما قاله يوديشترا حق! فهو إنما ينفذ أمري» وهكذا تعاقب القوم كل يدلي برأي، وفياسا صامت يسمع، حتى انتهوا من الكلام، فقال عندئذ: «ليس هذا وقتاً للمحاضرة. ولكن الحق أقول لكم إن يوديشترا لم يخرج عن الدارما في البوح بما يعمل. ثم الحق أن هذه عادة قديمة مرعية، ولسوف أعرضها لك فيما بيننا».

قال دروبدا من يده إلى غرفة أخرى من غرف الدار، وأخذ يعرض له الحالة التي تباح فيها عادة تعدد الأزواج، والقوم ينتظرون حيث غادرهم.

وقال فياسا على سبيل الخاتمة: «إن ابنتك، يا دروبدا، نالت بركة الإله شيفا، وقد شاء لها أن تتزوج من خمسة».

وهكذا لم يملك الملك دروبدا إلا أن يقول: «إذا كانت هذه مشيئة شيفا، فكيف لي أن أحكم في ما هو خطأ أو صواب إذن فلتقم الأفراح ولتجر الطقوس».

وكان عرساً مشهوداً رأس طقوس الزواج فيه البراهمي دهوميا، وقد ذاع صيته في الآفاق. وكان يوديشترا أول من عقد على دروبدي، فالتقط يدها قبل إخوته. ثم أعقبه في اليوم التالي بهيما، فحاز على يدها، فأرجونا في الثالث، فالتوأمان ناكولا وسهديفا أخيراً. وكان الاتفاق أن تعيش دروبدي مدة عام كامل مع واحد من الأخوة، فإذا انقضى انتقلت إلى الأخ التالي، فلا تكون خلال العام في خاطر أي منهم. وهذا حال يقتضي من المرء نظاماً صارماً وقدرة عظيمة على التجرد وضبط النفس، فلو خرق المرء هذا

القانون، بأن تمثل المرأة ولو في خاطره، أقصى نفسه طواعية وبدأ رحلة طويلة في الحج إلى الأنهار المقدسة ليغتسل بمائها ويبرأ من آثامه.

باركت كونتي زوج أبنائها دروبدي: «اسعدي يا ابنتي، واهنئي بحياتك، ولتنجبي من الأبناء ذوي البأس، والشجاعة، ما طالت بك الحياة، أوصيك يا ابنتي بالحرص على أزواجك، ولتكرمي الضيوف، ولتحسني إلى الغرباء! إنك لتبدين جميلة رائعة في ثوبك الأحمر اليوم، وإني لأدعو أن أراك بمثل هذا الجمال والألق يوم تلدين ابناً».

في تلك الليلة الأخيرة من ليالي العرس المشهود وقف الملك دروبدا وأشار إلى الحرس بأن يأتوا بصداق ابنته، فتوالت القوافل من الهدايا، فكان نصيب كل زوج مائة عربة مزينة بالأعلام والبيارق الذهبية، وكل عربة يجرها أربعة من الجياد بألجمة من الذهب الخالص، ومئة من الفيلة الضخمة الجبارة، كل فيل منها يبدو أشبه بجبل ضخم يزيده بهاء الهودج المطرز بخيوط الذهب على ظهره، ثم زاد الملك هداياه بمئات الجواري الفاتنات.

وكان كريشنا زعيم قبيلة اليادفا من بين من أرسل الهدايا، من الجواهر واللآلئ والزمرد، والديباج الفاخر، والجلود الثمينة، وكؤوس الشراب المطعمة بالحجارة الكريمة، وآلاف الجواري الحسان والقيان المشهود لهن بالبراعة في مختلف أشكال الفنون والمهارات، ومئات العربات تجرها الخيول المطهمة من أعرق الأنساب وصندوقاً مليئاً بالنقود الذهبية.

بلغت أنباء حفل الخطوبة والعرس في عاصمة البانتشلا فيدورا، وبلغ منه الفرح مبلغاً عظيماً مما حمله أن يزف الخبر إلى ديتراشترا ليسعد به كما سعد هو، ويشير إلى خطر الأسرة بعدما انضمت إليها دروبدي، وباتت تستند إلى حليف قوي، حقاً إن النجوم لتسير الآن في طالع هذه السلالة.

سمع ديتراشترا فيدورا يزف إليه هذا النبأ، وحسب لوهلة أن دريودانا قد فاز بالفتاة، وقد علمنا من أمره أنه كان بين من تقدموا إليها، ولوهلة طغى الفرح على قلب الأب الكفيف، فوجد نفسه يثني على ما قاله فيدورا، ثم يأمر بإرسال الهدايا إلى العروسين، وجيش ليحف بهما في عودتهما إلى عاصمة مملكته، وكاد يزيد لولا أن فيدورا صوب له ظنه، وأخبره أن الفائز هو أرجونا، وأكد له أنه وإخوته مازالوا أحياء بعدما نجوا من الحريق الكبير الذي التهم القصر، وهم اليوم يجدّون بعد تيه طويل وغدوا الآن في حمى الملك دروبدا.

شعر ديتراشترا بالضيق وهو يسمع الحكاية من فيدورا، ولكن آثر كتمان ما كان يعتمل في نفسه من خيبة الأمل.

فقال لأخيه: «أي فيدورا! قد أسعدني ما سمعت منك. أحقاً أن أبناء باندومازالوا أحياء؟ عجباً لقد أقمنا الحداد عليهم ونحن نظنهم أمواتاً. ولكن حمداً! فلقد أثلج قلبي ما بلغني منك. وإذن فقد غدت ابنة دروبدا من أهلنا وقوي حلفنا. فيا للبشرى! ويا للسعد!».

ولقد سرى في هاستينبورا ما يشبه الضيق مع تواتر الأخبار عن ذلك الحدث، وبلغ ذلك أعلى الحد عند دريودانا وزاد من ضيقه ما علم من تصريح أبيه لفيدورا بسعادته لنجاة آل باندو وزواجهم بدروبدي. وبرم الفتى لعزمه على إرسال الهدايا إلى خصومهم مما جعله يهرع وبصحبته كارنا إلى الأب ويأخذ عليه هذا الحماس الذي استبد به.

«كيف لك أن تزجي التهنئة إلى عدونا اللدود يوديشترا؟ أم لعلك تفضل الآخرين على أبنائك وهم من صلبك؟ بل لعلك أهملت صالح أهل بيتك».

لم يكن الملك الكفيف ليحتاج إلى عينين ليدرك الغضب الذي أخذ يفتك بقلب دريودانا فقال وهو يصطنع الابتسام ليخفف من غلواء ابنه.

«يا بني إنما كنت أتحدث وفيدورا، وقد حرصت على ألا أطلعه على خبيئة نفسي. فالحذر معه أجدى. ولقد كنت فرحاً حقاً لو أنك فزت بالفتاة، وهذا ما خطر ببالي حين بلغني أمر زواجها. أما وأن فيدورا صوب ما زينه لي الفكر، فقد كان جديراً بي أن ألزم الحذر في الحديث معه.

لقد كان ما كان، ولا بد لنا من التصرف الآن. فالقوم يزدادون قوة بعدما غدوا أنسباء للملك دروبدا الذي لا أحسبه إلا حاقداً ومنتهزاً كل سانحة للانتقام منا لضياع نصف ملكه وإهانته أمام مرشدنا درونا. وأحسب أنه لن يهدأ له بال حتى يستعيد مملكته بتمامها. الحق أن مرشدنا أخطأ بأن أبقى على حياته. فدروبدا لن ينسى لنا هجومنا عليه!».

قال دريودانا معترضاً: «ولكن لم نكن وحدنا من هاجمه، فآل باندو شاركوا في الهجوم أيضاً!».

رد ديتراشترا: «ذلك حال وهذا حال آخر! إن الأوضاع، يا بني، قد تبدلت اليوم. فالقوم في حلف الآن، ويرون العدو مشتركاً بينهم في هذا الحين. حذار فهذا الحلف ينشد تدميرنا!».

سمع دريودانا قول أبيه، فازداد وجوماً وأسرع يعرض خططه لتفادي هذا الخطر الداهم، فاقترح رشوة دروبدا ليتخلى عن حلفه فيضمن حياده، فلئن كان آل باندو أصهاره فليس لهذا أن يكون حائلاً دون انضمامه إلى جانب أبناء ديتراشترا. واقترح كذلك أن يبثوا بعض البراهمة من طرفهم فيزرعوا الشقاق بين دروبدي وأزواجها، فمتى كان هذا لم ير دروبدا بأساً في هجر حلفائه، ثم اقترح أن يعمل العملاء على تأليب ولدي مدري على إخوتهم أبناء كونتي وبعد، فما الذي يعسر أمره مع المال إذا بذل؟

ولكن هذا الاقتراح لم يلق إلا السخرية والازدراء من كارنا. فتابع دريودانا اقتراحاته وأبدى عناية شديدة بخطة اعتماد البراهمة في إشاعة الشائعات في عاصمة دروبدا وتحذير آل

باندو من خطر الثورة والاغتيال إن هم عادوا إلى هاستينبورا ومرة أخرى سخر كارنا من أقواله:

«هراء! فلن تخيفهم بهذا».

تابع دريودانا: «أفلا يوجد سبيل إلى تأليب دروبدي على أزواجها، فندس عندها الضليعين في فنون الغرام فيثيرون في قلبها الشكوك والغيرة، ويكون الخصام بينها وبينهم ولنا أن نتوسل أيضاً بامرأة لعوب فتجتذب إليها أبناء كونتي بفتنتها، فإذا راود الشك دروبدي بأحدهم دعوناه إلى هاستينبورا واستخدمناه لنجاح خطتنا».

ومرة أخرى قابل كارنا أقواله بالسخرية: «إنك لم تأت حتى الآن بأي رأي صائب. فلن تستطيع قهر آل باندو بالخديعة قط. ولقد وجدناك تعجز عن خداعهم يوم كانوا كالطيور الصغيرة، وها أنت ذا تظن بنفسك القدرة على الإيقاع بهم اليوم وقد باتوا أكثر خبرة ومعرفة ويحظون برعاية دروبدا. الحق أنهم باتوا يعرفون مخططاتك ونواياك. وهكذا لن يجدي في الأمر اعتماد الخدع والألاعيب. ولن تملك بعد رشوة دروبدا وقد شاع عنه الحكمة ونزاهة الخلق. وليس هناك من سبيل إلى تأليب دروبدي على أزواجها. والرأي عندي هو أن نبادرهم بالهجوم قبل أن يشتد ساعدهم ويقوى حلفهم فلنبادرهم ودروبدا بهجوم صاعق قبل أن ينضم إليهم جيش كريشنا. فلنعاملهم كما يعامل أبناء الشتريا. وأصدقك القول إن الخديعة لن تجدي في هذا الأمر، ولا تفلح إلا القوة».

ظل ديتراشترا يصغي إلى هذا الحوار، فلا يملك أن يجزم برأي. كان يتوزعه حب الأب لأبنائه وعطف العم على أبناء الأخ. ولقد دامت حيرته على هذا النحو فلم يستطع أن يبلغ قراراً. ولكن الرجل كان يدرك مع ذلك تورطه في التآمر ومسلك الشر.

ولقد تجلت حيرة ديتراشترا على أشد ما تكون حين تنادى إليه فيدورا وبهيشما ودرونا.

وسمع من بهيشما ما ينبئه بسعادة الرجل لنجاة أبناء باندو ثم فرحه للمصاهرة بينهم وملك البانتشلا دروبدا. فسأله المشورة، وهو الرجل الحكيم الذي أنضجته المعرفة والخبرة وعرف بالنزاهة واستقامة الرأي.

قال بهيشما: «أما وقد سألتني فإن الرأي عندي أن تستدعيهم إليك وتعطيهم نصف المملكة، فتضمن بذلك السلام والوئام بين أبناء العمومة وفي المملكة. واعلم بعد أن الشعب ينزع إلى مثل هذه التسوية. وحري أن يحفظ هذا لأسرتنا الكرامة. فهناك أقاويل تجري بين الناس، ولا أقول إنها صادقة وتزعم أن لك ضلعاً بحريق قصر اللك فإذا استدعيت أبناء الأخ وقدمت لهم نصف المملكة وضعت حداً للأقاويل وأخرست من يسعى للصيد في الماء العكر».

ثم سمع من درونا مثل هذا الرأي، ووجده يرى أن يرسل موفداً ثقة يفاوض في سبيل تسوية ودية وإرساء دعائم السلام.

ثارت ثائرة كارنا لسماع هذا الحديث، فما كان ليقوى على احتمال رأي يحرم صديقه دريودانا من نصف المملكة.

وشرع الرجل في التنديد بهذه الآراء التي دارت في المجلس: «عجباً لهذا الرأي يصدر في هذا المجلس عن رجال هم من أشد الحاشية قرباً من الملك ونالوا منه كل الرعاية وها أنتم بدلاً من أن تتمسكوا بما هو في صالح العائلة المالكة تنصحون الملك بالتضحية بملكه! فيا عجباً! ثم عجباً!».

وثنى عليه دريودانا، وزاد: «وما جدوى النصيحة، طالما ليس هناك مهرب من القدر فإذا كان مقدراً لك الملك، يا مولاي، فليس هناك من يقوى على انتزاعه منك. أما إذا كان مقدراً لسواك فلسوف تعجز عن الاحتفاظ به. ولكن تذكر من أحسن النصيحة لك، ومن قصد الأذى!».

انتصب درونا واقفاً، وقال محتداً: «من يقصد الأذى يرمي به

سواه! فلم لا تعلن كراهيتك لآل باندو صراحة، ثم إذا كنت لم تسترح إلى قولي فهلا تكرمت وأرشدتنا إلى ما هو صالح في ظنك!».

تدخل فيدورا عندئذ بسرعة ليضع حداً لهذه المهاترة عند ديتراشترا: «إن أصدقاءك يبغون صالحك، يا مولاي. وأنت أدرى الناس بدريودانا وكارنا وشاكوني. إنهم مازالوا بعد فتية أغراراً طائشين. ولقد علمت من أمرهم ما علمت، كذلك كنت قد تنبأت لك بأنهم سيأتون بالدمار إلى بيتك، فاقصهم عنك، واعرض عن أقوالهم، فتسلم ويسلموا ويسلم آل بيتك».

جلس ديتراشترا مطرقاً لحظات، وحاشيته ينتظرون القرار منه، ثم قطع الصمت فجأة بقوله: «قد نطقت بالصواب يا فيدورا، وأراني أميل إلى رأيك أنت وبهيشما ودرونا. وها كم قراري. إن لآل باندو حقاً في الملك مثلما لأبنائي قدراً بقدر. إن القدر حليفنا إذ سلم أبناء أخي، وقدر لهم أن يتزوجوا من دروبدي. فهيا امض وأحضرهم وكونتي معهم أيضاً!».

تهيأ فيدورا للسفر، فلم ينصرم النهار إلا وهو ينهب الطريق بعربته إلى عاصمة دروبدا كما أمر مليكه لمقابلة آل باندو، حاملاً إليهم الهدايا الفاخرة الثمينة مما يليق بالملوك والأباطرة.

ولقد قابل العم أبناء أخيه، بحضور دروبدا، وقدم لهم دعوة الملك ديتراشترا للعودة إلى هاستنبورا. ولكن دروبدا قاوم الدعوة وما فيها من الإغراء، وشكك بنوايا صاحبها، وأبدى خشيته من أن يكون قد قصد بها فصم حلفه وأنسبائه. بيد أن فيدورا طمأنه وبدد له مخاوفه بقوله إن العم الملك ديتراشترا إنما شاء أن يحق الحق ويعيد الصفاء إلى مملكته. فلم يملك دروبدا إلا أن يخفف من معارضته، ثم لزم الصمت المطبق، وترك لآل باندو حق التقرير والاختيار.

وهكذا عاد القوم إلى هاستينبورا، فقابلتهم حشود الناس

بالابتهاج والفرح حيثما مروا وكأن الحياة باتت في العاصمة احتفالاً عظيماً.

تتابع الموكب حتى بلغ القصر الملكي، حيث كان ديتراشترا في انتظارهم، تحيط به حاشيته من الجانبين، على امتداد القاعة الفسيحة.

وإذ اقترب الإخوة من الملك وأدوا له واجب الولاء، واطمأن على أحوالهم، قال لهم مخاطباً: «الرأي عندي أن تمضوا إلى إندرابراستا لتقيموا فيها وتحكموا في نصف المملكة، وإذن فأنتم وأبناء العمومة في سلام ووئام».

وافق الإخوة على عرض العم، فغادروا ومعهم كريشنا إلى إندرابراستا واتخذوها عاصمة لملكهم. وسرعان ما أخذوا في تدعيم عاصمتهم فشقوا حولها خندقاً عميقاً واسعاً لم يسمع الناس بمثله من قبل، وأخذوا بطرق العمران فأشادوا الأبراج العالية، وحشدوا فيها الجنود والأسلحة القوية للدفاع. أما في الداخل فكان الحشد أعظم خلف الأسوار العالية، حيث اختزنوا أدوات الحرب الفتاكة، وعملوا على تعبئة الجنود في تشكيلات قوية.

وما هو إلا حين حتى غدت البلدة الذاوية جنة من جنان الأرض عامرة بالقصور والبيوت تحيط بها الحدائق الغناء من كل جانب، تصدح على أفنانها البلابل والعصافير بأشجى الألحان. ولم يمض وقت طويل حتى تردد صدى اسم إندرابراستا في العالم كله، وباتت مقصد كل ذي موهبة، يعرض فيها فنونه وصناعاته، يأتيها البراهمة لينعموا في ظلها بالراحة الروحية، كما ينشدها التجار ليعرضوا في متاجرها بضاعتهم من كل لون وصنف ويجنوا منها الأرباح الوفيرة.

وكان الإخوة منصرفين في هذا كله إلى تدبير شؤون ملكهم والناس الذين في طاعتهم، فاستقرت أحوالهم وتوطد سلطانهم على أحسن ما يكون الحال وأفضل ما يكون السلطان. وإذ هم في هذا

الحال أطل عليهم حكيم الأرباب نارادا، فهرع إلى استقباله الإخوة وفي مقدمتهم يوديشترا ودروبدي، يقدمون آيات الإجلال، وأجلسوه أحسن مجلس. فلما أخذ القوم يغادرون القاعة، استبقى يوديشترا معه، وقال له ناصحاً:

«أمَّا وقد استتب لكم الأمر هنا، فاحرص على ألا تدع مجالاً للخلاف بينك وإخوتك، بسبب اشتراككم في امرأة واحدة، وإلا كان حالكم مثل حال التوأمين صوندا وأوبصوندا اللذين كانا يشتركان في المأكل والمشرب، بل والفراش أيضاً حتى نشب بينهما النزاع على العفريتة تيلوتما، وكان أن قتل أحدهما الآخر؟ فحذار! حذار من الفتنة أن تقع بينكم!».

وقع حديث نارادا موقعاً شديداً في نفس يوديشترا، فأعمل فكره في تدبير يحول دون التنازع على دروبدي، فاستدعى إخوته للاجتماع والتداول. وهكذا، كان الإتفاق بينهم على أن يهجر الأسرة الأخ الذي يقطع على أخيه خلوته مع دروبدي، ليمضي اثنتي عشرة سنة في الغابة.

وصادف أن داهم اللصوص حظيرة أحد البراهمة وسرقوا بعض ماشيته، فهرع إلى آل باندو يشكو ما حل به، وصاح بالعار والشنار أن تسرق منه الزبدة المقدسة في مملكتهم، فأين الأمن، وأين الأمان؟ فطمأنه أرجونا وقطع على نفسه العهد بأن يعيد له ما سرقه اللصوص منه. ومضى لتوه إلى القصر ليأخذ قوسه، فما كاد يدخل حتى وقع على يوديشترا في خلوة مع دروبدي في الغرفة حيث يحتفظ بالسلاح. تردد قليلاً ثم دخل وحيى أخاه وحمل سلاحه خارجاً.

مضى أرجونا في حملته على اللصوص حتى استأصل شأفتهم، ثم قفل عائداً إلى العاصمة، فاستقبله الناس أحسن استقبال بعدما بلغهم نجاح حملته، وتأكدوا من استتباب الأمن في المملكة.

بيد أن أرجونا قطع الاحتفال، وذهب إلى يوديشترا لينبئه

بعزمه على الانزواء في الغابة الزمن المعروف، جزاء لما وقع عليه ناظراه حين كان في خلوته مع دروبدي.

ولكن يوديشترا لم يجد فيما قاله أرجونا إلا سبباً لامتعاضه، فهو لم يتأذ حين دخل عليه، ولم ير ثمة ما يضير أن يدخل الأخ الأصغر على أخيه الأكبر، وهو يجالس زوجته، فلا إثم، إذن، ولا عقاب بعد.

ذكّره أرجونا في تلك اللحظة بأنه كان صارماً مع نفسه على الدوام حين يتعلق الأمر بالواجب. فلا أقل من أن يقتدي هو أيضاً به: وإذا كان الرجل قد نقض عهده لزم عليه أن يقبل العقاب.

وهكذا غادر أرجونا كما قضى العهد ليعتزل المدة المعلومة في الغابة. وقطع الرجل في طريقه القفار واجتاز البحيرات والأنهار، إلى أن بلغ نهر الغانج فنصب خيمته هناك على ضفة النهر. ولقد اعتاد النزول في النهر المقدس كل يوم للاغتسال والابتهال إلى الأسلاف، حتى كان ذات يوم من تلك الأيام وجد شيئاً يمسك بساقه، وهو مستغرق في عبادته، شأنه دائماً، ويجره إلى الأسفل، ثم يغوص به، فلا يقوى على المقاومة، حتى بلغ قصراً منيفاً. أجال أرجونا النظر حوله، فوقعت عيناه على حورية لا نظير لها في الجمال فشرع يسألها من تكون، وما شأنها، فأخبرته أنه في قصر أبيها كارافا، ملك الأفاعي، الناغا، وأخبرته باسمها أُولوبي، ثم صارحته بأنه ملك فؤادها حين شاهدته في النهر، فكانت ترد ذلك الموقع يوماً بعد يوم، فلم تتمالك نفسها من اختطافه، لتتذوق معه شهد الحب وتحمل منه طفلاً يتوج هذا الحب العظيم.

روى أرجونا لأُولوبي حكايته والعهد الذي قطعه بأن يلتزم التبتل طوال اثنتي عشرة سنة، فلا يقرب امرأة حتى تنقضي المدة المعلومة، وما كان يلمتنع عنها لولا ذلك العهد.

فأجابته المرأة أن عهده مقصور على دروبدي وحدها فلا يسري على سواها. ثم أبدت له من علامات اليأس إن امتنع عنها ما

حمله على الاستجابة لها، فأقام معها ليلة ثم غادرها في الصباح حاملاً منها طلسماً يحصنه من كل عدو يأتيه من البحر.

مضى أرجونا يضرب عصا التجوال في الأرض الواسعة، ومازال يسعى في كل طريق، حتى بلغ سفوح الهمالايا، ورأى عن بعد بلداً، فجدَّ في السعي إليه، وعلم من أهله أنه في عاصمة مملكة مانيبورا، ولقد قُدر له أن يتعرف إلى ملكها تشيترافهانا وابنته الحسناء تشيترانغادا فملكت قلبه ورغب في زواجها.

طرق أرجونا باب الملك يسأله أن يمنحه يد ابنته، فعدد له نسبه وأصله ومحتده. ولكن الملك أبدى تردداً في قبول مصاهرته، خشية أن يخسر ابنته التي لم يرزق بسواها وعقد عليها الأمل بأن تنجب له ابناً يرث الملك من بعده. ثم قبل الملك بأن يزوجه ابنته، شرط أن يبقي ثمرة الزواج في كنفه، فيكون ولي العهد.

أقام أرجونا سنوات ثلاث في مانيبورا، نهل فيها من حب زوجه تشيترانغادا ما طاب له أن ينهل، فولد له من هذا الاتحاد ابن، فكان إيذاناً بالفراق وبداية الترحال من جديد.

ظل الرجل يضرب عصا الترحال والتجوال حتى قادته إلى شاطئ المحيط الجنوبي، حيث الأقاليم الخمسة التي نأى عنها أهل القداسة، فلما سأل عن السبب قيل له إن الناس يخشون النزول إلى بحيراتها لئلا تلتهمهم التماسيح الخمسة التي تسكنها. ولكن ذلك لم يكن ليردعه عن النزول إلى تلك البحيرات والاستحمام في مياهها. وما أن نزل وغطس في الماء حتى وجد تمساحاً ضخماً يطبق على ساقه. فشرع يصارع التمساح ثم غلبه في نهاية المطاف، وحين تمكن منه جرّه إلى الشاطئ. وللتو غاب التمساح وبدت مكانه حورية فاتنة تتألق بالحسن والجواهر النفيسة، فعلم منها أنها حورية من حوريات جنة إندرا من معشوقات إله الثروة كوفيرا. وروت له أن لعنة حلت بها وشقيقاتها الأربع بعدما حاولن إغواء أحد البراهمة.

وشاءت اللعنة أن يبقين ممسوخات مائة عام في هذه المياه إلى أن يأتي رجل كريم المحتد فيخلصهن من هذه اللعنة.

عاد أرجونا إلى البحيرة بعدما سمع قصة الحورية، فجر التماسيح الأربعة وبدد عنها اللعنة، كما شاءت له نفسه النبيلة، ولما تم الأمر قفل عائداً إلى مانيبورا ليودع زوجه تشيترانغادا، وابنه فابروفانا، بعد أن قرر الرحيل إلى غوكارنا ليلتقي قريبه كريشنا هناك. ولقد عجب كريشنا لرؤية أرجونا يطوف البلاد والقفار وحيداً متنسكاً، ثم علم من أمره ما كان، ودعاه للإقامة في قصره. وكان أن دام مقامه أياماً عدة نعم فيها بصداقة عشيرة اليادفا ورغد العيش في ذلك القصر المنيف.

ولقد صادف أن كان الرجل يتجول بصحبة كريشنا ويستمتع بعيد العشيرة فوقع نظره على فتاة فاتنة تحيط الوصيفات بها، وللتو غدا أسير هوى هذه الساحرة. لمح كريشنا ذلك البريق الخاطف في عيني صاحبه وأدرك ما اعتمل في داخله، فقال مبتسماً: «لقد حسبتك متنسكاً، وها إني أراك صريع هذه الفتاة. فاعلم إذن أنها شقيقتي سوبهدرا. فإن شئت حدثت أبي في زواجها!».

«أتقول إنها ابنة فاسوديفا وشقيقتك! لا عجب إذن إن كانت قد ملكت علي جوارحي. ولعلي أكون من السعداء إن قدر لي أن تقبلني زوجاً وسوف لن أدخر وسعاً لأن أحقق لها السعادة لو غدت بجانبي».

قال كريشنا: «جرى العرف على أن تختار بنات الشتريا أزواجهن بأنفسهن. ولكن إن كنت أدري بشقيقتي فإني أشير عليك باختطافها عنوة. فهي لا تدري صالحها، فإن كنت ترغب بها فاختطفها ولا تتردد، ولا تدع لها فرصة للتفكير أو التقرير!».

ولما استقر الرأي بعث أرجونا وصاحبه برسالة فصلا فيها الخطة ليوديشترا: وجاء جوابه موافقاً الخطة.

كانت سوبهدرا عائدة إلى القصر، ذات يوم، من صلاتها في تل غير بعيد، حين برز لها أرجونا بعربته الذهبية. فأسرع وحملها، من حراسها، إلى إندرا براستا. فهرع الحراس عبثاً للحاق به لتخليص

أميرتهم. ولكن ذلك كان أشبه باللحاق بالبرق والرعد، فلم يجد مطاردوه بداً من الانكفاء والعودة إلى العاصمة، حيث كان أشراف العشيرة مجتمعين في ليلة سمر بين أقداح الخمر والغناء والطرب. فلما بلغهم النبأ ثاروا وهاجوا وتعالت أصواتهم بالويل والثبور لهذه الجريمة، مستنكرين فعلة أرجونا. ولكن كريشنا اعترضهم منددا، قائلاً: «ماذا دهاكم يا قوم؟ وما بالكم قد فارقتم الصواب؟ ما جريمة أرجونا في أنه اختطف الفتاة، وقد علمتم أن الفتاة لا يصيبها التوفيق دائماً في اختيار الزوج. ونحن كما تعلمون لسنا من الذين يبيعون بناتهم في أسواق النخاسة. وهذا أرجونا أفضل من يصاهرنا، فليس هناك من يعلو عليه شأواً إلا الإله شيفا. فهيا، تمالكوا جأشكم، واهدأوا، وابعثوا في استدعائه ليعود إلينا!»

وقد كان ذلك فعاد أرجونا وأقام في عاصمة اليادَفا، دافاركا، عاماً كاملاً نعم فيه بأطايب الزواج. وقضى بعدئذ بقية أعوام النفي في بوشاكارا. وإذ انقضت المدة عاد بعدها إلى اندرابراستا. فتوجه أولاً إلى يوديشترا ليجدد له الولاء، ثم زار البراهمة، فدروبدي في نهاية المطاف.

بادرته دروبدي حين قدم عليها بالقول: «أراك قد رجعت إلينا، يا أرجونا، وقد حسبتك تؤثر عشرة سوبهدرا. أفلم يقل الخبيرون أن الجديد يذهب بالقديم».

فطمأنها الرجل إلى أنه مقيم على عهده، وطلب منها المغفرة وعاد بعدئذ إلى سوبهدرا، وأشار إليها بأن ترتدي ثياب الراعيات وتلزم جناح النساء في القصر. ولكن ما كان هذا الزي المتواضع لينال من جمال هذه الفاتنة، ذات العينين النجلاوين، ولا كانت مكانتها لتحملها، وهي الكريمة ذات الحسب والنسب، على الكبر والتيه أو الإعراض عن الواجبات والتقاليد، فأبدت كل مظاهر التكريم لكونتي ودروبدي، فوقعت في نفسيهما أحسن موقع، حتى باركتها دروبدي، ضارعة ألا يصيبها مكروه وهي في كنف زوجها الذي رجت ألا ينال منه عدو وهكذا ساد الوئام هذه الأسرة. أما

كريشنا فقد أقام مع أرجونا، فكانا يمضيان الوقت في صيد الغزلان وسواها من الحيوانات في تلك الغابات الجميلة عند أطراف اندرابراستا الرائعة.

ظل القوم على هذا النحو من السعادة والرغد لا يكدر حياتهم مكدر، ثم ازدادوا غبطة حين وضعت سوبهدرا ابهيمانيو فكان طفلاً خارقاً، وكان يوديشترا فرحاً بمولد هذا الطفل، فوزع عشرة آلاف من الأبقار والثيران وآلاف آلاف القطع الذهبية على البراهمة. أما دروبدي فقد كانت تلد طفلاً كل عام، فولدت ليوديشترا بارتيفيندايا، ولبهيما شروتا سوما، ولأرجونا شروتا كارمان، ولناكولا شانتينيكا، ولسهديفا شروتا سينا. وتقلد كل منهم الخيط المقدس من حكيم البراهمة دهوميا، وكان أن شب هؤلاء الفتية على الوفاق والتعاضد، والتثقف بأسفار الفيدا المقدسة، والدأب على إتقان مهنة السلاح.

وكان عهد آل باندو عهداً حافلاً بالنجاح والانتصار. فخضعت لهم أمصار عديدة، وعرف يوديشترا بالحكمة في السياسة، والعمل الدؤوب على زيادة ثروة البلاد ومراعاة الدارما وإشاعة الحب بين الناس.

أشار أرجونا على كريشنا ذات يوم قضاء بعض الوقت على ضفاف نهر اليامونا، والسباحة في مياهه، والتنعم بظلال الأشجار الوارفة هناك، وامتاع العيون بمنظر الحوريات الفاتنات وسط حقول الأزهار والورود وبين الأريج والعطور، رائحات غاديات يتضاحكن ويتغامزن، أو راقصات عابثات، والجو من حولهن عبق بالإغراء الذي يشع منهن، وتطرب الأذن بالألحان الشجية تنطلق من الناي والفينا والطبلة.

ولما بلغ الاثنان المكان وقعا على بقعة جميلة فجلسا عندها يستمتعان بروعة المشهد، من الطبيعة الفاتنة والجو العبق بأريج الزهور والحوريات الفاتنات ينثرن عطرهن فيزدن هذه الروعة

حُسناً. خلد الرجلان إلى هذه السكينة وهذا الهدوء فازدادا رضى فوق رضى وظل هذا حالهما طوال اليوم أو أكثره، فإذا أصابهما شيء من تعب الرياضة جلسا يمضيان بعض الوقت في الحديث حيناً وفي تأمل الطبيعة من حولهما حيناً آخر. وقد استغرقهما الحديث والتأمل ولم يقطعهما إلا براهمي برز لهما فجأة؛ كان فارع القامة كالشجرة السامقة، بشرته بلون التبر، وله لحية طويلة صفراء يشوبها اللون الأخضر، عيناه واسعتان كأوراق زهرة اللوتس، تحيط به هالة من النور. عجب الرجلان لما كان يشع من هذا الضيف الغريب من القوة والبهاء، وراودهما إحساس بأنه على قدر من الخطورة، فقاما لتحيته فبادرهما البراهمي، أو من كان يتزيا بلباس البراهمة، بتعريف نفسه، كان إله النار أغني جاء يسألهما الطعام، الغابة التي يسكنانها ويحرسها الإله إندرا. فلطالما ظل إندرا يلاحقه بالبرق والرعد وسيول الأمطار، وها هو ذا قد بلغ به الجوع كل مبلغ، فلهما أن يتوسلا بما لديهما من الأسلحة الفريدة لحبس الأمطار، بينما هو يلتهم الغابة.

تدبر المحاربان الأمر، فاتخذ أحدهما مكانه في أقصى الغابة بينما أخذ صاحبه الطرف الآخر، وشرعا في قتل كل المخلوقات أمامهما، وهما يمضيان في عربتيهما كالعاصفة الهوجاء حتى كاد المرء لا يتبينهما أحياناً، أو يحسبهما رجلاً واحداً أحياناً أخرى والحيوانات والبشر من أمامهما، تتدافع صارخة مذعورة طلباً للملجأ مخلفة أكثر الصغار وراءها للأسلحة الفتاكة، وللنيران تلتهم الأشجار وما حولها من المخلوقات فلا تبقي ولا تذر. ولم يسلم من هذا الجحيم حتى الطيور ذاتها، فكانت تتساقط أسراباً بسهام أرجونا، ثم تتصاعد رائحة الشواء منها، شأن السلاحف والسمك، بينما صراخ هذه الضحايا يتعالى ويعم الغابة كأنه هدير البحر، وألسنة اللهب تتصاعد حتى أعالي السماء، حيث كانت الآلهة تنظر وترقب، وتسأل إندرا جزعة من أن تكون هذه نهاية العالم.

استمرت المجزرة واستمر سكان الغابة من الراكشا

والأفعوانات والذئاب والدببة والفيلة في الاندفاع بحثاً عن الملجأ، إنما ليجدوا أرجونا وكريشنا بالمرصاد أمامهم فجمدوا في مكانهم ذعراً، وعندئذ كان كريشنا يرميهم بقرصه الفتاك فينزل بهم تقطيعاً. وهكذا ظل أغني في حمى أرجونا وكريشنا يلتهم الغابة بنيرانه طوال أسبوعين، فلم يبق منها إلا ستة من سكانها الأفعوان اشفاسينا والراكشا مايا والطيور الأربعة.المعروفة باسم شارنكا. ولما رأى أنه أتى على الغابة وأحس بالشبع جلس سعيداً يتأمل تلك الأنهار والسيول تجرف أمامها اللحم المشوي والعظام المحترقة.

شاء أغني أن يكافئ هذين المحاربين، فسألهما أن يطلبا منه مكرمة يرد بها جميل صنيعهما فسأله أرجونا أن يأتيه بكل أسلحةإندرا، فوعده أغني بأن يأتيه بها.

قال أغني قبل أن ينطفئ ويتلاشى من أمامهما: «لقد كنتما كالنمرين بين البشر، ولسوف تظلان هكذا أينما حللتما ومهما واجهكما!».

مضى كريشنا وأرجونا يصطحبان معهما الراكشا مايا وأخذا في التطواف حيناً من الزمن حتى توقفا عند ضفة نهر أثار فيهما إحساساً بالروعة.

السفر الثاني

الاجتماع

جلس كريشنا وصاحبه أرجونا يستريحان بعض الوقت من عناء التجوال والتطواف. أما مايا فلم يشأ الجلوس معهما فظل واقفاً حتى وجدهما مستريحين في مجلسهما، ففاجأهما بانحناءة منه، وبادرهما بالإعراب عن إمتنانه لإنقاذهما إياه من ذلك الموت المحتم الذي ما كان ليفلت من براثنه لولاهما، وإذن فلهما دين عليه، وسألهما أن يطلبا منه مكرمة، وفاء لهذا الدين الذي تكلل به. فأجابه أرجونا أن حسبه أن يحسن إلى الناس، ففي هذا أكثر من مكرمة ولكن مايا عاد فأصر على رفيقيه أن يسألاه مكرمة. وعاد أرجونا يؤكد له أنه عازف عن الطلب، إلا إذا شاء كريشنا أمراً آخر.

قدح كريشنا زناد فكره، وسرعان ما خطرت بباله فكرة، فقال لمايا أن يبني لهما قصراً لم يقع لإنسان مثله من قبل، ولا يماثله قصر من بعد، فيكون أعجوبة في العالم، وآية من آيات العمارة تجمع بين الجلال الرباني، والروعة الإنسانية، ورهبة السحر.

وللتو شرع مايا في بناء هذا القصر وظل في عمارته حتى أشاد قصراً ينافس مسكن الآلهة ذاتها. كان قصراً منيفاً واسعاً مترامي الأطراف، جهد مهندسه أن يلائم كل المواسم والفصول،

فيوفر الدفء لسكانه شتاء والبرودة صيفاً، تحيط به الخضرة على مدار السنة فيحسب المرء أنه في ربيع دائم. ثم أقام على حراسته ثمانية آلاف من المردة الكينكرا بعيونهم النحاسية.

كان ذلك قصراً لم يأت بمثله أحد من قبل، في وسطه بحيرة تطفو على سطحها أزهار اللوتس الذهبية، ويسبح البط والإوز والبجع على صفحة مائها الرقراق، ولو شاء أن يقترب منها المرء لوجدها كأنما وضعت في إطار من المرمر المطعَّم بالآلئ، ولو حدثته نفسه بالنزول إليها لرأى سلماً من الكريستال الشفاف يحمله إلى جنباتها، وكان يزيد من روعة أسرار هذه البحيرة صفحة الماء الهادئة حتى ليحسبها المرء أرضاً مستوية، والأشجار الخضراء الوارفة الظلال تحيط بالقصر والجو عبق بأريج الورود والأزهار. وفي حماه كان الناس يعيشون في سعادة وهناء، ويخيم عليهم الهدوء والسكينة.

ولما ملك يوديشترا القصر أقام الاحتفالات والمآدب لتكريم آلاف البراهمة وأجرى لهم الجرايات وقدم لهم فاخر الملابس وعدة الزينة، مما حملهم على الدعاء له وتواصلت الابتهالات حتى تردد صداها في أعالي السماء.

كان بين المدعوين حكيم الآلهة، نارادا الذي طبقت شهرته الآفاق في التبحر في العلوم، والأخلاق وحفظ الملاحم، وأسفار البورانا، ورسوخ قدمه في مذهب النيايا في المنطق، وتحليل الألفاظ، ومعرفة الطقوس، وعلم الفلك، والعالم بأصول المفاوضات، وعقد المعاهدات، والمرجع في العلوم العسكرية، وفنون القتال، وهندسة الحصون.

وقد شاء يوديشترا أن ينتهز الفرصة ليستزيد من علوم نارادا فجمع إخوته، ثم أرسل ثلة من الحرس يتقدمها مبعوثه ليوجه إليه الدعوة لحضور مجلسه في استعراض من التكريم. فلما دخل الحكيم القاعة، خف إليه مبدياً آيات الإجلال والتعظيم، وأجلسه أحسن مجلس، وهو إلى جانبه كالتلميذ في حضرة معلمه.

جلس نارادا يتأمل يوديشترا بنظرات هادئة عميقة، يحاول أن يسبر أغواره، ويقدر مكامن القوة والضعف فيه. ظل نارادا في تأمله فترة حتى قطعها بقوله مخاطباً مضيفه: «لقد سرني ما شاهدت في بلدك أيها الملك! ولكن اعلم، عز مجدك، أن الاحتفاظ بالمُلك أصعب من تأسيسه. ولذلك كانت صفات الملك غير صفات سواه. واعلم أن هذه ستة لا بد منها لكل ذي سلطان يبغي الحفاظ على سلطانه؛ وهي الحيلة في التدبير، وحسن الاستعداد لاستباق الخطوب قبل أن تداهمه، والذكاء في التعامل مع الأعداء، وقوة الذاكرة، وعمق المعرفة بعلم السياسة والدهاء، والتمسك بأهداب الفضيلة. ومن افتقد هذه الصفات زال ملكه بلا ريب مهما ضحكت له الأقدار.

واعلم يا صاحب الملك أن أركان السلطان سبعة؛ قائد الجيش، ورئيس حامية قلعة الملك، وطبيبه، وقاضي القضاة، والمستشار السياسي، ورئيس الشرطة، وكبير المنجمين. فاحرص على أن تختار هؤلاء ممن ثبت ولاؤه لك.

واعلم أن أسس السياسة مصانعة من يصانعك من الملوك والحكام فاحذر الخفة في تقدير هؤلاء، واحذر أن تثير فيهم الحقد عليك! والحكمة كل الحكمة أن تحمل ذوي السلطان في الجوار على الاقتناع بأن لهم كل الخير في مسالمتك والتحالف معك.

واعلم أيضاً أن تحسن صنعاً، إن تخيرت المعلمين الراسخين لتعليم الأمراء وقادة الجيش الدارما ومختلف العلوم، والفنون!

واعلم كذلك أن ثبات الملك، في معرفة الأعداء في الداخل، كما في الخارج. فابثث العيون في كل مكان ليرصدوا مخططات الأعداء، ثم إنك تفيد منهم بمعرفة أحوال الناس وآرائهم!

واحرص على أن تختار للمسؤولية أهل النزاهة، والفضيلة، وعفة النفس، والإخلاص للملك والدولة!

واحرص بعد أن يكون كبير الكهنة متمتعاً بالفضيلة،

والتواضع، والعفة، والوقار، وصفاء النفس، والسماحة، واحترام الناس!

وتبين إن كان في وزرائك، يا صاحب السلطان، خفة أو جرأة عليك وأنت تسألهم الرأي في تصريف الأمور فيكون شأنهم شأن الكهنة الذين يستخفون بالفقراء من الناس إذا عجزوا عن أداء النذور وتقديم القرابين، أو الزوجات اللواتي يهزأن بأزواجهن إن ظنن بهم غفلة!

واجهد في مكافأة أهل العلم والمعرفة، والتمسهم بالتكريم والصلات، إن استتروا بالتواضع وتول جنودك بالرعاية، وتأكد من أن تبلغهم أجورهم في الموعد المحدد! واحرص على أن تصل كبار قادة جيش العدو بالصلات، وابعث إليهم بالهدايا ولا تغل يديك، فتكسبهم إلى جانبك!

واعلم أن النزق والعجلة يفسدان سلامة التقدير، فحذار من استعجال إعلان الحرب على خصم حتى تستنفذ كل وسيلة لتفاديها، بالاسترضاء بالمال وبذر الشقاق في صفوف الأعداء وتأليبهم على بعضهم البعض، وتوسل بفن التفاوض، والتلويح بالقوة قبل استخدامها!

واعلم أن المال رديف القوة في تعزيز الملك، فاجهد في أن تكون ميزانية البلاد متوازنة وخزانة المال مليئة!

وتأكد من أن ثروات البلد من زراعة وتجارة وصناعة في أيد أمينة كفوءة!

واعمل على أن توفر الأمان للنساء، ولكن حذار من ائتمانهن على أسرار الدولة!

والتمس العلم والرياضة في معالجة أمراض البدن، ورياضة النفس والصوم في مداواة أمراض النفس!

واعلم أن في رعاية البراهمة والحكماء وتوقيرهم فوائد وفوائد، فاحرص على التماسهم بالاحترام والتقدير!

وبعد، فحذار حذار أن تقع في مثالب الملوك الأربعة عشر: الإقبال على الملذات، والإلحاد، والغضب، والحمق، والتسويف، والخمول، والنزق، واتباع رأي مستشار واحد، وعدم الأخذ برأي الجماعة، وتغليب رأي المنافقين من الحاشية على المستشارين الراسخين في العلم، والتراجع عن قرار محسوم، والخوض في أسرار الدولة، وتبديد الأموال في غير المفيد من المشاريع، وتغليب النزوات على العقل!

واعلم أن أعظم الملوك يأتون أحياناً بخراب ملكهم بعد مجد!».

كان يوديشترا مطرق الرأس يصغي إلى الحكيم ويتمعن في أقواله، ولبث على هذا الحال حيناً يحاول استيعاب هذه الحكمة، ثم سأله أن يخبره عن أسفار الفيدا، وفائدة الزوج ومعرفة كتب التشريع، الشاسترا.

أجاب نارادا: «إذن، فاعلم أن أسفار الفيدا إنما تأتي ثمارها حين يخلص المرء في دراستها، ويأخذ بتعاليمها ويؤدي طقوسها. وأما الثروة ففائدتها في بذلها في أعمال الخير. وأما الزوج فالخير في إنجابها للأولاد، والكتب إنما تكون فائدتها في تعليم التواضع وتقويم الأخلاق».

أجاب يوديشترا عندئذ: «قد بلغني ما قلت وسوف أعمل به!» انقطع يوديشترا بعد هذا إلى تدبير الملك، وتوسيع المملكة، حتى دانت له البلاد من حوله، ونارادا باق يرقب أحواله، فلما اطمأن إلى استقرار الأمور بين يدي يوديشترا، تهيأ للرحيل يحفُّ به الصالحون من كل طرف.

ولاح ليوديشترا ذات يوم أن يجري أجرأ الطقوس وأعظمها، طقس الراجا سويا، وجعل يقلِّب الأمر من كافة جوانبه ويزن الأمور بأدق ميزان مدركاً خطورة القرار ووقعه بين الخصوم، فها هو ذا يعلن نفسه بهذا الطقس ملك الملوك. أفيسلمون له باللقب وما يتبعه؟ أم تراهم يناهضونه ويفسدون عليه مشاريعه؟ هل يتحالفون ضده

فيواجه الأعداء في وقت غير بعيد في ساحة الحرب؟ وهل يستطيع اختراق جمعهم، فيكسب بعضهم إلى صفه، أو يضمن حياد بعضهم؟

وإذ دارت هذه الأفكار في ذهنه ورسخت في عقله، التفت الملك إلى ترتيب مملكته بدأب لا ينقطع وجهد لا ينثني، فيتدبر الأمور بصبر، وأناة، وتبصر لا ينال منه غضب، أو حمق، أو كبر حتى كسب شعبه بالبذل. وكان لا يفتأ يوجه وزراءه وأعوانه ومستشاريه إلى التدقيق في أحوال الناس لئلا يبقى في المملكة معوز أو مظلوم يشكو ضياع العدل، وغياب القانون. فاستحق بسهره على مصالح بلده، وحرصه على عزة أبنائه، ما حمده له الناس، ولهجت به ألسنتهم من الثناء على حسن سياسته، فدوّى صيته حتى بلغ أقاصي الأرض. وكان أن أثرى البلد بتجاره وأصحاب الحرف، فكثر العمل وتوفرت البضائع، وما يحتاجه القوم، وكله حسن الصنعة، دقيق العمل، معتدل الثمن بما يناسب جودته. وإذ شاع الثراء بين الناس أخذوا ينفقون ما كسبوا في أسباب الرفاه، فحسن ذوقهم وارتقى.

وهكذا دارت الأيام، ويوديشترا منصرف إلى شؤون الحكم وتدبير أمور الناس، ولكن فكرة إقامة طقس الراجا سويا وتوسيع رقعة المملكة مقيمة لا تبرح خاطره، يرجو لها الإنجاز حين يأزف الوقت. والحق أنه إنما أمسك عن العمل لتنفيذها إدراكاً منه لما ينطوي عليه مشروعه - الذي ندب نفسه من أجله - من الشروط وتعقيدات الظروف فلما اطمأن إلى استقرار حال مملكته، وكسب حب الناس، وترداد ذكره في الأقاليم البعيدة كما القريبة، ألح عليه الخاطر أن الوقت قد حان للنهوض بالأمر.

وحين استقر على هذا القرار، فاتح كريشنا في الأمر عندما قدم ذات يوم لزيارة عمته كونتي، وصارحه أنه اعتزم إقامة قربان الراجا سويا، وما تردد في هذا إلا بسبب من إدراكه دقائق الأمر وحاجته للتدبير والمشورة، فإن وافقه صاحبه وقريبه مضى في أمره، وإلا فإنه مرجئ هذا المشروع حتى يرى رأياً آخر. وإذن،

فالأمر معلق على مشورة من كريشنا الذي عرف فيه رجاحة العقل، وبعد النظر، وسداد الرأي.

فأجابه كريشنا بأن ما ارتآه هو نعم الرأي، فليس ثمة من هو جدير بهذا القربان سواه، لولا تحدي جراسندها، وذكّره ببأس هذا الملك الذي حمله على الهرب من ماتورا إلى دفارا فاتي وجنوده في إثره يتعقبونه حتى أفلت من بين أيديهم. وأسرَّ إليه أنه لن يتحقق له هذا الأمر إلا إذا قضى على جراسندها وأطلق الأمراء الرهائن عنده، فينال منهم الخضوع لسلطانه، فيكون له عندئذ أن يقوم بالطقوس ويطلق الحصان على نحو ما يقتضيه القربان، ولا شيء يصعب بعد هذا.

أطرق يوديشترا مفكراً فيما سمع من صاحبه، ورأى فيه الصواب كل الصواب. وصارح الرجل صاحبه بما أصبح ينتابه من الشك الآن، إذ كيف له أن ينال من هذا الخصم؟ وقد عرف من سطته وبأسه ما عرف فإن اضطر كريشنا ذاته للهرب أمام حملته عليه، فكيف سيكون عليه حاله وهو الذي دونه قوة وحيلة؟ بل لقد راوده الشك بأن يتمكن مقاتلون ذوو خبرة في القتال مثل بهيما وأرجونا من قهره إذا ما نشبت المعركة بينهما.

وجاء الرد من بهيما، حين قطع عليه استرساله في تساؤلاته: «إن الملك الحصيف لقادر على ابتكار الطرق والأساليب لهزيمة عدوه. والرأي عندي أن نجتمع معاً، فنفيد من دهاء كريشنا، وقوتي، وشجاعة أرجونا، فتكون لنا عندئذ الغلبة على ملك ماغدها».

ثم تبعه كريشنا بقوله: «اعلموا إذن أن جراسندها قد اعتمد إقامة طقس الراجاسويا، وهو يحتفظ بستة وثمانين ملكاً رهائن في معبد شيفا، وينتظر أن يصبحوا مئة ليبدأ هذا الطقس.

فلنكن حلفاً عليه فنحول دون هذا، وإلا لن نستطيع دفعه إن وقع! فالأحمق من تصدى لأمر لم يعد له عدتّه».

أما يوديشترا فظل على شكه وارتيابه، وقال مفصحاً عن دخيلة نفسه: «الحق أن نفسي لا تطمئن إلى هذا الأمر، بعدما سمعت من تصميمكما على مواجهة جراسندها فاعلما إذن أن الإله ياما، على قدرته، لا قبل له بجراسندها. إن بهيما وأرجونا بمثابة العينين مني، ثم ها أنت ذا يا كريشنا ضميري الذي يرشدني إلى الصواب. فكيف لي أن أحيا بعدكم. لو قدر لهذا الأمر أن يفشل؟ ولست أكتمكم أني أميل إلى الإعراض عن هذا المشروع».

كان لكلمات يوديشترا وقع الصاعقة على المؤتمرين أمامه، ووجد كل منهم نفسه بين مصدق ومكذب لا يدري حقيقة قول محدثهم. أهو الوهن قد أصاب عزيمته؟ أم أنه أجرى حسابه فخشي أن يصاب بالخذلان ويضيع ما تحقق له من الملك وقد قنع به؟ أم لعله...؟

ولقد أراد أرجونا أن يقطع سيل الهواجس فيحمل أخاه على هجر هذا التردد الذي بدا وكأنه قد تملكه، فحمل قوسه ولوّح به، قائلاً: «لنقاتله بسلاحنا، فهو الفيصل بيننا!».

وإذ تمالك القوم جأشهم وسكنت عواطفهم أمسك كريشنا بالحديث من حيث انقطع «أي يوديشترا احزم أمرك وتقدم! أي يوديشترا لا تلتفت إلى الوراء فتسهو عن حاضرك، ولا تبعد النظر كذلك فيغيب عنك ما هو ماثل أمامك! وأبعد الموت عن خاطرك، فليس هناك من يعلم متى يأتي أو من يحصد. واعلم يا يوديشترا أن الخلود لا يأتي بالإعراض عن خوض القتال. فلنتدارس الأمر، ولنحكم خطتنا، ثم نسدد ضربتنا فتقع على هدفها كالصاعقة. أما بلغك أن حليفي غريمك، الملك هنسا، والملك دمفيكا. قد اندحرا أما جيش بالاراما، فقتل الأول أما الثاني فقد دفعه اليأس بعد هذا إلى الانتحار! هيا فلقد ربحت نصف الحرب وما عليك الآن إلا أن تملك الجرأة على كسب نصفها الآخر. فهيا! أقدم ولا تبدد الوقت فتفوتك الفرصة!».

بلغت عبارات كريشنا مكامن قلوب هذا الجمع، واطمأنت نفس يوديشترا بحجة محدثة، وسرعان ما بلغ قراره بالمضي لملاقاة جراسندها قبل أن ينفذ ما اعتزم عليه، ووافق الجمع على اعتماد الحيلة لمباغتته فتكون لهم الغلبة، ويتأكد لهم النجاح بأقل ثمن.

واختار المؤتمرون مقابلته متنكرين بزي البراهمة الشنتاكا، المتسولين الجوالين، فذهب كريشنا وبصحبته بهيما وأرجونا يقصدون ماغدها، تلك البلاد الغنية بالبساتين الفيحاء، والمياه العذبة، وقطعان الماشية. ووجدت العصبة الطريق قد أحكمت حراسته بالجند والعيون والأرصاد، وسرعان ما علموا أن الكهنة تنبؤوا لجراسندها بخطر عظيم سينزل به وبمملكته، فكان أن احتاط بهذه الحراسة، وبالانقطاع للصوم والعبادة يلتمس بها من الآلهة أن تحيطه بعنايتها. وأشد ما أعجب هذه العصبة ما شاهدوه من الثروات المبذولة في متاجر التجار في الأسواق، من كل غال ونفيس. ولكن ما كان ليستوقفهم شيء مما رأوا عن الإسراع إلى قصر جراسندها حاملين معهم أطواق الزهر والعقود، ليلقاهم صاحب القصر بما يليق بالبراهمة من الترحيب. ومع ذلك فقد وجد الصمت مطبقاً على هذه العصبة، وكاد يبرم بهم، لولا أن كريشنا سارع بالتفسير مؤكداً أن صاحبيه قد نذرا على نفسيهما الامتناع عن الكلام حتى منتصف ليل ذلك اليوم.

أجال جراسندها النظر في هؤلاء البراهمة الثلاثة، وتذكر في تلك اللحظة النبوءة ونصيحة الكهنة بأن يولي البراهمة الشنتاكا عنايته فلا يتأخر عن مقابلتهم إن قصدوه، ولم ير الملك بأساً في الانتظار بضع ساعات ليأزف منتصف الليل ويكون الوفاء بالنذر، فوجه هؤلاء الزهاد إلى مخدعهم إلى أن يحين أوان الحديث.

وكان اللقاء في تلك الساعة الموعودة في قاعة فسيحة حين دخل جراسندها على البراهمة مخدعهم. وسمع عندئذ من كريشنا عبارة غامضة تعده بالـ «موكشا»، الانعتاق، القريب، ولئن فات الملك معنى هذه العبارة، لم يغب قصد كريشنا عن رفيقيه، أرجونا وبهيما.

أشار جراسندها إلى ضيوفه بالجلوس فجلسوا، وبدوا في جلستهم كالأشجار السامقة المتقدة لهباً.

وشاء الملك أن يصارحهم. بما كان يجول في فكره من الأسئلة، بل قل من الريبة بحالهم. فها هم يزعمون أنهم من الشنتاكا الزهاد، ومع ذلك فإنهم يزينون جباههم بعجينة خشب الصندل، وأعناقهم بعقود الزهور، ثم يدعون بعد بأنهم من البراهمة، إلا أن في مسلكهم ما ينم عن أنهم من الشتريا المحاربين، فأي أمر يخفونه عنه. ثم طلب إليهم الافصاح عن هويتهم وتقبل صلواته!

بدا كريشنا هادئاً، رابط الجأش، وأخذ يؤكد له حقيقة الجماعة: «وأي عجب إن تشابه الشتريا، المحاربون، والفيشيا، الباعة، والتجار، في النذور، وإن اختلفت طقوسهما ثم أما علم الملك أن العقود والأطواق هي من رموز الشك والريبة؟ أما صلواتك فلسنا نتقبلها، طالما أنك عدو لنا وخصم!».

وقعت كلمات كريشنا موقع الاستغراب في قلب جراسندها. فكيف يكون عدواً لجماعة لم يقابل واحداً منها في حياته قط، بل ويعجب إن بلغ أحدهم منه أذى في أي حال والأعجب أن يتحول البريء إلى مذنب لإثم لا يعلم به.

وعلم عندئذ أنهم عصبة قدموا إليه بأمر من ملك آخر لينفذ فيه حكماً أصدره. «إيه، أيها الملك، إنك تزعم لنفسك البراءة، بينما تحتفظ بالملوك رهائن في قصر جعلت منه سجناً لهم. وها أنتذا تواجه الآن من جاء للانتصار لهؤلاء المغلوبين على أمرهم والاقتصاص ممن اضطهد الأهل والعشيرة. واعلم الآن أنك تواجه كريشنا وأرجونا وبهيما. فإما أن تطلق الرهائن من سجونهم، وإما أن تلقى حتفك على أيدينا. نعم إن خلاصك بيديك، والخيار خيارك، فأنت وما تشاء».

كان جراسندها يسمع ويصغي ويعجب ويزداد عجباً كلما ازداد سماعاً: «يزعمون أن لدي رهائن. وذلك حق. ولكن أما علمتم أن

هؤلاء أسرى وقعوا بين يدي، وقد كانوا من قبل ملوكاً، ثم كانت بيننا الحرب فمنوا بالهزيمة واندحروا وهم على رأس جحافلهم. فأي ذنب أتيت؟ أفليس هذا شأن الشتريا: أن يحارب فتكلل هامته بالنصر أو يقضي فيذوي اسمه؟ لقد حاربت كل هؤلاء، وقد كانوا ملوكاً، ونذرت أن أهبهم للإله شيفا، وكان أن وفيت بالنذر فأين مخالفة الدارما؟ لقد نهضت بواجبي ولم أقصر، لن تنالوا بتهديدكم مني شيئاً. فإن شئتم نازلتكم في الحلبة أو في ساحة الوغى، ولسوف تجدونني غير هياب!».

كان رد كريشنا مقتضباً: «الخيار خيارك، إن شئت هذا، أو ذاك».

قام جراسندها من مجلسه، ومد يديه وانتزع التاج عن رأسه، وتجرد من بعض ملابسه، ولاح عليه شيء من الغضب وشيء من العزيمة والتصميم. وأشار بيده إلى بهيما، قائلاً بصوت هادر: «لقد اخترتك أنت يا هذا، فإن غلبتني لم آسف على هذه الميتة لأن منيتي تأتي عندئذ على يد مقاتل أفضل مني!».

دخل الكهنة القاعة، يحملون العقود وأواني العطور، ووقفوا يشهدون تلك المباراة التي يخوضها هذان المقاتلان. الشديدا البأس حتى تنتهي بالنصر أو الموت، أو قل هما الأمران معاً.

اندفع بهيما نحو جراسندها مزمجراً. وتردد صدى صوته في أرجاء القصر كله كما لو كانت وحوش الغابات قد أفلتت، ودب الخوف في قلب القاصي والداني، والتحم البطلان في صراع أشبه باقتتال الفيلة، ثم رأيتهما يبتعدان ويدوران حول بعضهما في فسحة القاعة، ثم يعودان للالتحام من جديد فيتبادلان الإمساك ببعضهما، ويشرع كل منهما في محاولة كسر أطراف خصمه. وسرعان ما أخذ أهل القصر يتسللون وقد اجتذبتهم أصوات الجلبة إلى تلك القاعة التي كان فيها الخصمان يدوران ويجولان كنمرين هائجين، ويراقبون هذا القتال الذي احتدم ولا يقوى أحد على الاقتراب من

دائرة المقاتلين، حسبهم من هذا كله مشهد الاقتتال وصرخات الألم كلما أمسك أحدهما بطرف من أطراف الآخر وأخذ في لويه.

استمرت تلك المباراة ثلاثة عشر يوماً من أيام ذلك الشهر الذي يصادف أول الخريف، وظل الخصمان في قتالهما يوماً بعد يوم لا ينال منهما كلل أو ملل، بل ولم يرقد أحدهما. ولما كان اليوم الرابع عشر أخذت معالم الإرهاق تظهر على جراسندها وعندئذ صاح كريشنا بصاحبه بهيما أن عليك به، فأمسك به ولا تدعه يفلت!

بان لبهيما أن الإرهاق بلغ بخصمه مبلغه، ووجد الفرصة تلوح له حين رأى ثغرة في دفاعه، فتابع اندفاعه وأمسك به، ثم رفعه بكل عزيمته وألقى به أرضاً ومازال به حتى تأكد من أن روحه قد زهقت. أطلق بهيما المنتصر صوتاً كالرعد يعلن انتصاره وسرعان ما انتشر الخبر في طول البلاد وعرضها فذعر الناس أشد الذعر، وكم من امرأة حامل أجهضت عندما بلغها النبأ، أو رجل خشي العاقبة فشق طريقه هارباً لاجئاً إلى جبال الهمالايا المنيعة المقدسة.

كان كريشنا يتهيأ لتلك اللحظة ويعد لها، فرآه القوم يهرع بعدما تأكد انتصار بهيما فيمتطي عربة جراسندها ويمضي ليفك قيد أولئك الملوك والأمراء الأسرى في سجون جراسندها.

جلس يوديشترا يصغي إلى أرجونا يزف له نبأ انتصار بهيما على جراسندها: «ها قد استقام لك الأمر وغنمنا مملكة ماغدها وعظمت ترسانتنا، وصار لنا الآن حلفاء من الملوك الأقوياء، وها هي ذي خزائننا قد أتخمت بالأموال. فمرنا وأرسل بنا على رأس الجيوش فنفتح لك البلاد وإن بعدت! وعندئذ يكون لك أن تقيم الطقوس، وتقدم القرابين، وتعلن نفسك ملكاً فوق الملوك!».

وللتو أقام إخوته على رأس الجيوش ووجههم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً حتى دانت له الأرض وعلت شمسه فوق الدنيا.

وها هي ذي الساعة قد أزفت كما قال كريشنا، وليس عليه الآن

إلا أن يقيم حفل التنصيب، فأمر ببناء الساحات للاحتفالات والعروض، والقصور لاستضافة المدعوين من الأمراء والملوك ليشهدوا الحدث الخطير، واستدعى الممثلين والمهرجين والراقصات للترفيه عن الضيوف، وبذل العطاءات بكرم من الجواري الجميلات، وقطعان الماشية، والطعام مما أصبح حديث العالم بأسره.

وكان بعدئذ اليوم الموعود الذي اجتمعت فيه حشود الملوك والعظام، واتخذ يوديشترا موضعه على العرش فمر أمامه الملوك في صفوف وقدموا له فروض الطاعة والولاء.

وعندما انتهت تلك المراسم قام بهيشما يذكر القوم بأن الوقت قد حان لمبادلة الملوك والحكماء التكريم، والاعتراف بفضل من أسهم في ذلك ـ بأن نتوجه إليه بالصلاة.

انتاب يوديشترا حرج حين سمع عمه الجليل يذكره بالواجب، ثم ازداد حرجاً حين ألقى عليه ذلك الشيخ المهيب هذا العبء العظيم. فالتفت إليه يلتمس منه العون في أداء تلك المهمة الشاقة. «أي سيدي ومولاي إنك لأعلم الناس بجهلي بهذه الأمور. ولقد كنت لنا الأب والمرشد، فأرشدني إلى من ينبغي لي أن أجلسه في كرسي الشرف وأؤدي له واجب التكريم، فأشر علي، وإني مطيع أمرك غير مقصر».

صمت بهيشما وهلة، وقال: «ها أنت ذا ترى نور كريشنا يشع ويضيء كما الشمس فوق الجميع في هذا المحفل من العظماء. والأجدر بك أن تقر له بالفضل، فلولاه ما كان ليتأتى لك هذا المجد وهذه العظمة فتوجه إليه بعبادتك، وهو القوي الذي يحفظ للكون تماسكه ويحتوي في ذاته كل الأضداد.

ماكاد بهيشما يتم قوله حتى علا صوت غلب عليه الانفعال فتوجهت إلى مصدره أنظار الحاضرين، فرأوا شيشوبالا واقفاً بقامته منتصباً كالرمح، والعبارات تتدفق منه كأمواج النهر الهادر، غضبى تنبئ بشر لا قبل لأحد برده: «يا لروعة هذا المشهد! ابن نهر

يشير على ابن زنى. والشرف يمضي إلى راعي بقر! أما الصلاة فيقيمها ابن زنى آخر. وفوق هذا كله رأينا المشهد يزداد جمالاً بنثر الزهور والورود، بينما الملوك العظام شهود مأخوذون كالبهائم لا يملكون دفع هذا العار! أي آل باندو، كم هو قليل علمكم بالدارما! أرأيتم أن كريشنا أكبر الحضور لتتوجهوا إليه بالعبادة؟ أهو أكبر من أبيه فاسوديفا؟ أم أنكم وجدتموه الحليف الذي يعتد بقوته؟ وإذن، فأي بأس ترونه في الملك دروبدا؟ أم لعلكم فقدتم المرشد فعثرتم عليه في كريشنا؟ فأين أضعتم درونا؟ أو ربما افتقدتم السلف فاتخذتم من كريشنا هذا السلف؟ فيا لضياع فياسا! ناشدتكم أن أجبتموني لم لا يحظى بهيشما بهذا الشرف ـ وقد علمتم من أمره أن الموت لن يقربه إلا بمشيئته؟ فهل كريشنا قادر على تدبير الموت والحياة مثله؟ وماذا عن أشفاتمن ودريودانا وكريبا؟ إن صاحبكم كريشنا هذا ليس براهمياً أو مرشداً ولا هو بملك. فمن أين يستقي الشرف؟ وأنت يا بهيشما أي جنون أطبق عليك فوجدته جديراً بالعبادة.

أما أنت يا كريشنا، أتراك فقدت الحياء لتقبل شرفاً تعلم حق العلم أنك لست أهلاً له؟ انظر إلى نفسك تلعق المديح كما الكلب على قارعة الطريق يلعق سمناً اختطفه من صاحبه. إنك والحق أجدر بالاحتقار. وإذا اختارك قوم القوروش لقبول الصلاة فإنما ليظهروا حقيقتك. ولكن يا لضياع الشرف! فهم يرفعون من مقامك لتكون كمثل العنين حين يزف إلى صبية بكر جميلة، ثم هم يدفعون بك أمام هذا الحشد الكريم لتبدو كما هي حقيقتك. ممثلاً يعرض ألاعيبه السخيفة أمام أعمى! أهذا هو الشرف يعرض لمن لا يرقى لمرتبة الملوك؟».

أنهى شيشوبالا خطبته ثم مشى مغادراً الساحة مثيراً جلبة عظيمة. وفي إثره بعض الملوك والأمراء، يريدون مقاطعة الطقوس مثله.

لحق به يوديشترا يحاول تهدئة روعه ويطيّب خاطره، وذكّره بصوته الرقيق بأنه زاد في غلظة القول والعسف في حق بهيشما

بزعمه أنه يجهل الدارما. أفيكون هذا حقاً والملوك الآخرون قد صمتوا حين عرض كريشنا ليتجهوا إليه بالصلاة وبعد فبهيشما أدرى الناس بحقيقة من اختار قبلة لهذه الصلاة.

لكن بهيشما أسرع إلى يوديشترا، واعترضه قائلاً: «لم تبدد كلماتك أمام من خفي عليه سبب تقديسنا كريشنا؟ أفما علم أنه هو الذي يحكم توازن الكون، وهذا سر تقديسنا وعبادتنا إياه؟ أفما علم، بعد، أنه هو الخالق السرمدي، وهو الذي ضم في ذاته كل الصفات وجمع كل المتناقضات؟ وأنه صاحب النعم والنقم؟ وماذا هناك لم نجده في ذاته الكلية؟ إنه غياتري بين المانترا، وهو كريشنا بين الرجال. أما شيشوبالا فصبي غرٌّ لم يبلغ عقله حقه من النضج ليتبين حقيقة كريشنا.. وإذا كان يظن أن عبادته خطأ، حق له أن ينازعنا الرأي، ثم وجب عليه أن يسلك الطريق القويم في إبداء اعتراضه!».

ولما بلغ بهيشما هذا القول اشتد بسهديفا الحماس، فقال عبارته: «إن كان هناك ملك بلغ به التيه أن يترفع عن عبادة كريشنا فليواجهني هنا في التو واللحظة، ولسوف يجدني أمرِّغ وجهه بالتراب»وضرب برجله الأرض فاهتزت لوطأتها، تحت أنظار القوم ودهشتهم.

عاد يوديشترا إلى مكانه يحف به صمت مهيب. واستأنف القوم الطقوس لولا أن شيشوبالا اعترضهم صائحاً بصوت جهوري غاضب حانق: «أوقفوا هذه المهزلة، يا قوم! وأنتم أيها الجمع، أما حان الوقت لنحزم أمرنا ونضع حداً لهذا التطاول والتجاوز؟ هيا أيها الملوك والأمراء جردوا السلاح ولننه هذا السفه الذي لا نرضى به لأنفسنا». ومن جديد ساد الاضطراب والفوضى فكادت تتوقف الطقوس. ورأى كريشنا بثاقب نظره أن الأمور تسير، إلى غير ما يرام. التفت ويوديشترا إلى بهيشما بنظرات تفصح عن الغضب الذي استبد بهما. رد بهيشما بصوت مدو: «كلاب تنبح على قافلة، فلتنبح ما شاءت!».

ولكن شيشوبالا عاد فرد عليه بأقذع العبارات، واستمر ينسب إليه الجهل والضلال، مؤلباً عليه فخذا قبيلة القوروش، وتابع ينكر كريشنا الذي يقول فيه ما لا يقوله أحد سواه، ويصفه بقاتل الماشية والنساء. أيليق به، بعد، أن يدعو له ويضفي عليه صفات العظمة بين هؤلاء الأشراف؟ فلئن صدق زعمه كريشنا، كذبه الآخرون!.

«وها أنت ذا يا بهيشما تحسب أنه انطلى علينا ادعاؤك بالفضيلة ولبوسك لباس الحكمة. أفلست أنت الذي اختطف أمبا لتزوجها إلى أخيك مع أن قلبها كان يميل إلى سواه؟ لقد حملتها إليه، لكنه أعرض عنها وتركها لمصيرها. أهذا من الفضيلة التي تدعيها؟ أم أن الفضيلة هي التي حملتك لتشهد بأم عينك أرملة أخيك تضاجع غريباً؟ ثم تبرر انقطاعك عن معاشرة النساء بإدعاء التبتل أهو التبتل والرهبنة أم هي العنة تحملك على هذا الشذوذ عن طبيعة الرجال؟ ثم أية فضيلة هذه التي تمنع إنجابك العقب. الأقرب إلى التصديق يا بهيشما أن هذه لعنة نزلت بك ولا تملك لها دفعاً. الحق الحق يا بهيشما أن حالك مثل حال ذلك الطائر الذي لم يمنعه دأبه على ترديد أسماء الخالق ليل نهار من أن يلتهم بيضه!

لقد بلغنا جميعاً أمر جراسندها وإعراضه عن منازلة كريشنا. فإذا بصاحبك كريشنا ومن تجسدت فيه الفضيلة يتنكر بزي البراهمة لينال منه؟ وقد بلغ به التنكر للدارما أن أعرض عن إجابة جراسندها إلى طلبه أن يغسل له قدميه. فإذا كان هو إله الكون، كما تزعم، فلم لا يتصرف مثل البراهمة على الأقل؟ إن الحقيقة جلية ظاهرة تفصح عن نفسها. ومع ذلك فما انقطعت عن تضليل أبناء باندو، وهم مصدقون. يا لكم من مخنثين لا تقوون على مواجهة الكذب والدجل!»

كان بهيما يصغي إلى شيشوبالا يوجه لبهيشما تلك العبارات المقذعة، مقطب الجبين وقد ارتسمت التجاعيد حول عينيه كفروع نهر الغانج، يصر بأسنانه صريراً سمعه الشهود من حوله، وهو يحاول كظم غيظه الشديد، وهم بالهجوم على شيشوبالا لكن بهيشما

قيد ذراعيه ومنعه من ذلك. وحينما رأى شيشوبالا هذا المنظر ابتسم وقال ساخراً: «دعه! دعه ليحترق كالشحرة بنار قوتي وبأسي!».

التفت كريشنا إلى مجلس الملوك والأمراء وأجال النظر فيهم وتوقف هنيهة بدت كأنها بامتداد الزمن. ثم خاطبهم بصوت هادئ رقيق فقال: «أيها الملوك العظام، ذاكم ابن عمتي. وقد عرفتم أنه عمل في دفاركا تخريباً وتدميراً ولم يبق فيها حجراً على حجر. ولقد، احتملت منه هذا. ثم اغتصب زوج أكرورا الرقيقة العذبة، وهو متنكر باسم ملك كاروشا، واتبع تلك الجريمة باغتصاب أميرة أوجين بهادرا وكانت خطيبة هذا الملك. ولقد احتملت منه هذا أيضاً لأن أمه وهي عمتي سألتني أن أرعاه. أما أن يتجرأ علي الآن، وعلى مشهد منكم، فهذا أمر لا أرضاه ولا أستطيع احتماله. إن الكيل قد طفح بي وإني لقاتله أمامكم! بل وكأنما لم يكتف بذلك فأراد امتلاك زوجتي روكميني، ولكن خاب مسعاه وفشل كما يفشل الفلاح الشودرا في قراءة الفيدا!».

أطلق شيشوبالا قهقهة تردد صداها في أرجاء الساحة، وقاطع كريشنا قائلاً: «لم لا تخبرهم بالقصة كاملة، أم تراك تحرج إن علموا بالحقيقة؟ إذاً لأعلنها أنا على الملأ إن روكميني قد كانت خطيبتي، وكنت سأعقد عليها حتى اعترضنا كريشنا واختطفها. فكيف تزعم أمام هؤلاء المبجلين أن زوجتك كانت مخطوبة لسواي؟ هذه هي الحقيقة يا كريشنا شئت أم أبيت. حقيقة أن ليس لمن كان مثلك أن يتجرأ علي بقول أو إشارة!».

كان كريشنا يسمع أقواله شيشوبالا والغضب يعصف بقلبه، فامتدت يده إلى سلاحه، التشكرا، فأرسله إليه بسرعة البرق فاحتز عنقه، فتهاوى جسده صريعاً. وللتو اندفعت من جثته طاقة هائلة وركعت أمام كريشنا ثم ولجت جسده واستقرت في كيانه وسط صمت الحضور الذين استولت عليهم الدهشة.

تابع القوم الاحتفال بتنصيب يوديشترا. إلا كريشنا الذي

استأذن بالرحيل، وحين بلغت الطقوس نهايتها، اقترب فياسا من يوديشترا وأثنى عليه وبارك له ما أصابه من التوفيق. أما يوديشترا فلم يبد عليه إلا مسحة من الحزن استغربها القوم في تلك اللحظة التي يشهد فيها انتصاره. أدرك الرجل ما كان يدور في عقول من كانوا حوله. فالتفت إلى إخوته، وقال: «إليكم قسمي الآن! عهداً أني لن أغلظ في الكلام بعد هذا، ولن أقيم فروقاً بين أبنائي ومن كانوا من صلب الآخرين، عهداً أني لن أسلك طريق الحرب، ولن أتبع إلا ما تقول به الدارما، دأبي أن التمس الفضيلة في كل ما أفعل!».

انقضت المراسم والشعائر وغادر المدعوون، كل يقصد بلده أو عاد إلى معتكفه أو مضى يضرب عصا الترحال في الأرض شأن المتنسكين الزهاد. أما دريودانا فقد آثر البقاء في ضيافة أبناء عمه لاستطلاع حالهم، إذ شدّ انتباهه ما بدا من الفخامة والسلطان الذي يتمتع به يوديشترا في ذلك القصر العجيب الذي يقيم فيه. وبدا الضيف يجول في أرجاء القصر فلا يحيط به ويتقصى أرجاءه فلا يبلغ حدوده. وكان إذا طفق يتجول شرد عن قصده بما يقع له من فتنة المكان وقد حدث أنه كان يتجول ذات يوم فلحظ في الأرض حيث كان يطأ شفافية، فخال أنها الماء، فجذب طرف ثوبه خشية البلل ثم تبين له أنه كان يقف على أرض من الزجاج وحسب. وكان أن أحس بالحرج إذ بدا ساذجاً لا يعرف هذا الرفاه، وهو ابن الملوك، ثم كان أن دخل ما حسب أنه أرض صلبة فإذا به يغوص في بركة من الماء حتى صدره بين ضحك بهيما وقهقهات الخدم. فلما أخرجه الخدم مبللاً غضَّ الطرف خجلاً، ومضى ليبدل ملابسه والماء يقطر منها. وكان أشد ما أخجله في ذلك الحادث الطريف أنه وقع على مشهد من أرجونا والتوأمين، وكأنما آل باندو جميعهم شهود على خيبته، فكان أن ازداد مرارة فوق مرارة حين كان في طريقه يمشي فوق أرض صلبة فجذب طرف ثوبه وهو يحسب أنه دخل بركة ماء، فسمع قهقهات الجمع تتردد من حوله.

ظل دريودانا على دأبه في التجوال بين قاعات القصر وغرفه

وحدائقه يستزيد معرفة بمتاهاته وأعاجيب الفن فيه. فكان كلما عرف شيئاً من غرائب القصر عجب مما شاهد وأراد معرفة المزيد.

وصادف مرة في إحدى جولاته باباً مفتوحاً فأراد عبوره إلى قاعة لم يسبق له أن شاهدها من قبل. فما كاد يدخل حتى صدمه الباب وارتد بقوة الصدمة. ثم تبين له أن ما رآه إنما هو مما زين له الوهم والعبقرية في الصنعة. ثم وقع بعدئذ على باب حسبه مغلقاً فانصرف عنه ليتبين له بعدئذ أنه مفتوح. ولم يمض إلا حين حتى أحس الرجل بالضيق فبرم بمقامه في القصر، واستعجل الرحيل إلى هاستينبورا، بعيداً عن القصر.

وكان أول من قابله شاكوني الذي لحظ على وجهه إمارات الضيق، فلم يملك إلا أن يسأله عن السر في انزعاجه. ولم يكتم دريودانا صاحبه ما يعتمل في صدره من أسباب الضيق والبرم. فكيف للمرء أن يرتاح وقد وجد أبناء عمومته أصابوا توفيقاً ما بعده توفيق ومجداً عظيماً يستثير الغيرة عند من كانت به حمية. أفلا يجدر به أن يحقد على يوديشترا وقد طبق صيته الآفاق وعلت كلمته بين الناس. وها هم أبناء باندو يرفلون في أحسن الحلل ويطاولون أبناء ديتراشترا. أفليست هذه علامات أفول مجد هذه السلالة المالكة؟ نعم، أي رجل لا يستثير حميته هذا الحال الذي ارتقى إليه هؤلاء الخمسة. إيه يا شاكوني، هم في صعود، وآل ديتراشترا في هبوط. والأدهى من هذا كله أنهم كانوا يهزؤون من جلافته لأنه لم يألف هذا الذي غدوا عليه من أسباب الرفاه. فيا للعار! ويا للعار...

افتر ثغر شاكوني عن ابتسامة تجسد فيها كل الخبث، وقال لمحدثه: «إني أشفق عليك إن حدثتك نفسك بالسعي إلى منازلة هؤلاء الخمسة. فلقد خبرتهم في الحيلة فإذا هي تنقلب عليك. لقد سعيت إلى اغتيالهم، فإذا بعميلك هو الضحية. وتتذكر أننا غدونا يومئذ أضحوكة. كذلك خبرتهم رجالاً شجعاناً ذوي بأس وخبرة باستعمال السلاح. لا يا صاحبي، إنك لا قبل لك بمواجهة هؤلاء في المعركة. فإن سألتني المشورة قلت لك إن الأجدى أن نحتال عليهم

بضعفهم. وأحسب أن لدي خطة للإيقاع بيوديشترا، وهو أكبرهم ولا يعصون له أمراً. فصاحبنا هذا ينطوي على ضعف، هو ميله إلى القمار. فإن عرضت عليه منازلتك في النرد وجدته يقبل عليها، وعندئذ سأتدبره أنا فقد علمتني أجيد التلاعب بالنرد كما لا يجيده أحد في العوالم الثلاثة. فأستطيع التغلب عليه وأجعله يخسر مملكته».

وقعت مشورة شاكوني أحسن موقع في قلب دريودانا. ولكنه تردد في قبول الخطة لما يعلمه من أنه لا بد له من الحصول على إذن من والده الملك في هذه الألعاب، فتشكك من موافقته على مثل هذه المباراة بين أبناء العمومة.

أخذ دريودانا يقلب الأمر من كافة أوجهه محاولاً العثور على وسيلة يقنع بها ديتراشترا فلم يجد ألا إن يسعى شاكوني لديه، فلعله يقبل منه ما لا يقبل من ابنه.

مضى دريودانا وشاكوني بالمؤامرة إلى ديتراشترا، واشتدا على الملك الكفيف في الطلب، ولكنه ثبت على المعارضة، وجهد أشد الجهد في حمل ابنه على تبديد ما يشعر به من الضيق بالالتفات إلى حياة المتعة والملذات في الملاعب وبين أحضان جواري القصر. ورد عليه الابن بأنه إن ضاق من أمر فهو المجد الذي يناله يوديشترا كل يوم ويهدد مجد ديتراشترا. أفما بلغه أمر الثراء الذي أصاب مملكته حتى أنه بذل في يوم الاحتفال بتنصيبه ثروات ضخمة لم يسمع أن ملكاً بذل مثلها من قبل؟ إذن فليعلم الملك أن يوديشترا قدم ثلاثين جارية لكل من البراهمة الفقراء الثمانية والثمانين ألفاً! وهل هناك بعد مثل أن يقدم الطعام للآلاف من المدعوين في أطباق من الذهب. أما الملوك، وقد تقاطروا بالمئات للمشاركة في ذلك الاحتفال، فقد نال كل واحد منهم من الهدايا ما لاعد له ولا حصر. فلتكن المباراة وليتلاعب شاكوني بالنرد، ثم ليكن ما يكون!

أصغى الملك لابنه يعرض حججه وهو صامت فلم يعارضه أو يقاطعه، ثم أخذ يدرس الأمر ويتروى، وقطع صمته في النهاية

بقوله: «إنني في مثل هذه الأمور أعود إلى وزيري فيدورا، ولسوف أسأله المشورة. فانصرفا الآن وسيبلغكما قراري بعد حين».

انزعج دريودانا لتردده، فأسرع يقول: «إني أعرف فيدورا حق المعرفة، وأعرف أنه لن يوافق على هذا الأمر. واعلم يا أبت أني سأقتل نفسي إن لم تصدر موافقتك على إقامة المباراة. ولك عندئذ أن تحكم هذه المملكة وتسعد بفيدورا إلى جانبك!».

أسقط في يد الملك ديتراشترا حين سمع قول ابنه، ولم يجد بعدئذ مناصاً من التسليم قائلاً: «فليكن هذا يا بني! فانصرف إلى بناء قصر عامر بمئة باب وألف عمود. وأرجع إلي حينما ينتهي بناؤه».

بات الملك ديتراشترا نهباً للقلق، وهو يفكر في العواقب. فأسرع في استدعاء فيدورا ليتداول في الأمر معه. فلم يجد لديه ارتياحاً لقراره، وإنما سمع منه نذيراً بسوءة قريبة، إذ قال له: «أي مولاي أخشى أن هذا القرار بعيد عن الحكمة. فكما أن في القمار مكسب لأحد اللاعبين فإن فيه خسارة للآخر، والخسارة كما علمت يا مولاي تولد الحقد والضغينة. وكلاهما مجلبة للشقاق والمكيدة. والنتيجة خراب يا مولاي، فامنع هذا الأمر قبل أن يقع فنتجنب الخراب ونسلم!».

كان الأمر قد أفلت من يد الملك ديتراشترا، واستقر قراره على المباراة. فرد على وزيره مطمئناً بأن الأمر سينتهي إلى أحسن حال، إن كانت تصاريف الآلهة إلى الرحمة والرفق. وبعد فإنه يستطيع أن يطمئن إلى النتيجة طالما أن فيدورا وبهيشما من حوله يتدبران الأحوال بالحكمة متى ساءت. وإذن، فليس ثمة مجال للجدال، بعد هذا، يا فيدورا. فهيا، انطلق بعربتك إلى إندرابراستا، وأحضر يوديشترا معك. صه، يا فيدورا، صه! فقد حزم الملك أمره، ولا رجعة عنه والأمر بيد الأقدار، بعد الآن، فلا تعاند، وامض إلى يودشترا وأحضره، هيا!

ولكن الملك ديتراشترا، وإن انصاع لرغبة ابنه، لم يملك نفسه من القلق، فرأى أن يحاول حمله على غير هذا الطريق. فاستدعاه وأسرَّ له بين جدران الغرفة بمخاوفه، وكرر له رغبته أن يقلع عن هذا الأمر الذي اعتزمه، وكم جهد في ذلك والفتى يعاند ويريد المضي في مؤامرته. ثم ذكَّره بأن فيدورا يعارض في هذا، والأجدر أن يأخذ بنصيحته وهو الذي عرفه القوم بالروية والحكمة: «فيا دريودانا إنك تحسن صنعاً إن أقلعت عن المقامرة. فالنرد يجلب الشقاق ويأتي للمالك بالخراب. ولقد أغدق عليك أبواك من الحب والرعاية والحدب ما لم يتيسر لأبناء عمك، ثم وفر لك والدك كل ما يطمح إليه فتى من الشرف والمجد والرفاه. ثم إنك أصبت من العلم نصيباً وافراً. ومع ذلك فأنت في قلق وكدر، والسعادة قد فارقت قلبك».

قال دريودانا: «إني يا أبتاه أضيق إذ أجد يوديشترا يسعى إلى الملك ينازعنا فيه، فيعد نفسه لوراثة أبيه الذي إنما نصب ملكاً بدلاً منك بسبب بصرك الكفيف. وها أنت ذا الآن ملك ويوديشترا يتربص لينازعك الملك. فهل فقدتُ المروءة والرجولة لأخلي له السبيل؟ ولا ريب أنه حمل استخفافه بنا إلى إخوته فهزأ بي بهيما المرة تلو المرة، حتى أنني قد أردت قتله، لولا أني تمالكت نفسي... وحينما وقعت في البركة انضم أرجونا إلى الهازئين. أما دروبدي فقد سخرت مني وجرأت علي الجواري. والحق أني أكاد لا أطيق نفسي لشدة غيظي من هؤلاء القوم، وحسدي لما أصابوا من الرفاه. ومن لا يحسد من يملك ما رأيت من الجواهر والذهب، ويريد منازعة أصحابه!».

أحس ديتراشترا بالكمد يستولي على قلبه، وهو يسمع ابنه يعرض عليه حاله، وتنازعه الشعور بالضيق لشدة شكواه وعناده، ولم يكن يقلل من هذا الشعور إلا إحساس بالإشفاق على هذا الفتى وخوف من تهوره فيكلف نفسه وأهله فوق ما يطيقون، إن هو مضى في رغبته بالانتقام وإذلال أبناء الأخ باندو، وشاء أن يخفف من

غلواء دريودانا وحماسه، فلعله يتمكن من قطع دابر الفتنة قبل فوات الأوان ويجنب الأسرة والمملكة أسباب الشقاق والنزاع. وحاول ما استطاع أن يثنيه عما اعتزم، متوسلاً بعاطفة القريب حيناً وبمنطق العقل حيناً، بعبارات أراد أن تبلغ أعماقه: «أي بني، إنك ولدي البكر وقد ولدتك، أول زوجاتي، ولست أريد من هذه الدنيا إلا صالحك، فأعرني سمعك، واصغ إلي بعقل مفتوح، أي بني، إنك لتثقل على نفسك بالحسد، واشتهاء ما ليس لك. وإنك تكلف نفسك ما لا تطيق حين تنشد النزاع مع من لا ينازعك في شيء. فلم الحسد والشدة؟ وابن عمك هذا لا يحسدك على ملك ولا ينازعك في أمر. ولم تشتهي ما لأخيك؟ إن أبناء باندو بمثابة الذراعين لي، فلم الإصرار على استئصالهم».

«أي بني، أفد من حضور الطقوس في تعلم سماحة النفس تهدأ نفسك. ثم لا بأس إن سعيت إلى الاستمتاع بعد ذلك بأطايب الحياة. فهيا يا بني واقنع بما تيسر لك ووفقت إليه من المجد!».

أصغى دريودانا إلى موعظة أبيه طويلاً فلم يتأثر، وتمعن في كلماته فلم يبلغه منها إلا صدى خافت ما كاد يقع في أذنيه حتى تلاشى بلا أثر. ولقد جهد أن يأتي بقول تطيب له نفسه، فما وسعه ذلك. ولم يملك عندئذ إلا أن يصارح الأب الضرير، ويحسم الأمر عند هذا فلا يعود إلى محاولته: «يا أبتاه، إنك لتنطق بالحكمة. ولكن ما من شيء مما قلت بقادر على أن يثنيني عن هذا. فكما أن الملعقة لا تستطيع أن تتذوق الطعام الذي تحمله إلى الفم، كذلك أراني عاجزاً عن إدراك هذه الحكمة التي نطقت بها. ألست تدرك يا أبتاه أننا مرتبطين معاً في هذه الأمر، ولا فكاك لنا من بعضنا إلى أن يتمْ؟ الحق يا أبتاه أننا كرجلين في قارب واحد بين العواصف. والأجدر أن نتعاون حتى نبلغ شاطئ الأمان. وبعد أفلست تريد صالحي؟ إذن، فاعلم أن واجب الشتريا السعي إلى الفلاح! ثم لماذا تقيم للواجب كل هذا الاعتبار؟ إن الأريب ليتحين كل فرصة لينفذ منها إلى

هدفه ومرامه. ويلوح لي يا أبت أنك لم تحسن تقدير موضع يوديشترا، بين الأعداء. فاعلم يا أبت أن العدو هو من ينطوي على الأذى لك. ولست أحسب أن مخاوفي وشكوكي ستتلاشى مع الزمن. ولقد استقر عزمي على القضاء على شوكة آل باندو أو أموت دون هذا! فهيا يا أبت ودع لشاكوني أن يتدبر الأمر بالنرد، فهذا أقل تكلفة من الحرب الدامية».

تملك الأب ديتراشترا قنوط شديد لما سمع من ابنه، ولكنه لم يستطع دفعه أو ثني عزيمته، فعاد إلى محاولة كسب الوقت، لعل الفتى يتحول عن قصده بعد حين، فقال: «إذن، فلأعد إلى فيدورا لأشاوره فيما ينبغي عمله».

فرد عليه دريودانا: «يا أبت دعك من فيدورا، فقد انحاز إلى صف أبناء باندو، وأنت صاحب القرار أولاً وأخيراً. فلم تشرك آخر في قرارك؟ إن الرأيين إن تنازعا أفسدا كل أمر. والملك الذي يترك نفسه نهباً للشكوك إنما هو سائر بلا ريب، إلى الهلاك. ثم أي سوء تراه في لعبة بريئة مثل النرد، طالما أن الأسفار المقدسة ذاتها لم تنه عنها؟».

قال ديتراشترا منهياً الحديث بعبارات مقتضبة: «إذن فاعلم يا بني أنني لا أستريح إلى ما قلت. ومع ذلك فافعل ما تراه صواباً. ولكن تذكر أن للخطأ ثمناً ولا بد من سداده في النهاية، مهما طال الزمن».

وإذ بلغ ديتراشترا هذا الحد، قطع على نفسه طريق الرجوع، واستسلم لتصاريف القدر بعد تلك اللحظة، ولم يعد أمامه إلا أن يمضي في الخطة التي رسمها ابنه. وللتو أصدر أمره باستعجال بناء قصر البلور على ساحة واسعة، لتكون قاعته ساحة القمار، ثم أوعز لفيدورا بالمضي إلى يوديشترا لينقل إليه رغبة الملك بأن يقبل تحدي دريودانا، ويأتي في الموعد المحدد، ولقد عارض فيدورا واشتد في معارضة هذا الأمر، فما سمع من ديتراشترا إلا حديثاً عن

الكون الذي يحكمه القدر، وعلم عندئذ أن قرار الملك قد استقر على ما زين العقل لابنه.

ركب فيدورا أسرع عربة في الاصطبلات الملكية، ومضى ينهب الطريق نهباً إلى عاصمة آل باندو. لمح يوديشترا على وجه فيدورا علامات القلق، وأدرك أنه إنما جاء، لأمر غير الرغبة في الزيارة. فقال له: «أراك قلقاً، يا فيدورا. فأي أمر حملك على القدوم إلينا؟ لعل الملك في سعادة وخير، كما نأمل، أم أن أبناءه بدأوا في عصيانه وخرجوا عن واجب الطاعة؟».

أجاب فيدورا «الملك في سعادة وخير، كما تريد له، والحق أنني جئت رسولاً منه إليكم، حاملاً دعوته للمثول في هاستينبورا، والمشاركة في مباراة ودية مع أبنائه بالنرد».

قال يوديشترا: «إني طوع بنان الملك! إلا أني لا أرى خيراً في مثل هذه اللعبة، فالقمار يأتي بالشقاق. وأخشى أن نتورط في نزاع مع أبناء عمنا، وهو سيدنا وملكنا، إن ربحنا وإن خسرنا. فالشر في الحالتين قائم».

أطرق يوديشترا مفكراً برهة، ثم نظر إلى فيدورا وقال: «ها قد رأيت المعضلة التي تواجهنا: فإن امتثلنا لأمره وقعت الفتنة، أما إذا أعرضنا ظهرنا عصاة لأمر الملك ومتمردين على العم الكبير! فبماذا تشير علينا أيها العم الحكيم؟».

هز فيدورا رأسه، وبدا متجهماً حزيناً وظهرت في عينيه غشاوة من الكآبة، وقال: «قد أصبت بقولك إن القمار مجلبة للشقاق والنزاع. ولكني إنما جئتك بتوجيه من الملك ديتراشترا. وهكذا تراني عاجزاً عن إسداء النصح لك، فافعل ما يبدو لك صواباً!».

«ومن سيقارعنا في اللعب غير أبناء الملك؟» هناك ملك غنداهارا شاكوني، وقد خبرت هذا مجازفاً لا يقامر إلا بأعلى رهان، وهناك بعد فيغنشاتي وستيافراتا وتشيتراسينا وبورو ميترا وجايا».

«إني أعرفهم جميعاً، إنهم فاسدون. ومع ذلك فهذا قدري يحملني لمواجهتهم. فكيف لي أن أتمرد على مشيئة الملك. فلئن نأى قلبي عن هذا دفعني الواجب إلى مصيري دفعاً. وهؤلاء القوم يعلمون أني لن أتمالك نفسي متى واجهني شاكوني بالتحدي. وإذن، فليكن ما يكون».

وما هو إلا بعض الوقت حتى استعد الإخوة للرحيل مصطحبين معهم دروبدي، ثم انطلق الجمع بعد حين إلى حيث سيواجهون المجهول. وعلى أطراف عاصمتهم، ألقى يوديشترا نظرة إلى البلدة وقد بدت من بعيد هادئة ساكنة من كل صوت، وتصور له القدر كذرات متناثرة متوهجة تزيغ البصر فتذهب بالإدراك، وإذا بالمرء أشبه بدمية معلقة بخيط تمسك به يد خفية فلا يملك إلا أن يتحرك كما تشاء له هذه اليد، ويمضي إلى حيث يريد له القدر أن يمضي.

بلغ الركب هاستينبورا بعد مسيرة طويلة. ومع أن الإرهاق قد نال منهم فلم يتلكؤوا عن مقابلة الملك لحظة وصولهم ولم يتأخر هو عن استقبالهم. وحينما اصطف الجمع أمامه رحب بهم كما هو مألوف، بأن شم رؤوسهم تباعاً مبتدئاً بأكبرهم، وقد بدا سعيداً بلقائهم.

كان لقاء قصيراً اختتمه ديتراشترا بأن أشار عليهم بالاستراحة في أجنحة معدة لاستقبال كبار الضيوف. فلما حل الليل وتقدم بهم دخلت القيان عليهم وأنشدتهم أجمل الأغاني، فهجعوا على أصوات كالعنادل، ثم سرعان ما استغرقوا في نوم عميق.

وفي الصباح استيقظ القوم على أصوات الشعراء يتبارون في قول القصائد الطويلة بين ردهات القصر، فيما كان بقية الضيوف من الملوك والعظماء يخرجون من أجنحتهم إلى القاعة حيث ستدور تلك اللعبة الخطيرة التي سيكون لها أعظم الشأن في مصائر اللاعبين. وسرعان ما انضم الإخوة الخمسة إلى هذه الجموع التي جاءت لتشهد الواقعة العظيمة، فوجدوا هؤلاء محتشدين في القاعة العريضة

الواسعة، بين متكئ على وسادة أو جالس، ينتظر مترقباً بدء المقامرة. جال الخمسة بأنظارهم في القاعة ورأوا هذا الحشد العظيم من الناس، كما شخصت أنظار الحضور إليهم بين مترفق يخشى تقلبات النرد وأثرها على هؤلاء الفتية، أو أرعن تبلدت أحاسيسه فبدت نظرته باردة ليس فيها أثر من عاطفة، وإن ارتسمت على شفتيه ابتسامة تكاد تنم عن قسوة في قلب صاحبها.

كانت نظرة قصيرة قدَّر فيها الأخوة مبلغ الجمع في القاعة، ولكن الحضور رأوا فيها ما يفصح عن شجاعة هذه العصبة وثقة بالنفس لا يعرفها إلا من خبر الأحداث الجسام، نظرة ألقاها هؤلاء الفتية عند الباب، ثم مضوا يتقدمهم يوديشترا إلى مكانهم المخصص في منتصف القاعة وهناك جلسوا تحيط بهم هالة من الهيبة وساد القاعة عندئذ صمت رهيب، كأنما صحا القوم في تلك اللحظة إلى خطر هذا الأمر الذي ينتظر اللاعبين بعد أن يقول النرد قوله الفصل. وفجأة قطع صوت شاكوني هذا الصمت الكئيب الذي ران على النفوس فقال مخاطباً يوديشترا: «ها نحن جميعاً حاضرون، فلتقل شروطك ولتحدد رهانك، ولتكن لك الرمية الأولى».

نظر إليه يوديشترا نظرة طويلة، ثم قال بلهجة هادئة وعبارات واضحة: «القمار، يا قوم، مفسدة وليس من شأن الشتريا المحاربين. فعلام تسلك يا شاكوني السبل الملتوية لتنال منا؟ فإذا كان لك مطلب أجبناك، أو سلكنا المسالك التي تتفق والدارما».

ولكن شاكوني أعرض عن سماع يوديشترا وبدا مصمماً على المضي في المقامرة. وعاد يوديشترا يلح على شاكوني ليفض هذه اللعبة ويتوسل بالأساليب التي تليق بالمحاربين بدلاً من سلوك السبل الملتوية. ولكن ذلك القول لم يجد في صرف شاكوني عما اعتزم، فما الضير في الدخول في رهان بريء، لعبة يجلّي فيها اللاعب فيفوز، والميل إلى الفوز، بعد، من شيم النفوس، وقد يخسر، وهذا من طبيعة الأمور. «فهيا يا يوديشترا وارم بالنرد، أم لعل قلبك وجف

وخارت عزائمك، فلك أن تتنحى عندئذ وتنصرف. وهذا، والحق، شأنك، فأنت وما شئت.»

كان هذا تحدياً أكبر من أن يقوى يوديشترا على رده. وللتو شمر عن ساعده، وغدا أمره منذ تلك الساعة بيد الأقدار تتصرف به كما تهوى. وإذ تهيأ لرمي النرد عرض لشاكوني مقدار الرهان، فهل له قبل بمثله وجاءه الرد من دريودانا، فهو الذي يضمن خاله شاكوني، فلا خوف من تقصيره في السداد.

واعترض يوديشتيرا على هذا التدبير بأن ليس من أصول المقامرة أن تدور بالتوسط. ولكنه سرعان ما عدل عن احتجاجه وقبل بأن ينازل شاكوني برهان دريودانا.

التقط كل نرده بيده، واحتسبت الأنفاس في الصدور ترقباً وتلهفاً، وتقدم بهيشما ودرونا وكريبا وفيدورا الصادق، وجلسوا قريباً يرقبون مجرى اللعب.

أعلن يوديشتيرا أنه يفتتح الرهان بعقد من الذهب تزينه لؤلؤة ضخمة نادرة لم تقع عين على مثلها من قبل، ورد دريودانا عليه بأنه يقابله بصندوق من الحلي والجواهر، فإن شاء وحالفه الحظ كانت هذه كلها له. فهيا وارم بالنرد يا يوديشترا وليحالفك الحظ، وإلا فالخسارة لن تكون فوق احتمالك!

التقط شاكوني النرد بدوره، ثم أحكم إمساكه، ورماه، فزاد عن يوديشترا. صاح عندئذ: «لقد ربحت، العقد لي!».

«فعلاً ربحت! ولكن غشاً. ومع ذلك سأغض الطرف هذه المرة. فلنتابع! إني أعرض كل ما في خزائني مقابل ما عندك. فهيا وارم بالنرد!».

ومرة أخرى ربح شاكوني. قال يوديشترا: «ها إني أعرض مركبتي الملكية المكسوة بجلود النمور والمزينة بالأعلام والأجراس، ومعها ثمان من الجياد الأصيلة التي تحاكي القمر بلونها. فهيا، وارم بالنرد!».

ورمى شاكوني بالنرد، كما شاء يوديشترا، ولكنه، شأنه دائماً، تلاعب به ليضمن الفوز. استقر النرد على أرض الرقعة، وصاح شاكوني: «لقد ربحت!».

استبد الحماس بيوديشترا، ورد: «إليك ما عندي من الجواري، ثمانية آلاف من الحسان الفاتنات المزينات بالقلائد الذهبية والجواهر، وكلهن حاذقات بفنون الحب وأبوابه الستة والأربعين، وباعهن في فنون الغناء والطرب والرقص طويل».

ومرة أخرى تلاعب شاكوني بالنرد وكان له الفوز المحقق. «عندك خدمي بملابسهم المصنوعة من الحرير الخالص! فهيا وارم بالنرد!» وربح شاكوني مثلما كان دأبه.

لم يتمالك يوديشترا نفسه فأسرع يبذل المزيد من الرهان: «هاك ألفاً من الفيلة القوية الأنياب كالمحاريث، والمكسوة بالسروج المخاطة بخيوط من الذهب، فيلة ضخمة تستطيع دك الجدران القوية بأجسادها، ولكل ذكر منها ست من الإناث!».

ومرة أخرى كان الفوز لشاكوني. واندفع يوديشترا يقامر برهان جديد: «لك فيالق من العربات ومعها الجياد الأصيلة والسائسون من المحاربين الأشاوس الذين لا نظير لشجاعتهم، واعلم أن مكافأتهم عندي ألف قطعة ذهبية في الحرب والسلم سواء بسواء!».

رمى شاكوني النرد بدوره، وصاح: «لقد فزت!» رد يوديشترا وقد استغرقه الحماس: «إذن، فهاك ألف عربة أخرى تجرها مختلف الدواب، وستة آلاف من الجنود المدربين! فهيا وارم بالنرد، وليكن الحظ حليف الأصلح!».

وكان الفوز من نصيب شاكوني في هذه المرة أيضاً. وفيما كانت دورة القمار تدور، انتهز فيدورا الفرصة ليهمس في أذن ديتراشترا: «اصغ إلى كلماتي، يا مولاي، وإن كانت مرة فهي كالدواء يأتي بالشفاء لمن به مرض! إن دريودانا أصل البلاء، ولعلك

تذكر صراخه كابن آوى يوم وضعته أمه. والحق أن هذا شأنه. إن قصرك يسكنه ابن آوى، يا مولاي، فمر أرجونا بقتله. اقتل الغراب تفز بالطاووس! وبع ابن آوى تفز بالنمر! اقص شاكوني عن هذه اللعبة، فالرجل معروف بالغش، ولن يعود علينا إلا بالكارثة! اقصه، يا مولاي! اقصه!».

وسارع دريودانا إلى اعتراض فيدورا، وقد كانت كلماته تبلغ مسامعه، وهو إلى جانب ديتراشترا: «لقد خبرنا أمرك، يا فيدورا، وعرفنا انصرافك عنا وانحيازك لسوانا. والحق أنك لم تحمل لنا حباً في قلبك. ولكننا لم نكن ندري أننا كنا نحمل ثعباناً. وها إني أحذرك. فلقد مللنا منك نباحاً وعضاً! وأنت والحق أشبه بالزوج المتهتكة التي تبذل جسدها لغير زوجها... فهيا امضِ من بيننا، وفارقنا فلن نأسف لفراقك!».

ولكن فيدورا أعرض عن سماع كلماته، فقد كان هاجسه أن يضع حداً لهذه المقامرة ويتفادى عواقبها قبل فوات الأوان. وعاد يلح على ديتراشترا، راجياً يتوسل إلى حكمته ومشاعره:

«إن الأفواه التي تنطق بالشر. تتزين دائماً بالكلمة الطيبة والعبارة المؤثرة والبلاغة وسيلتها لنفث السم. أي مليكي، اصغ إلى كلماتي وإن ساءتك، وتقبلها كالدواء المر ففيها الشفاء. إني ماض ولكن انظر الأفعى التي تنفث السم الزعاف في وسطكم!».

ضاعت كلمات فيدورا في الصخب الذي علا بين شهود اللعبة حين صاح شاكوني يعلن فوزه في رهان كبير بلا ريب جازف به يوديشترا فيما كان ذلك الحديث يدور بين فيدورا ودريودانا.

وسمع القوم شاكوني يستفز يوديشترا ويزيد من انفعاله، وهذا يرى نفسه مشدوداً إلى اللعب والمقامرة، ثم يرى خسارته تتراكم وملكه يتقلص وينحسر، فيصيح عندئذ: «هل لثرواتي من حدود؟ هل خلت خزائني من الذهب؟ إليك آلاف آلاف القطع الذهبية، وهي لك إن فزت في هذه الرمية!».

ارتسمت ابتسامة على شفتي شاكوني تنطق بمكر صاحبها وعاد الرجل يهز النرد في كفه مرات ومرات، تارة يرفع قبضته بقطعة النرد وتارة ينزلها. وهو لا ينقطع عن الهز بحركة سريعة حيناً وبطيئة حيناً، ثم يمسك بالنرد بين أصابعه ويرميه على الرقعة فيستقر عليها. فإذا بالرامي يصرخ صرخة النصر.

«وهذه جيادي وأبقاري وقطعان الماعز والغنم التي ترعى في الأراضي بين النهرين بارفاشا والسند، وهي كلها ملكي. وإني أعرضها في رهان جديد. فهيا وارم بالنرد لتفوز بها!».

وعلا صوت شاكوني يعلن فوزه بالرهان كانت الدورة قد مضت إلى أبعد من كل حد، وبات الخصمان أسيرا هذه اللعبة، لا يملك أحدهما الخلاص منها حتى تبلغ نهايتها، فيما كانت أنظار الحضور مشدودة إلى القبضات تعلو وتهبط ولا تستقر إلا بعد دوران النرد على الأرض، والكل لاه في هذا عن الربح والخسارة، منشغل بما تثيره في النفس رمية النرد من حماس وترقب، وإحساس بالسرور إذا جاءت الرمية ملائمة لتوقعات الناظر أو بخيبة الأمل حين يأتي النرد بما لا يتوقع أو يهوى. ومضت الجولة إثر الجولة في هذه المقامرة، ويوديشترا يمنى بالخسارة المرة بعد المرة، ولم يعد عنده ما يراهن به سوى عاصمته وأهل مملكته، فبذل هذا كله، إلا ملك البراهمة.

وعلت صيحة الفوز من شاكوني من جديد. وها قد خسر يوديشترا كل ملكه وغادرته خزائنه ولم يعد عنده ما يراهن به أمام هذا الماكر. أما شاكوني فقد جلس يغمره هدوء يعرفه كل منتصر ويأباه الخاسر.

دام هذا الحال هنيهات قطعها يوديشترا برهان جديد:

- «أتقبل بسهديفا، يا شاكوني، هو لك إن ربحته!».

ودار النرد بين يدي الرجلين، كما شاء يوديشترا، ثم استقر على الرقعة ليعلو صوت شاكوني فرحاً مبتهجاً:

ـ «ها قد خسرته، يا صاحبي!».

ـ «وهذا ناكولا»!

ـ «ها قد خسرت هذا أيضاً».

ـ «إليك ببهيما وأرجونا!».

ـ «وقد خسرتهما الآن كذلك. ولكن عجباً يا يوديشترا أراك جعلت إخوتك رهاناً تقامر بهم، وقد حسبتك من قبل مغرماً بهم ولاتستطيع لهم فراقاً»!

مضت كلمات شاكوني إلى قلبه واخترقته كالسهم المسموم، فلم يزد عن أن يقول:

ـ «هذا قول خسيس، فيا لبؤسك أيها الزنيم إذ تحاول بذر الشقاق بين الإخوة».

ـ «إن من يفارقه العقل والحكمة ينشد أبداً من يلقي عليه تبعة حماقته، دأبه أن يرمي باللوم على الآخرين، والأجدر بك أن تمسك لسانك وتعمل عقلك لتتدبر أمرك بعدما فقدت كل ما تملك».

ـ «لا، ليس كل ما أملك، فما زلت أنا خارج الرهان، فهل تقبل بي في جولة جديدة؟».

وعاد النرد ينتقل بين الكفين، ومرة أخرى يستقر على الأرض، ويعلن شاكوني فوزه، كما في كل رمية من قبل، فإذا بيوديشترا يخسر نفسه مثلما خسر ملكه وأهله.

ولكن الرجل ثبت على عهده، ورمى في النهاية برهانه الأخير:

ـ «مازالت هناك دروبدي الجميلة البهية المتألقة في كل حين، هي كالبدر يطلع في الليل فيزداد سحراً وصوتها يأسر الفؤاد حين تنطق. هيا لتكن هي الرهان الأخير!».

وجم القوم حين سمعوا بهذا الرهان الرهيب وارتفعت أصواتهم وتداخلت، ولم يتبين أحد ما صدر عنهم، إلا ما يفيد بالثورة

والاستنكار: عار وشنار عار وشنار. ومن لاحظ فيدورا في تلك اللحظة وجده قد أسند رأسه بين كفيه، مطرقاً يحدق في الأرض كأفعى نالها الضيق، وأنفاسه تتلاحق حسبها السامع فحيحاً. وإلى الجانب كان كارنا ودوشاسنا يضحكان ويقهقهان، فيما كانت الدموع تترقرق في مآقي الآخرين.

بدا التلهف على شاكوني فأسرع يلتقط النرد ويتلاعب به بين أصابعه ويلقيه، ثم يصرخ مهتاجاً: «هي أيضاً! هي أيضاً!».

التفت دريودانا إلى فيدورا وطلب منه أن يمضي ويحضر محبوبة آل باندو، ولتفهم دروبدي أنها باتت منذ اليوم خادمة في القصر تعنى بتنظيف الغرف والقاعات، ومأواها منذ اللحظة في جناح الجواري.

رأى فيدورا نفسه تضيق بهذه العجرفة وهذا الغرور، وتثور لعماء بصيرة هذا الغر، ولكنه تمالك نفسه مع ذلك ورد على محدثه بأقصى ما ملك من الهدوء، معنفاً مزدرياً:

- «أيها الأحمق، ألست تدري عاقبة ما دبرت؟ أبلغ بك الهوس ما جعلك لاتبصر الهاوية التي أشرفت عليها؟ إن الوهم يصور لك هذا نصراً ولكنك سترى فداحة الثمن، ولسوف ترى أن الهزيمة أكرم منه».

أشاح دريودانا بوجهه عن فيدورا، والتفت إلى حاجب كان يقف إلى جانبه وأمره بأن يأتي بدروبدي، فمضى هذا بخطى مترددة ووجه علاه الشحوب، وكان يود لو قام بهذه المهمة البغيضة سواه، لولا أنه لم يكن يملك إلا الانصياع إلى سيد البيت.

سمعت دروبدي من الخادم حين جاءها يبلغها بما دار عليه الرهان في المقامرة، وتملكها غم عظيم: «أنا... رهان؟ وأي رجل يضع زوجته لتتلاعب بمصيرها تقلبات النرد؟ ولكن أخبرني هل كنت أنا وحدي الرهان في اللعبة؟».

- «الحق يا أميرتي أن ناكولا وسهديفا وأرجونا ومعهم بهيما

كانوا أول من خسرهم يوديشترا، حتى كانت خسارة نفسه وخسارتك».

قالت دروبدي:

- «قد وفيت. فامض وسل يوديشترا إن كانت خسارتي قبله أم بعده؟ ثم عد بالجواب!».

عاد الحاجب إلى قاعة القمار، وطرح على يوديشترا السؤال:

كاد الرجل أن يجيب، لولا أن دريودانا قاطعه ثم انثنى يعنف الحاجب لتقصيره في حمل دروبدي على المجيء إلى القاعة كما أُمر، ثم كرر عليه الأمر:

- «لتأت بنفسها ولتسل ما بدا لها وسنجيبها بما ينبغي بعد أن تصدع!».

وقفل الحاجب عائداً إلى دروبدي في مخدعها يدعوها إلى القاعة بعبارات متلعثمة وبلهجة بها من الأسى ومن الحزن ما بها، وقد أغضى بعينيه إلى الأرض محاذراً أن ترى فيهما إحساسه بالشفقة عليها في هذه اللحظة من غفلة الزمن، لتسمع القرار الذي سيرسم لها حياتها بعد هذا اليوم.

أنهى الرجل مهمته، وهو على أسوأ ما يكون عليه الشعور، بتمتمة «نعم هذه أيام سوداء لا ترعى فيها حرمة لامرئ ولكن هكذا هو القدر، فتجلدي أيتها الأميرة الشماء واثبتي حتى تنجلي المحنة».

وردت دروبدي بلهجة تبدى فيها إباؤها: «هذه إرادة الخالق فلتكن! ولكن الدارما سوف تسود في النهاية. فعد أنت، وانقل إلى الجمع هناك ما بلغك مني. وأخبر كبارنا أنني أمتثل لحكمتهم، فليقولوا ما يرونه موافقاً للدارما، وإني مطيعة أمرهم».

وعاد الحاجب المسكين يجر الخطى إلى حيث كان القوم ينتظرون ليسمعوا منه ما حملته دروبدي من القول، وحين بلغهم ما

قالته لم يملكوا إلا أن يطأطئوا رؤوسهم خجلاً، وساد القاعة صمت رهيب، فلا أحد ينبس بكلمة أو يصدر همسة.

انتهز يوديشترا فرصة انشغال الجمع في تدبر هذا الوضع، وأوعز إلى مرافق موثوق أن يتسلل سراً إلى دروبدي، وينقل إليها رسالة يشير عليها فيها أن تمثل أمام الحكماء والملك ديتراشترا في إزار بسيط وتهدر أمامهم دموعها.

كان الغضب قد استبد بدريودانا كل الاستبداد حين وجد من دروبدي هذه الممانعة وهذه المقاومة، وهو لا يقوي على حملها على ما لاتريد.. ولما عيل صبره التفت إلى الحاجب غاضباً وأمره بإحضارها بلا تلكؤ فسأله الحاجب المسكين: «وماذا أفعل إن هي امتنعت عن الحضور؟»).

ثارت ثائرة دريودانا وصاح:

- «هذا الخادم يخشي بهيما! فهيا يا دوشاسنا امض إلى هذه التعسة واحملها إلينا حملاً إن اضطررت، فهي ملكنا وجارية لنا، فلا تدعها تتصرف، كما لو كانت ماتزال أميرة! هيا وأحضرها يا هذا، ولا تتأخر!».

وللتو نهض دوشاسنا الفظ، ومضى إلى دروبدي في مخدعها، وصاح بها أن تأتي معه بإرادتها وإلا أرغمها على ذلك إرغاماً. فلا مهرب لك يا دروبدي من قدرك فانزعي عنك الحياء، وتقبلي مصيرك، كما تتقبل الشاة مصيرها حين تقع بين يدي الجزار. سلمي أمرك إلى دريودانا وإخوته، فقد أصبحت منذ الساعة أمة عندهم!

توالت الصور أمام عيني دروبدي وعرفت ما هي مقبلة عليه، فانتابتها قشعريرة سرت في جسدها كله، وشعرت بالدوار في رأسها، فاضطربت، أو قل أنها ترنحت وهي لا تملك أن تتمالك نفسها، ورفعت يدها تمسح عرقاً بارداً تصبب من جبينها. استمر هذا الحال لحظات ودوشاسنا واقف ينظر إليها نظرة التلذذ بهذا الوهن الذي أصاب هذه التي كانت تقف قبل حين مجللة بعلامات

الإمارة. وفجأة استدارت المرأة واندفعت نحو جناح الحريم تنشد الهرب والحماية من هذا الذل الذي يريد هذا القاسي أن يلبسها إياه. ليشفي غليله، فاندفع إثرها يبغي الإمساك بها، حتى التقط طرفاً من شعرها الأسود الفاحم الطويل ثم عقد قبضته عليه وشرع يجرها إلى القاعة على مشهد من الحاضرين من الملوك والعظماء. وأخذت المرأة تناشده بصوت مرتعش، وجسدها ينتفض من فرط الانفعال، أن يخلي سبيلها. أفما يراها في هذا المئزر البسيط، وهل يكون هتك الستر من الدارما؟

أهذه هي الدارما عند الشتريا المحاربين؟ «لقد غنمناك وأصبحت ملكنا، ولن يغير من حالك أن تكوني كاسية أم عارية. فأنت منذ الحين أمَة من الإماء، فارضخي تسلمي!».

جلست على الأرض، مشعثة الشعر، مكشوفة الإزار، وأجالت نظرها بين الحضور، والتفتت إلى دوشاسنا تناشده بصوت رقيق، ولكن بكثير من الغضب المتقد كالجمر تحت الرماد أن يخلي قبضته عنها، أفكهذا يكون السلوك أمام هذا الجمع من الملوك والحكماء، وماذا تراهم يقولون في هذا الأمر الشائن؟

إنه عار لا يليق بابن ملك مثل ديتراشترا. هيا انظر إلى حالي! أهذه دارما عشيرة القوروش؟ وأنتم، مالي أراكم صامتين عن هذا المسلك المشين؟

أرسلت المرأة إلى الإخوة نظرة ضراعة، وإذ لمحها دوشاسنا عاد يشد قبضته على شعرها ويجرها في وسط القاعة، وهو يصيح: «أمة، جارية!» ثم أخذ يقهقه، وانضم إليه في ذلك كارنا وشاكوني ودريودانا.

وفي تلك اللحظة اتجهت الأنظار إلى بهيشما حين تنحنح لينبههم للإستماع إلى ما يريد قوله:

- «عجيب أمر الدارما! إنها تحمل المرء على التفكير في كل أمر، وإن قصرت عن النص الصريح في كل حال. لقد علمنا أن المرء

لا يملك أن يراهن بما ليس له. وهل يملك رجل أن يراهن بزوجه. وهذا يوديشترا قد أمسك عن الإدعاء على شاكوني بالغش في النرد. ويوديشترا، بعد، رجل عاقل يميز بين الخطأ والصواب وبين الحق والباطل. حقاً إن هذا أمر جدير بالتمعن».

وسمع القوم دروبدي تقول محتجة:

- «لقد استغلوا فيه طيبته وسذاجته! إذ كانوا يعرفون غرامه بالمقامرة، فاستدرجوه إلى هذا الفخ بعدما أحكموا نصبه فوقع وهو لا يدري ما دبروه له».

بلغ الانفعال ببهيما لهذا المشهد أعلى درجاته، فاحتقن وجهه بالدم وجحظت عيناه، وأخذت أنفاسه تتلاحق، ولم يعد يتمالك نفسه، وهو يقول:

- «إن المقامرين لا يراهنون بالنساء، وإن كن من المومسات. ولقد أمسكت لساني حين جعلتنا رهاناً في لعبة قمار، فأنت أكبرنا ولك منا الطاعة. أما أن تجازف بدروبدي فهو ضلال! وأي خطأ ارتكبته هذه المرأة لتنال هذا الجزاء؟ وإنك لتستحق حرق هاتين اليدين اللتين خسرتاها وإني الرجل لذلك. هيا يا سهديفا آتني بالنار لأحرق يديه، جزاء رعونته وغفلته!».

وللتو اعترضه أرجونا، صائحاً:

- «رويدك يا بهيما، هل جننت؟ إنه أكبرنا، وله منا حق التوقير. ألم يكن اللعب نزيهاً؟ ألم يكن يقامر بإرادته، ولم يحمله على القمار سوى رغبته في المقامرة؟».

رد بهيما:

- «لولا قولك يا أرجونا لجرتته من يديه وأحرقتهما بالنار!».

نهض عندئذ فيكارنا بن ديتراشترا ووقف مخاطباً الشهود:

- «يا قوم، قد سمعتم دروبدي تعرض أمرها أمامكم. وها نحن نرى بهيشما وكريبا ومرشدينا قد أطبق عليهم الصمت. بل لقد آثر

فيدورا ذاته الصمت، فلا يدلي برأي. فأشيروا علينا أيها الملوك العظام، وأخبرونا إلى أي جانب تميلون».

انتظر فيكارنا برهة فلم يبلغه جواب... تنفس عميقاً، ثم أطلق زفرة طويلة، وتابع: «إذن، فإني مخبركم بما يملي عليّ ضميري. اعلموا أن رذائل الملك أربعة: الصيد، والشراب، والقمار، والفجور. ومن تردى في حمأتها فقد الصواب وأتى بما يكره. وها هو ذا يوديشترا قد جازف بدروبدي في لحظة تغلب عليه شغفه بالقمار. وكان قد خسر نفسه قبل أن يخسرها. وهكذا فليس هناك من يملك الإدعاء بغنيمتها، وليس فيما تعارفنا عليه وتواضعنا ما يؤيد الدعوى بخسارتها».

ثارت ثائرة كارنا وأخذ يعارضه ويهز بذراعيه القويين:

- «تمهل يا فيكارنا: فقد شططت! فلست أجد بين الملوك من اعترض على هذا. ولقد كان الأجدر أن نبدأ بالسؤال: «هل دروبدي في ملك يوديشترا أم لا؟ يا قوم، أي ضير في أن تأتي هذه المرأة بإزار بسيط؟ أفي هذا ما يناقض الدارما أكثر من أن تكون مشتركة بين خمسة رجال؟ فأي دارما تجيز مثل هذا الزواج ثم تستفز الحمية حين تظهر بهندام بسيط. بل الحق إنه ليس هناك ما يضير في أن يجردها أحدنا من ملابسها، أيشك أحدكم في أننا قد غنمنا من آل باندو كل ما يملكون حتى أنفسهم؟ وإن هذه الغنيمة كانت نزيهة شريفة؟ والآن جردوهم من ملابسهم، وجردوها هي الأخرى!»».

وأمام الجمع تقدم دوشاسنا من دروبدي والتقط طرف ثوبها وشده. وعندئذ غطت وجهها بكفيها وأطلقت صرخة مدوية متضرعة بجماع نفسها: «أواه كريشنا، يا روح الكون، يا حفيظ احفظ علي عفتي!» وللتو بلغت الصرخة كريشنا، فهرع إلى قاعة القمار. ثم كانت المعجزة من الإله دارما فبقدرته كانت دروبدي تجد نفسها ملتفة بإزار جديد كلما نزع عنها دوشاسنا إزاراً حتى تراكمت

المآزر بالمئات على الأرض من كل شكل ولون، والملوك مشدوهون بهذه المعجزة، ودريودانا وحلفه في ضيق وغم.

كان بهيما يراقب هذا المشهد بعينين تتفجران غضباً، وجسمه يهتز من فرط ثورته، وهو يشد قبضتيه، ويصر بأسنانه، ثم وجد نفسه يقطع على نفسه العهد المخيف:

«والآن اسمعوا، يا ملوك الأرض وأبطال هذا العالم الأشاوس! ليكون مأوى أجدادي أسوأ مأوى، ولينالوا أسوأ العذاب إن لم أنتقم وأمزق دوشاسنا بيدي هاتين وأشرب من دمائه!».

وإذ سمع دوشاسنا هذا القسم، ناله الإحباط وملكه الإحساس بالخجل، انهار جالساً وأمامه تل من ملابس دروبدي المتراكمة فوق بعضها البعض.

نهض فيدورا الحكيم عندئذ، وقال: «إن مسألة دروبدي ماتزال معلقة تنتظر القول الفصل. فلنفكر في هذا الأمر ملياً، أيها الملوك، حتى نبلغ القرار الذي يتفق والدارما!».

ولكن الملوك لم يأتوا بأي رد على قول فيدورا، ورأى كارنا أن الملوك قد أفتوا في الأمر بهذا الصمت، فأشار لدوشاسنا أن يقود دروبدي إلى جناح الحريم في القصر.

صاحت دروبدي، حين بدأ دوشاسنا بجرها من جديد إلى جناح الحريم:

«ترفق يا هذا، فقد قصرت عن واجب ما كان ينبغي لمثلي أن تغفل عنه. فعذراً أيها الملوك إن لم أقبل عليكم بالتحية وبتقديم فروض الإجلال حين دخلت مجلسكم فاغفروا لي هذه الزلة وأنتم الكرام».

ومضى جلادها يجرها، وهي تصرخ:

«لقد تحولت الأزمان أيها الملوك العظام، وها أنا ذا زوج يوديشترا قد غدوت جارية بعد عز وكرامة. فأخبروني ناشدت

ضمائركم إن كان هذا عدلاً، فإني مصغية لأقوالكم الحكيمة وسأتقبلها بكل ترحاب!».

قال بهيشما بصوت هادئ: «ألم أقل لك إن دروب الدارما صعبة؟ إن الحكمة لتعجز حتى أحكم الحكماء أحياناً. فسلي يوديشترا يخبرك إن كنت قد غُنمت أم لا؟».

كشف دريودانا، أمام عيني دروبدي، عن ساقه اليسرى فتبين القوم جسماً ضخماً قوياً مثل شجرة السنديان، وعليها العلامات المباركة، ثم التفت مخاطباً يوديشترا:

«هيا، يا يوديشترا وأجبها، إن كنا قد غنمناها، فلعلها تقطع الشك عندئذ باليقين».

حدق بهيما به بعينين تتفجران بالغضب، وصاح:

«قسماً إني سأقطع هذا الساق بيدي هاتين وأمزقها، إرباً إرباً، متى وقعت الواقعة، طال الزمن أم قصر!».

والتفت فيدورا يخاطب المجلس:

«اعلموا أيها العظماء أن الداهية واقعة متى سمعتم بهيما يغلظ الأيمان. لو أن يوديشترا قد راهن بدروبدي، قبل أن يخسر نفسه، فإنها تعتبر غنيمة ولكن كيف يمكن لمن قامر بنفسه وخسر أن يخسر بعد شيئاً آخر؟».

رد دريودانا معلناً:

«إن أنكر بهيما وأرجونا والتوأمين يوديشترا أطلقت دروبدي..».

قال أرجونا:

«قد كان مولانا قبل المباراة وأثناءها. أما وقد خسر نفسه، فلا أدري إن بقي سيداً لأحد».

وفيما كان هذا الحوار يدور، تناهى إلى سمع الحضور، صوت

كعواء ابن آوى من محراب الصلاة، وكان عواء شديداً تردد صداه في كل الجوار واضطربت له الدواب في الاصطبلات والزرائب وذعرت منه الطيور على الأشجار فأخذت تضرب بأجنحتها تريد الهرب. وأدرك القوم في القاعة أن شراً لا ريب واقع قريباً، وزادت علامة الشؤم من كآبة الجو الذي خيم عليهم، فغلب عليهم الوجوم وبدوا في حيرة لا يدرون السبيل للخلاص منها. قطع الملك ديتراشترا الصمت وقال مخاطباً دريودانا:

«قد جلبت لنا الخراب حين عرَّضت بامرأة قريب. أما أنت يا دروبدي الفاضلة العفيفة، وأقرب كنائني إلى قلبي فسليني ولك ما شئت!».

«أسألك أن تعتق يوديشترا، لئلا يقال كان والد ابني براتفينديا عبداً!».

«ليكن ما أردت، فسليني غير هذا».

«وتعتق بهيما وأرجونا والتوأمين، وتعيد لهم أقواسهم وعرباتهم».

«فسلي غير ذلك!».

«قد أكثرت يا مولاي في الطلب ولست أراني جديرة بثلاث منات، فيقال إن للجارية أن تطلب منة، ولزوج رجل من الشتريا اثنتين، وللشتريا المحارب ثلاثاً، وللبراهمي مئة، حسب الأهل حريتهم الآن، ولا ريب أنهم فالحون في العالم بدوني».

تمتم كارنا:

«هذا سمو لم يبلغه أحد، وقد نجحت هذه المرأة في المناورة ونجت بهم إلى بر السلامة».

تلفت بهيما حوله، هو يطلق نظرات تقدح غضباً، وهمَّ بالهجوم على أحد حلفاء دريودانا، لولا أن اعترضه أرجونا، وهدّأ من روعه، وطلب منه أن يخفف من غلوائه، فالكريم من يحفظ المكرمة

ويغفل عن السيئة، والحقد والضغينة ليست من شيم النفوس الأبية.

تقدم يوديشترا من أخيه وأمسك بزنده، وضغط عليه برهة، ثم تقدم نحو الملك ديتراشترا، وقدم له الطاعة وحياه بضم كفيه وانحناءة من رأسه.

قال ديتراشترا:

«امض بسلام، يا ابن أخي! إن كل شيء في هذا العالم مقدر لأمر، والإنسان يميل مع ميل طبيعته. وإني أحدثك هذا الحديث لعهدي بك رجلاً منفتح العقل واسع الصدر تقدر النصيحة. وهذا ليس شأن دريودانا. واعلم أن المشاحنة تظهر المثالب. وأن الإنسان الصالح يأتي بالحسنة دون أن يتوقع جزاء. انظر إلي يا يوديشترا وستراني رجلاً عجوزاً كفيف البصر. وها إني مخبرك بأني إنما أجزت هذه المباراة لأتبين الفضائل والرذائل في أبنائي، وها قد خبرت الآن فيك الفضيلة، وعرفت الصبر في أرجونا، والشجاعة في بهيما، والولاء في التوأمين. عودوا الآن إلى إندرا براستا وأقيموا متصالحين مع أبناء عمكم».

وللتو تهيأ الإخوة للعودة، كما شاء لهم عمهم الملك، وأخذوا يعدون عدة السفر بعناية وحرص.

ضاق دريودانا بما حدث، وكره أن يفلت يوديشترا وإخوته من الفخ الذي نصبه لهم. وسرعان ما جمع إليه حليفيه شاكوني وكارنا، ومضى بهما إلى ديتراشترا، وخاطبه بكلمات معسولة تخفي وراءها المكر والخديعة قائلاً: «تذكر نصيحة بريها سباتي بادر عدوك بما ملكت، وها هم آل باندو قد باتوا الآن خطراً يهدد بدمارنا إن أصبحوا أحراراً. فلكل منهم موهبة تعد بالشر: أرجونا الحقود يحمل قوسه وهو يقدحنا بنظرات الكره! ثم أتظنهم يغفرون لنا إهانة دروبدي؟ هيا يا أبي واسمح لنا بمباراة أخرى نتلافى فيها الخطر الآتي بأن يكون شرط الخسارة النفي في الغابة اثنتي عشرة سنة ثم يقضون سنة أخرى في الخفاء في إحدى الممالك. دعنا يا مولاي

نلعب هذه اللعبة. وإذا تجاوزوا مرحلة النفي، وحدثتهم النفس بالعودة كنا لهم بالمرصاد بجيش عرمرم».

«إذن فاستدعوا الإخوة!».

هرع فيدورا ودرونا يحف بهم جمع من الحاشية إلى ديتراشترا يعارضون قراره، ويعرضون الحجج، ولكن عبثاً فقد ثبت الملك على أمره، ولم يعد الاحتجاج يجدي.

كان القصر مايزال في اضطراب، والحاشية تتداول وتقلب الأمور على وجوهها، حين بلغ يوديشترا رسول الملك وسمع منه قرار الملك. وبعد إطراقة قصيرة قال:

«هذا أمر الملك، ولست أملك أن أعصيه، وإن كنت أعلم أني سأنتهي إلى الخسارة. لكن هذا قدري ولا مهرب لي منه».

ومرة أخرى شاء القدر أن تشهد القاعة التي دارت فيها الجولة الأولى مواجهة جديدة.

وقف شاكوني يعرض الرهان، وألحقه بشرط فأجابه الحضور: «يعود المنفيون إلى منفاهم مدة اثنتي عشرة سنة أخرى، إن اكتشف أمرهم في السنة الثالثة عشرة، أما إذا نجحوا في الاختفاء في تلك السنة الأخيرة ولم يكتشف أمرهم فيعود إليهم ملكهم من جديد. وهز يوديشترا رأسه موافقاً على هذا الشرط، على ما فيه من العسف، وجلس الخصمان للعب. وإن هي إلا رمية نرد ثم أخرى، ويكون الفوز الحاسم لشاكوني.

وإذن، فهو الرحيل والنفي. ولم يعد أمام الإخوة الخمسة إلا أن يخلعوا عنهم زي الملوك ويتحولوا إلى الأسمال، ويبدأوا في الإعداد لحياة النفي، ويخلوا الدرب أمام دريودانا.

وقد كان دوشاسنا يقف في هذا كله مراقباً يرصد الإخوة، ويبتسم في طوية نفسه، فلما وجدهم قد شرعوا يتهيأون للسفر، علق على مسمع منهم قائلاً: «ها قد أفل نجم أبناء باندو وها هي ذي دروبدي تستبدل أزواجها بخصيان».

التفت إليه بهيما مزمجراً كالأسد الهصور، قائلاً له:

«عهداً علي أيها الخنزير القذر، أن أمزق قلبك في ساحة المعركة، ولسوف ألحق بك كل واحد من عصبة الشر، وعندئذ سأرمي بكم في حفرة واحدة تكون قبراً لكم جميعاً».

اقشعر بدن دوشاسنا وشحب وجهه وارتعدت فرائصه، فأخذ يصيح بالشتيمة لا يملك أن يرد عليه بما يزيد عنها.

مضى الإخوة في طريقهم يمشون بهامات منتصبة، وخطوات ثابتة، وكادوا أن يبلغوا باب القاعة، حين اعترضهم دريودانا بتعليق سخر فيه من بهيما. فالتفت إليه هذا، وأقسم له قسمه الرهيب.

«لسوف أقتل دريودانا برمحي، ثم أسحق رأسه بقدمي سحقاً. أما أرجونا فله كارنا، ولسهديفا شاكوني، وأما دوشاسنا فلسوف أشرب من دمه».

تبع يوديشترا أخاه، فقال:

«أبلغوا بهشيما، ودورنا، وفيدورا، وكريبا، وديتراشترا وأبناءه، ويويوتسو، وسانجاي، والحاشية وداعي.. ولكن اعلموا أني عائد في آخر المطاف».

أما دروبدي فقد مضت إلى حماتها، كونتي، بمئزر بسيط وشعر مشعث، وعينين تترقرق فيهما الدموع، لتودعها وتسألها البركة، قبل أن تفارقها إلى حياة المنفى.

ما كاد الإخوة يغادرون، حتى استولى على ديتراشترا غم عظيم، والتفت إلى فيدورا يسأله أن يصف له مسلكهم حين غادروا.

«وجدت يوديشترا يمضي ساتراً وجهه بغطاء، وبهيما ينظر إلى ذراعيه، ورأيت أرجونا ينثر رملاً على الدرب، وهو يلحق بأخويه، كذلك شاهدت سهديفا قد لطخ وجهه لئلا يتعرف عليه أحد، أما ناكولا فقد مرغ جسمه بالوحل. وشاهدت دروبدي تلحق بهم باكية، والناس يتبعونهم وهم يسكبون الدمع مدراراً، ويطلقون العويل حزناً!».

السفر الثالث

الغابة

خلف الإخوة هاستينبورا وراءهم مع فجر ذلك اليوم، واستقبلوا طريق الشمال والناس في إثرهم يحيطون بموكبهم حزانى يرين عليهم سكون ثقيل يزيد من وحشة المكان، لولا همهمات كانت تصدر عن القوم فتقطع السكون قليلاً ولكنها لا تذهب بذلك الإحساس بالحزن الذي كان يخيم عليهم.

كان الجمع يسيرون بخطى رتيبة، بها شيء من الوقار، وشيء من الثبات، وما كان يقطع هذه الرتابة إلا تدارك الخطوات العجلى من بعضهم حين يشق الصفوف ليقترب من الأخوة ليحدثهم فيما حملهم على هجر الأهل والملك، ويحبب إليهم البقاء بينهم، فلا يجد منهم رداً، ولا يرى منهم إلا التفاتة قصيرة لا تنال من مثابرتهم على المسير، ثم يعاودون بعدها النظر إلى حيث كان الإتجاه، أو لعل بعضهم عاد إلى إطراقته المألوفة منذ بداية الطريق.

ولما بلغ الحشد مسافة جعلتهم على مبعدة من المدينة، وقف يوديشترا ليخاطبهم ويحثهم على الرجوع ويوصيهم بطاعة بهيشما. ويعود بعضهم ليناشده العودة فلا يصيب إلا إصراراً على المضي

إلى حيث كانت وجهة الجماعة، فقفل الحشد عائداً ليستأنف حياته ويتابع حزنه على فراق يوديشترا والإخوة.

وما كان ديتراشترا أقل إحساساً بوطأة غياب أبناء الأخ، بل الحق أن شعوراً خفيفاً بالقلق انتاب العم، ولكنه عجز عن إدراك كنهه أو مصدره وبات يتوزعه الحزن والقلق، ولا يدري لنفسه مستقراً، وظل هذا حاله وهو ينتظر متلهفاً عودة فيدورا لعله يحمل إليه ما يعيد الطمأنينة إلى قلبه. ولكن الأخ والوزير الحكيم لم يأت إلا بما زاد من ثقل قلبه وكمده حين قال له: «كل الإشارات تومئ بشر مستطير، يا مولاي، وها أنت ذا تواجه المحنة، وكان الأجدر بك أن تتفادى وقوعها. فإن لم تتبينها اليوم رأيتها تنتظرك بعد انقضاء مدة المنفى وما ذلك إلا لأنك آثرت الراحة اليوم باسترضاء أصل البلاء، ذلك من كان جديراً بأن تطرده قبل أن يستفحل شره ولسوف نتكبد لهذا نفقات في استرضاء العامة، وهم الآن في ضيق بعدما غادرهم من ألفوا حكمهم، ثم لسوف تثقل نفقات الجيوش ليوم لا ريب آت. أما وقد أصبحنا على هذه الحال فلسوف يذهب الغم بالمتعة، وتغادر الطمأنينة النفوس. وليس ذلك بالأمر اليسير. فقد علمت يا مولاي أن الثروة والرفاه وصفاء الروح، عماد الحكم وبدونها لا يستقيم. ولطالما نصحتك أن تقصي ذلك الفاسد لكنك لم تصغ. أما وقد كان ما كان فإني أناشدك أن ترسل دريودانا وشاكوني وكارنا في إثر أبناء باندو ليحاولوا استرضاءهم قبل أن تقع الطامة فلا ينفع دواء. ولتوعز إلى دوشاسنا أن يعتذر أمام الشهود إلى بهيما ودروبدي ويطلب منهما الصفح والغفران لما لحقهما منه من إهانة وأذى. هذه مشورتي أبذلها إن سألتني، ولك أن تعمد إلى حكمتك لتتبين الصواب».

ضاق صدر ديتراشترا مما سمع من فيدورا وقال له: «ما بالك يا فيدورا لا تفتأ تتحامل على دريودانا، وهو ولدي، ولم تؤلبني عليه؟ ثم لا تنقطع تنتصر لأبناء باندو كل الانتصار. أو تحسب أني أحمل على هؤلاء، وهم أبناء أخي، وموقعهم موقع الأبناء مني؟

ولكن رويدك، فإن كان هؤلاء بمثابة الأبناء فلا تنس أن دريودانا هو ولدي من لحمي ودمي. الحق يا فيدورا أن قلب الأب ليضيق بما قلت، ويزيد من ضيقه إيثارك أولئك على ابني وأراك، الآن، تحيد على سلامة التقدير في الحكم، وتبالغ في الفظاظة حين تسدي المشورة التي بت تألف تقديمها من غير سؤال، فإذا وجدت عندنا، يا أخي، ما لاترتاح إليه ففارقنا ولا تتردد، وإلا كان شأنك شأن الزوج الغادرة. فنعدم وفاءك وهو رجاؤنا منك.

وإذن لم يبق لفيدورا إلا أن يؤكد النذير، ثم يلوي على عقبيه ويغادر مراتع الشباب، وحيث ألف أن يسأل ويجيب ويمضي الليالي ساهراً يؤرق أجفانه أمر من أمور الحكم، وبه من الإشفاق على أخيه أكثر مما به من الحزن على تلك الخسارة، ليلتحق بيوديشترا وعشيرته».

دأب القوم منذ غادروا هاستينبورا على المسير يبحثون عن مأوى لهم، بعيداً عن عيون الراصدين، فهجروا الدروب المطروقة إلى دروب لا أثر لقدم فيها. ومازالوا يضربون عصا الترحال في الأرض، حتى استقرَّت بهم في الغابة المعروفة بغابة كافكيا. ولئن حرصوا على تجنب الناس في الطريق، فما أفاد ذلك إلا انتشار أخبارهم. وما كادوا يستقرون في هذه الغابة حيناً إلا وجدوا عشائر الفريشني والبهوجا والأندكا والكايكيا وأهل دروبدي يتنادون إليهم في موطنهم الجديد، وفي المقدمة كريشنا. وشرعوا حال وصولهم يعرضون الحلف وإعادة يوديشترا إلى عرشه. وكان أكثر المتحدثين حماساً لهذا المشروع كريشنا الذي أفاض في الحديث عن آثام أبناء ديتراشترا، وما انقطع يبسط أمام رؤوس العشائر خطته، وهم يبدون له الموافقة والتأييد، حتى أمن لمشروعه النجاح.

كان القوم مازالوا في استرسالهم في النقاش والتداول، ثم انقطع حديثهم حين أطلت عليهم دروبدي بكل سحرها وجمالها، وإن شابه شيء من الحزن العميق الذي تجلى في عينيها الواسعتين

الآسرتين. ولم تشأ أن تتخذ لنفسها مجلساً بينهم، وبدا أنها قدمت لأمر أخطر من الاستماع والمشاركة في الرأي.

وقفت المرأة منتصبة أمام هؤلاء الكبار. فرأوا أنها لم تفقد شيئاً من كبريائها المألوف، وإنما أضفى عليه ذلك الحزن شيئاً من الجلال نفذ إلى قلب كل واحد منهم. ولم يطل بها الأمر، فسرعان ما أخذت الكلمات تتدفق منها فتصيب في قلوب الحضور وتراً: «أي كريشنا، قد قال الحكماء فيك أقوالاً، فدعوك برب الكون، وزادوا بأنك جمعت فيك فيشنو وشيفا وما أعجزك ذلك، ثم علمنا أنك اتسعت للعوالم الثلاثة وما كنت لتضيق بها. فكنت المبدأ وإليك المنتهى. فإياك أخاطب، وأنت المقصد وعليك أعقد الرجاء.

إيه يا كريشنا، قد نالني، أنا أخت دريشتديومنا وزوج أبناء باندو، أمام كل الملوك، ما لم تنل مثله امرأة من الأذى والمهانة، فأصبحت سخرية لأبناء ديتراشترا! ثم أرادوا لي أن أغدو جارية تقوم على خدمتهم عنوة واغتصاباً. وكان ذلك على مشهد من أزواجي الخمسة وهم سكون لا يأتون بحركة فوا خجلاً لبهيما العملاق، ولأرجونا الجبار!

إيه يا كريشنا، أهذا ما تقول به الدارما أن تخذل المرأة في زوجها: فتهدر كرامتها والزوج ساكن سكون الجثة؟ وكنت ترى بهيما وأرجونا لا يتهيبان صعباً لحماية ضعيف أو مسكين، فإذا كانت المحنة وجدتهما عاجزين عن الانتصار لي.

إيه يا كريشنا، ألست أنا التي أنجبت لهم خمسة أبناء؟ أفلست جديرة منهما بالمحاماة، إن لم يكن لأمر سوى هذا؟ فحين نزل دوشاسنا بي سحلاً، رأيت هذين يؤثران السُبات على الإتيان ولو بانتفاضة وريد، فيا لبؤس بهيما على بأسه! إنه يقوى على تجرع السم الزعاف ولا يتردد في قتل الأفاعي، وإذا حاق بكونتي ضيق كالذي كان يوم احترق قصر اللك وجدته يسرع إلى إنقاذها. أما حين واجهت أنا خطراً فقد وجدت عزيمته تخور فلا يأتي بحركة!

إيه يا كريشنا، لقد رأيتني أمسك من جدائلي ويطوح بي ثم أجرُّ على الأرض، وأزواجي الخمسة الأشاوس، أزواجي الذين يضارعون الآلهة قوة وبأساً وحكمة عاجزون عن الدفاع عني، حسبهم من ذلك النظر والمراقبة كمن أعوزتهم القوة.

عذراً يا قوم إن رأيتموني أعجز عن وقف العبرات، وما كنت لأرضى لنفسي البكاء أمامكم، لولا أن ذكريات الذل تغلب عليَّ.

وها إني أفتقد الزوج فلا أجده، وأبحث عن الولد فلا أراه، وقد عدمت الأصدقاء والأب، بل إني أفتقدك أنت كذلك، يا كريشنا، فقد ناشدتك وتضرعت إليك في لحظة الشدة وما بلغني منك إلا الصمت أفليست بيننا قرابة تحتم عليك الإسراع إلى نجدتي؟ أو لست تراني ذات فضل وفضيلة، فيستثيرك كرب عانيته؟ ثم أفلم ترسخ بيننا الصداقة لتهرع للدفاع عني؟ وبعد فأنت سيدي ومولاي، وقد محضتك حبي وإخلاصي، وكان لزاماً عليك أن تصلني برحمتك؟».

ويا لها من عبارات مؤثرة نفذت إلى صميم كريشنا وطغت عليه! وإذ أنهت المرأة مقالتها، بدأ هو حديثه وقطع لها العهود بأن ينتقم لما لحق بها: «كما تسكبين الدمع الآن أيتها السيدة الرقيقة، ستبكي زوجات أولئك الذين أنزلوا بك الهوان، حين يجدن رجالهن صرعى في ساحة الوغى بسهام لا يدرون من أين جاءت. فعهداً عليّ أن أبذل كل ما استطعت في سبيل أبناء باندو».

طابت تلك النفس المعذبة واستراحت للعهد الذي قطعه كريشنا، ثم ألقت إلى أرجونا نظرة من طرف عينها فرد عليها أن اطمئني، فلسوف تنالين مأربك أيتها الحبيبة، وها هو ذا كريشنا قد جاء ينصرنا وليكن ما يكون!

وها هو دريشتديومنا يقول إنه قاتل درونا، وشيخاندين يعد بأن يتولى أمر بهيشما. فهل هناك معسكر يملك أن يصمد أمام حلف يضم كريشنا؟

وهكذا دار الحديث ويوديشترا يلتزم الصمت وهو يصغي إلى

أقوال المتحاورين، ولا يبدي تأثراً برأي أو حديث، بل يحاول أن يتدبر المعاني في عقله. فالتفت إليه كريشنا، عندئذ، يعتذر لغيابه في تلك اللحظة المظلمة، فلو كان موجوداً إلى جانبه لبين له شرور القمار، ولكان عوناً له على هذا الأمر. ولكنه كان في ذلك الوقت يهاجم مدينة الملك شالفا حيث قتل دامغوشا بن شوشيبالا، وبذلك أتم انتقامه بإلحاق الابن بأبيه. ثم علم أن الملك شالفا قد هاجم عاصمته دفاركا انتقاماً لمقتل أخيه شوشيبالا وقتل العديد من الأبطال ثم انسحب، لكنه لحق به وحاصره في جزيرة. وفي هذا الوقت وصله نبأ المقامرة فأسرع إلى هاستينبورا، ولكنه وصل متأخراً.

لم يجب يوديشترا إلا بعبارة مقتضبة: «ابقوا أسلحتكم بجانبكم واستعدوا في نهاية السنة الثالثة عشرة».

لم يطل كريشنا البقاء، فانطلق بعد هذا الحديث، بعربته المذهبة وبصحبته سوبهدرا وابهيمانيو، فودعه يوديشترا وبهيما، وعانقه أرجونا، بين تحيات التوأمين وتضرعات دروبدي.

خلد يوديشترا إلى التفكير، بعد ما غادره كريشنا، ثم خاطب إخوته بصوت هادئ رتيب قائلاً: «هي إذاً اثنتا عشرة سنة من حياة العزلة والوحدة في هذه الغابات. لذا يحسن بنا أن نبحث عن بقعة جميلة تجتذب إليها الغزلان والظباء، وتكثر فيها الفواكه والأزهار، ويرتادها أهل القداسة والعارفون، والرأي عندي أن نقصد بحيرة دفيتافانا المقدسة ونلجأ إلى ضفافها المباركة».

أقام الجمع عند ضفاف البحيرة، وخلدوا إلى حياة العزلة والدرس ومجاهدة النفس، وكانوا يستقبلون البراهمة الذين يفدون إلى هذه البقعة، ويصغون إلى تراتيل أسفار الفيدا من الياجر والريغ والساما، أو يتداولون معهم في قضايا الكون والحياة.

وكان يوديشترا يقبل أشد الإقبال على هؤلاء البراهمة فيصغي

إلى أقوالهم ويستغرق فيها كل الاستغراق. وكان إن قصر أحدهم عن الحوار لم يعدم وسيلة لحمله على الحديث. نعم يا يوديشترا، فما ابن طبقة الشتريا بلا براهمي يرشده، إلا فيلاً افتقد السائس الذي يرشده إلى سبيله؟ ومتى تصافح الشتريا والبراهمي على حلف انحنى العالم أمام جبروتهما. فاتخذ يا يوديشترا براهمياً يؤازرك ترى صيتك يطبق الآفاق، وتدين لك العوالم الثلاثة.

وظل هذا دأب الجماعة يوماً بعد يوم، وكل واحد من هذه العصبة منصرف إلى عمل يشغل به وقته، أو يصرفه في منفعة. فإذا حل الليل التأم الشمل من جديد، وأخذ الإخوة في تجاذب الحديث في طرف بدت لهم، حتى تحين الساعة، فينسحبون الواحد تلو الآخر ويهجعون عندئذ للنوم.

وفي أمسية من تلك الأمسيات التمست دروبدي صحبة يوديشترا وأخذت تجاذبه الحديث، وتستعيد ذكريات الماضي، دأبها في ذلك أن تخوض فيما تراه مجانباً لسلامة المنطق في مسلكه، وإن لم تخالفه في أمر: «إيه يا زوجي، قد عرفتك تضطجع على الحرير ورأيتك تجلس على عرش من الذهب، فكم يشق علي أن يقع نظري عليك وأنت ممرغ بالتراب مرتدياً الأسمال. وهذا بهيما الجبار الذي كان يجلل النصر رأسه، إنه اليوم البؤس بعينه. أفلا ترى قلبك ينتفض غضباً لهذا العسف الذي نزل بنا؟

وذاك أرجونا ذو الذراع بألف، والذي طالما خضع له البشر والآلهة معاً، فإذا به مقيد اليدين والقدمين، أيرضيك حاله الآن. فهيا، اطلق نار غضبك حتى تأتي على أعدائك! أقول هذا ولا أرى منك حركة فلم هذه الاستكانة؟ وكان الأولى بك أن تهب لنجدتي، أنا زوجك وابنة دروبدا وأخت دريشتديومنا، وبعد أهناك رجل من الشتريا لا يحركه الغضب. هذا قول يجري على ألسنة الناس، وهو حديث العارفين، أما في الحقيقة فإن ما أراه منك همود وجمود.

وإذا كان قلبك يحدثك بالغفران، فاعلم أن الغفران لا يكون

للشيطان. فإذا فاتك هذا فاعتبر بقصة براهاده وحفيده بالي. فقد سأل هذا جده إن كان الصفح أسمى من العقاب؟ فأجابه الجد الحكيم، وكان عارفاً بشؤون العالم خبيراً في فنون الدهاء: اعلم يا بني، أن ليست الشدة خيراً دائماً ولا اللين كذلك. فمن عرف باللين أصبح موضع استغلال الناس فأساء إلى الأقربين وحمل إلى أهله الظلم. فتراه كالفريسة الضعيفة يتجرأ عليه خدمه، وأعداؤه والغرباء ويغتصبون ماله تحت سمعه وبصره، ولن يتورعوا عن اختطاف زوجه أيضاً. واعلم أن أهل الشر لا يتأثرون بنعومة المسلك. وليس الغضب والعنف مما يحمد في المرء. فذلك من السفاهة، وحري أن تعود عليه بكراهية الناس. وأنت أيها الزوج الكريم لا تضع الخير في غير أهله. فاحزم أمرك الآن وضع الأمور في نصابها لئلا تغدو من المستضعفين».

كان يوديشترا يصغي إلى دروبدي بصبر وأناة، فهو لا يملك أن يوافقها ثم هو يسعى إلى مقاطعتها. فإذا انتهت من هذا الحديث أخذ يبسط لها رأيه: «الغضب شر دائماً، ولست أرى فيه جدوى على الإطلاق. وأنت، أيتها الجميلة العذبة، جدير بك أن تأخذي بالصفح والغفران سبيلاً لك. فقابلي السيئة بالحسنة، والظلم بالرحمة، والإهانة بالمكرمة، ولا ريب في أن لك الفوز. واعلمي أن الصفح هو الحق والحقيقة، ولا يقوم الكون إلا بالحب، فهو غرسة الله في النفس، وإذن فأنا لا أملك أن أوافقك فيما تذهبين. فإني أرى العالم كله ينشد السلام الذي لطالما سعى إليه جدي وبهيشما وكريشنا وهذا شأن فيدورا وكريبا وسانجيا ولن تعدمي هؤلاء يحثون العم ديتراشترا على سلوك سبيل السلام. ولا ريب في أنه معيد لنا مملكتنا في يوم من الأيام. وإذا قصر عن هذا فلسوف يعاني العذاب. أما نحن فليس لنا أن نستسلم للحنق والغضب. تلك هي قناعتي. فصبراً! صبراً!».

سمعت دروبدي حديث يوديشترا فما وجدت فيه حجة مقنعة، بل لقد رأت صدرها يضيق بهذه الآراء ووجدت نفسها تبرم بمذهب

اللين والضعف الذي تجلى في أقوال الرجل، فلم تتمالك عن معارضته: «هذا عالم قاس لا يسلم فيه المرء بالتسامح. فقد شططت في التسامح أمام من يبغي لنا الشر، فكان ذلك وبالاً علينا جميعاً. وأرى فيك عيباً لا صلاح معه. فإنك تتعلق بالمثل التي اصطنعتها، ثم لا تحيد عنها مهما تغيرت الأحوال. وها أنت ذا معروف بالفضيلة في العوالم الثلاثة. ولعلك تؤثر أن تخذلني وإخوتك على أن تتخلى عن هذه القيم. فإني أراك تتعصب لفلسفتك ولا تطيق أن تتريث بين الحين والآخر فتراجع أفكارك وآراءك لترى إن كانت تلائم تغير الأحوال وأعجب أنك نلت ما لم ينله ملك آخر من الثروة واتساع الملك، ثم لم تتردد في المجازفة بكل ملكك مدفوعاً بقوة خفية لا أدري كنهها، فتخسر المملكة والثروة والجاه وتحملنا على حياة الشقاء. وها نحن نعيش كالمتشردين. والحق أني أفقد صوابي كلما خطرت ببالي هذه الذكريات. وقد يقول قائل إن هذه مشيئة الله، وهو الذي يرسم لنا مصائرنا. ولكننا في ظني كأعواد القش إذ تعصف بها الرياح! إن الله يطيب له أن يزين لنا أوهاماً ويدفع بكل إنسان إلى قتل أمثاله من بني البشر. وهو يلهو بمصائر الناس كما يلهو الطفل بدمية. حقاً إن تدابير الله لتدعو للعجب! فهو يرى الاضطهاد ينزل بما هو فوق طاقة الكرام، ثم يعلي شأن المفسدين الظالمين. فيا لحكمة الله وعدله حين يعظم شأن دريودانا، فيما نحن نكابد ونعاني!».

ويزداد يوديشترا سماعاً فيهلع لما سمع، ويصغي وكأنه لا يصدق مسامعه: «يا للبلاغة إذ تتدفق كالسيل، وإذا بها تتكشف عن منطق زائف يتزيا بزي العقل والحكمة! رويدك، أيتها الحبيبة! فما كنت لأجعل من الفضيلة تجارة، فأزينها بميزان الربح والخسارة. فأنا إنما أنشد ما أراه صواباً وواجباً، وليس من شأني أن أتدبر النتائج.

وإنه لمن الخطيئة أن نخضع الله للحساب. فاعرضي عن الكفر

بالله. بل حري بك أن تنشدي معرفته، وإدراك تدبيره ومقاصده! اتجهي إليه بالصلاة! فبالإيمان تبلغين الخلود!».

كان بهيما يستمع إلى هذا الحديث الذي كان يدور بين يوديشترا ودروبدي فيزداد ضيقاً وبرماً بهذا المنطق الذي يأخذ به أخوه الأكبر. فهو لا يملك أن يقدر أسبابه في احتمال حياة المنفى، ولا يستطيع التسليم بانتزاع الملك منه. أفليست هذه السرقة بعينها! فما جدوى التمسك بالعهد وهي لاتعدو عن عبارة جوفاء بلا معنى؟ بل ما جدوى الدارما إن لم يكن وراءها إلا المكابدة والعناء؟ وإذن، فطريق الدهاء أسلم، وإن سار متعرجاً. فهيا ودعنا يا أخي، من ضلال الكلمات، ولنحمل سلاحنا ونستعيد ملكنا المغتصب بالقوة! ولكن يوديشترا ظل يأبى هذا النهج ويلح على أهله أن يتوسلوا بالصبر والحكمة. وكان هو لا ينقطع عن رياضة النفس والخلوة للتفكير في أحوال العالم، ومازال على هذه الحال حتى قطع خلوته ذات يوم، واستدعى إليه أرجونا في تلك البقعة النائية التي كان يختلف إليها لممارسة اليوغا. فلما أقبل عليه أمسك بيديه، وأجلسه إلى جانبه، وأخذ يبسط له بابتسامته العذبة وحديثه الهادئ ما بلغ من الرأي بعد طول الدراسة والتفكير. يعرض له أسباب قوة حلف دريودانا وأشياعه، ثم يعرض له أسباب ضعف معسكره. وإذن فهيا يا أرجونا امض في ممارسة رياضة النفس، فإنني عاقد عليك أعظم الآمال، وأعد العدة للرحيل، ثم اقصد طريق الشمال، متسلحاً بقوسك، مرتدياً درعك، حاملاً سيفك، وتوسل إلى الآلهة، أن تدعم مشروعنا. وها إني ألقنك المانترا الربانية التي لقنّيها فياسا لتكسب بتلاوتها رضى الآلهة، ثم امض في طريقك ولا تدع أمراً يعترض مهمتك، واحرص على كسب رضى الإله إندرا فهو مستودع أسلحة الآلهة كلها. فإن سألته أن يزودك بها لم يمتنع، فإذا حُزناً عليها كانت لنا الغلبة على درونا وكارنا وكريبا، وهم كما علمت راسخون في فنون الحرب وأساليب القتال، وأعمدة حلف دريودانا.

رأت دروبدي أرجونا يعد العدة للرحيل كما أراد له يوديشترا،

وشق عليها أن تراه يغادرها، فقالت له مودعة: «أرجو أن تتحقق أمنية كونتي فلا تبعث شتريا من جديد. ولتتولاك الآلهة والأرواح في السماء والأرض بالعناية والرعاية».

ضرب أرجونا في الأرض الواسعة وخاض الأهوال، وتابع طريقه شمالاً كما أُمر، ولم يحط الرحال إلا في مملكة إندرا في جبال الهمالايا. وما كاد يبلغ تلك البقعة حتى فاجأه صوت مدو من السماء. ثم تلفت يستطلع حوله فوجد أمامه عند شجرة قريبة زاهداً من الزهاد هاله منه شعره الطويل المرسل على كتفيه ولون بشرته النحاسي وذلك النور الذي كان يشع منه. وسمع الرجل يسأله أن يرمي بأسلحة الحرب في هذه المملكة، فيأبى أن يتخلى عن سلاحه. ولكنه حين علم أن محدثه البراهمي هو في حقيقته الإله إندرا ذاته، ضم كفيه ورفعهما أمام عينيه تعبداً وزلفى للإله ذي العيون الألف، وسأله عندئذ أن يعلمه استعمال الأسلحة.

ولا يجيبه ذلك الإله إلى طلبه: «قد أخطأت المكان، يا بني، فليست هذه ساحة للحرب، والأجدر بك أن تنشد الجنة بدلاً من السلاح».

ويرد أرجونا: «إنما جئت في طلب السلاح، ولست أبغي أن أبلغ الألوهية. إن إخوتي ينتظرون إيابي مزوداً بالأسلحة الربانية، فكيف لي أن أخذلهم؟».

«لك ما شئت، يا بني، إنما حين يتجلى لك الإله شيفا ذي العيون الثلاث حاملاً سلاحه ذي النصال الثلاثة. أما الآن فافعل ما يبدو لك حتى يلوح لك شيفا».

وكما برز له إندرا من العدم اختفى أيضاً بلا أثر. ووجد أرجونا نفسه مشدوداً إلى تلك البقعة لا يملك مغادرتها، فينقطع إلى رياضة النفس ويشتد فيها ليبلغ الإله شيفا، كما اشترط إندرا.

خلد أرجونا إلى رياضته، ومازال بها حتى تجلى له شيفا، وتحقق الشرط. وتهيأ عندئذ للمضي إلى مدينة إندرا الأسطورية

بزهورها وورودها وأشجارها المقدسة، وحيث جنته ناندانا التي ترتع فيها الحوريات، وقد كفلها الإله لمن أخلص العبادة فلا يدخلها الكافر أو من ارتكب شراً أو معصية، أو كان يفرط في الشراب أو يأكل اللحم المحرم، أو يفسق مع أزواج شيوخه.

استقبله إندرا، وأجلسه قريباً منه، وهو على عرشه، ثم قرَّبه منه وأجلسه في حضنه، وتألقت الأنوار في هالة أحاطت بأرجونا، لكأنه إندرا آخر. ثم زاده تقرباً فمسح وجهه بيديه العطرتين وتبسم له دونما تكلف كما يبتسم الأب لابنه، وظل دأب إندرا النظر إلى أرجونا ويستزيد فلا يمل، بل ولا يكتفي من النظر، وإذا بالأب وابنه يتألقان ويشعان نوراً، كما القمر يبدد ظلمة الليل. وانطلقت الحوريات الغنديرفا يشدون بالغناء فيطرب السامعون، ونهضت الحوريات الإبسارا يتمايلن بالرقص بأجساد جميلة رائعة، وصدور ناهدة وخصور ضامرة تذهب بعقول حتى الزهاد المتبتلين، فيضج الحضور وهم يضربون أفخاذهم براحات الكفوف طرباً وهياماً.

أقام أرجونا ردحاً من خمس سنوات في جنة إندرا، ولئن استمر حاله على هذا المنوال هناك في رعاية الإله، لم نعهده ينشغل عن مهمته، فكان لا ينقطع عن جمع الأسلحة وتكديسها، ويعد لنقلها إلى حيث يقيم يوديشترا وإخوته وكاد يغادر عالم المتعة واللذة، حين أنجز مهمته، لولا أن إندرا شاء له البقاء بجانبه.

وكان إندرا يحرص في هذا كله على ملاحظة ما يأتي به ضيفه الفتي، فلمح منه ما يوحي بميله إلى الحورية الحسناء أورفاشي، وطاب له هذا الميل، ثم أسر إلى ملك الغنديرفا تشيتراسينا برغبته في أن تتولى هذه الحورية تعليمه فنون الحب، بعدما حذق فنون الحرب والقتال، فلعل ذلك يلطف من طبعه ويعيد إلى طبيعته التوازن.

وفي ليلة من الليالي جاءته أورفاشي تخطر في أجمل زي، كاشفة عن محاسنها، بضة هيفاء، مستديرة الأرداف، تشع بالإغراء، يسمع رنين خلاخيلها من بعيد فيطرب له قلب السامع قبل أذنه.

طرقت بابه فاستقبلها أحسن استقبال، وعرضت عليه مكامن الجمال فأغضى، ومازالت تبذل له فنون الإغراء والغواية فلا تجد منه إلا التجاهل وتكلف الوقار أو التحرج. فقالت له غاضبة:

«إذاً، فأنت تعرض عني، يا أرجونا! أنا التي أتيت إليك بأمر من والدك بقدر ما حملني الشوق إلى لقائك، فتقابل بذلي بالإهانة. اللعنة عليك، فلتمض أيامك والنساء عازفات عنك، ولتكن عنيناً، خنثى بلا جنس يميزك هاك غضبي، أيها الفظ الجلف، لتتذكر هذا اللقاء!».

أي جناية هذه التي جناها فاستحق هذا الغضب الذي أنزلته به هذه الحورية؟ وما السبيل للفكاك من هذه اللعنة؟

ابتسم إندرا ابتسامته الحانية حين بلغه أمر ذلك اللقاء، وقال لأرجونا: «بوركت المرأة التي حملتك يا فتى، يا من روضت نفسك على العفة، ففقت أهل الزهد. هون عليك، فلسوف تكون لعنة اليوم عوناً لك في السنة الثالثة عشرة، إذ ستقضي ذلك العام راقصاً خصياً، ثم تستعيد فحولتك، كما ألفتها».

ما برح يوديشترا يتابع وأهله ما ألفوا من حياة المنفى في الغابة، ويمضون الأيام في انتظار عودة أرجونا بالأسلحة، ثم وقع لهم أن أتصل بهم بعض البراهمة، فزينوا لهم زيارة العتبات المقدسة. وحبب لهم هذا الرأي. أنهم بذلك يتناصفون الطريق وأرجونا في عودته من جنة إندرا. فشدوا الرحال إلى تلك البقاع في الشمال يقصدون الاغتسال في مصدر الغانج، نهر الأكانندا، الذي يتلقى شيفا مصبه في شعره، فتوقفوا عنده وأقاموا الصلوات ووفوا بالنذور، ثم استأنفوا المسير.

ولم يكد القوم يقطعون مسافة، فإذا بدروبدي تتهاوى من شدة الإرهاق، وهي التي لم تألف طول المسير، فهرع إليها ناكولا ليسندها ثم ما لبث أن تداعى إليه إخوته ووضعوها في بقعة من الأرض لتستريح، وإذ خلدت إلى الراحة وهبت عليها نسمات من

هواء الشمال العليل وعبق الجو من حولها بأريج أزهار الجبال، صحت دروبدي الرقيقة من غشيتها، ورأت الإخوة الأربعة يقومون بتدليك قدميها المصبوغتين بالحناء، وهي تستريح على الأرض الجافة الصلبة، بلا غطاء سوى جلد الغزال الخفيف.

تلفتت حولها ثم نظرت إلى الإخوة عند قدميها، وفكرت كم كانت تصاريف القدر قاسية، فهي الآن تعيش حياة التشرد والصعلكة بعدما كانت تملك الأمر والنهي في مملكتها. ولكن لابأس! هذه هي الحياة، وهذا هو قدرها فلتحتمله.

استراحت دروبدي فترة ثم تمالكت عزيمتها ومضت مع أزواجها الأربعة حتى بلغوا جبل كايلاسا، الذي يقع بقربه معتكف برهما. فأقاموا عند سفح الجبل ستة أيام بلياليها، وسعدوا فيها بسعادة المرأة وهي تتلهف لعودة أرجونا من رحلته.

وفي اليوم السادس هبت ريح حملت معها جمعاً من أزهار اللوتس لم تر مثلها من قبل، فالتقطت دروبدي زهرة مما حملته الريح إليها، وتنسمت رائحتها فأخذت بروعة الأريج وجمال الألوان التي توزعت الأوراق وما حملت معها من دفء الشمس. وتاقت نفسها إلى زهرة ندية منها لتهديها إلى يوديشترا، فسألت بهيما أن يأتي لها بواحدة. فأسرع إلى تلبية رغبتها، يضارع الريح في سرعته، ويضرب الأرض بقدميه وهو يعدو فإذا بها تهتز من شدة الوقع، ثم يسرع كالعاصفة فيثير الذعر في ما كان يصادفه من غزلان وفيلة وأسود، فتناقلت الغابة خبر هذه العاصفة الهادرة وبلغت القرد هانومان.

كان هانومان يعلم أن رباط الأخوة يجمعه ببهيما. فانتهز فرصة مروره ليلتقي به، وإن كان بهيما لا يدري هذا الأمر. وشاء عندئذ أن يعترض طريق بهيما بجسده الضخم في إحدى ممرات الجبل الضيقة، ويحول دون وقوعه في هاوية سحيقة حين يزداد الممر ضيقاً فلا يتسع له. فاضطجع في موقع أحسن اختياره وسد

الممر بقوامه الذي بدا أشبه بعصا إندرا الرهيبة. ولم يملك بهيما بالرغم من سرعة العدو إلا أن يلاحظ هذا المخلوق الهائل الذي يعترض طريقه في الممر الضيق،فيقول له:

«أيها القرد إن بك خيلاء وتيهاً، وإني لمؤدبك منذ اللحظة!».

قال هانومان:

«هيا دعك مني، فقد سئمت حديثك، ولو شئت فاقفز فوقي».

«وكيف أقفز فوقك؟ أتراك جننت لتحسبني أقفز فوق نائم؟ أم لعلك تحسبني كهانومان حين قطع المحيط بقفزة واحدة؟».

«ومن يكن هانومان هذا؟».

«إنه أخي ابن إله الريح، القرد الذي روت الرمايانا حكايته. وإذا شئت أن تعرف المزيد؟ فاعلم أني أضارعه قوة فانهض لتنازلني فيبلغك شيء من بأسه!».

«وأنا ابن إله الريح واسمي هانومان أيضاً!».

واندفع بهيما يعانقه ويضرب بكفيه عجباً:

«إذن فأنت أخي هانومان، وها هي الأقدار تجمعنا دون اتفاق. ولكن دعني يا أخي أرى العلامة المميزة المباركة، في جسمك، فأزداد يقيناً!».

كشف هانومان عن جسمه فذهل بهيما لما رأى، ولم يلبث أن ودع هانومان ليمضي إلى حيث الألف زهرة. ومازال يتابع مسيره على هذا النحو حتى صادف، قريباً من جبل كايلاسا، بحيرة رائعة الجمال تحيط بها الغابات من كل جانب ويحرسها الراكشا المردة، وتطفو على سطح مائها الصافي الرقراق ألف ألف زهرة لوتس وعود زنبق.

اعترض طريقه أحد الراكشا يريد أن يتحقق منه، وقد رآه وعجب لمنظره الغريب. فها هو في أسمال كالفقراء ويتمنطق بعد

بأسلحة المحاربين. ورد عليه يعرفه بنفسه ويخبره بالأمر الذي جاء من أجله.

ولقد مانعه الراكشا المارد، فهو يخطو الآن في مملكة كوفيرا، إله الثروة، وويل لمن يدخلها دون إذنه، وهي دون البشر الفانين.

ود بهيما لو رأى كوفيرا في الجوار، ولكنه كان غائباً. وإذن، فلا ضير عليه أن يدخل المملكة، بل له الحق كل الحق في دخولها وقطف أزهار اللوتس، أفليس هو من الشتريا المحاربين؟ وبعد فهذه بحيرة ماء من عطاء جادت به الطبيعة على الخليقة، فهل ينبغي أن يحصل المرء على إذن من أحد لينال بعضاً من هذا العطاء؟

قال بهيما قوله وأسرع يغطس في ماء البحيرة والراكشا يصيح به ألا يفعل! ثم ينادي رفاقه المردة الآخرين أن يسرعوا إلى اعتقال هذا المتطفل، فيأتونه على عجل، وصاحبهم يصيح أن اقتلوه، اذبحوه! انهشوا لحمه. وتنشب عندئذ معركة ضارية فيجد بهيما نفسه محاطاً بأفواج وأفواج من المردة تريد قتله، فيلتفت إليها برمحه فيجندل من يواجهه ثم ينثني على رفيقه القريب، وهو يدور بينهم بمرونة، ويعمل سلاحه بهم قتلاً وفتكاً، فغطى سطح البحيرة بالأشلاء وتناثرت مئة جثة من القتلى، بينما ولى البقية الأدبار. ولما اطمأن إلى اندحار هؤلاء الأشقياء، أخذ يحمل الجثث ويرمي بها إلى ضفة البحيرة التي عاد إليها صفاء مائها. وعندئذ استراح قليلاً ليلتقط أنفاسه بعد هذه المعركة العظيمة، ثم أخذ يعب من مائها ليروي عطشه، والتفت إلى أزهار اللوتس الجميلة يقطفها ليصنع الباقة الموعودة من ألف زهرة، وشرع يسبح ويلهو ويضرب الماء بكفيه ويلعب ويمرح، فيما إله الثروة كوفيرا ينظر إليه من علٍ نظرة ملؤها الرفق والحنان والرضى.

لاحظ يوديشترا، في مرتعه البعيد، عاصفة هوجاء تهب على المكان وتعصف به، ورأى الشهب تنطلق عبر السماء الفسيحة، والغبار يعلو كثيفاً فيحجب الشمس، وسمع أصوات الحيوانات تعدو

فزعة وهي تطلق أصواتها عالياً وأجنحة الطيور تصطفق كأنما تنذر بخطر عظيم.

راقب الرجل هذا الانقلاب الذي داهم العالم الهادئ الساكن من حوله، وقال لدروبدي:

«أين بهيما فلست أراه بيننا؟ يقيناً أنه في مكان ما يخوض معركة مما ألفنا منه، فهذه العلامات تشير إلى حدث عظيم!».

وإذ علم منها بأمر رحلته بحثاً عن أزهار اللوتس الذهبية، أمر أخويه ودروبدي البدء بالمسير بحثاً عنه، ونجدته، إذا ألمت به ملمة.

كان الجمع قد قطعوا مسافة غير يسيرة حين عثروا على بهيما منتصباً بقامته وسط البحيرة ذات الألف ألف زهرة، ومن حولها جثث الياكشا والراكشا المردة مكدسة فوق بعضها عند الضفة والأشلاء متناثرة، وهو ينظر إليها كأنما إله الموت يرى تفسخ العالم وانحلاله.

ضاق يوديشترا بما رأى وسمع، ولم يتمالك عن تعنيف بهيما وتقريعه لفظاظته ودخوله معارك تُفرض عليه ولا يقوى على تفاديها. وإذن فليس لك يا بهيما أن تستعدي عليك الآلهة دون الرجوع إلى يوديشترا. فها قد أثرت هذه القوى عليك، ثم ها هم أهلك في حرج. لا لسبب إلا تهورك وغطرستك. فتمالك جأشك بعد الآن ولا تقدم على أمر، إلا بعد التدبير مع رأس قومك، يا بهيما.

ثم يتكلف يوديشترا أن يبحث عن حراس البحيرة، ويسترضيهم حتى تهدأ نفوسهم. ويقيم الإخوة آل باندو بضعة أيام على ضفاف البحيرة، وعند أقدام الجبل العظيم الذي يحمل هواؤه ذلك العبق والأريج، ينتظرون إياب أرجونا من رحلته إلى مملكة إندرا.

وهكذا أقام الجمع سعداء في تلك البقعة الرائعة، حتى كان ذات يوم، لاح لهم فيه أرجونا يقطع السماء بعربة إندرا تحيط بها هالة من النور، كأنما هي نار متقدة. ونظروا فرأوا ماتيالي يسوس

العربة وإلى جانبه وقف أرجونا مكللاً بتاج وعقود. ثم وجدوا العربة تحط أمامهم، وينزل منها أرجونا حاملاً ما حمله إياه إندرا من الأسلحة والهدايا، فيقدمها إلى دروبدي، ويجلس بين أهله ويروي لهم ما صادف من المصاعب في رحلته.

ورأى القوم الأسلحة التي زودهم إندرا بها، فهدأت نفوسهم واطمأنت وشاء يوديشترا عندئذ أن يعرض له أرجونا أسلحته. فتناول من العربة ذلك القوس الرهيب الغانديفا الذي أفاض إندرا في وصف قدرته. وحمل بيده البوق المصنوع من صدفة سحرية من أصداف البحر. ثم التفت إلى القوس الرهيب يريد أن يتبين قوته، فحمله وشد الوتر وزاد في الشد، فإذا بالأرض تهتز وتضطرب مذعورة، والأنهار تجري متدفقة، والصخور تتشقق، ويثبت الهواء فلا أثر لنسمة فيه، وإذا بالسماء تكفهر والشمس في أفول، وتستولي على الجو برودة لا عهد للعالم بها فلا يستطيع أحد أن يشعل ناراً، وسمعت الحيوانات والطيور تطلق أصواتها كالعويل تستنجد، كما لم يألفوا منها من قبل. أصيب القوم بالحيرة وهم يرون هذا الانقلاب العظيم، فلا يدرون لذلك سبباً، ثم لا يدرون السبيل إلى التدبير. ومازالوا على حالهم من الحيرة حتى تجلى أمامهم نارادا، فيخاطبهم ويعظهم بالحرص في معالجة هذه الأسلحة الفتاكة التي إنما شاءها إندرا لتكون عوناً لهم في لحظة المحنة، وفي الحرب حين تشتد، ولم يقدَّر لها أن تكون ألعوبة للتلهي. فالعبث واللعب سيأتيان بالكارثة المحققة. وفناء العوالم الثلاثة بلا ريب.

أرخى أرجونا الوتر، وللتو هدأت الطبيعة وتابعت دورتها، وإذا بالأمطار الموسمية تهطل في موعدها فتبدد حرارة اللهيب، والسحب السوداء الداكنة تتجمع فتغطي السماء وتحجب الشمس وتنزل شلالات من المياه، فترتوي الأرض العطشى فيبرز العشب في الحقول وتخرج الزواحف لتنعم بالماء، وتمضي الأنهار في أمواج غزيرة تتلاحق ليدوي خرير مائها في الغابات والأحراج، وتخرج الطيور والبلابل لتغرد وتشدو ببهجة الحياة، بينما تصدر الضفادع

نقيقها، ثم سرعان ما حل فصل الربيع لتنجلي من السماء السحب والغيوم، وتعلو الشمس مرتفعة برفق، فلا تعدم الطبيعة الدفء والبرودة المنعشة معاً، ويبرز القمر في الليل كالعروس تحيط به آلاف النجوم الساحرة، وعندئذ يرسل الزنبق واللوتس أريجه فتستريح النفوس، ويجري نهر سارسفاتي أزرق كما السماء، إذ تصفو.

صادف أن وقع أحد البراهمة الكبار على أبناء باندو، فهاله ما هم فيه من الفقر والبؤس، ورأى عندئذ أن يحدث الملك ديتراشترا في شأنهم، فلعله يستريح إلى بلاغته فيستعطفه عليهم، بالعرض المؤثر وقوة المنطق، فيصلح حالهم وتطيب النفوس وتقر العيون. وطفق البراهمي يبسط للملك أمرهم ويصف حالهم. ولكم تأثر الملك لما وقع لأبناء أخيه المساكين منَ الذل، ولكم شعر بالألم وتأنيب الضمير حين تذكر ضلوعه في مصابهم. وكاد أن يلين قلبه وهو يصغي إلى روايات البراهمي عنهم وما أصاب دروبدي من البؤس، لولا أن تمالك نفسه يرد على محدثه ويؤكد له أنه أخطأ في تقدير حالهم، وأخطأ في فهم الأمور والمقاصد. فلئن كان يوديشترا ينام في العراء فإن دريودانا وشاكوني ودوشاسنا ينعمون بطيب العيش ويرفلون بالنعم، فإن التقي الجمعان نشب الصراع وفسد الحال. أما وقد أصبح أرجونا مسلحاً بالقوس الرهيب، عطاء من إندرا، فلعله يرهب به الآخرين، فينال نصيبه من الحظ.

وشاءت الصدفة أن يسمع شاكوني هذا الحديث فينقل الخبر إلى دريودانا، ويخبره بمقام أبناء باندو عند بحيرة ديفتافنا ويزين له أن يذهب وصحبه إلى ذلك الموقع الجميل، ويضرب مضاربه قريباً من موقع أبناء العم، ولا بأس أن يصطحب معه زوجه في أجمل ثياب وأحلى حلي، فإذا وقع نظرهم على هذا الجمع ثارت بهم الغيرة وضاقت دروبدي، وهي ترتدي وأزواجها جلود الغزلان.

ولقد استحسن دريودانا الرأي، لكنه خشي أن يرفض والده

الإذن له بتلك الرحلة، ولذلك فإنه سأل صاحبه أن يسعى لديه ليأذن لهم القيام بجولة لتفقد قطعان الماشية التي تملكها الأسرة في منطقة البحيرة.

ولقد وقع هذا موقعاً حسناً في نفس الملك ديتراشترا، ثم تردد في الإذن لدريودانا، خشية أن يقع احتكاك بين ابنائه ويوديشترا وإخوته ولكن شاكوني طمأنه إلى أن دريودانا وصحبه لا يسعون إلى الاحتكاك بأبناء باندو، بل إنهم يسعون إلى تفادي الالتقاء بهم، ومازال يلح على الملك ويصور له نوايا الجماعة أحسن تصوير حتى فاز منه بالإذن بالجولة.

وشرع دريودانا يعد القافلة للرحيل، ودعى جمعاً كبيراً من أصحابه والحاشية للمرافقة، فلما اطمأن لحسن المخطط، شد الرحال وانطلق في طريقه ينشد مراعي الماشية. حيث يخيم يوديشترا.

فأقام مضاربه في تلك السهول التي ترعى فيها قطعان أسرته، في موقع استحسنه لمائه وهوائه، وأمامه تلك الآلاف من الأبقار والعجول. ولكن جماعة من الغنديرفا اعترضته وجنوده ومانعته في إشادة مضاربه في ذلك المكان فثارت ثائرته على تلك المخلوقات التي تسكن سماء إندرا، فأمر جنده بمطاردتها، ثم اقتحم الغابة، وأقام فيها مضاربه. وللتو أرسل ملك الغنديرفا جحافل قواته. فمازالت هذه تضرب في معسكر دريودانا وتعمل سلاحها في رقاب جنده، حتى فر كارنا من المواجهة بعدما أصبح يقاتل وحيداً.

وأخيراً تمكنت قوات السماء من أسر دريودانا وقافلة حريمه وأهله. وحملته إلى ملكها تشيتراسينا ليزج به في السجن.

وقف يوديشترا ينظر إلى وفد من معسكر دريودانا ويستمع إلى صراخهم وعويلهم واستنجادهم لتخليص رأسهم من الأسر، فلا يعلق، إنما يصغي ويفكر. أما بهيما فكان سريعاً إلى التعليق: «ذلك جزاء وفاقاً على نية دريودانا حين أراد أن يسخر منا. وإننا

لمغتبطون اليوم، إذ وجدنا ثمة من يمد لنا يد العون في لحظة الشدة».

أخذ بهيما يتابع كلامه حانقاً شامتاً بعبارات غاضبة، لكن يوديشترا قاطعه حاسماً حازماً أن ليس هذا وقت استذكار الأحقاد، بعد أن لجأ إليهم القوم يستغيثون، والأجدر بهم أن يلبوا النداء. أما الخصومة فأمر تألفه كل عائلة، وليست سبباً للتقاعس عن النجدة. وبعد أفلم يكن ملك الغنديرفا يعلم أن دريودانا وقافلته كانوا يقيمون في حمى آل باندو؟ وإذا فما معنى أن يوجه جنده إلى هذا الجمع من الأقارب؟ ويوجه الإهانة إلى الرجال ثم يقوم بسبي نسائهم؟

وجه يوديشترا إخوته للذهاب إلى تشيتراسينا وإقناعه بإخلاء سبيل دريودانا وأهله وجماعته بالحسنى. فإن عاند فليقتلوه ويجعلوا منه عبرة لمن يعتبر، وليفكوا أسر القوروشيين.

كان أرجونا أول من صدع بالأمر وتبعه إخوته الثلاثة، فمضوا إلى ملك الغنديرفا تشيتراسينا ليفاوضوه. وحين اقتربوا من مملكة تشيتراسينا اعترضتهم قوة من الغنديرفا كما توقع يوديشترا. فنشبت بينهم وبين هؤلاء الغنديرفا مناوشة سرعان ما انتهت لصالح أرجونا وإخوته. وعندئذ صاح أرجونا أن أطلقوا سراح دريودانا فرد عليه الغنديرفا أن سكان السماء لا يتلقون أمرهم إلا من ملكهم.

ورد أرجونا صائحاً: «ومتى كان أهل السماء يسبون أزواج البشر؟».

فقامت معركة طاحنة تساقطت فيها الغنديرفا على الأرض جثثاً وأشلاء، ودمرت عربة الإخوة الأربعة. ولكن الإخوة لم يتوقفوا عن القتال، فنزلوا يقاتلون راجلين ويبدون ضروباً من القوة والبأس ما حمل خصومهم على الإدبار هاربين، حتى وقعوا في حلقة من سهام أرجونا، كأنما هي سجن لا يملكون منه إفلاتاً، فإذا بمن بقي على قيد الحياة أسرى في قبضة أبناء باندو.

نادى أرجونا تشيتراسينا يسأله بلهجة التحدي إن كان يبغي متابعة النزال، وإلا فليطلق سراح دريودانا وأهله!

ويتوسل تشيتراسينا بما بين يوديشترا ودريودانا من العداء، وما يحمله دريودانا من الضغينة لأبناء عمه. أفليس هو سبب نكبتهم؟ ثم هل انقطع يوماً عن الكيد لهم؟ فلم الدفاع عن هذا الوغد، وهو أصل كل بلاء؟

ألم يكن هو الذي أوقع بيوديشترا في مباراة غير متكافئة، وهي إلى الفخ أقرب؟ وبعد ألم يشتط في حقارته حتى ألحق أمرَّ الإهانة بدروبدي الكريمة الرقيقة، زوج خمسة من درر الرجال، وابنة الأسرة العريقة؟

ومازال تشيتراسنا يأتي بالحجة تلو الأخرى ليبرر اعتقال دريودانا وأبناء باندو يعرضون عن السماع، بل ويلحون في المطالبة بإخلاء سبيله، حتى استنفذت ذرائعه ولم يجد بداً من الاستجابة لهم.

لم يكن لدى يوديشترا ما يقابل به عبارات الاعتراف بالفضل والامتنان من دريودانا، إلا أن ينصحه بألا يعود إلى مثل هذه الألاعيب ثانية، وأن يرجع إلى قصره وقد اتعظ بما نال من الجزاء.

وهكذا عاد دريودانا إلى عاصمته مجللاً بالعار، وانقطع في جانب من قصره يتأمل فيما وقع له، أما الإخوة أبناء باندو فقد استأنفوا حياة الدعة والسكينة في الغابة، شأنهم من قبل.

ظل دريودانا منقطعاً عن العالم معتزلاً الناس والأصحاب حيناً من الوقت، ولم يقطع خلوته إلا حين أطل عليه كارنا الذي عاد إليه، بعد أن ضاع في التيه فترة، ليسلم عليه ويحمد له عودته وأهله وفرحه بمقتل الغنديرفا، ويعرض عليه ما جرى له في المعركة واضطراره إلى الانسحاب بعدما أنزلت تلك الجماعة بكتيبته مقتلة عظيمة.

ويلوح له دريودانا في جلسته على فراشه كالقمر الآفل، ساكناً عليه شحوب شديد، ينظر نظرة المسلوب، ثم يسمعه يقول: «ذلك جانب من القصة. أما الحقيقة فهي أن القتال كله كان من نصيب أبناء باندو. ويا ليتني مت في الساحة ولم أعرف هذا العار. فدعك مني، فلقد عرفت نفسي فليس لي شيء من الفضيلة، وليس لي حق في صداقة أو ثروة أو ملك. وإني قد نذرت نفسي للصوم حتى الموت».

وعبثاً حاول صاحبه أن يحول دونه وما اعتزم، فوجد الرجل يفترش الأرض فوق بساط من العشب، ثم يغتسل بالماء وينقطع للتأمل، معرضاً عن العالم العارض الزائل، لا ينشد من دنياه إلا توقاً إلى الخلاص.

ولم يكن هناك من ضاق بهذه الحال مثلما ضاق الدايتا والدانافا، أولئك العمالقة الذين عصوا الآلهة، فطاردتهم حتى الأقاليم الوسطى. ولقد زين لها أنها إن فقدت دريودانا غدت بلا ظهير يحميها، فأخذت تقيم الأضاحي وتعقد الجلسات لتلاوة التعاويذ السحرية، علها تؤثر في دريودانا. ثم دأبت على هذا الحال حيناً رأت بعده أن تتصل بالرجل، فأرسلت إليه امرأة من بينهم تملك وسائل الإقناع، فاجتذبته إليهم. ولما كانت المقابلة بسطت له المردة الأمر على أبسط نحو: لقد اختارت الآلهة أبناء باندو، وإذن فليس له إلا أن يعقد وإياهم حلفاً ينتهي بالقضاء على خصومه، ويدحرون هم بدورهم الآلهة في معركة حاسمة. لقد استغرق الأمر كله إغماضة عين لا تزيد عن ثوان معدودات، خال دريودانا أن ما عرض له مجرد حلم. ولكن هذا الحلم كان له وقع الحقيقة في أعماقه.

جلس دريودانا يتأمل حاله هنيهات قليلة، ثم حزم أمره، وصاح: «قسماً لأسعين وراء أبناء باندو ولأستدرجنهم إلى حرب ضروس لا تبقي ولا تذر، ولأجعلن اسمهم منسياً».

جاءه كارنا في اليوم التالي، فرآه في حاله الذي غدا عليه، ففرح وقال له مبتسماً: «قد أحسنت إذ استعدت صوابك. فالموتى لا

يكسبون حروباً. والحياة هي الأهم. فلنجلس ولنتدارس الأمر معاً ثم نخطط بقلوب صلبة».

كان أول ما قام به دريودانا وصحبه أن أقاموا أعظم الطقوس، طقس الراجاسويا. فأمروا الصناع المهرة بصنع محراث ضخم من الذهب. ولما تمت الترتيبات للطقس العظيم أوفد دريودانا موفداً إلى يوديشترا يدعوه لحضور هذا الاحتفال. فأجابه بأنه مسرور لهذا النبأ، ولكنه يأسف لتعذر حضوره قبل انقضاء مدة النفي.

أما بهيما فحمله وعيده بأنه متى انقضت المدة ومازالت نار الطقس مشتعلة، فسوف يزكيها بجثة دريودانا.

ولما تم الطقس العظيم، ونال البراهمة نصيبهم من الأضاحي وتمتع الملوك والأمراء بالمتع، وفاز الجميع بالهدايا التي نثرت بينهم، دخل دريودانا هاستينبورا بين ترحيب بعض الأهالي وتمتمة البعض الآخر، وبينما دهن البعض جبينه بدهون الصندل مباركاً، حط بعضهم من شأن هذا الطقس ووجدوه دون ذلك الذي أقامه يوديشترا عظمة ورفعة ولكن دريودانا استراح إلى التقريظ الذي سمعه من أصدقائه وأنصاره.

وهكذا تتابعت الأيام، وتعاقبت الفصول، والإخوة أبناء باندو يقيمون ودروبدي في الغابة في سعادة وحبور. ثم صادف أن غادر الإخوة ذات يوم صومعتهم في رحلة بحثاً عن الطعام لأتباعهم من البراهمة. وفيما كان الإخوة غائبين مر بالصومعة ملك السند جيادراتا وهو في طريقه إلى عاصمة الشالفا ليتزوج من ابنة ملكها، فوقع نظره على دروبدي فخلب لبه جمالها وروعتها وهي تسير ويحيط بها ذلك المشهد من الطبيعة الخلابة، فبدت كالقمر حين يبرز بين السحب. فلم يتمالك نفسه عن التحدث إليها، ولكن المرأة لم تبد له ما يشجعه على المضي في حديث عابث، فما نظرت إليه وما تكلفت إطالة الحديث، بل أبانت له أنها إنما تحادثه لأنه ليس في الجوار رجل يخاطبه. تابعت تخبره بمكانتها، ثم عرضت له ضيافتها. ولقد

انتهزها هذا الملك فرصة ليعرض عليها قلبه وملكه، إن هي شاءت الملك أو استهواها شبابه. فوجدها تبرم به ويضيق صدرها لغلظته، ثم سمع منها أشد التعنيف والتقريع. ولكنه ظل يلاحقها ويحاول استمالتها، فلما عاندته حملها قسراً إلى عربته ومضى بها ينهب الطريق نهباً. وفي تلك اللحظة دوى عواء ذئب سمعه الإخوة وهم في طريق عودتهم إلى صومعتهم، عواء حمل إليهم نذيراً بالشر.

ولما عادوا إلى الصومعة فاجأهم بكاء وصيفة دروبدي التي روت لهم اختطاف سيدتها وهرب جيادراتا. وللتو انطلق الإخوة يقتفون أثر ذلك الوغد، ومازالوا يجدون وراءه حتى عثروا عليه، فبادروه وكوكبته بسيول من السهام، فتفرق جنده من حوله ينشدون النجاة بأنفسهم، فلم ير إلا أن يلوذ هو أيضاً بالفرار تاركاً دروبدي وراءه. وسلك في غمرة الاضطراب والفزع الطريق الذي يعود به إلى الصومعة.

وعندئذ صاح بهيما: «لقد مضى جيادراتا إلى حتفه برجليه، ولن ينقذه مني إله أو إنسان!».

ولكن يوديشترا اعترضه قائلاً: «قبل أن تفكر في قتله تذكر اختنا دوشالا وقندهاري، وإن كان على هذا القدر من الخسة والغدر!».

وعندئذ قاطعته دروبدي، وهي في ذروة الانفعال: «إن كنت تحمل لي مكرمة فاقتله، لأن الرحمة لا تحق لخاطف الزوج، أو سالب الملك!».

فانطلق أرجونا وبهيما خلفه إلى أن أدركاه، وأمسكا به ثم أجريا الموسى في شعره مسالك ومعارج، وسألاه أن يختار بين الموت والعبودية، فلم يملك إلا أن يسلّم لهما بما يشاءان. فساقاه إلى يوديشترا ليفصل في أمره. وكان أن أمر بإطلاق سراحه.

وهكذا مضى جيادراتا مطأطئاً محلوق الرأس، صامتاً مجللاً

بالعار، إلى أن بلغ ضفة الغانج، فنزل في مائه واغتسل وأقام الصلاة للإله شيفا ففاز برضاه وسأله أن يمن عليه بالقوة ليقتل الإخوة أبناء باندو! وجاءه رد الإله بأن ذلك من المحال. لكنه وعده بأن يمكنه منهم مرة واحدة إلا أرجونا، فلن يملك أن يغلبه قط. وعندئذ اختفى شيفا، وعاد جيادراتا إلى مملكته، فيما تابع ابناء باندو مألوف حياتهم في الغابة.

السفر الرابع

مملكة فيراتا

استدعى يوديشترا إخوته وخاطبهم قائلاً:

- «ها قد انقضت سنوات النفي وحانت سنة الاستتار. فتدبر لنا ياأرجونا بلداً نأوي إليه ولا ينكشف أمرنا فيه، حتى نتم السنة الثالثة عشرة، ويكون لنا أن نعلن العودة».

- «الحق أن هناك عدداً لا يحصى من البلدان لنلجأ إليها ولا يفتضح أمرنا، وهي كلها تحيط ببلاد القوروش: البانتشالا، والتشيدي، والماتسيا، والسوراسينا، والملّا، وساوراشسترا، وأفانتي، وكونتيشسترا، فاختر منها البلد الذي تشاء!».

أطرق يوديشترا رأسه مفكراً حيناً، ووجد نفسه تطمئن إلى بلاد الماتسيا، إذ بلغه عن صاحبها الملك فيراتا أنه شيخ جليل أصاب صيتاً واسعاً لنزاهته وخلقه النبيل. ثم شرع يتدارس وجماعته في أمر تلفيق الشخصيات التي سيتقدمون بها إليه. فاختار أن يتزيا في زي براهمي يجيد اللعب بالنرد، وتسمى باسم كانكا، زاعماً أن له صلة بيوديشترا. واختار بهيما لنفسه اسم فالابا الطاهي الذي يجيد تحضير أطايب الطعام التي تليق بقصور الملوك. ولحق به أرجونا وشاء أن يتخذ شخصية بريهانالا الخصي الذي يحسن الرقص

وتعليمه ورواية الحكايات المسلية لنساء القصر، وزيادة في التخفي عمل على تزيين شعره على نحو ما تتزين النساء، وأذنيه بالأقراط، وعنقه بقلادة، وذراعيه بالأساور ليستر ما أصابهما من الجروح والشقوق وآثار الشدة، واختلق لنفسه وظيفة الوصيف عند الملكة دروبدي في قصر يوديشترا. أما ناكولا الرشيق المتواضع فانتحل شخصية جراتيكا حارس الاصطبلات الملكية، وأما سهديفا فادعى اسم تنتريبال راعي قطعان الأبقار.

وهكذا اكتملت الحكاية، وما كان ينال منها إلا دروبدي، هذه المرأة الرقيقة الحانية، لجهلها بأساليب العالم وخلال الرجال، وهي التي لم تعرف إلا حياة القصور ولم تعتد إلا أن تأمر فترى الناس يتهافتون لتلبية رغباتها.

فكان يوديشترا يخشى أشد ما يخشى أن يفتضح أمرها فتفشل خطته، أو أن يجتذب جمالها رجلاً من الرجال لا حيلة لها معه فيندفع أحد إخوته لنجدتها فينكشف أمرهم.

على أنها طمأنته وأزواجها الأربعة الآخرين بأنها تملك أن تتدبر أمرها بأن تتنكر في صورة الماشطة سيريندري. ثم تسعى للخدمة عند الملكة سوديشانا، يؤهلها إلى ذلك خدمتها عند الملكة دروبدي قبل أن تحملها تصاريف الدهر على هجر القصر مع أزواجها.

وإذن، لم يعد أمام القوم إلا أن يمضوا في الأمر الذي اختاروه، فتهيأوا للرحيل، وساروا في ذلك الطريق الذي يقود إلى حيث رأوا الملجأ والحمى، متمنطقين بالسلاح مرتدين رث الثياب.

وماكاد القوم يقطعون شيئاً من طريقهم، متنكبين ذلك الدرب الذي يحاذي جنوب ضفة نهر اليامونا، فإذا بدروبدي وقد نال منها التعب والإرهاق أشدهما تسألهم أن يتوقفوا للراحة قليلاً. ولكنهم كانوا في عجلة من أمرهم فلم يشأوا التوقف، فتركوا لأرجونا أن يحمل المرأة الضعيفة بين ذراعيه حتى بلغوا أطراف البلد. وهناك

رأى يوديشترا أن يخفي إخوته أسلحتهم لئلا يفزع الأهلون وينكشف سترهم حين يرون معهم ذلك القوس الرهيب الغانديفا، فتعود بهم الدورة إلى حياة المنفى والتشرد اثنتي عشرة سنة أخرى، فأشار أرجونا إلى شجرة سامقة كثيفة الأغصان بالقرب من المكان لتكون مخبأ للأسلحة. ولقد كان ما أشار به، وزاد بأن صنع دمية ضخمة شديدة الشبه بشكل الجثة وتركها تتدلى من أعالي الشجرة ليفزع منها المارة، فلا يقتربون من الشجرة خوفاً من النجس العالق. وجلس الإخوة بالقرب من هذه الشجرة متكلفين الحزن ينتظرون من يمر بهم ويسألهم عن سر الجثة المعلقة، فيفيدونه بأن هذه جثة أمهم وقد ماتت عن مائة وثمانية أعوام، فينفض عن المكان إذا سمع هذا، ثم ينقله إلى الآخرين فيتجنبون المرور بالمكان.

اطمأن آل باندو إلى أن أسلحتهم في حرز أمين. فتنكبوا الطريق وجدوا في المسير إلى العاصمة، وأمضوا معظم الوقت في استذكار ألقابهم المنتحلة والتحقق من دقائق التفاصيل في شخصياتهم الملفقة الجديدة لئلا يقعوا في حرج عند السؤال.

دخل الجمع العاصمة وكان يوديشترا أول من يدخل على الملك فيراتا يسأل مقابلته فأجازها له. ولكم عجب الملك لمنظره الذي تلوح عليه ملامح الرفعة والسمو خلف هذه الأسمال التي يرتديها، وتوهم للحظة أنه ملك أو من أبناء الملوك والأباطرة ولكنه سرعان ما بدد هذا الخاطر حين وجده على ذلك الحال من الفقر والبؤس، فلا حاشية تحيط به ولا مواكب ترافقه. وإذن فليسأله عن أمره وعما يبغي بعد عبارة ترحيب مقتضبة.

تقدم يوديشترا للكلام، فعرَّف نفسه بأنه كانكا البراهمي الذي برع في لعب النرد وصديق يوديشترا. ولقد ابتهج الملك فيراتا لقدوم مقامر بارع إلى قصره، وسأله أن يبقى ضيفاً عليه. ولكن يوديشترا اشترط ألا يلاعب أحداً من الطبقات الدنيا طالما كان في ضيافته. فأجابه الملك إلى هذا. ثم زاد شرطاً آخر هو أن الخاسر ليس له الحق فيما خسر. ولقد أجابه الملك إلى هذا أيضاً، وقطع على نفسه

العهد بأن ينفي من مملكته كل من يضيق به كانكا البراهمي، فهو هنا سيد القصر يقيم ما شاء على الرحب والسعة.

أما دروبدي فقد تعمدت البساطة في زينتها بلا تكلف أو تزويق حسبها من ذلك أن جدلت شعرها الأسود الطويل في ضفيرة طويلة انسدلت على كتفيها حتى نهاية الظهر وسترتها تحت ثوب أسود طويل، وكان الناظر إليها لا يحسبها في هذا الشكل إلا من الفتيات اللواتي يتكسبن من عملهن. ولما اطمأنت إلى حسن تنكرها أخذت تتمشى أمام قصر الملك، واسترعت نظرة من الملكة حينما كانت تجلس أمام نافذة تطل على الطريق فبعثت بمن يأتي بها.

سألتها الملكة سوديشانا:

- «ما اسمك يا امرأة؟ ومن تكونين؟».

أجابتها دروبدي:

- «إني سريندي، وكنت ماشطة في قصر يوديشترا حتى حلت به النكبة وأضاع ملكه. ومازلت أعمل منذ ذلك الحين عند من يؤويني ويقدم لي الطعام».

عجبت الملكة مما سمعت، وقالت:

- أكاد لا أصدق ما تقولين! أفيصدق ذلك وأنت على هذا القدر من الحسن والجمال: قوام جميل وخصر نحيل، وبطن ضامر، وصدر عامر، وأرداف ممتلئة، وأنامل طويلة ليس بها شيء من الغلظة، وكاحلان دقيقان. ثم أراك تحسنين الحديث، وصوتك رقيق، وابتسامتك عذبة. ولست أجد من يملك أن يقاوم سحر عينيك الواسعتين وشفتيك الممتلئتين ووجهك الساحر. - إن من يراك - يحسب أن الإلهة شري قد هبطت على الأرض، فمن ذا الذي أستطيع أن أثق به وأنت هنا في هذا القصر - فإن كان ثمة مثل هذا الرجل فهو يقيناً ليس زوجي. ولو اتخذتك ماشطة لي وأبقيتك معي هنا لكان شأني شأن التي تتسلق الشجرة لتقع من علٍ، أو السرطان الذين يسعى إلى حتفه».

أجابت دروبدي:

- «اطمئني يا مولاتي فلن يستطيع إنسان على هذه الأرض أن يمتلكني، فأنا زوج لخمسة من الغانديرفا الأشداء.ولو حاول كائن من كان أن يغتصبني لواجه حتفه في ذات الليلة. ثم اعلمي يا مولاتي أني لا أخدم إنساناً يقدم لي طعاماً لوثته يد إنسان آخر، ولا أقوم بغسل قدم إنسان».

- «نِعْمَ ما قلت، يا امرأة! فلك أن تقيمي بيننا ما طابت لك الإقامة، وعلى الرحب والسعة».

ما كاد هذا الحديث ينقضي حتى كان ثمة رجل طويل القامة، عريض المنكبين، على قدر عظم من الوسامة بل البهاء، يطرق باب القصر ويسأل مقابلة الملك الذي استغرب شكل هذا الرجل الفتي ذي العضلات المفتولة ثم يتحلى بالقلائد تتدلى من عنقه والأساور تحيط بمعصميه وذراعيه. فيسأله الملك عن اسمه ومقصده. ويجيب الرجل:

- أنا بريهانالا الخصي، ولا تسلني، أيها الملك العظيم كيف صرت على هذه الحال. فتلك قصة مؤلمة يشق عليَّ أن أستذكرها الآن. على أنني ذو مواهب ومعارف، فإن شئتم وجدتموني مغنياً، وإن شئتم رأيتموني راقصاً. فإن رغبتم يا مولاي كان من دواعي الفخر أن أتولى تدريب ابنتكم الأميرة أوتارا فنون الرقص».

قال الملك:

- «لك هذا إن صح قولك، ولسوف نجزيك أحسن جزاء إن نجحت في تدريب الأميرات وسيدات هذا القصر!».

ثم أمر الملك بعض النساء بفحص الرجل والتأكد من صحة مزاعمه، فلما جئنه بالخبر اليقين أمر بأن يكون مقامه في جناح الحريم.

ولقد توالت الشهور على الإخوة باندو وهم يعيشون متخفين في قصر الملك فيراتا، ودروبدي تعاني وتكابد في خدمة أهله، ولا تبدي مع ذلك ما ينم عن ضيقها أو برمها بحياة الشقاء في خدمة الآخرين، على ما كان في ذلك من المهانة والإذلال لها!

كانت أيام النفي تكاد تنصرم وتبدأ أيام الإعلان، وتهيأ الجمع

لاستئناف حياتهم كما ألفوها قبل المحنة التي نزلت بهم، ولم يكن ثمة ما ينال من سكينة قلوبهم والإطمئنان إلى ذلك المستقبل الذي ينتظرهم حين تنقضي عدة الاستتار.

ولكن صادف في أحد الأيام أن مرت دروبدي بكيتشاكا، شقيق الملكة وقائد جيش الملك، فأسرت لبه وملكت فؤاده بحسنها وجمالها. وسأل أخته يستطلع شأن هذه المليحة فعلم منها ما علم، ومضى ينسج لها عبارات الغرام والهيام فلا تقابله إلا بالصد، وتذكره بمقامه وانخفاض مرتبتها، وهي الماشطة في خدمة علية القوم. ويزيده هذا الصد توقاً إليها فلا ينفك يلح عليها ويزداد إلحاحاً لتجيبه إلى ما يروم، فلا ينفع ذلك الإلحاح ولا يجدي، وكيف يكون غير ذلك وهي زوج لخمسة من الغانديرفا من أهل البأس والعزم؟ وإنه ليحسن صنعاً إن جانب هذا الطريق، فلو علم أزواجها الأشداء بهذا الذي زينه له فجوره لقضوا عليه في تلك الليلة التي يحسب أنها ليلة السعد والمنى. ولا يفتأ أسير الهوى يطارد المرأة، وهي تزداد عليه امتناعاً وصداً فليجأ إلى أخته علها تجد له وسيلة يصل بها إلى هذه الحبيبة ويشق على الأخت الألم الذي يعانيه فتعده بأن تبعث بالمرأة إلى مخدعه ليلة احتفال قريب بحيلة من الحيل التي تبرع فيها نساء القصور، وله عندئذ أن يعمل على إغوائها فأن أفلح تحققت له أمنيته وأشبع حواسه من كنوز جسدها ومحاسنه.

وكان اليوم الموعود، واستدعت الملكة سوديشانا دروبدي وأمرتها بأن تحمل إلى كيتشاكا بعض أطباق الطعام ودناً من النبيذ. فتجيبها بأنها تأبى أن تفعل هذا، وتذكرها بشرطها القديم. ولكن سوديشانا تهون عليها الأمر، ثم أفلا تستحق منها خدمة ضئيلة لا غبار عليها بعدما كانت تكرمها طوال الوقت، فإن كانت تخشى زلة من كيتشاكا، فإن لها أن تطمئن إلى أن الرجل لن يتورط في أمر تأباه، طالما كانت في خدمة الملكة. وتغلبت عليها سوديشانا فلا تملك أن تعارضها، وإن كانت تتوجس من هذا الذي تحملها عليه كل الشر. وتمضي المرأة تحمل صينية الطعام ودن النبيذ، وهي تضرع إلى الإله سوريا:

«ألا فاشهد، يا إله الشمس، يا كاشف الأسرار ومظهر الحق، على عفتي، ونجني من زلة الخاطئين، فبيدك أمري وإياك ألتمس في محنتي!».

دخلت دروبدي على كيتشاكا في جناحه، وتوجهت بخاطرها إلى الإله سوريا. فلبى لها رجاءها وأرسل أحد الراكشا ليحميها لحظة الشدة.

نهض كيتشاكا ليستقبل ضحيته الموعودة، وطرح عن عقله صورة الظبية المذعورة حين دخلت عليه، وغلبت عليه صورة المرأة الشهية التي أمضى تلك الأيام يحلم بامتلاكها. وما كادت تقطع بضع خطوات إلى الداخل فإذا به يتحرش بها ويمطرها بأحلى عبارات الغرام، ثم يعدها بكنوز الأرض يضعها عند قدميها، بل إنه ليهجر زوجاته إن هي استجابت ومكنته من نفسها. وتذكره بأنها إنما جاءته بأمر من الملكة، وهي في عهدتها، فلا يصغي الرجل إلى ما تقول، ثم تذكره بأنها زوج لخمسة، فلا يزيده ذلك إلا إصراراً، ويمد يده ويلتقط إزارها ويشده فتفلت منه، ويهم بها فتدفعه عنها، وتفر منه مذعورة فيلحق بها، وتزداد جرياً تبغي اللجوء إلى يوديشترا فيندفع نحوها، ثم يكاد يمسك بها، لولا أن ذلك الراكشا الذي كلفه سوريا إله الشمس بحمايتها اعترض طريقه ودفع به عنها فتعثرت قدمه ووقع على الأرض مذهولاً من شدة المفاجأة، وهو يحسب أن قوة سحرية أوقعته.

كان يوديشترا جالساً يلاعب الملك فيراتا وبهيما واقفاً بجانبه حين دخلت دروبدي وهي على أسوأ ما يكون عليه حال المرأة، وفي أعقابها كيتشاكا يحاول الإمساك بها.

جرى ذلك كله والرجال شهود على هذا الحدث العظيم. ومع ذلك فقد ظل يوديشترا على ما عهد به من الهدوء ورباطة الجأش، ولولا اختلاجه بسيطة في عينيه لحسب المرء أنه لم يلحظ أمراً يستحق الاهتمام. أما بهيما فقد بدا كالمرجل يغلي، وشع الغضب من عينيه،

وكاد يثب من جلسته، ويهمّ بالمعتدي، ولكنه أمسك عن الحركة حين سمع يوديشترا يطلب منه أن يمضي إلى المطبخ ليطهو بعض الأطباق، ويشير إليه بعينيه أن يتمالك نفسه، خشية افتضاح أمر الإخوة قبل انقضاء السنة الأخيرة من سنوات النفي والتشرد.

التفتت دروبدي إلى الملك فيراتا تسأله أن يجيرها، وتروي له سوءة كيتشاكا معها. وتطلق صرخة من أعماق قلبها: «هل عدمت الدارما من يناصرها؟ هل يهون اعتداء رجل على زوج، فلا يقدّر وفاءها، وتبقى بلا من يصون لها حرمتها؟» فلا تسمع من الملك فيراتا إلا أنه لا يملك حكماً في قضية لا يعرف فيها إلا المدعي ويجهل أصلها!

تلمس يوديشترا جبينه فوجده يتصبب عرقاً، ثم التفت إلى المرأة البائسة قائلاً: «اغربي عن هذا المكان، فلا يبدو أن أزواجك الغانديرفا الأشداء يرون فيما نالك شيئاً يستحق منهم الانتصار لك.

هيا، يا امرأة، اعرضي سفاهتك وفجورك في غير هذا المكان. أفلا ترين أننا في شاغل عنك؟ حسبك أن تعودي إلى جناح الملكة الآن!».

وتغضب المرأة وتتذكر أن أكبر أزواجها أغرم أيضاً بلعب النرد وما كان ليشغله عنه شاغل، ثم تدور على عقبيها وتهرع إلى جناح الملكة، فتراها على ذلك الحال من البؤس، وتسألها عما ألمَّ بها، فتخبرها بما كان من شأن كيتشاكا معها. فتضيق بما سمعت وتحاول أن تطيب خاطرها، وتسألها إن كانت تشاء له عقوبة ولو بالموت؟

- «لا، أيتها الملكة الكريمة، لا تتكلفي ما لا تطيقين. فإن كان الموت جزاءه فلسوف يناله، بل وقبل أن ينصرم اليوم!».

التمست دروبدي من الملكة الإذن بالانسحاب إلى حجرتها لتغتسل وترتدي لباساً جديداً. فإذا خلت إلى نفسها شرعت تقدح زناد فكرها وتبحث عن وسيلة تنتقم بها من ذلك الوغد الذي حاول

أن يثلم شرفها. ولم تكن قد انتهت من الاستحمام بعد حين تفتق ذهنها عن تلك الوسيلة.

مضت إلى حجرة بهيما فوجدته قد هجع إلى فراشه، فدخلت فراشه وعانقته أحر العناق وألصقت جسدها بجسده بقوة، وهي تهمس في أذنه بأرق صوت وأحلى عبارة، كالحورية حين تعبث بأوتار القيثارة فتخرج أعذب الألحان:

- «ما لي أراك يا بهيما، نائماً كالجثة حين تفارقها الحياة؟ هيا انظر إليّ، يا بهيما! انظر زوجك المهانة الذليلة!».

قام بهيما من مرقده واستوى جالساً: «إذن فحدثيني بما كان لك مع كيتشاكا!».

- «أي زوجي الحبيب، هل هناك ما يُروى؟ وماذا تجهل لأزيدك علماً. فمن تكون زوجاً ليوديشترا عليها أن تحتمل الكثير. أما أنا فحسبي أن أسمع كيتشاكا يردد على مسامعي عبارات الغزل ويبثني وجده ويعرض عليّ الزواج. فماذا يفعل يوديشترا؟ إنه يمضي الوقت في اللعب وهزِّ النرد!

وأنت يا بهيما! انظر إلى حالك وما صرت إليه! لقد غدوت طاهياً. نعم، طاه يدعى بالابا في قصر فيراتا - ذلك هو حالك عند الناس. وإذا وجدت الملكة ونساء القصر يحملنك على مصارعة النمور والثيران ليتسلين بالمشهد أجدني أكاد أجن خوفاً عليك، وإذا أصابتني الغاشية أحاطت بي النسوة ليسعفني فأسمعهن يتندرن بي مشفقات عليّ من ولهي بك، يظنن بنا الظنون، وتذهب بهن الأقاويل كل مذهب حين يروننا قادمين أو ذاهبين معاً!

ثم انظر إلى أرجونا! إنه يزين شعره شأن النساء ويدرس حريم القصر الرقص. إيه، إن البطل يتحلى اليوم بالأقراط! لكم أنا خجلة من حالنا، يا بهيما، بل إني لأوثر الموت في هذه اللحظة على عيش الهوان».

أخذت المرأة تجهش بالبكاء، ثم لاتني تختلس النظر إليه بين

الحين والحين لتتبين وقع كلماتها عنده: «إيه، ثم إيه، يا بهيما، أية جناية جنيت حتى ألقى مثل هذا العقاب!».

أمسك بهيما بكفيّ المرأة بين قبضتيه، وأطلق تنهيدة من أعماقه كشفت عن الغضب الذي يعتمل في قلبه: «أي دروبدي، كنت قد هممت بكيتشاكا، وكدت أذيقه شيئاً من العذاب والعقاب الذي يستحق بعدما أنزل بك الإهانة. إني أدرك مبلغ الأسى الذي تعانين. ولكن قرِّي عيناً، فلسوف تستعيدين سعادتك، كما تحققت لسيتا مع راما وسافيتري وساتيفان من قبلك، حينما تنتهي فترة الاختفاء».

وتضيق دروبدي ويشتد بها الضيق، إذ تشعب الحديث ومضى بعيداً عن مرماه: «يا بهيما لاتخطئ فهم مقصدي، فما أنا بالتي تحمل ضغينة ليوديشترا. وإنما قلت ما قلت بدافع من حزن تملكني. فما حيلتي وأنا أجد الحسد والغدر يحيطان بي من كل جانب. فهذه الملكة سوديشانا تغار مني لجمالي وتظن أن زوجها مغرم بي. وإذا قلت لكيتشاكا أن أزواجي الغانديرفا سينتقمون وسينزلون به أشد العقاب لوقاحته وجرأته علي، سخر مني وقال إنه لا يخشى مئة ألف من الغانديرفا. إن كيتشاكا ينطوي على شر عظيم. إن به من العجرفة والتهتك والقسوة ما يفوق كل إنسان. لقد أنقذتني من جيادراتا يوم حاول اغتصابي، كما خلصتني من براثن جانا سورا من قبل. فهيا، عليك بكيتشاكا الآن سحقاً له!

إنه جدير بأن تدوسه بقدميك وتحطمه كما تحطم قطعة من الصلصال على حجر! لا تدعه يرى الشمس صباحاً. والحق أقول لك إن السيل قد بلغ الزبى. ولو عاش بعد اليوم فإني لن أتردد في شرب السم، لأموت بين ذراعيك».

أحنت رأسها وانهمكت في النحيب لا تقوى على مقاومة دموعها. مد يده يكفكف لها عبراتها قائلاً: «قرّي عيناً، فلسوف ينال كيتشاكا حتفه الليلة. والآن أريد عونك في هذا. فتدبري الإلتقاء به واستدراجه إلى قاعة الرقص، ولكن احرصي على أن يكون ذلك سراً وخفية عن الآخرين».

مرت الليلة بطيئة بين الترقب والألم. كان الصباح قد أطل ودروبدي تجري بين قاعات القصر، فلا يمضي إلا بعض الوقت حتى تصادف كيتشاكا بين الردهات، فيستوقفها. ويخاطبها ويذكرها: «ها قد عرفت قدرك بالأمس! فهل وجدت من يحرك إصبعاً حين صفعتك؟ بل هل وجدت الملك يبدي لك أي قدر من العطف؟ فهيا، استسلمي، ولسوف تنعمين بعيش رغيد، ولن تجدي لعطائي حدوداً».

وتجيب هي بمكر المرأة:

«ولكن شرط ألا يعلم أحد بما بيننا. فإني أخشى أن يبلغ أمرنا أزواجي، فينتقمون مني أبشع انتقام. عدني بهذا ولك مني ما تبغي!».

- «الليلة، إذن. ولن يعلم أحد بلقائنا».

- «لقاؤنا في قاعة الرقص، بعد المغيب!».

مضى الوقت بطيئاً، وكيتشاكا يعد الدقائق حتى ساعة اللقاء، متشاغلاً بالاستحمام والتطيب وانتقاء أجمل الثياب، وبدا عندئذ كالبدر يشع جماله في عتمة الليل.

أما دروبدي فقد هرعت إلى المطبخ لتقابل بهيما وتخبره باللقاء الموعود: «الليلة في قاعة الرقص. اقتله ولك مني أعمق الامتنان!».

نعم لسوف يلقى حتفه الليلة، ومعه من يشاء الانتصار له، ولسوف يسحقه البطل وينزل به تهشيماً، كما يسحق بقبضته ثمرة يانعة.

في تلك الليلة تزيا بهيما بزي النساء، وجلس في قاعة الرقص ينتظر كيتشاكا ليدخل في الوقت الموعود.

لاح لكيتشاكا حين دخل القاعة شبح امرأة، مضطجعة على الوسائد المفروشة. ولكنه لم يتبين في عتمة الليل أن مازين له النظر أنه امرأة لم يكن في الحقيقة إلا بهيما نفسه الذي جلس ينتظر

قدومه. كان الشوق إلى اللقاء غلب عليه فما تمالك نفسه عن مقاربة من كان قد عزم على أن يذيقه الموت: «أي سيدتي الجميلة قد جئتك باذلاً قلبي ومجدي وثروات لا عدَّ لها ولا حصر هي ملكك إن قبلتِ هذا القلب!».

سمع الرجل صوتاً غريباً لم يألفه وزاد من عجبه ذلك الجسم العملاق الذي انتصب أمامه: «حقاً إنك لرجل يستهوي النساء. ولكن هذه المرأة، من نوع لم تعرفه بعد».

استولت المفاجأة على كيتشاكا فلم يدر إلا وبهيما يهجم عليه، ومازال ينزل به ضرباً بقبضته الفولاذية ورفساً بقدميه، إلى أن تهاوى على الأرض فاقد الحراك. ولم يدعه بهيما، بل زاد في ضربه بقدميه وسحق رأسه سحقاً وسوّاه فما عاد يمكن لأحد أن يتبين معالم صاحبه، ثم انثنى فجثم على صدره بركبتيه حتى خمدت أنفاسه وتأكد له موته. عندئذ نهض عن تلك الكتلة من اللحم والدم، أشعل مشعلاً ونادى دروبدي، لترى الخنزير الفاسق، ورفس الجثة رفسة أخيرة تحقيراً لصاحبها، ثم قفل عائداً إلى المطبخ.

أما دروبدي فإنها، حين اطمأنت إلى مصير كيتشاكا، نادت بأعلى صوتها أن أزواجها الغانديرفا قد قضوا على كيتشاكا، فهرع إليها حراس القصر من كل ناحية وصوب ورأوا في ضوء المصابيح والمشاعل جثة مقطعة الأوصال لا حراك فيها، كالسلحفاة المنتشلة من البحر.

وما كان لتلك الواقعة أن تمضي في تلك الليلة الرهيبة بلا أثر. فثار أهل كيتشاكا واختلط عندهم الحزن والأسى وجاشت عواطفهم وتنادوا للإنتقام من دروبدي مؤيدين من الملك فيراتا، ثم حملوا المرأة المسكينة إلى المحرقة لتموت مع كيتشاكا طالما كانت السبب في مصيبته وتصيح المرأة فلا يبالي القوم بصياحها، وتشتد في الصياح فيبلغ بهيما فيهرع متنكراً في غير زيِّه المألوف، ويقتلع من الأرض شجرة عملاقة والقوم أمامه في ذهول مما يرون، ويقبل

عليهم مزمجراً مهدداً، فيطلقون أرجلهم جزعين هاربين من هذا الشر الجديد. ولكن عبثاً! فما كان الرجل ليتوقف عن المطاردة، بل استمر مندفعاً وراءهم فقضى على يديه من قضى، ولم ينج منه إلا من أسرع بالهرب والاختفاء.

كانت تلك مقتلة عظيمة لا عهد لأهل ماتسيا بها من قبل، وخشي القوم أن يتفاقم الخطب ويستفحل الشر مما حملهم أن يطلبوا من ملكهم فيراتا أن يتدبر الأمر بحكمته. وما كان الملك أقل خشية من رعاياه، وقد أدرك عندئذ أن لا قبل له وجنده بهؤلاء المردة الذين حطوا عنده، فلم يجد إلا أن يعهد لزوجه بأن تطلب من رفيقة الغانديرفا الرحيل عن أرض المملكة. ولكن دروبدي رجت الملكة بأن تمهلها بضعة أيام ريثما يأتي أزواجها ويحملوها معهم.

ما كان ليهدأ لدريودانا خاطر وقد انقطعت أخبار الإخوة الخمسة، فما انقطع يبث العيون والأرصاد لتستطلع له الأحوال وتأتيه بالنبأ اليقين عنهم، فلا يبلغه من ذلك ما يقطع له بشيء من أمرهم، فيزداد قلقاً واضطراباً فكأنما القوم قد تلاشوا من هذه الدنيا بلا أثر. ولكن ذلك لم يكن إلا ليزيد من التباس الأحوال في فكره، فكيف له أن يرسم ويخطط وليس عنده ما يطمئن إليه من المعلومات، وكان يزداد حيرة كلما أتاه نبأ عن جماعة غريبة، ولا يستريح إذا غاب أثرهم. ولا ينقطع عن التساؤل عما سيكون شأنه حين تنقضي تلك السنة الأخيرة، فيخرج إليه يوديشترا مطالباً باستعادة ملكه، فكيف يتصرف عندئذ؟ أيمتنع عن إعادة الملك؟ أم يسلمه إلى صاحبه على ما يكره، وتعود السيرة الأولى من جديد؟

ذلك ما كان من أحوال دريودانا وقلقه وحيرته. وكان ذلك حاله أيضاً حين وردت إليه رواية غريبة عن مصرع كيتشاكا وبعض أهله على يد بعض الغانديرفا. فكر دريودانا في الأمر قليلاً، ثم عاد إلى ذلك القلق الذي ما انفك يشغله، فيكاشف أصحابه بقلقه، ويسألهم النصح في ما ينبغي عمله. ويحاول كارنا أن يخفف من قلقه: أما

غاب الإخوة وضاع أثرهم، وإذن فعلام القلق؟ ومن ذا الذي يملك أن يجزم بحالهم؟ فلعل وحوش الغابة قد افترستهم؟ ومن يدري فربما وقع لهم حادث أودى بهم وقطع دابرهم؟ وبعد، فلربما حملهم اليأس على ركوب المحيط وهجر البلاد! فليدع القلق إذن، وليلتفت إلى ما فيه النفع!

ولقد كان بين حضور ذلك المجلس شوشرمان ملك تيغراتا، وكانت له مع كيتشاكا وقائع وأحداث، فوجد في هذا الخبر عن مصرع غريمه ما يشغل فكره، ورأى أن الفرصة قد حانت لينفر معهم بالجيوش للإستيلاء على مملكة فيراتا الغنية بحقول الذرة وقطعان الماشية.

ولقد كان لهذا الرأي وقع حسن عند هؤلاء، وسرعان ما وضعوا الخطة وأعدوا القوات وساروا في حملة على مملكة فيراتا، ولم تجد ما يواجهها في تقدمها. ومازالت جحافل هذا المعسكر تتقدم وتستولي على الأرض والماشية وقوات فيراتا تتهاوى أو تفر من وجه القوات الغازية، في وقت انتهى عنده عهد المنفى الذي عاشه آل باندو، ونسيه الجميع في غمرة تلك الحملة.

ولما وجد جيش شوشرمان الطريق تخلو أمامهم اندفعوا في هجومهم حتى قضوا على قوات فيراتا وأنزلوا بهم هزيمة نكراء واستسلم الملك لشوشرمان وأخيه. وسرعان ما سرى النبأ في البلاد وبلغ يوديشترا وإخوته فهرعوا لنجدة الملك ومحاولة رد الهجوم. وحانت لحظة في هذه المعركة الضارية همَّ فيها بهيما بانتزاع شجرة ضخمة ليستعملها رمحاً يهاجم بها الأعداء، ثم رجع عن ذلك بأمر من يوديشترا خشية أن يفتضح أمرهم فتتطور المعركة إلى غير ما رسم لها، فعاد يقاتل بالأسلحة المألوفة، فكان ينتضي السيف حيناً أو يلجأ إلى الرمي بالقوس حيناً، أو لربما استعمل الفأس أحياناً أخرى.

وقد كان لهذا الاندفاع من آل باندو فعل السحر في استنهاض

همم جنود فيراتا بعد أن كادت عزائمهم تخور. فسرعان ما استجمع ابن فيراتا الأمير أوطارا همته فاندفع إلى قلب المعركة يقاتل بما ملكت يده، وانقلب حينذاك سير المعركة، وتساقطت الجنود قتلى على الساحة، ولم يقو شوشرمان، حين رأى هجومه ينكسر، على متابعة القتال، فآثر الهرب. ولكن بهيما لحق به حتى أوقعه، وما انقطع ينزل به ضرباً وتنكيلاً حتى تدخل يوديشترا ليشفع له فأخلى سبيله.

ومضى شوشرمان مطأطئ الرأس ذليلاً يرتدي عار هزيمة لا يعادله إلا الفخار الذي جلل هامة الملك فيراتا فأشاع في نفسه الزهو. ومضى يبذل للإخوة الخمسة ويزيد في تكريمهم أن يتخذوا من مملكته أرضاً يسكنونها، ومن ثروات البلاد ما ينتفعون به، ومن الأمجاد والألقاب ما يرفع من مقامهم بين الناس.

ولكن ذلك إنما كان جانباً من المعركة التي لم يخب إوارها بهزيمة شوشرمان. فقد ظل دريودانا يتابع الهجوم بقواته ويستولي على المزيد من قطعان الماشية مما أثار الفزع بين الأهلين وحملهم على الاستنجاد بالملك.

ورأى أوطارا، ابن ملك فيراتا، أن يتصدى لدريودانا ويكفي الناس غائلته، إن وجد سائساً لعربته يستطيع الثبات في المعركة وإذن فهذه فرصة أمام أرجونا تسنح له ليكسر دريودانا، وليس له إلا أن تسعى دروبدي في هذا عند أوطارا. ولقد قبل أوطارا هذا المسعى، ولو على مضض، ولكنه ما كان ليرضى أن يسأل خصياً أن يقود له عربته في ساحة الوغى. فلتسأله أخته، إذن، طالما شق عليه السؤال.

ومضت الأخت إلى أرجونا، بكل جمالها وبهائها المشهودين، فتسأله أن يقود عربة أوطارا، بعدما شهدت له سريندري بالبسالة إلى جانب أرجونا.

ولكم سخرت نساء القصر من هذا الخيار، وأصبح أرجونا عندئذ مثار السخرية والتهكم بينهن: أخصي في المعركة؟ إذن، فلن

يجلب إلا الدمى والألعاب حين يؤوب من الحرب، مما هو أهل له، ولم يكن الرجل ليرد على هذا التعريض إلا بالقول إنه سيكون أهلاً للثقة، وحسبهن منه ذلك وعداً فليس الغد ببعيد.

سار أوطارا على رأس جيشه ومضى إلى الميدان لمقابلة قوات الخصم. ولكن ما إن بلغ الموقع ورأى قوات دريودانا ودرونا واشفاتمن منتشرة في مقابل قواته حتى وجف قلبه وارتعدت فرائصه وانتابته قشعريرة سرت في كل قطعة من جسمه، وأراد عندئذ الانسحاب والعودة إلى العاصمة لإتخاذ مواقع جديدة وتدعيم الدفاع توقعاً لهجوم منتظر من قوات دريودانا وحلفه.

ولكن أرجونا عنَّفه وقال له بلهجة حازمة أن أثبت وقاتل كما ينبغي للشتريا أن يقاتل، حين ينادي الواجب. فالموت أولى من العار. إلا أن أوطارا لم يصغ إلى كلماته، بل لوى العنان وأقلع مدبراً، فلحق به أرجونا وشعره يتناثر وتلعب به الريح، بين ضحك الجنود وسخريتهم لمنظر الخصي، وهم لا يدرون حقيقته، وشده من كتفه، وساقه إلى أن بلغ الشجرة حيث أخفى الإخوة أسلحتهم.

قال له أرجونا: «اصعد إلى أعلى الشجرة واحمل الأسلحة». فتردد أوطارا حين رأى الجثة معلقة بين غصونها، خشية أن يتدنس بلمسها. ولكن أرجونا سخر منه، وكرر عليه الأمر. ولم يجد أوطارا عندئذ بداً من الانصياع له، فارتقى الشجرة بخفة ليعود بعد قليل محملاً بالأسلحة، وبيده القوس الرهيب ينظر إليه متعجباً:

«قوس من هذا المطعم بست عشرة قطعة من الذهب، وهذه السهام ذات الرؤوس الذهبية؟ وانظر هذا السيف الذي يحمل شعار العلجوم، ضفدع الطين».

ـ «إذن، فاعلم يا أوطارا أن القوس هو الغانديفا والسهام لأرجونا، والسيف لبهيما، وأما الأسلحة الأخرى فهي أسلحة يوديشترا وناكولا وسهديفا!».

ـ «وأين هؤلاء؟».

- «اعلم أني أرجونا وقد تنكرت في شكل الخصي بريهانالا، ويوديشترا هو رفيق أبيك في لعب النرد، وبهيما الطباخ، وناكولا هو السائس في الاصطبلات الملكية، وسهديفا هو راعي قطعان الماشية. ولعلك رأيت زوجنا دروبدي في زيِّ الماشطة».

كانت تلك مفاجأة لم يكن الرجل ليتوقعها، وانتابه إحساس بالصغار حمله على أن يسلم القيادة لأرجونا، واثقاً من أنه سيأتي بالنصر الأكيد.

وزع دريودانا قواته في تشكيلات قتالية، وأفرز بعضها لحراسة قطعان الماشية، وكاد يكون مطمئناً إلى أن الفوز سيكون من نصيبه، ووضع لذلك الخطط في الدفاع والهجوم، ومع ذلك فلم يكن القلق ليغادر قلبه، وحدث بهيشما في شأنه:

- «أي عم، يخالجني إحساس بأن السنة الثالثة عشرة لمَّا تنقضي بعد. ولعلنا نوفق في استدراج أرجونا فنكشف أمر أبناء باندو!».

- «اعلم يا بني أن الزمن يدور في عصور وقرون وسنين وشهور وأسابيع وأيام، وهي في مواسم وفصول. وقد جرى حساب الزمن على إضافة شهرين كلما مرت خمس سنين. وإذن فقد انقضت مدة النفي، وتذكر أن يوديشترا ليس بالمغفل أو الأحمق، فلن تجده يسمح لأي من آل باندو في الظهور طالما كان النفي سارياً».

وما هو إلا وقت قصير حتى رأى درونا أرجونا يقترب من صفوفهم بعربته ورايته تخفق على مرأى من الجميع ويرسل رشقة من سهام قوسه. وسرعان ما تأكد لدرونا أن مهاجمه هو أرجونا، حين تبين رايته التي تحمل صورة القرد، وصاح مهيباً بالجمع أن يحذروا الهجوم: «انظروا دقة التصويب! أما رأيتم هذين السهمين ينغرسان عند أطراف أصابع قدمي، ثم هذين السهمين اللذين شقا الهواء على طرفي أذنيَّ؟ إن تلك إشارته في التحية».

صاح أرجونا بأوطارا أن توقف ودر بالعربة، فلقد تبين كل

فرد من الجمع وغاب عنه دريودانا، وهو هدفه في هذه المعركة.

وللتو وجد كارنا يندفع نحوه مهاجماً مرسلاً وابلاً من السهام. ورد عليه أرجونا بموجة من السهام التي تحمل شكل الهلال وكادت أن تصيب من خصمه مقتلاً فخاتله وفر من أمامه. ولكن سرعان ما رأى دريودانا يطبق عليه في موقعه، كالسهم ومن ورائه عصبته، إلا أنه لم يتزحزح عن مكانه قيد أنملة، وثبت أمام الشلالات من السهام التي كانت تتساقط عليه كالطيور الكاسرة. ومع شدة الهجوم تساقطت جثث الجنود القتلى واختلط الدم بغبار الأرض المتصاعد وبدت الشمس حمراء من هول المعركة. ورد أرجونا برشقات من سهام قوسه: ثلاثة وسبعون سهماً باتجاه درونا، ومثلها وإثني عشر سهماً نحو دروشاسنا، وثلاثة أخرى على كريبا، ولا هو بخل على دريودانا فأرسل إليه مائة من السهام.

وسرعان ما أجابه دريودانا وأصابه بموجات إثر موجات من السهام النافذة شقت عنان السماء كالجراد ونزلت من حوله، وأمكن أن يتفاداها بالمناورة، ودرونا يزداد عجباً لمهارته. وعندئذ تراجع بهيشما من الساحة حين أصابته عشرة سهام في عشرة مواضع من جسمه، فثارت ثائرة دريودانا واندفع كالشهاب نحو أرجونا، يمطره بسهام قاتلة كالأفاعي، فلا يراه إلا ثابتاً كالطود لايتراجع عن موقعه، وإن كانت سهامه قد نالت منه، وسالت الدماء وغمرت جسمه كعقود الزهور. وقابله أرجونا بسيل من السهام الطائرة.

دارت المعركة واشتدت على القوم، وفي غمرتها حانت من أرجونا نظرة فرأى فيكارنا يندفع نحوه على ظهر فيل ضخم، فأسرع يوجه إليه سهماً أصابه في جبينه ليتهاوى كتلة واحدة في لحظة خاطفة ويثير دوياً هائلاً، فقفز عنه فيكارنا مذعوراً وتراجع إلى حيث وجد عربة امتطاها هارباً من الجحيم. وكذلك كان شأن دريودانا الذي هلع لمنظر الفيل حين سقط وأراد عندئذ الفرار، بينما كان صوت أرجونا يلاحقه متحدياً ساخراً.

دار دريودانا على عقبيه والتف عائداً كما تلتف الأفعى حين تدوسها القدم. وأسرع ومعه بهيشما ودرونا ودوشاسنا نحو أرجونا. ولكن أرجونا أفلت منهم وهو يلتف ويدور مناوراً مقبلاً مدبراً يجول بينهم بمختلف أسلحته وينفخ في البوق الذي أهداه له إندرا فيطلق أصواتاً تصم الآذان وتشل القوم عن الحركة.

وإذ رأى أرجونا الصدمة قد استولت على القوم قال لأوطارا أن أسرع وجرِّد درونا وكريبا من إزارهما الأبيض وانزع عن دريودانا واشفاتمن ردائيهما الأزرقين وخذ عن كارنا ستاره الأصفر. أما بهيشما فبدا ثابتاً لم تنل منه الصدمة وكان أن التف أوطارا عن جنبه الأيسر ليتفادى الصدام معه.

حنق دريودانا أشد الحنق حين رأى نفسه ورفاقه عراة بلا ستار، وأحنقه أن يرى بهيشما في مكانه على سابق حاله واشتد في لوم العم لتقاعسه عن قتل أرجونا. فما كان من بهيشما إلا أن رد عليه في لين ملمحاً إلى أنه شل بالصوت وحده!

وهكذا انتهت المعركة، واستعاد أوطارا قطعان الماشية التي نهبها دريودانا ورفاقه في بداية الحملة، وحمل معه ثياب القادة دليلاً على الفوز المؤزر الذي أصابه وصاحبه أرجونا، وقفل الإثنان عائدين إلى العاصمة ليزفا النبأ إلى الملك. وفيما هما في طريق العودة سأل أرجونا صاحبه أن يكتم حقيقته وإخوته فلا يزعج والده بمفاجأة قد لايكون مهيئاً لها. وله أن يزعم أنه قضى على خصومه واستعاد الماشية وحده.

وهكذا أرسل أوطارا جماعة في المقدمة ليزف إلى الملك نبأ النصر وعودة ابنه المظفر من المعركة. ودخل كبيرهم والملك جالس يلاعب يوديشترا وأخبره بالنبأ العظيم. ففرح الملك أشد الفرح للنصر الذي أحرزه ابنه.

وللتو أمر الملك بأن تقام الزينة في العاصمة كلها، ويخرج الأمراء ورجال البلاط لاستقبال القائد المظفر بالموسيقى والرقص،

ثم أرسل ابنته تحيط بها الوصيفات والشعراء ليكونوا في مقدمة المستقبلين المهنئين.

وإذا انتهى الملك من إصدار أوامره وتوجيهاته التفت إلى دروبدي وأمرها بأن تحضر النرد، وقال ليوديشترا: «والآن يا كانكا لنرَ مهارتك فافتتح الجولة والنرد بيديك!».

قال يوديشترا معلقاً: «إن من الخطر المقامرة، يا مولاي، خاصة حين يكون الجو متأزماً ومشحوناً بالعواطف. أفلم يبلغك نبأ يوديشترا الذي أضاع مملكته وإخوته؟ أما إذا شاء مولاي فإني مطيع أمره!».

دار النرد بين الملك فيراتا ويوديشترا، وبدأ الملك يتحدث معلقاً بين رمية وأخرى مطرياً ابنه لفوزه على القوروشيين، فيرد يوديشترا بأن ذلك من طبيعة الأمور، طالما كان بريهانالا إلى جانبه يقود له العربة.

وإذ قال هذا ثارت ثائرة الملك. وقذف يوديشترا بأسوأ العبارات واتهمه بالجرأة على الحق وأصحاب المقامات سواء بسواء. فكيف له أن يخفض من الأمير أوطارا ويعلي من خصي؟ ولئن كان الملك قد كرَّمه إلى اليوم فإن الرجل لم يقابل هذا الكرم إلا بالإساءة.

ولكن يوديشترا ما كان إلا ليزداد إصراراً على قوله، وإن أساء ذلك إلى الملك، ولا يملك الملك عندئذ إلا أن يرميه بالنرد فيدمي أنفه، فلا ينفعل يوديشترا وإنما يكتفي بمسح الدم عنه.

وفيما القوم في حالهم هذه ورد عليهم من يعلن قدوم الأمير أوطارا على رأس جيشه المظفر وإلى جانبه بريهانالا. وتلوح من يوديشترا نظرة إلى دروبدي أن تؤخر أرجونا في الدخول لئلا يراه، وهو في حالته تلك، فلا يدري أي سلوك سيكون مسلكه.

هرع الملك فيراتا إلى باب القاعة مرحباً بابنه الحبيب وقائد جيشه الهمام، وشرع يحيطه بكل آيات الحب ويزيده تقديراً فوق

تقدير. ولكن ذلك الانشغال لم يحل دون أن يلحظ أنف يوديشترا الدامي، فيسأل أباه عن صاحب هذه الفعلة، ويجيب الملك أنه المسؤول عن ذلك، قائلاً إن هذا جزاءاً وفاقاً لتجاوزه حدود الأدب في صحبة الملوك، حين أعلى من قيمة خصي وخفض من مكانة الأمير. ويأخذ الابن على أبيه تسرعه، ويلح عليه أن يسأل البراهمي المغفرة لئلا ينزل به لعنته.

وينزل الملك فيراتا عند إشارة ابنه، ويهم بالإعتذار، فيشير إليه يوديشترا بأن يستمر بالجلوس، فقد غفر له منذ عهد بعيد.

كان النزف قد توقف من أنف يوديشترا حين دخل القاعة أرجونا وسمع الملك فيراتا يطري شجاعة ابنه أوطارا ومهارته في فنون القتال، فها هو ذا يعود ولواء النصر معقود له دون أن يصاب بجرح واحد: فيالحزن الأعداء، ويا لحسن طالعي.

- «ولكني يا أبت لست الرجل الذي استعاد الماشية، ولا كنت أملك أن أدحر القورشيين، إلا أن قيض لي أن هرع أحد أبناء الآلهة لنجدتي وأنا أحاول الانسحاب من ساحة المعركة، فيركب إلى جانبي ثم يكرُّ على الأعداء فيشتت جموعهم ويقضي على كل من اعترض طريقنا، فهو المنتصر حقاً، وهو الجدير بالتقدير والتكريم. ولكنه لسوء الحظ اختفى لحظة أن توقف القتال وتحقق لنا النصر. ولعلي أرجح أن يعود ويظهر بيننا، غداً أو بعد غد - من يدري؟».

ظهر أبناء باندو في اليوم الثالث وهم في أحسن قيافة وأحلى زينة، ودخلوا إلى القصر، وفي مقدمتهم يوديشترا، ثم مضوا إلى قاعة الاستقبال، واتخذ كل مكانه على الكراسي ذات التيجان المخصصة للضيوف من الملوك والأمراء. وكان كل واحد منهم متألقاً كالشمس، مما أثار حنق الملك فيراتا حين دخل وشاهدهم على هذه الحال فلم يتمالك نفسه. وصاح: «ما الذي أتى بك يا كانكا، وكيف تجرؤ أنت يا لاعب النرد على الجلوس على عرش؟».

وسمع من أرجونا عجباً: «ليس هذا، يا مولاي، بالعرش الذي

يليق به، بل إنه جدير بعرش إندرا ذاته. ذلك أن من تراه أمامك أنما هو يوديشترا بن باندو!» ومضى بعدئذ يعرفه إلى كل من الإخوة، وأوطارا يهز رأسه مؤكداً. ولكم كان إحساس فيراتا بالحرج شديداً حين تبين له حقيقة هؤلاء الخمسة. فالتفت إلى ابنه أوطارا يعتذر إذ كان يجهل حقيقة هذه العصبة، ويعرض أن يعقد لأرجونا على ابنته، إن شاء ذلك.

ثم كان أن عقد الملك فيراتا ويوديشترا معاهدة مهراها بتوقيعهما، عبر الملك في نهاية الاحتفال بهذا الحلف عن غبطته بما صار بينه وأبناء باندو، وعرض أن يتخلى لهم عن مملكته، وكرر رغبته في أن تقوم بينه وأرجونا مصاهرة.

ولكن أرجونا عرض بعبارات رقيقة أن تكون المصاهرة بين ولده ابهيمانيو وابنة الملك. فهو قد عرفها وعرفته وقامت بينهما ألفة يوم كان يخدم خصياً في جناح الحريم. ولو فعل للغطت الألسن ونالت من شرفه. وبعد فابهيمانيو لا يقل شرفاً؛ وهو الأثير عند كريشنا.

وتوافدت جموع الملوك والأمراء لحضور حفل الزفاف، وجاء كريشنا في مقدمة الحاضرين ليقدم هداياه للعروسين، وبذل في ذلك الجواري الحسان والديباج الفاخر. وكان ذلك عرساً مشهوداً صدحت فيه الأبواق والطبول بين ضرب الصناجات وقصائد الشعر، وذبحت آلاف الغزلان والماشية، ودارت الخمور النادرة. وقدم الملك فيراتا إلى صهره ابهيمانيو هديته، فكانت تعد سبعة آلاف من الجياد الأصيلة المشهود لها بالسرعة كالريح الخاطفة، ومائتين من الفيلة الضخمة، وصناديق من القطع الذهبية وانتهى الاحتفال بالطقوس المألوفة من صب السمن على النار المقدسة، وتقديم واجب الإحترام للبراهمة المبجلين، مع إعلان الملك التخلي عن المملكة والجيش والخزانة لآل باندو.

السفر الخامس

الاستعداد للحرب

خلد أبناء باندو إلى النوم والراحة، بعد احتفالات الزواج في تلك الليلة، لينهضوا مبكرين في الفجر، للاجتماع بالملوك من ضيوف الملك فيراتا. كان المؤتمر حاشداً، ووقف كريشنا يخاطب ذلك الجمع العظيم:

- «أيها الملوك العظام، قد علمتم بالإتفاق الذي كان بين يوديشترا ودريودانا. ولقد وفى يوديشترا بالشرط، وقضى في المنفى المدة المعلومة، وإن كان له أن يستعيد ملكه بالقوة وقتما يشاء. فانظروا في هذا الأمر بحكمتكم، أيها العظام، لقد قطع أبناء باندو على أنفسهم عهداً، كانوا أمناء عليه والآن حان الوقت ليستعيدوا ملكهم. ولكني لست على بينة من أمر دريودانا، ولا أرى منه ما يمكن من استجلاء نواياه. ولذلك فإن الرأي عندي أن نوفد إلى بلاط ديتراشترا رجلاً مجرباً موثوقاً يطلب إعادة نصف المملكة ليوديشترا، كما نص الاتفاق».

وثنى عليه أخوه الأكبر بالاراما، قائلاً:

- «وإني لأعضد هذا الرأي، فليست الحرب قصدنا. بل إننا نؤثر السلم. ولعل الرقة تفلح فيما تعجز عنه القوة».

انبرى ساتياكي خطيباً:

ـ «ما جدوى الكلام وعبارات التهديد والوعيد؟ إنكم لترون في الشجرة غصنين أحدهما مثمر والثاني عقيم. كذلك ترون في الأسرة الواحدة فتى شجاعاً غير هياب وأخاً له متردداً وجلاً! فما الذي يحمل يوديشترا على اتباع طريق اللين؟ وما الذي يدعوه لاستجداء ما هو حق له؟ فإما يعيدون له مملكته، أو نجبرهم على ذلك قسراً. فليس ثمة ما يحملنا على الخوف منهم، طالما أن أرجونا في صفنا!».

قال كريشنا معلقاً:

ـ «قد سمعنا عبارات قوية تنم عن مشاعر سامية، لا ريب في أننا نقدر الإخلاص الذي حمل صاحبها على قولها. لكن هدفنا الأول يبقى المصالحة، وإنه لمن الحماقة انتهاج غير هذا السبيل. فلنبعث إليهم برسالتنا ونعرض عليهم قضيتنا، فإذا جنحوا إلى السلم كان ذلك توفيقاً ورضى، أما إذا جنحوا إلى الحرب فلسوف يكون لنا معهم شأن آخر».

كلف الجمع دروبدا أن يعهد بالمهمة إلى من يتوسم فيه كفاءة لها. فاختار كاهنه وترك له أن يفاوض عن حلفائه. وعاد كريشنا وبالارما إلى دفاركا ولحق بهم أرجونا.

نقلت العيون والأرصاد إلى دريودانا خبر المؤتمرين في قصر فيراتا. ففكر في الأمر وصور له دهاؤه أن يمضي إلى كريشنا فوراً، فاختار لذلك بعض الجنود وأسرع على رأسهم إلى دفاركا فبلغها وأرجونا في نفس اليوم.

دخل دريودانا مخدع كريشنا حيث كان نائماً، وجلس بالقرب من رأسه. بينما وقف أرجونا عند قدميه. فلما فتح كريشنا عينيه وقع نظره على أرجونا، وسمع دريودانا يخاطبه: «أي كريشنا، لقد كنت أول من دخل الغرفة، وقد جئتك ناشداً العون، فأجب رجائي!».

- «أعلم أنك كنت الأول في الدخول، ولكن عيني وقعتا أولاً على أرجونا. ولسوف يكون لكما العون معاً، ولأصغركما أن يسأل قبل الأكبر. ولك يا أرجونا أن تختار مئة ألف ألف من الجنود الأشداء يقاتلون تحت رايتك، أو تختارني في صفك مقيد اليدين في ساحة المعركة!».

فأجابه أرجونا بأنه يختاره دون تلك الجحافل الجرارة، وإن اختار كريشنا ألا يقاتل، أما دريودانا فقد فرح لأنه كسب مئة ألف ألف مقاتل في صفه.

ولما غادر دريودانا، سأل كريشنا صاحبه أرجونا عما حمله على اختياره، وهو يعلم أنه قد أقسم ألا يقاتل. فأجابه أرجونا بأنه إذا كسبه إلى صفه يستطيع أن يقاتل جميع الأعداء، فحسبه كريشنا نصيراً وقت الشدة. فقال كريشنا بلهجة حازمة: «إذاً فاعلم أني سأكون إلى جانبك قائداً لعربتك، حين تتشابك السيوف، وتختلط الأسلحة، وتتصادم الجياد والعربات. فثق بهذا!».

حين بلغ دريودانا أن الملك شاليا، شقيق مدري قد أقام معسكراً لجيش جرار، مضى إليه حاملاً أطيب اللحوم، وأفضل الخمور، مبدياً له كل تقدير واحترام. ولما استراح من عناء السفر قليلاً جلس الملك وضيفه يتجاذبان أطراف الحديث، عرض الملك شاليا أن يبذل شيئاً يرد به على كرم دريودانا، فطلب منه دريودانا أن يتولى قيادة جيوشه.

كان دروبدا قد أوفد كاهنه في سفارة إلى بلاط ديتراشترا ليعرض عليه قضية يوديشترا ومملكته ويستطلع رأيه. ولقد حظي الكاهن بكل الترحاب حين طرق باب القصر فاستقبله الملك وبهيشما وفيدورا وزادوا في تكريمه.

وبعد استراحة قصيرة بدأ البراهمي في عرض مهمته:

- «لست يا مولاي بالرجل الذي له أن يحدثكم في القرابة التي

تجمع بين القوروشيين والباندوفيين. لا ولست بالرجل الذي له أن يقول لكم أن الحق يفترض اقتسام المملكة مناصفة. ولكنني، أيها الملك، أملك أن أشير عليكم بأن الدارما تفرض إعطاء كل ذي حق حقه. والبر بالعهود والمواثيق».

وأجابه بهشيما معرباً عن اغتباط الأهل بالحال الطيب الذي يرتع فيه أبناء باندو، وأبدى الارتياح والسعادة لأنهم يسعون للصلح والسلام مع أبناء عمومتهم. وزاد بأن وافقه الرأي فيما عرض، وأطرى أسلوب عرضه وبلاغته.

عندئذ، انبرى كارنا محتجاً غاضباً:

- «ذلك أمر نعرفه جميعاً، أيها البراهمي. فأي جديد أتيت به؟ فلست أراك إلا تستعيد حديثاً سقيماً عف عليه الزمن. أما إذا كان أبناء باندو يظنون أنهم يحرجون دريودانا بهذه الأقوال، فإنهم واهمون. واعلم أن دريودانا ليتنازل عن العالم كله بطيب خاطر، إن قضت الدارما بذلك، لكنه يأنف أن يستصغر أحد شأنه».

لكن بهيشما اعترض كارنا ليضع حداً لحديث لم ير ثمة طائلاً منه:

- «تلك كلمات طنانة، لا تفيد شيئاً. فدريودانا غدا في موضع الضعيف يوم نازل أرجونا وحده ستة من مشاهير أبطال القوروشيين. فاصغ إذاً إلى ما يقول البراهمي!».

أطال ديتراشترا الإصغاء إلى ذلك الحديث الذي دار على مسامعه، ثم أنهى الجدل الدائر بقوله: «سأدرس هذا الأمر ملياً، ثم اتخذ قراراً يرضي جميع الأطراف».

وطلب من الكاهن أن يعود حاملاً تحياته إلى الملك فيراتا. فالقرار الذي سيتوصل إليه سيحمله صفيه سانجيا إلى يوديشترا.

التفت الملك ديتراشترا إلى سانجيا وقال له: «هيا يا سانجيا، اذهب إلى أبناء باندو، وطيب خاطرهم بالكلام. وسلهم عن أحوالهم

وما يطلبون. فلقد عرفناهم أخياراً طيبين ينصاعون لنا، فإن استرضيناهم رضوا. واحرص علي ألا تتفوه بعبارة استفزاز أو تهديد. وتدبر أمورك معهم وكن لبقاً خاصة مع كريشنا واعمل على اكتسابه، فلن يأتي هؤلاء بأمر إلا إذا شاءه».

وهكذا أسرع سانجيا إلى أوبيلافيا حيث كان آل باندو يقيمون. فاستقبله يوديشترا أحسن استقبال وسأله عن أحوال الأهل.

قال سانجيا:

- «قد جئت حاملاً إليك رسالة من الملك ديتراشترا، وإني لأشير عليك بأن تعي هذه الرسالة جيداً. فالملك يكن لك أعظم الحب والتقدير، ولطالما أطرى لك صدقك وتواضعك وحكمتك وسعة أفقك ورأى فيك الحصافة والترفع عن الصغائر والحرص على شرف العائلة. وها إني أضرع لكريشنا ودروبدي، نيابة عن الملك، أن يكون فعلك على النحو الذي يزيد من مجد العائلة».

قال يوديشترا مندهشاً:

- «إنني لأعجب أن أسمع هذا الذي تقول، يا سانجيا! فماذا أتيت أو قلت ليوحي بأني من أهل الشر؟ ومن ذا الذي يجهل شر افتعال الحروب؟ وأي ذي عقل يجنح إليها؟ إن من يسعى إلى الحرب ملعون من الآلهة. ولكن لا ريب أنك تعرف حكايتنا مع دريودانا. إذاً فاعلم أننا لم نتحول عن خلائقنا، ومازلنا نقيم الصداقة والود في أعلى مرتبة، بيد أنه لابد من أن تعاد إلينا إندرا براستا».

أصغى سانجيا إلى يوديشترا وأولى حديثه كل انتباه، ولم يجب بكلمة على ما سمع، وقفل عائداً إلى بلاط ديتراشترا ليبلغه الرد.

حينما غادر السفير، التفت يوديشترا إلى كريشنا قائلاً: «ها قد حل امتحان قوة الصداقة، فاعلم يا كريشنا أننا نعلق عليك آمالنا».

قال كريشنا:

- «قد سمعت ما دار بينك وبين سانجيا. إن الولاء للدارما قد ملأ قلبك، أما قلب دريودانا فملؤه الحقد والضغينة. فهيا استعد وجهز جيشاً كبيراً لملاقاته. فهذا الرجل لن يرضى بالتخلي عن مملكة فاز بها غشاً وخديعة».

عندئذ، تدخل بهيما ونصح باعتماد الرفق واللين في البداية قبل الاحتكام إلى السلاح.

استغرب كريشنا حديث بهيما، فهو لم يألف منه هذا النهج، لكنه قابله بابتسامة بددت التجهم الذي خيم على الجو بعد سماع تلك العبارات، وقال: «إن أمرك لعجيب، يا بهيما. أسمعك أحياناً فيلوح لي أن سحق أبناء ديتراشترا هو شاغلك المقيم. ثم أراك أحياناً منهمكاً في ضحك لا مبرر له، ثم أجدك تعتزل الناس أياماً طوالاً، أو مستغرقاً في التأمل ورأسك بين ركبتيك، أو منطوياً على نفسك لا تسمح لأحد بالاقتراب منك. وأذكر أنك التقطت رمحك أمام إخوتك ذات مرة وأقسمت أنك لن تستريح حتى تقتل دريودانا. وها أنا ذا أراك الآن مضطرباً واجف القلب، ركبتاك ترتعدان خوفاً، فاحسب أنك غدوت خصياً. إن إخوتك يغرقون وأنت تهرف كالبقر».

ويرد بهيما بأن كريشنا قد أخطأ فهم مقصده. فهو كما كان عهده به دائماً، محارب مقاتل، يعلم واجبه ولا يتهرب منه، وأنه لم يقل ذلك لخوف استبد به، وإنما لرغبته في أن يمنح أبناء العم فرصة للتعقل قبل أن يحل الغضب وتقع الطامة الكبرى.

فرد كريشنا:

- «وما كنت أنا لأعرض بك، وإنما أردت امتحانك فاحرص يا بهيما على ألا يفسد الغضب ملكة الحكم، أو المنطق عندك، وابتسم في وجه العاديات».

كانت دروبدي تصغي إلى ذلك الحديث وساءها أن ترى بهيما ينحو إلى المصالحة، فقالت مغرورقة العينين تخاطب كريشنا:

- «أي، كريشنا، إنك لتدرك مبلغ ما أنزله بي أولئك القوم من الإذلال والمهانة. فلا تأخذنك بهم رحمة، بل انزل بهم أشد العقاب! فهل هناك امرأة عرفت مثل ألمي، أنا ابنة الملك دروبدا التي ولدتها النار المقدسة، وأخت صاحبك درويشتد يومنا، وزوج أبناء باندو. لقد جُررت من شعري أمام جمع الملوك والأمراء! فاتجهت إليك لحظة المحنة. فسلط نار غضبك على أبناء ديتراشترا».

ثم أردفت وهي تعرض على كريشنا شعرها الفاحم الناعم المعطر: «انظر هذا الشعر، يا كريشنا، لقد أمسك به دوشاسنا الشرير وشدني منه! وإذا تقاعس أرجونا وبهيما عن الانتقام لي، فإن أبي الشيخ كفيل بالانتقام لي، فإن قصر انتقم لي أبنائي. فلن أعرف الراحة إلا إذا بترت ذراع دوشاسنا من إبطه وسحقت عظامه سحقاً. لقد قضيت ثلاث عشرة سنة في انتظار هذا اليوم، ثلاث عشرة سنة، وأنا أحمل الرغبة بالانتقام في قلبي. وها هو ذا بهيما يتحول الآن إلى رجل أخلاق ومواعظ!».

وما انتهت من كلامها حتى أجهشت في بكاء مرير.

قال كريشنا: - «كفكفي دموعك يا دروبدي. عهداً بأن ترى نساء القوروشيين يبكين مر البكاء حين تزهق أرواح أزواجهن وإخوتهن في الحرب القادمة التي لن تبقي ولن تذر. إن الذين استحقوا غضبك قتلى منذ اللحظة».

توقف كريشنا لحظة ثم أردف قائلاً إنه سيقصد ديتراشترا ليتحدث إليه شخصياً.

كان الربيع قد أطل يوم غادر كريشنا قاصداً قصر الملك ديتراشترا تسبقه الأخبار عن مهمته التي حملتها عيون دريودانا إليه. وللتو مضى إلى بهيشما ودرونا وفيدورا وسانجيا يحمل إليهم النبأ: «يا للسعد! إن كريشنا العظيم قد شرفنا بزيارته سفيراً لأبناء باندو!».

أما ديتراشترا فقد أمر بإقامة الزينات وجمع أهل العاصمة للترحيب بالزائر العظيم، ونشر الأعلام فوق الأبراج، وتنظيف الطرق والأزقة وتجميلها.

ولكن فيدورا سعى لديه ليسدي له النصح:

ـ «يا مولاي، إنك شيخ وقور مهيب، ولك عند جميعنا مكانة سامية. إلا أنني أنصح بالإخلاص والصدق بدلاً من التكلف والتظاهر. فلنترفع عن محاولة تضليل كريشنا. فما هذا الذي نراه إلا ضرباً من الرياء. ولم التكلف؟ إن آل باندو لا يطالبون إلا بما هو حق لهم. وأنت تريد في أعماقك، يا مولاي، أن تنكر عليهم هذا الحق، بل إنك لن تتنازل لهم عن خمس قرى!».

أما دريودانا فمال على أبيه يشير عليه باعتقال كريشنا وسجنه حالما يصل إلى البلد.

ولكن ديتراشترا أبدى كل امتعاض من مشورة ابنه، وقال له أن يحذر الإدلاء بمثل هذه الآراء على مسامعه. فكريشنا إنما يأتي سفيراً ولا ضير في هذا.

دخل كريشنا المدينة ووجد الناس، شيباً وشباناً، نساء وأطفالاً، يخرجون إلى استقباله، وكانت الحشود عظيمة فاضطر للتمهل في عربته ليرد التحية على مستقبليه، وبعد حين وصل إلى ذلك القصر الرمادي الذي كان ديتراشترا يقيم فيه. وهناك استقبله الملك وأجلسه أحسن مجلس، وأحاطه بكل تكريم، ثم أدخل عليه بعدئذ الكهنة ليقدموا له بقرة وعسلاً ولبناً وماء على عادة القوم في الترحيب بالضيوف.

وجاء دريودانا بعدئذ يدعوه للعشاء معه، فقابله كريشنا بالرفض. فتكدر الرجل لهذا الرفض وأبدى له الضيق، وأن هذا الإعراض إنما هو دليل على الترفع والكيد، والانحياز إلى أبناء باندو، فليس له بعد هذا أن يزعم الإنصاف والحياد.

فرفع كريشنا يده ورد بصوت جهوري وبتأن شديد، متمهلاً في الكلام، حتى بدا كل مقطع واضحاً في الأذن:

- «إذن، فلعلك تجهل يا دريودانا أن السفراء والموفدين لا يتناولون طعاماً ولا يقبلون تكريماً إلا بعد نجاح مهمتهم».

قال دريودانا:

- «ليس القصد النجاح أو الفشل، إنما كنا نحاول إمتاعك، فإذا بك تأبى، وكنا نحاول تكريمك، فإذا بك تلحق بنا المهانة. والعجب يا كريشنا أننا لا نخاصمك. وإذن فليس ثمة ما يدعوك إلى الفظاظة معنا!».

حدق كريشنا في محدثه ليرد عليه:

- «إذن، فاعلم أنني لن أحيد عن طريق الدارما. إن إرضاء لشهوة، أو بدافع الغضب، بسبب الكراهية أو بتأثير الطمع، أو في سبيل الجدل. إن المرء يأكل من طعام آخر حينما يجد نفسه في حاجة. وأنا لست في عسر، ولم أجد فيك ما يحملني على الاعتقاد بأنك تكنُّ لي وداً خالصاً. نعم إنني سأتناول عشائي في ضيافة فيدورا هذا المساء. ولقد شرفتني بالدعوة، إلا أنني قبلت دعوة فيدورا!».

انتهى العشاء، وبادر فيدورا إلى الحديث:

- «قد جئت في الوقت غير المناسب، يا كريشنا، فدريودانا لا يأنس للنصيحة الحسنة الآن».

- «إذن، دعني أعرض لك سبب قدومي. فقد حملتني على المجيء إليكم قضية سامية. فإن نجحت كان ذلك فضلاً وإن قصرت فحسبي ثواباً أنني ما قصرت في المحاولة. وضميري ينبئني بأنني أقوم بالعمل الواجب، ولو جئتكم في الوقت غير المناسب».

مضت الليلة، وسطعت النجوم ثم خبت، والرجلان مستغرقان

بين قضايا الجد والأحاديث الممتعة. واستيقظا في الصباح الباكر على أصوات الشعراء والمنشدين يشدون بالقصائد والأغاني على نفخ الأبواق وضرب الصناجات. فقام كريشنا واستحم واغتسل، ومضى بعدئذ إلى القاعة حيث عقد الملك ديتراشترا مجلسه.

وهناك توجه كريشنا إلى الملك بالخطاب:

ـ «قد جئتكم لنعقد صلحاً مشرفاً بين أبناء العمومة. ذلك كل ما أستطيع قوله، ولا أزيد إلا بأنني أنشد صالح الطرفين، واعلموا أن للسلام أعظم المقام في هذا الوقت العصيب!».

رد دريودانا مقهقهاً وهو يضرب فخذه بيده:

ـ «وما جدوى الكلام في أي أمر. فأنا كعهدك بي لم أتغير أو أتحول، وكما عرفتني لا أتهيب موقفاً ولا أخشى ما سيأتي به القدر!».

التفت الملك ديتراشترا إلى كريشنا، وقال:

ـ «قد نطقت بالحق، وكان قصدك نبيلاً. ولكنك رأيت ولدي وعاينت أمره.. واعلم أنني حاولت إقناعه بغير هذا النهج فأعجزني الأمر. فاجهد أنت ولعلك تفلح فيما قصرت عنه».

قال كريشنا مخاطباً دريودانا بترفق وأناة:

ـ «اسمع ما نصحتك به يا بني، فلست أروم إلا صالحك. وأنا جدير بتقدير ما أقول، ولك في إرثك النبيل والحكمة التي عرفت بها أسرتك ما يجعلك قادراً على استيعاب الأمر. فخذ بنصيحتي وأنت الفائز».

ما كاد كريشنا ينهي خطابه حتى أسرع ديتراشترا يوعز لفيدورا أن أحضر قندهاري، فهي أمه وذات حكمة واتساع أفق، ولعلها تحمل ولدها على قبول النصيحة.

ولكن ما أن بدأت حديثها حتى ضاقت عينا دريودانا وتجهم

وجهه حين أخذت تلح عليه أن يولي نصيحة الحكماء سمعه، ويقلع عن الطمع والجشع.

وعندئذ نهض الرجل وغادر القاعة يلحق به شاكوني. وكان أن عقد مؤتمراً بعد حين ضم كارنا وشاكوني ودوشاسنا تداولوا فيه أحداث اليوم، ورأوا في حضور كريشنا وعرض الصلح ستاراً يخفي وراءه نية أبناء باندو مباغتتهم بهجوم صاعق، وإذا كان الأمر كذلك فعليهم اعتقاله كيداً بخصومهم وكسراً لقوتهم، فيغدون كالأفعى إذ تنتزع أنيابها.

ظل المؤتمرون يفصلون في الحديث ورسم الخطط، فلا يدرون أن شخصاً من أقارب كريشنا، ساتياكي، كان يقبع بالقرب منهم يصغي إلى حديثهم، ثم يوعز إلى حرس القصر بحراسة المكان، فيما مضى لينقل خبر المؤامرة إلى كريشنا وفيدورا.

ولما علم الملك بنبأ هذه الخطة التي رمى فيها المتآمرون إلى اعتقال كريشنا، صاح بفيدورا أن يأتي له بدريودانا، ليبذل معه محاولة أخيرة لردعه عن الطمع والجشع.

وحين دخل دريودانا ورفاقه بدا الضيق على الملك ديتراشترا، ولم يتمالك نفسه عن الصياح بابنه: «أيها الوغد الأناني، يا من لا يعرف حدَّه، أتراك تتجرأ على احتجاز كريشنا وأنا مازلت هنا؟ ألا ترعوي أيها الأحمق؟ أفلست ترى أيها المأفون أنك كمن يحاول القبض على الريح بين يديه؟».

كان كريشنا يقف طوال الحديث ينظر إلى الأمراء الذين تحالفوا للتآمر عليه، ثم قال مخاطباً الملك وأركانه، بهيشما ودرونا وكريبا وسانجيا وفيدورا:

- «قد رأيتم ما حدث، ورأيتم دريودانا يغادر مجلسنا حانقاً، كذلك رأيتم عجز ديتراشترا في هذا الأمر. وإذن فقد حان وقت الرحيل».

ركب كريشنا عربته البيضاء ويمم إلى حيث كانت عمته كونتي ليستطلع أحوالها حاملاً إليها الأخبار عن أبنائها،ولما هم بالرحيل بعد استراحة قصيرة قالت له:

ـ «أي كريشنا، أخبر أرجونا أن صوتاً شق عنان السماء يوم ولد، وكان ذاك صوتاً رقيقاً أنبأني أن مجداً عظيماً ينتظره، مجداً يفوق حتى مجد إندرا ذاته. وأنه لسوف يدحر القورشيين. ويفتح العالم ويحوز صيتاً يبلغ السماء وذكِّره، أي كريشنا، بما نالت دروبدي على يدي دوشاسنا. وطمئنه بأنني في خير، وتولَّه بعنايتك».

ألقى كريشنا تحيته على عمته ودار حولها، ثم خطا خارجاً بخطوات ثابتة، مهيباً كالأسد الهصور، وفي صحبته كارنا، وفي لحظة بادر كريشنا رفيقه بالحديث:

ـ «أي كارنا! قد عرفناك متبحراً في قراءة أسفار الفيدا وإذن، فأنت تعلم ما تقول الأسفار من أن لزوج الأم عند الابن مقام الأب عنده، وأنت ابن كونتي وقد ولدتك من اتصالها بإله الشمس سوريا. وإذا كانت زوج باندو فأنت في موقع الابن الأكبر كما هو في موقع الأب. فلأكاشفن أبناء باندو ولسوف تراهم يسجدون عند قدميك ويرفعونك إلى المقام الذي تستحق، وتغدو دروبدي زوجاً لك، كما تسعد كونتي. وإنك لتحسن صنعاً إن دخلت في إخوة أبناء باندو!».

أجابه كارنا:

ـ «أما أني في موقع الابن لباندو فأمر لا ريب فيه. وأما أني ولد كونتي باتصالها بإله الشمس سوريا وهي ماتزال عذراء بعد، فحقيقة لا يعادلها إلا أنها نبذتني بعد ولادتي، حتى قيض لي، أنا الرضيع، السائس أديراثا، فالتقطني وحملني إلى بيته فأرضعتني زوجه ورعاني الإثنان. وإذن فهذه المرأة هي بالحق أمي.

وها قد علمت من أمري ما علمت. ولا ريب بأنك تدرك أني لا أملك أن أتحول إليهم الآن، فقد واليت دريودانا، ولكن لي لقاء مع أرجونا ـ في ساحة القتال. هذا قراري ولن أحيد عنه مهما يكن الثمن.

إيه يا كريشنا، لقد حلمت حلماً ذات يوم، ورأيت فيما يرى النائم يوديشترا وإخوته مجللين بالبياض. مزينين بقلائد الزهور البيضاء، جالسين على عروش في قصر عظيم بألف عمود، ثم لاح لي وجهك في المنام، ورأيتك تكدس أسلحة الحرب على أرض حمراء كحمرة الدم القاني. ورأيت بعد ذلك يوديشترا واقفاً فوق تل من العظام يلعق قطراً من صحن من الذهب، وبدا لي كأنما هو يبتلع العالم الذي وهبته إياه. كذلك رأيت بهيما حاملاً بيده رمحاً يمتطي طوداً عظيماً، ومر أمام ناظري ناكولا وسهديفا ورأيتهما متقلدين بالأساور والعقود البيضاء، ومكسوين بثياب بيضاء، في عربة يحملها الناس من تحتهما. ورأيت الملوك والأمراء الآخرين في الحلم يعتمرون قبعات حمراء بحمرة الدم، وبهيشما ودرونا في عربتين تجرهما الجمال.

وإني لأرى الموت يعمُّ. إذا ما جاؤونا. ولسوف يكون لنا لقاء إن قدر لنا أن نخرج أحياء من تلك المعركة الطاحنة. أما حتى ذلك الحين».

عانق كارنا كريشنا، ونزل من العربة ومضى في طريقه لا يلوي على شيء، وعاد كريشنا إلى آل باندو وأخبرهم بما كان له في قصر ديتراشترا.

وفيما كان ذلك يدور، رأى فيدورا نفسه نهباً للمخاوف. وألح عليه الخاطر أن يكاشف كونتي بقلقه. وانتهز فرصة لينتحي بها ويعرض لها هواجسه:

ـ «أي كونتي، قد هجر النوم عيني، وأصبحت مؤرقاً حين

وجدت الملك قد أعماه التكبر، ورأيت دريودانا معرضاً عن النصيحة، ثم ها أنا ذا أرى أبناء باندو يعدون العدة للحرب».

أطلقت كونتي تنهيدة من أعماق كيانها:

ـ «عبث هذا كله! فما جدوى الملك والثروة حين يضيع الأهل».

واستذكرت عندئذ قدرتها يوم كانت صبية حين استدعت إله الشمس سوريا. فهل تقدر اليوم على حمل كارنا على الإصغاء؟

خرجت كونتي تسعى وراء كارنا لإقناعه، بهجر معسكر دريودانا والالتحاق بالإخوة الخمسة، فلم تعثر عليه في القصر. ومازالت تبحث حتى عثرت عليه على ضفة الغانج، وسمعته يرتل مقاطع من الفيدا. وقفت على مبعدة من ولدها المستغرق في أسفار الحكمة، فلا تتقدم خشية أن تقطع على هذا العابد خلوته، ورأته بعد حين يقف رافعاً يديه متجهاً بوجهه إلى الشرق، ويزداد استغراقاً في تأمله، وهي ثابتة في مكانها تحت وهج الشمس المحرقة، تتصبب عرقاً وتذبل كما تذبل الزهور، ثم وجدت نفسها تنشد الفيء في ظل ثوب كارنا، وظل العابد مستغرقاً في تأملاته غير أبه بالحرارة الحارقة حتى تولت الشمس عنه واستقرت على ظهره، وعندئذ التفت فوجد كونتي، وحياها بضم كفيه على ما جرت العادة.

ورأت المرأة رجلاً قوي البنية عريض المنكبين شامخ الجبين، وعلى وجهه الصبوح، مع ذلك، مسحة من الرضا، وشيء من العجب خفف منه ابتسامة هدأت من روعها:

ـ «ما الذي أتى بك إلى هنا، يا سيدتي؟ أتراك تنشدين أمراً أقدر عليه أنا كارنا، ابن أديراثا ورادا؟».

ـ «الحق يا بني أنك ولد كونتي، فكيف تزعم أنك ابن رادا هذه؟ لا، وليس أديراثا والدك! وإني لأصدقك القول إنك ابني البكر وُلِدْتَ من أحشائي وأنا مازلت عذراء، في قصر الملك كونتي راجا. أما والدك يا أشجع الشجعان فهو إله الشمس سوريا الذي يجلي كل خفي

حين تسطع أنواره. فمبارك أنت يا بني منذ أن ولدت في قصر أبي وحملت تلك العلامات التي تنبئ بأصلك الرباني: قرطان ذهبيان وجلد كالدرع وألق مبارك!

ولعل جهلك بحسبك ونسبك وصلتك بإخوة لك حملك على أن تجعل من دريودانا مولى لك. فإن سعيت إلى رضى أمك وأبيك نلت أعظم الوعود وها أني آتيك بما لعلك تجهله: لقد استولى دريودانا على ملك يوديشترا بالخداع، وكان ملكاً يحميه أرجونا في الماضي فانتزع هذا الملك من هذا الأناني وتولّ الملك بنفسك. فهو حق لك وأنت الابن البكر. والآن امض إلى إخوتك الخمسة واصطلح معهم، وليكن القورشيون شهوداً على هذا، والخزي بعدئذ لكل من أراد شق صفكم! فإذا أصبح كارنا وأرجونا يداً واحدة، كما كريشنا وبالاراما يد واحدة، خضع العالم لكم. فلسوف تتألق وتسطع شمسك حين يراك العالم محاطاً بإخوتك! فابرز وتألق مثلما يتألق برهما ويتمجد في الطقس العظيم. وإنك لجدير بهذا، فلا تنكر أهلك وتدعي سواهم».

كانت كونتي قد انتهت من قولها حين بلغ أذنيه صوت رفيق عطوف أتاه من بعيد، كأنما من قرص الشمس أن اصغ، أي كارنا بني، قد انكشفت لك الحقيقة، واتبع نصيحة أمك ففيها الشفاء الكافي لكل الأسقام في نفسك!

ولكن ما كان شيء مما سمع أن ينال من قراره:

- «ما كنت لأجد، أي سيدتي، يا ذات الأصل الكريم، صلة لما تقولين تبلغ باب الدارما وما كان لمسلكك إلا أن يأتي لك بالتعريض والتنديد. فلم يبلغني منك إلا الشقاء والمذلة، حين حملتني ثم نبذتني، ولدتني من الشتريا المحاربين وأهملتني بعدئذ، فحلت دوني وحقي! أفكان لعدو أن يرضى بفعلة مثل هذه؟ وها أنت ذي تسعين إلي حين اشتدت حاجتك!

وتتحدثين بعد، عن حلف بين أرجونا وكريشنا، وترتعدين فرقاً

من هذا الأمر! ومن ذا الذي يملك أن يستخف بشأن خطير مثل الحلف؟ ولكن إذا هجرت هذا المعسكر وانتقلت إلى الصف الآخر، لرأيت القوروشيين يقذفون بي. حتى اليوم لم أكن لأعرف أخاً فلو انتقلت إلى صف آل باندو لسمعت القوروشيين ينددون بي ويشهرون، فأغدو في عين الناس جباناً يفر حتى قبل الاشتباك، لقد قبل بي أبناء ديتراشترا. بل إنهم قدموا إليّ مصلّاهم، وأنا الغريب ودونهم مرتبة. وكنت أرتع بينهم وأسعد معهم، فكيف لي أن أخذلهم؟ وهم يجلونني كما يجل الحكماء الزاهدين إندرا، ويظنون بي أحسن الظنون، فيتهيأ لهم أني أملك ما يتيح لهم قهر كل أعدائهم. فكيف أخيب ظنهم؟ إنني القارب الذي يقطعون به محيط الحرب.

لقد حلت لحظة الامتحان، ولن يجدني أحد جباناً يخذل أحلافه، ولو كان الثمن حياتي. وقد تجدين مرتزقة يبذلون الوعود ويقطعون على أنفسهم العهود بالمأكل والمأوى، ثم تجدينهم يبدون كل صنوف الحقارة عندما يحين وقت السداد. ومثل هؤلاء الأوغاد الذين تتجسد فيهم الحقارة لا أمل لهم في هذا العالم أو في العالم الآخر، وها إني اخترت صف دريودانا، ولسوف أقاتل أبناءك قدر ما تستطيع يميني، ولن يراني أحد متخاذلاً ساعة النداء.

إنني أعلم أنك محضتني نصيحتك خالصة من كل شائبة والحري بي أن أقبل النصيحة كشأن الرجل الشريف ولكنني لا أستطيع قبولها في هذه الظروف. إنني أقدر مشاعرك ولك مني عهد بألا أقتل أحداً من أبنائك، عدا أرجونا الذي أراه دون سواه نداً لي فإما أن أقتل أرجونا وأستمتع بلذة النصر، وإما يقتلني وفي هذا مجد أيضاً وسواء قتلته أم قتلني فإن لك خمسة أبناء يعيشون تحت ناظريك! فإما أنا وإما هو. وكلا الأمرين عندي سواء».

انزعجت كونتي لسماع قول كارنا، بل وارتعدت فرائصها، وأمسكت بهذا الرجل الصارم الثابت الراسخ وضمته إلى صدرها، وهي تقول:

- «إن القدر غالب علينا. وقد يتحقق ما تقول، فمصير القوروشيين إلى الأفول بلا ريب. ولكن تذكر عهدك لي أيها البطل الصنديد بأن تصون حياة إخوتك الأربعة، حين تتطاير السهام في سماء المعركة».

ثم همست في أذنه مودعة تدعو له أن يزداد مجده تألقاً!

سار يوديشترا بجيشه وتقدم حتى بلغ كروكشيترا، فاختار سهلاً منبسطاً عسكر فيه وجنده تلك الليلة، بعيداً عن المقابر والمعابد والمقامات، ثم استأنف في الصباح مسيرته فبلغ نهر هيرانغاتي المقدس الذي يجري في أرض كروكشيترا؛ وهناك أوعز كريشنا بحفر خندق عريض وإقامة مراكز للخفارة. كذلك أمر بنصب الخيام لإقامة أمراء الجيش والجند، على مسافات متفاوتة، كما تقضي قواعد الأمن، وكان من تلك الخيام ما يشبه القصور العامرة تحفل بالزيوت وجرار النبيذ والطعام. كذلك جهز يوديشترا المعسكر بالصناع المهرة والأطباء والجراحين، وجهز كل خيمة بترسانة للسلاح وغير ذلك من أنواع الأسلحة. كما ضم إلى ترسانته مئات الفيلة الضخمة المكسوة بالدروع الفولاذية، وقد برزت منها مسامير خارقة. ثم انضمت إلى هذا المعسكر جحافل جيوش الحلفاء.

في المقابل حشد دريودانا إحدى عشرة فرقة، وقام بتوزيعها بين قوية ومتوسطة وضعيفة، فجعل الفرق القوية في المقدمة، تليها المتوسطة فالضعيفة، ودعمها بالمجانيق، وغطى الدواب بجلود النمور لوقايتها من السهام والرماح. أما الجند فقد تسلحوا بالهراوات القصيرة القوية، وجرار الزيت الحارق، والأفاعي السامة، والشحوم والرمال، والرماح القصيرة المزودة بالأجراس الصغيرة، والسهام المسمومة، والقذائف التي تحمل في رؤوسها النار المشتعلة.

وكانت كل عربة تحمل مائة من السهام القاتلة ويجرها أربعة من أفضل الجياد، ولكل جوادين سائس يتولاهما على كل جانب. وكان كل فيل يحمل سبعة من المحاربين الأشداء. إثنان منهم مزودين بالخطافات وآخران من الرماة الحاذقين وإثنان يختصان بالسيف، والأخير مسلح برمح وعصا مثلثة الرأس. وكان الحشد عظيماً. ضم آلاف الجياد وقد انتقيت بعناية، فلا تنزلق أو تعرج. أما العربات فقد كان يحرس الواحدة منها سبعة من الفيلة، وكل فيل تحرسه سبعة جياد، ويحمي كل جواد سبعة من المشاة. أما الاحتياط فقد ضم العربات التي كان يحمي كل عربة منها خمسون فيلاً، ويسير الفيل منها في حماية مائة جواد وسبعة من الجنود المشاة لكل جواد.

نظر دريودانا إلى هذا الحشد الهائل من القوات والعربات، وقال مخاطباً بهيشما:

- «إن الجيش إذا افتقد القائد لم يزد عن حشد لا نفع فيه. فكن أنت هذا القائد وتولّ هذا الجيش بعنايتك!».

رد بهيشما قائلاً:

- «إن أبناء باندو محببون إلى نفسي بقدر ما أنتم يا أبناء ديتراشترا. بيد أنني قطعت لك العهد بأن أكون إلى جانبك. ولهذا أقبل قيادة الجيش شرط أن يكون أحدنا، أنا أو كارنا، على رأس الهجوم، فلا نجتمع نحن الاثنان، طالما أن كارنا لا ينقطع يقارن نفسه بي في استعمال السلاح».

وقال كارنا الذي كان حاضراً هذه المحاورة:

- «عهداً علي ألا أحمل السلاح مادام بهيشما حياً».

وإذن فقد حسم الأمر وبات بهيشما قائداً للجيش، فصدحت الأبواق ودقت الطبول معلنة النبأ العظيم، وعندئذ لاحت في الجو نذر الشر المستطير، فأنزلت السماء الصافية سيولاً من الدماء الزكية

امتزجت بالأرض الحمراء، وثارت العواصف من حيث لا يدري أحد، وهاجت الفيلة والدواب أيما هياج، ولمعت في كبد السماء الشهب ثم تلاشت، وعوت الذئاب عواء شديداً لا عهد لأحد بمثله، فوجفت القلوب واضطربت النفوس.

وفي الصباح الباكر استحم دريودانا ثم قدم القرابين للبراهمة، ثم رفع البيارق والأعلام وسار على رأس جيشه إلى ساحة المعركة.

وقام يوديشترا بتعبئة جيشه، وسار على رأسه دريشتديومنا، يتبعه الملوك الحلفاء، كل في مقدمة جيشه، فبدا الجمع مرصوفاً كما الكواكب في كبد السماء، وكان مشهد الفيلة السبعين ألفاً وهي تخبط بأقدامها الأرض فتزلزلها من شدة الوطء يثير الفرق في كل من تقع عليه عيناه.

وفي لحظة أطلق الجند صيحات الحرب وعلت ضجة الطبول وآلاف الأبواق.

السفر السادس

بهيشما

كان اللقاء في كروكشيترا: حشدان لم يجتمع مثلهما على ساحة معركة من قبل. ومن أقبل على المكان من بعيد، وسمع صخب الجند، حسب أنه مقبل على بحر مضطرب الأمواج. ولم يكن هناك ريب في أن الحرب واقعة، ولكنها تحتاج، مع ذلك، إلى اتفاق يحدد قواعدها. فالتقى وفدان عن المعسكرين المتحاربين، واتفقا على قوانين الحرب وقواعدها، فلا يقاتل جندي إلا من يماثله في السلاح، والغدر ممنوع في القتال، فلا أحد يهاجم خصمه على غفلة، أو يستغل الذعر لمطاردة الخصوم. وتمنح الرحمة لمن يطلبها، ولا يسمح بمطاردة الجندي المتراجع، أو الأعزل. ويمنع الأذى عن السائسين وحملة الأعتدة، وقارعي الطبول، والنافخين في الأبواق، وكذلك يمنع إيذاء الدواب.

رأى فياسا أرتال الجنود والفرق وكواكب الفرسان، يتخذون مواقعهم في ساحة القتال، ورأى العربات والفيلة تدور وتحتشد في أماكنها المناسبة للمعركة القادمة.

رأى الحكيم العظيم هذا المشهد وقدر الموقف، وشاء أن يحدث الملك ديتراشترا فقال له:

- «أرى أن أبناءك، ومن كان مثلهم من دعاة الحرب من الملوك قد استنفذوا زمانهم. فإذا كنت تريد رؤيتهم وهم يخوضون الحرب فإني سأمنحك القدرة على الرؤية!».

رد ديتراشترا: «ومن ذا الذي يطيب له أن يرى أهله يقتتلون ويذوون؟ ومع ذلك فإنني أرغب في أن أسمع أحداث الحرب».

- «إذاً سأزود سانجيا بقدرة خاصة، فلسوف يبصر دقائق المعركة لينقلها إليك بكل تفاصيلها. ولكن اعلم أن هذه حرب مروعة، بل مذبحة هائلة! إن النسور والصقور والغربان وغيرها من الكواسر تقف على رؤوس الأشجار، تنتظر الجثث لتنقض عليها وتنهش لحمها.

أي ديتراشترا، لقد رأيت الشمس والقمر والنجوم تبرز في السماء دفعة واحدة، والنهار يدخل في الليل والليل يدخل في النهار، والقمر يغيب من السماء في اليوم الخامس عشر من الشهر حين يبلغ نوره الكمال.

أي ديتراشترا، لقد سمعت الخنازير البرية والقطط تطلق أشنع الأصوات حتى صمت الآذان، ورأيت تماثيل الآلهة في المعابد تتقيأ دماً وتتصبب عرقاً ثم تتهاوى. والأبقار تولد حميراً، والأبناء يفسقون بأمهاتهم، والحوامل والعذارى يلدن مخلوقات مشوهة. وباتت الوحوش تأكل بعضها البعض، والدواب تولد بثلاثة قرون، وأربعة عيون، وخمسة أرجل، وذنبين، ورأسين، وجهازين للتناسل! والغربان تقف على سواري الأعلام وهي تطلق نعيبها المزعج، والفيلة تنطلق منفلتة، وتبول وتتبرز على أرض المعركة! نعم إن نهاية العالم لقريبة!».

وجاء تعليق ديتراشترا مقتضباً:

- هكذا تقول... فليكن!».

البهغفات غيتا (أنشودة الرب)

وقف أرجونا يستطلع أرض المعركة عن بعد، يقدر حجم القوات على الجانبين وترتيبها ومواقعها، ويدرس نقاط الضعف ومكامن القوة في كل جانب. واستمر على هذا النحو ردحاً من الزمن، صامتاً، مستغرقاً في تأمل المشهد، يجول بعينيه من طرف إلى آخر. ولولا تحول العينين بين الفينة والفينة لحسبه الناظر تمثالاً من الحجر. ثم إذا بلغ نصيبه من دراسة الساحة التي سيدور عليها قتال لم تعرف البشرية مثله قط وفرغ من استجلاء المشهد، سعى إلى كريشنا، وهو متجهم الأسارير، منقبض النفس، وعلى وجهه مسحة من الحزن والكدر يشوبهما شيء من الشفقة.

تأمل كريشنا وجه أرجونا متفرساً، وأدرك الخطر، ولكنه لم يشأ أن يسأله عن سر تبدل حاله، بل آثر الانتظار حتى يكشف الرجل عما يدور في خلده.

جلس أرجونا بالقرب من كريشنا، وأطرق شارد البال. لم يطل به الوقت حتى رفع رأسه واستدار إلى صاحبه الذي ظل يرقبه في صمت دون أن يبادره بما يقطع عليه تأملاته، فترك له أن يبدأ هو بالحديث فيكشف له عما أثار فيه هذا الكدر والغم، وأشاع فيه هذا الحال من الهمود.

قال أرجونا: «لقد قدمت من ساحة القتال، وكنت أستطلع قواتنا وقوات العدو، ورأيت ما أثار فيّ الهول: رأيت الأهل والأقربين، العشير والأصدقاء الذين خالطتهم وخالطوني، والمعلمين الذين أخذوا بيدي منذ الصغر، وأخذت عنهم العلوم والمعارف، وهناك شاهدت أبناء العشيرة يتجمعون للحرب فانتابني عندئذ شعور بالإشفاق ملك عليّ كل كياني، وأصاب فمي جفاف شديد، ومازلت حتى اللحظة لا أجد لعاباً يبدد هذا الجفاف.

«الحق يا كريشنا أني جزعت من الذي رأيته هناك، وانتابني الخوار، ووجدت ركبتي ترتعدان، والشلل يسري في ساعدي فلا يقوى على الحركة، وشعرت بالقوس الفتاك الذي أعطانيه الإله إندرا يكاد يفلت من قبضة يدي: بل ورأيت نفسي لا أقوى على الوقوف، ورأسي نهب للأفكار تتوارد من كل صوب. وتمثلت نذر الشر العظيم الذي ينتظرنا حين ينشب القتال وتتساقط جثث القتلى على الأرض.

«الحق. الحق، يا كريشنا، إني لا أرى خيراً في اقتتال الأهل وذبح الإخوة. إن نفسي لتعاف هذا النصر.

إذ سيكون نصراً أسوأ من الهزيمة، وما جدوى المجد إن كان ثمنه قتل هؤلاء الأعزاء إلى نفسي وقلبي؟ وأية سعادة ستتحقق بعد هذا الإثم؟ إنه لشر أن يذيق المرء إخوته الموت. وشر كذلك أن يطمع في ملكهم. وهؤلاء أبناء ديتراشترا دونهم عنقي! فإن أرادوا قتلي لم أحفل، والأجدر عندي أن يقضي الإنسان قتيلاً على أن يعيش قاتلاً!».

قال أرجونا هذا ورمى قوسه جانباً، ثم تهاوى على المقعد في عربته المتألقة كوهج الشمس، وبدت الدموع تترقرق في مقلتيه من فرط الانفعال.

أدرك كريشنا مبلغ ما يعانيه صاحبه من الألم، وما ينوء به قلبه من الحزن. وبدأ يرد عليه، ويحاول حمله على أن يتمالك نفسه:

- «ها أنتذا تتشدق بعبارات تخالها الحكمة، وهي ليست من الحكمة في شيء. وإن أفصحت عن أمر فهو الفزع الذي نال من قلبك.

إنك تزين لنفسك الجبن بفصاحة الشفقة وهذا لا يليق بك. وإنك لتوصد بذلك أبواب السماء وتجلب لنفسك العار، وتحيد عن المصير المقدّر لك أن تبلغه، فانزع من نفسك هذا الضعف وهذا الوهن.

مباركون أولئك الذين يقاتلون في حرب عادلة فمأواهم الجنة. أما إذا استبد بك الوجل، فقد ضاع منك الشرف وهجرتك الدارما،

ولن يجديك أمر ترى فيه الحق والفرسان يرونك تفر من ساحة القتال. فأنت عندهم جبان بلا ريب، مهما تكن دعواك. ألست ترى، إذن، إن الموت أفضل من حياة العار؟ أما علمت أن أعداءك سيلاحقونك بالإهانة أينما كنت أو حللت؟ فيا أرجونا، أي الشرين أهون؟

اطلب الموت والجنة مثواك. وانشد الحياة تر العالم ملك يديك. فهيا يا أرجونا انهض وقاتل!».

- «كيف لي يا كريشنا أن أوجه سهامي إلى بهيشما ودرونا وحقهما عليّ أن أقيمهما أعلى مقام؟ ولو قتلتهما للاحقتني دماؤهما ولأقضّت مضجعي. اسمعني يا كريشنا فلست أكتمك بأنني لست بالجبان كما يصور لك عقلك. وليس ما يظهر لك مني سببه الضعف أو الوهن. فما يخالجني إنما هو الشفقة على العدو. ولكن ها أنتذا تراني نهباً للحيرة ولا أدري سبيلاً للخلاص منها. وقد أسلمت لك قيادي فأشر علي بما ينبغي لأتدبر هذا الأمر، وأتخلص من هذا التمزق والعذاب!».

افتر ثغر كريشنا عن ابتسامة وهو يقول:

- «أراك يا أرجونا قد استبد بك الحزن على من لا يستحقه. ثم أراك تتحدث بلغة الحكماء، ولكن الحكيم، يا أرجونا، لا يبكي ميتاً أو حياً!.

الروح، يا أرجونا، خالدة، لطيفة تنأى عن القبض، الجسد وحده الفاني. أفلا ترى الإنسان يمضي عبر المراحل، من الولادة إلى الطفولة فالشباب فالكهولة فالشيخوخة فالموت ختاماً. ولكن اعلم أن هذا شأن الجسد وحده، وأن تلك المراحل من الطبيعة كما الموت منها كذلك. وإذا داهم الموت المرء غادرت الروح الجسد الفاني وحلت في جسد آخر. إن المرء إنما يتعرف إلى البرودة والحرارة واللذة والألم، حينما تجد الحواس ما يثير فيها هذه الأحاسيس

وإنما هذه كالسحب العابرة ما أن تحل حتى تتبدد وتتلاشى بعد حين، فالأجدر بك أن تدرب نفسك على هذه الظواهر العارضة، ذلك أنك إذا سموت فوق هذه الأحوال غدوت جديراً بالخلود.

هذا الكون مسكون كله بالسرمدي. وإذن فلا شيء يملك أن ينال منه. وقد تحسب، يا أرجونا، أنك تقتل عدوك حين توجه إلى قلبه طعنة قاتلة أو تضرب عنقه، ويحسب هو أنه مقتول. والحق أنكما على خطأ. فلا أنت قاتل ولا هو بقتيل. فما يولد لا يفنى، والإنسان لا يموت عند قتل جسده. فكيف تقول إنه مقتول وأنت تعلم أنه خالد لا يفنى، وتعلم أن ليس هناك ولادة بل تحول؟ أفما رأيت المرء يطرح عنه ثوبه متى بلي ويتخذ ثوباً جديداً بدلاً من القديم؟ كذلك شأن الروح تراها تغادر الجسد حين تجده قد شاخ وتداعى فتحل في غيره. وتزعم أنك تقتل العدو، ولكنك مخطئ في زعمك هذا. ذلك أن الأسلحة، مهما بلغت من الفتك، لا تملك أن تنال من الروح. ولأن الروح خالدة ثابتة لا تتأثر بالأعراض، لا ترى ناراً تبلغها ولا ماء يبللها، هذه حقيقة، متى أدركتها، لم تجد سبباً للحزن أو الأسى.

دعني أخبرك، وإن أغلق عليك فهم ما قلت، أن الحرب والقتال واجب عليك فالحرب أعظم شرف يناله من كان من الشتريا المحاربين. وقد شاءت المصادفة أن تتشرف بخوضها، وتفتح أبواب السماء أمامك، فإن أعرضت عن دخول هذه الحرب نزل بك الذل والعار، وأصبحت حديث العالم كله.

وتقول إنك تخشى إثم هذه الحرب. وها إني أخبرك بالسبيل إلى تجنب الوقوع في الإثم: لا تنتظر إلى اللذة والألم كأمرين مختلفين، ولا تحسب الأمور بحساب الربح والخسارة، أو النصر والهزيمة، بل تسامى فوق هذه النظرة، ولا تفسد عقلك بمثل هذه المعايير. حسبك الآن أن تنهض وتخوض غمار الحرب، ولن تأتي عندئذ إثماً.

وها أنا ذا مخبرك بالطريق إلى هذا: إنه نهج «اليوغا» ـ

الاتحاد بالكلي - الذي تبلغ به التنوُّر والكشف. فإذا سرت عليه انعتقت من «الكارما»، من إسار السبب والنتيجة. إنه نهج يختلف عن نهج الطقوس التي إن أخطأ المرء في رسمها ذهبت فائدتها. إن طريق اليوغا، الذي أعرض لك، طريق لا عهد لإنسان به من قبل. إنه نهج لا تضيع فيه ولا يأتي بضير. إن اتبعته، ولو قليلاً، وجدتك قد انعتقت من الخوف والخشية.

أي أرجونا، اجهد للسمو فوق الطبائع الثلاثة (جونات) المرسومة. واعمل على الانعتاق من التناقضات التي تتجاذب النفس بين هذا الأمر وذاك. لا تشغل عقلك إلا ببلوغ صفاء النفس. ولا تشغل نفسك بحب الامتلاك، بل حسبك أن تتأمل الروح ولا شيء سواها!

واجبك العمل. وحقك الوحيد أن تعمل. أما ثمار العمل فليست من شأنك. فإذا أنجزت أمراً تابعت مسيرتك ولم تنظر إلى ما يتحقق منه أو يثمر من نجاح أو فشل. ولا تخدعن نفسك بالظن بأن في الامتناع عن الفعل والعمل مأثرة. ذلك أنه ليس من حقك الإعراض عن العمل. تجاهل كل أثرة أو هوى. التزم الاتزان. اعمل لتسمو نفسك فوق معاني النجاح والفشل. واعلم أن هذا الاتزان الذي يسم العقل وأدعوك إليه هو ما يسمى اليوغا».

قال أرجونا: «أي كريشنا، حدثني إذن عن ذي العقل الراجح الراسخ كالطود: صفه لي!».

وإذ سمع كريشنا السؤال استحسنه، وعلم أن عقل صاحبه بدأ يصحو من غفوته. صمت لحظة ثم تابع قائلاً:

«إذن فاعلم أن من طرح من قلبه كل الشهوات والرغبات، وجدت روحه السكينة في خلوتها مع نفسها. فلا نبضه يبطئ عند الحزن ولا يرتفع في لحظة الفرح: إنه لا يعرف الشهوات أو الانفعالات كالخوف والغضب، ولا يرتبط بشخص أو يتعلق بشيء. إنه يرى

الخير والشر سواء. إنه ذو العقل الراجح، من ملك حواسه واستطاع التحكم والسيطرة عليها، شأن السلحفاة إذ تسحب رأسها إلى داخل درعها. فإذا انسحبت الحواس فقدت شهواتها وأشواقها، ونسي الإنسان مذاقها، ولكن هذا المذاق يتجدد عندما يبلغ مرتبة المعرفة بالعليّ الأعظم!

واعلم أن بلوغ هذا ليس بالأمر اليسير. فاحكم الحكماء قد خبروا ثورة الحواس تلك وعبثها بالعقل الذي يغدو عندئذ أشبه بالقارب التائه الذي تتلاعب به الأمواج وتتقاذفه. ولكن إذا جعلني الإنسان هدفاً لتأمله استطاع إخضاع الحواس، أما إذا ترك لنفسه العنان وأخذ يميل مع الأهواء والنوازع بلا قيود، غلبت عليه الشهوات والرغبات فقادته إلى آفة الغضب. وسرعان ما تدور في العقل الأوهام ويفلت زمامه وينتهي بصاحبه إلى الدمار. واعلم أنه لا محيص لك عن امتلاك زمام الحواس. فإذا انكفأت الشهوات إلى الداخل، شأن مياه النهر إذ تصب في خضم البحر ويستوعبها، بلغ الإنسان راحة العقل، وعرف تلك البهجة الإلهية ونال النعمة التي هي طبيعة برهما!».

كان أرجونا يشخص بعينيه إلى كريشنا، مصغياً متمعناً فيما كان ينطق به، وإذ بلغ كريشنا نهاية قوله سأله: «أي كريشنا، ها أنت تقول إن بلوغ حال برهما هو أرفع مرتبة يبلغها الإنسان. فكيف تطلب إليَّ القتال والقتل، وهما كريهان؟».

قال كريشنا: «إذن، فاعلم أن لبلوغ هذه المرتبة طريقين: أولهما طريق المعرفة بالتأمل في العقل، فتعلم أحواله وأطواره، وثانيهما طريق العمل. ولكن تذكر أنه ما من أحد يستطيع السكون، ولو للحظة واحدة. ذلك هو قانون الطبيعة، فقد شاءت للإنسان أن يعمل. وقد تجد إنساناً جالساً بلا عمل يشغله. ولكنك إذا ما تقصيت حاله وجدت عقله مستغرقاً في عالم الشهوات. وإذن فصاحبنا منافق يظهر حالاً ويبطن سواه. أما الإنسان الآخر الذي حدثتك عنه فهو

الذي أخضع حواسه وعقله لسيطرته فسما وتفوق على كل إنسان. فاعمل وانزل إلى ساحة الوغى، وتوجه إليَّ بعقلك بريئاً من كل أثر للشهوة والأنانية، غير عابئ بالربح والخسارة، ولسوف تبلغ عندئذ الحرية التي تنشد!».

قال أرجونا: «ولكني وجدت من الناس من يُحمل أحياناً على الإثم كرهاً، ولو كان في ذلك مجافاة لطبيعته فكيف ذلك؟».

قال كريشنا: «اعلم، يا أرجونا، أن الشهوة هي مصدر الآثام، وكذلك أمر الغضب. وهذان هما ألد أعداء الإنسان. واعلم، بعد، أن المعرفة الحقة كامنة في أعماق الإنسان، مخفية تحت الشهوة والغضب اللذين يحجبانها كما يحجب الدخان النار، وكما يشوه الغبار المرآة الصقيلة. والمعرفة الحقة كامنة في النفس كما الجنين في رحم أمه. وإذن فالشهوة والغضب هما القيد الذي يكبل الروح في أعماقك، ويحول دون تجليها وكما أن نسمة بسيطة من الهواء كافية لتبديد الدخان وظهور النار مستعرة تتراقص ألسنتها، كذلك شأن ذي اللب. حسبه من الجهد بعضه لتنجلي بصيرته ويبلغ العرفان بالعليّ الأعظم. أما من كان ينزع بطبيعته إلى العمل فعليه أن يبذل من الجهد أكثر ليبلغ هذه الحال، أما رأيت الطبيعة فرضت على الجنين البقاء شهوراً في رحم أمه قبل أن ينعتق منه ويخرج إلى العالم. وهذا شأن البليد أيضاً. فلا بد له من أن يبذل ويجاهد حولاً بعد حول حتى يكون له الخلاص من إسار الحواس وشهواتها ورغباتها فيدرك «برهمان» في النهاية!».

«اعلم أني أنا الذي علَّم فيفاسفان هذا العلم الذي يسمى اليوغا. وهو الذي نقله إلى مانو وعنه أخذه إيكشفاكو، ثم بلغ العالم في النهاية. ولكن هذه الرياضة العقلية خبت في العصور الأخيرة. وها أنا ذا أقودك بعهد الصداقة بيننا إلى هذا السر، فأنت الأثير إلى قلبي!».

قال أرجونا .وقد أخذه الذهول: «أي كريشنا! عجباً ما تقول،

فقد علمنا من أمر فيفاسفان أنه عاش قبل آلاف السنين من مولدك. فكيف كان لك أن تكون له معلماً، وقد تقدمك عصوراً وعصوراً؟

افتر ثغر كريشنا عن ابتسامة رضية، وأجاب: «اعلم، أي أرجونا، أني مررت شأنك أنت أيضاً، بولادات عديدة أنا أعرفها، بينما تجهلها أنت. واعلم أنني أنا الذي لم تلده أم. انظرني فأنا السرمدي. أنا قاصم الشر أتجلى حين يعم، أنا من يوجد ويتكون بذاته ويظهر في شكل البشر. انظرني، أنا الذي يولد يوكا بعد يوكا ليقضي على الإفك كلما فشا، ويقيم الدارما كلما أعرض الناس عنها. الأصفياء القلائل وحدهم يملكون أن يروا هذا الجلال الذي هو أنا.. فلا ضير عليهم فإنهم المصطفون الذين لن يعانوا الولادتين بل إياي ولا شيء سواي يعرفون. واعلم أن هؤلاء يسمون على الخوف والغضب والهوى. انظرني! أنا ملجؤهم وفيَّ يسبحون! هؤلاء بنار المعرفة مطهرون، وبي يتحدون. لا جناح عليهم إن اختلفت وسائلهم، طالما أنا الذي يتعبدون. الطرق كلها إليّ، فإليّ مآلهم، وهيكل ذاتي مأواهم.

اصغ إليَّ فإني محدثك في مجاهدة النفس، اليوغا، واعلم أن على الإنسان أن ينهض بعمله خالصاً من الأثرة بريئاً من الأمل بجزاء أو خوف من عقاب فينال عندئذ السعادة الأبدية، ومن حفزته المعرفة برىء من الشكوك وغدا متحداً بي. وإذا ما سلمت إليّ ثمرة عملك انتظم عقلك وبلغت السلام. أما من لم يبرأ في عمله من الرغبة والشهوة ولم يتجرد من الأثرة فقد رسخ في عبودية لا خلاص منها؛ إنه عبد شهواته وما يزينه عالم الظواهر العارضة. واعلم أن اليوغي، الزاهد الحق هو من نهض إلى عمله لا يرتجي من ورائه جزاء. فالزهد هو العمل المبرأ من الأنانية.

اعلم أن الملذات وما يعرضه الهوى منبع للآلام. وأن الشهوة واللذة هما من العوارض التي ما أن تحل حتى تتبدد. وإنك لن تجد فيها الفرح الأبدي. إن الشهوات والملذات ظواهر عارضة لأنها تخضع لنفس القانون: البداية والنهاية، الولادة والموت.

اعلم أن الحكيم من أعرض عما يزينه الهوى. ومن تساوى عنده الحر والبرد، اللذة والألم، الشرف والعار، نال السكينة الأبدية، ومن كانت هذه حاله كان عنده التراب والذهب سواء، فلا يقيم تمييزاً بين الصديق والعدو، اللاهين والبليدين، بين أهل الحقد وسوء الطوية وذوي الصدق والاستقامة ذلكم هو الإنسان الكامل.

أعرني سمعك، يا أرجونا، واصغ إليَّ جيداً، فإني كاشف لك سر الأسرار؛ اعلم أني اتخذت شكل البشر، ولذلك عصي على الحمقى أن يتعرفوا إليَّ. أنا رب البشر! انظرني فأنا الواحد الفرد! انظرني! فمن تأملني وحدي بالعقل، ولم يعبد إلا إياي بلغني في النهاية.

توجه إليّ فيما تأكل وتهمل وتتعبد! ولسوف تنعتق عندئذ من إسار الكارما، وتسمو فوق ما تأتي به أعمالك، خيراً أم شراً. ولك عندئذ أن تأتي إليَّ».

سأله أرجونا: «وكيف للتأمل أن يقودني إلى معرفتك؟ مبتغاي أن أدرك عظمتك وسلطانك. وكيف أتجه إليك في مقامك ومستقرك؟».

قال كريشنا: «اعلم أني الروح التي تسكن الحي والجماد! أنا المبتدأ والمنتهى وما بينهما! بين الآلهة أنا فيشنو، وبين الأنوار أنا الشمس، وبين الكواكب أنا القمر، وبين أسفار الفيدا أنا ساما! وأنا الدماغ للحواس! وأنا العقل عند البشر!

اعلم أني شانكرا بين العقلاء، وميرو بين الجبال! أنا أوم المقدسة بين الكلمات، والزمن في المقاسات! أنا البرق الخاطف بين الأسلحة! أنا الموت الذي يأتي بالفناء للأحياء والجماد! أنا أصل ما سوف يأتي وما يكون. ذاتي هي جوهر كل حياة. ما تراه من جمال ونور وبهاء إن هو إلا بعض مني».

قال أرجونا: «إني لأتوق إلى طلعتك الربانية فإن وجدتني يا أعظم اليوغيين جديراً بنعمتك تجليت لي!».

وعلى الفور تجلى كريشنا بأبعاده كلها، فرأى أرجونا الأكوان

والأفلاك والأحياء والعوالم كلها تسبح في شكله الجديد، وأذهله ما رأى من الألوان والأنوار كأنما تصدر عن ألف شمس تشع منه، وطالع عندئذ روعة الواحد القوي. ولم يملك نفسه في تلك اللحظة فضم كفيه ورفعهما محنياً رأسه حتى كادت جبهته تمس رؤوس أنامله واستغرق في سلام لا ينقطع.

قال أرجونا وهو مايزال في استغراقه: «يا رب الأرباب إني لأرى فيك جمع الآلهة كلها، وأطالع في هيكل كينونتك الواسعة الشاسعة بلا بداية أو نهاية برهما والعارفين جميعهم. أنت الدائم القائم. أنت السامي الواهب. أنت القائم على قانون الأزل، لا ريب في هذا. عيناك الشمس والقمر. طلعتك تتألق كالنار وأرى هذا الكون يضيع في هذه النار التي هي أنت. أنظرك فأراك تملأ الأرض والسماء وما بينهما. وإني لأرتعد لجلال مشهدك الذي يحتوي العالم كله!

إني لأرى في هيكلك أبناء ديتراشترا، دريودانا وإخوته التسعة والتسعين جميعهم، وأطالع بعد بهيشما ودرونا وراديا، وأمامهم الأبطال العظام في صفنا يهرعون إلى أعماق جوفك الرهيب كما تندفع مياه الأنهار لتصب في المحيط العظيم، فإذا هم كالحشرات إذ تنجذب إلى النار فتلتهمها ألسنة اللهب وتتلاشى في لمح البصر!

رحماك، أخبرني بحقيقتك! وماالغرض من هذا الدمار الذي يثير الفرق في فرائصي؟».

قال كريشنا: «أما عرفتني بعد؟ أنا الزمن، أنا المدمر الأعظم! أي أرجونا، أنا مدمر هذا العالم الهائل. أنا المبيد، واعلم أني قد قتلت هؤلاء، وكنت تراهم أبطالاً صناديد يملؤون ساحات الوغى، كما أمت الكثيرين من قبلهم. فهيا! انهض، أي أرجونا، وتلق المجد الذي ينتظرك فإنك أهل له. إنك الأداة التي أتوسل بها. واعلم أن بهيشما ودرونا وجيادراتا وآخرين سائرون إلى حتفهم. عليك بهم فأنت الفائز!».

اختنقت العبارات في حلق أرجونا فخرجت الكلمات من فمه خافتة، وقال وكفاه مضمومتان إلى بعضهما: «يا من لابداية له ولا نهاية، أنت ملجأ البشرية! أنت الكينونة وما بعدها. أنت القديم، وأعظم كنوز العالم.أنت العارف وأنت المعرفة، أنت مسكن الكائنات والمخلوقات. فيك الحي والجماد وإنك لتشع في الكون كله، ولا شيء يحيط بك أو يبلغ سلطانك وجبروتك، إليك تتجه العبادات وأنت أعظم المعلمين. ها إني أضرع إليك سائلاً منك الرحمة. فاغضض عن زلتي إذ لم أدرك شأنك، فناديتك بكريشنا وسميتك الصديق. فاغفر لي جهلي، وارأف بحالي كما يرأف الأب بابنه، وكما يترفق المحب بالمحبوب! وعدْ كما عرفتك، فما عدت أقوى على متابعة النظر إلى مشهدك المهيب الذي أنت عليه الآن!».

طرح كريشنا عنه صورته الكونية، وعاد إلى صورته البشرية، قائداً لعربة أرجونا لتأنس نفسه.

قال أرجونا: «ها قد صفا عقلي وهدأ الآن، بعدما رأيتك في صورتك البشرية المألوفة!».

قال كريشنا: «إذاً، فاعلم أن شكلي ذاك لا يتبينه إنسان. واعلم، بعد، أن أحداً من البشر لا يبلغ المعرفة بي، إلا إذا اتجه إليّ بالحب خالصاً، وأقام على محبتي لا ينقطع عنها!».

قال أرجونا متسائلاً: «هناك من يتعبدك. وهناك من يعبد المطلق. فأي المتعبدين الأفضل؟».

قال كريشنا: «كلاهما إياي يبلغان. فمن تعبد المطلق، السرمدي، الدائم، أخضع حواسه وواجه الظروف بعقل صاف، وتوجه إليّ وتعبدني بإيمان لا ينال منه الهوى، كان الإنسان الكامل المهيأ للإتحاد بالعلي الأعظم، ولكن هذه طريق شاقة إنما يطرقها من به جلد ويسعى إلى الصعب الشاق. وأما الطريق الأخرى فأيسر وأقرب منالاً. فمن توجه إليّ بعمله وصلاته بريئاً من الأثرة، وأخلص لي في عبادته، وجد عندي النجاة من الحياة العارضة الفانية!».

قال أرجونا، عندئذ: «الآن اطمأنت نفسي، وذهب الشك عني، وها أنا أسلمك قيادي!».

بدا وجهه متألقاً في تلك اللحظة، وطفح بشراً، فالتقط سلاحه الفتاك، بينما أمسك كريشنا بلجام الجياد باليسرى، والسوط باليمنى.

وانطلقت العربة الذهبية تحمل أرجونا وكريشنا، تنهب الأرض نهباً، للقاء بهيشما في عربته الفضية.

اكتملت عدة الحرب، وانتصب الجمعان أمام بعضهما، ولم يبق لوقوعها إلا الإشارة بالاشتباك.

وخرج دريودانا عندئذ إلى الميدان ليطمئن إلى توزيع قواته، حينما اطمأنت نفسه إلى ترتيب القوات واستعدادها للقتال، التفت إلى بعض الثغرات ليتدبرها قبل أن تنشب الحرب. وقال لأخيه دوشاسنا موصياً: «احرص على أن تجعل المركبات لحماية بهيشما، حين يبدأ الخصم تقدمه. إن بهيشما هو الذي يشغلني منذ اللحظة، فقد سمعته يقسم أنه لن يقاتل شيخاندين لأنه تبين فيه امرأة كانت تكن له حقداً ذات يوم مضى، ثم تجسدت اليوم في هذا الرجل، وهو يعلم أنه عازم على الانتقام منه، وإنه ليشق علي أن ينال ابن آوى مثل شيخاندين من بطل عظيم شأن بهيشما. وقد بلغني أن أرجونا سيتولى حماية شيخاندين، فيما يقوم يودامانيو بحماية مجنبة أرجونا اليسرى، ويتولى أوتماوجس حماية اليمنى. فحذار أن يقترب من بهيشما».

مضت الليلة بين أصوات جلبة الجنود، وضجيج عجلات المركبات، وصراخ الفيلة، والمشاعل ترسل أضواءها في أرجاء المعسكر. حتىإذا كان الصباح اصطفت الكتائب، وبرزت المركبات وعلت الأعلام، والبيارق، والرايات خفاقة كأنها ألسنة من اللهب.

جال يوديشترا بنظره في معسكردريودانا، وهز رأسه مفكراً ونمّ منه ما ينبئ بقلق يساوره، ثم التفت إلى أرجونا، قائلاً: «أرى

جمعهم كثيراً، وجمعنا قليلاً. وأرى أننا لن نتمكن منهم، إلا إذا سار الجيش إليهم كالسهم فنأخذهم بقوة الصدمة. وإني لأترك لك العناية بتفاصيل تنظيم القوات وتوجيههم في الهجوم، وأشكال خرق صفوف الخصم».

قال أرجونا موافقاً: «فليكن بهيما الجبار على رأس الرتل، فهو قادر بقوته على تمزيق صفوفهم وإفساد تماسكهم».

واندفعت كتائب الباندوفيين بقوة وسرعة، في موجات متلاحقة لتبلغ المكان المختار في الميدان. أما جيش دريودانا فقد ظل متشبثاً بمواقعه في الغرب، فأثار الفرق في صفوف من يرى كثرة عدده، وتهيئه للقتال.

فقال يوديشترا بين التساؤل والعجب، وهو يراقب معسكر دريودانا أمامه:

- «أي أرجونا، كيف لنا أن نأمل بدحر هذا الجيش وبهيشما على رأسه؟».

- «لسوف نتغلب عليهم، لأن كريشنا إلى جانبنا!».

وقف الجيشان متقابلين وجهاً لوجه، وقبل الاشتباك صعد يوديشترا إلى تلة وأطل على جنده يخطب فيهم:

- «أيها الجنود البواسل، قاتلوا بشرف تبلغوا المجد! لا تدعوا الوجل ينال من قلوبكم، بل قاتلوا بشجاعة واصمدوا، وأظهروا بأسكم!».

نزل بعدئذ وشرع يطوف بين جنوده ويتفقد استعداداتهم، حتى اطمأن إلى حسن تنظيمهم وشدة تماسكهم حين رأى شيخاندين يقود القلب مستنداً إلى حماية أرجونا، بينما ثبت يويودانا لحماية القطاع الجنوبي، فتولى هو عندئذ قيادة الفيلة.

ذهل الجند لمشهد لم يكونوا ليتوقعوا حدوثه: ها هو ذا قائدهم

يوديشترا يخلع عنه دروعه وينزل عن مركبته ويمشي بخطوات هادئة ثابتة، مغادراً صفوفهم، ضاماً كفيه إلى بعضهما، ويتابع طريقه إلى الطرف الآخر من الساحة.

ثارت الخواطر في صفوف معسكره: ما الذي عزم عليه الرجل؟ أتراه يسعى إلى صلح والحرب لم تقع بعد؟ وإذا كان الأمر كذلك فما الذي حمله على تكلف المشقة وحشدهم بعد استعداد عظيم ومسيرة طويلة؟

هكذا دارت الأسئلة في عقول الجند المتأهبين للقتال ولا يجدون لها جواباً. وسرت الهمهمات تنبئ بالشك والضيق والرجل ماض في طريقه نحو معسكر الخصم.

وكان يقابل ذلك من معسكر الخصم نظرات الهزء والسخرية وتمتمات كانت تبلغ أذنيه فلا يحيد بنظره عن الطريق: «يا للجبان الرعديد! هاكم المقاتل الصنديد يهجر معسكره مرتعداً فرقاً من هول المعركة قبل أن تنشب!».

ولكن يوديشترا لم يكن ليأبه بما يدور بين الجنود، إن في معسكره وإن في معسكر الخصم، فظل يتابع طريقه: وبدا واضحاً عندئذ أنه يقصد بهيشما الذي كان ينظر إليه مقترباً منه، وفي عينيه ما يومئ بحنان عظيم.

حيا يوديشترا بهيشما بهزة من رأسه ولمس قدميه بيديه، وشرع يطلب منه أن يمنحه بركته وأن يأذن له بقتاله. فيباركه العم ويأذن له بالقتال، ويسأله أن يطلب منه مكرمة ـ إلا النصر. ويمضي فيخبر من كان قد سهر على تنشئته وتثقيفه وتدريبه بأنه إنما اختار جانب القوة والسلطان لأن البشر ينجذبون بطبيعتهم إلى ما فيهما من إغواء، فهم عبيد لهما، ولكنهما عصيان لا يخضعان لأحد. وسرعان ما يدرك بهيشما أنه استرسل في حديثه ويلحظ أن يوديشترا لم يأت للإصغاء إلى حديثه بل سعياً إلى غرض، فيسأله بغيته؟

- «لست أبغي أن أحملك على الحنث والتنكر لعهدك لحلفائك. ولكنك أنت شيخي ومرشدي، فارشدني إلى سواء السبيل، كيف لي أن أحاربك وأبرأ من العار وأسلم من لوم اللائمين؟».

- «أي بني، إني لن أتقاعس عن تقديم العون لك، كذلك لن أتقاعس عن محاربة أعداء القوروشيين!».

- «ولكن قل لي أيها النبيل بهيشما كيف لي أن أدحرك في المعركة، وأنت كما عهدتك جبار ذو بأس».

- «ما من أحد، ولا الآلهة ذاتها، يقدر على أن يهزمني في المعركة!».

- «إذن، فأخبرني كيف أقتلك؟».

- «ولا هذا أيضاً، فموعد موتي لم يحن بعد!».

هز يوديشترا رأسه وأطرق يحاول استيعاب ما قاله بهيشما. ثم حياه ومضى - وإخوته يتابعونه بأنظارهم - إلى درونا:

- «أي درونا، أخبرني كيف لي أن أقاتلك ولا ينالني العار والإثم، وكيف لي أن أهزم أعدائي؟».

- «إن الإنسان عبد للقوة والسلطان، وإن كانا لا يخضعان له، حسبك من ذلك أن تقاتل وتقر عينك! والآن سلني مكرمة، وهي لك، إلا أن تكون النصر. فأنت تعلم أني سأحارب إلى جانب القوروشيين، إلا أنني سأدعو لك بالتوفيق».

- «حسبي هذا منك! فادع لي بالتوفيق، وامض في القتال مع القوروشيين!».

- «أي بني، إن كريشنا يقف إلى جانبك، وحيث كان كريشنا سادت الدارما وكان النصر. فليهدأ بالك!».

- «ناشدتك أن تخبرني، أيها الشيخ الجليل، كيف لي أن أهزمك في الميدان؟».

أجاب درونا:

- «لست أدري. ولكن أعلم أنه لن يكون لك الظفر مادمت حياً!».

عندئذ سأله يوديشترا:

- «إذاً، كيف السبيل إلى قتلك؟».

- «ما من أحد يستطيع أن يقتلني وأنا أقف محارباً ولكن لك أن تحاول حين أضع سلاحي وأستغرق في رياضة النفس في الميدان! ولسوف أومئ لك بأن تسعى إلى قتلي حين يأزف الوقت».

انتهى حديث درونا، وحياه يوديشترا بالتحية التقليدية، ثم مضى إلى كريبا فكرر التحية له، ثم سأله أن يمنحه بركته. وهب من بعده إلى ملك مدراس شاليا وطلب منه أن يباركه أيضاً:

- «سألتك، أي شاليا، أن تمنحني مكرمة واحدة: أن توهن قدرة كارنا في المعركة!».

وطمأنه شاليا بأن سيكون له ذلك.

عاد يوديشترا إلى معسكره هادئ النفس مستقر الفكر. أما كريشنا فقد شاء أن يحادث كارنا ويدعوه للإنضمام إلى صف آل باندو، وتوسل في دعوته بتذكيره بعدائه لبهيشما؛ أليست هي الكراهية التي حملته على أن يقسم ألا يقاتل طالما كان بهيشما حياً. وزين عرضه بأن له أن يعود إلى صف القوروشيين، حين يسقط غريمه! ولكن كارنا ظل على عهده بالثبات إلى جانب دريودانا! كانت محاولة غير موفقة لم يملك كريشنا بعدها إلا أن يعود من حيث أتى.

صاح يوديشترا من مركبته يدعو الملوك إلى أن يختاروا بين الصفين قبل بدء القتال، وإلا فلا تراجع بعد أن تتخالف السيوف، فعندئذ تتحدد المواقف ويمتنع الندم!

خرج يويوتسو من صفوف القوروشيين خفيف الخطوة مبتسماً، وتقدم من صف يوديشترا يعرض عليه الإنضمام للقتال

إلى جانبه، إن قبل به حليفاً، فرحب به وقدمه إلى حلفائه مغتبطاً مسروراً، بين قرع الطبول ونفخ الأبواق.

كانت الشمس قد علت حارة في كبد السماء، ودوت الأصوات واختلطت ببعضها شديدة قوية تكاد تنبئ بزلزال عظيم حتى اهتزت لها الأرض. ها قد اندلعت تلك الحرب المدمرة التي ما انقطعت تتردد أصداؤها منذ ذلك الحين إلى اليوم.

تطايرت السهام من الطرفين غزيرة تمطر السماء والأرض كالشلال المتدفق، بصوت كالفحيح كأنما آلاف الأفاعي انطلقت مطاردة، ودارت العربات هادرة. كان مشهد المعركة رهيباً يثير الفرق حتى في أصلب القلوب. واستمرت رحى القتال تدور والمقاتلون يشتدون في قتالهم.

وكان بهيشما قد ركز هجومه على نقطة في صف معسكر الباندوفيين، وما انقطع يضغط في هذا الاتجاه، يدعمه خمسة من حلفائه الملوك، حتى تمكن من اختراق دفاع الخصم، وعلت رايته التي تحمل علامة شجرة النخيل خفاقة في سماء المعركة وبين صفوف الأعداء. والتفت عندئذ يمطر فيلة الأعداء بسهامه، فيوجهها إلى حيث أعضائها التناسلية، فتقع متلوية من الألم وتنهار على الأرض فتحدث دوياً كالزلزال. وللتو هرع ابهيمانيو لاعتراضه، ترفرف فوق عربته رايته الذهبية، ويطلق نحوه والملوك الخمسة السهام، ويثبت بهيشما كالطود بل كقرص الشمس التي تحرق كل ما تحتها، ولا يبالي بما كان يناله، ثم يطلق عشرات السهام السامة نحو الجنود الباندوفيين، فتتعالى منهم أصوات الفزع والألم.

وانتهت المعركة في أول أيامها مع غروب الشمس، ومعسكر آل باندو في حالة اندحار وشتات، وبهيشما مسيطر على أرض المعركة بلا منازع.

وفي اليوم التالي تهيأ القوروشيون للقتال، فأعادوا تنظيم

كتائبهم، واتخذوا أوضاعاً تتناسب مع ما انتهى إليه القتال في اليوم السابق، حسب خطة مبتكرة تنقل المعركة إلى حال أفضل. بدا بهيشما القتال بهجوم عنيف، وللتو احتدم القتال واشتد، وأخذت السهام تتطاير في كل اتجاه، وتعالى الضجيج والصخب، والجنود في اضطراب وجلبة. هذا يصيح برفاقه أن يحموا مجنباته، وذاك يأمر جماعته بالتقدم والهجوم، وآخر يهيب بكتيبته أن تصمد في موقعها، ثم آخر يزعق بعسكره أن يتراجعوا إلى صف جديد للدفاع. وكانت الدروع تتفكك تحت السهام المتساقطة فتحدث أصواتاً كالفرقعة، أو كالجبال إذ تتفجر.

وحين انتهى ذلك النهار كانت ساحة المعركة مغطاة بالرؤوس، وجثث القتلى متناثرة هنا وهناك، ويتردد في سمائها أنين الجرحى، والأرض كلها قد اغتسلت بالدم الزكي، والكواسر تحط في أسراب لتنهش من لحم القتلى من الرجال والدواب، وكأنما هذه الأرض تحولت إلى يباب.

وفي اليوم الثالث استأنف المحاربون حربهم، فلم يختلف هذا اليوم عن سابقيه. فقد سقط يومئذ من سقط وجرح من جرح، وتدفقت الدماء القانية كالنهر. وما كان اليوم الرابع إلا تكراراً لما سبقه. وكذلك شأن اليومين التاليين: جنود يسقطون وآخرون يضمدون جراحهم والحرب دائرة تلتهم الرجال بلا أمل أو رجاء، إلا أن يصمدوا ليوم آخر يكون فيه الحسم.

ولما كانت ظهيرة اليوم السابع برز يوديشترا يعرض مهارته في فن الحرب. ومازالت المعركة تدور سجالاً حتى اختفت الشمس وراء التلال، وعاد نهر الدماء يتدفق ويزداد مع اشتداد القتال. كان قتالاً ضارياً حتى أدركت نبأه الذئاب والمخلوقات الشريرة، فأخذت تطوف حول المكان تنتظر انتهاء ذلك اليوم لتنال وجبتها التي غدت تألفها من جثث الصرعى. فإذا انقضى ذلك اليوم انسحب الأبطال

ليستريحوا من عناء القتال، ويلتفتوا إلى جراحهم للتضميد والمعالجة.

كان ذلك اليوم ملحمة جلّى فيها المقاتلون، وغدت مآثرهم إلهاماً للشعراء وحملت البراهمة على الانقطاع للتضرع، فيما خلد الجميع للراحة على أصوات المغنين يغنون أغانيهم والعازفين يعزفون ألحانهم، فتطرب لها النفوس وتهدأ. ثم نام الجميع لينهضوا لمواجهة يوم آخر.

وفي اليوم الثامن دارت المعركة بين دريودانا وابن بهيما المارد غاتوتكاشا. وكانت الهزيمة من نصيب دريودانا. فانسحب وتراجع لينجو بنفسه. ورأى عندئذ أن الحرب قد طالت ولم تبلغ نتيجتها الحاسمة. فشاور شاكوني ودوشاسنا وكارنا في خطة للإيقاع بأبناء باندو وقتلهم في المعركة.

جال بهيشما العظيم جولته زارعاً الموت والدمار في معسكر الباندوفيين، فكانت المركبات تدور بلا فرسان، وجثث الأبطال متناثرة بالآلاف على أرض المعركة، والأسلحة مرمية في كل اتجاه، والفيلة والدواب مكدسة في الساحة تكديساً. وسادت الفوضى واضطربت الصفوف، حينئذ أخذ جنود الباندوفيين يولون الأدبار.

صاح كريشنا، حين رأى زمام الأمور تفلت والمعركة تتحول إلى هزيمة ماحقة بالباندوفيين، أن اضرب يا أرجونا فهذه ساعتك، وإلا فات الأوان: «اضرب ولا تتردد، وتذكر قسمك بأن تقضي على القوروشيين.»

وأي خيار كان أمام أرجونا غير أن يضرب بكل ما ملك: فإما نشوة النصر وإن شابها طعم الدماء وإما الحزن في شقاء المنفى من جديد: «إذن، هيا، يا كريشنا، وقدني إلى بهيشما لأجسم الأمر معه».

استجمع إخوة أرجونا حماسهم من جديد، حين رأوه يدور

بعربته ويندفع نحو بهيشما، وعاودهم حماسهم مرة أخرى وهم يرونه يشطر قوس بهيشما برمية سهم، مرة بعد مرة. صاح بهيشما مثنياً على أرجونا، ثم أمطره في غمضة عين بدفقة من السهام أطارت لبه.

انتاب كريشنا قلق شديد، وبات يخشى من خسارة المعركة إن قصر أرجونا في مقارعة بهيشما. فأوقف العربة واتجه وهو يزأر نحو بهيشما.

وبدا بهيشما مغتبطاً لرؤية كريشنا، فالتقط قوساً وناداه مرحباً أن هيا للقتال.

هرع أرجونا وراء كريشنا، ولم يفلح في منعه من الاشتباك مع بهيشما إلا حين ذكره بعهده بألا يقاتل في هذه الحرب. فماذا يقول فيه من يبلغه بأنه قد نقض عهده؟

توقف كريشنا لحظة ثم استدار عائداً إلى مركبته وهكذا استمرت المعركة تدور سجالاً بين المتحاربين حتى لاح الفجر وعم الغبار الأفق، فسحب يوديشترا قواته من الميدان للراحة.

انتحى يوديشترا بكريشنا في لحظة كان فيها مستغرقاً في التفكير ونهباً للقلق، وكاشفه بأنه يرى ألا فائدة من الاستمرار في القتال. وحدثه برغبته في الانقطاع إلى حياة التأمل في الغابة. فكيف له أن يتابع هذه المهمة التي نهض إليها، وبهيشما يفشل عليه جهوده ويحبط كل هجوم تشنه قواته فتنهار أمامه وتذوي كالحشرات إذ تصطدم بالنار.

سمع كريشنا شكوى يوديشترا، وأشار عليه بأن يصمد وألا يسمح لليأس بأن ينال منه، ونصحه بالتماس مقابلة بهيشما ويتبين منه الوسيلة التي يمكن أن تورده موارد الهلاك. وبعد فهل يمسك المرشد عن كشف السر لحواري له؟

استقبل بهيشما وفد الستة حين دخلوا عليه الخيمة ورحب

بكريشنا وصحبه أحسن ترحيب، وسألهم إن كانوا يبغون منه أمراً ليجيبهم؟

وأجابه يوديشترا مترفقاً أنه يريد أن يشير عليه بوسيلة لكسب الحرب لتكون نهاية لهذا الموت والدمار، وهو يعلم علم اليقين أنها لن تنتهي طالما ظل حياً! فكيف السبيل إلى قتله، وهو المحارب المجرب الذي عجزت الجيوش عن هزيمته وتراجعت أمام تألق شمسه؟

قال بهيشما:

- «يا بني إنك لن تبلغ هذا، مادمت حياً. فطالما كان هذا القوس الكبير بيدي لن يملك أحد من البشر أو الآلهة، ولو كان إندرا ذاته، أن يمسني بأذى. أما إذا تخليت عن سلاحي فإن أصغر مقاتل كفيل بأن يصرعني. ولكنك علمت عني أني لا أقاتل من كان أعزل، أو راجلاً، أو راكباً عربة بلا علم، أو جباناً ولا أقاتل، بعد، الجندي الخائف والمذعور أو المرأة. أفليس في صفك شيخاندين؟ إذن فاعلم أن صاحبك كان امرأة، هي أمبا، في حياة مضت. ولعلك تعرف هذه القصة. إذن فليضع أرجونا شيخاندين في مقدمة الهجوم. فأنا لن أرفع سلاحي في وجه امرأة!».

ودع الجمع بهيشما وغادروه إلى مواقعهم من جديد، وبدا أرجونا حينئذ قلقاً، وصارح كريشنا بتردده في قتل من كان بمثابة الأب والمرشد.

ولكن ماذا عن قسمك، يا أرجونا؟ أهذا عهد الشرف الذي يقطعه أحد المحاربين؟ هيا امض في ما أنت في سبيله فليس ثمة مهرب من القدر! حسبك من هذا كله أن تؤدي الواجب.

وإذن فليكن شيخاندين في المقدمة، وليكن السبب في قتل بهيشما.

كان اليوم التاسع، مثل أيام الحرب السابقة، مذبحة كبيرة تنزل

بمعسكر الباندوفيين. ولكن إذ حل اليوم العاشر وجد بهيشما نفسه قد سئم القتل، بل أصبح ينزع إلى الموت!

كانت المبادرة لأرجونا في الهجوم ذلك اليوم. فجعل شيخاندين في المقدمة واقترب من بهيشما كالفيل الهائج، وهو لا ينقطع عن حثه على الإسراع إلى ملاقاته.

ولكن بهيشما تجاهل هجوم شيخاندين، وجعل أرجونا هدفاً لسهامه ولما لاحظ دريودانا مناورة أرجونا، أمر جماعة من جنده بمشاغلته. وكاد بهيشما يطبق على أرجونا بسلاح من أسلحته الرهيبة، لولا أن اعترضه شيخاندين، فاضطر للتراجع، وشرع يقذفه بالسهام. ورد عليه أرجونا بقذائف من قوسه الرهيب، ورأى البطل العظيم السهام تنزل على أسلحته فتتفتت بين يديه حين يلتقطها.

إذن، فلا سبيل لك، يا بهيشما، إلى القتال، وكريشنا يشد أزر أرجونا، وأنت قد أقسمت ألا تقاتل شيخاندين. وإذن، فقد حان الوقت لتفيد من المكرمة التي منحك إياها أبوك يوم تزوج ستيافاتي ـ بلوغ الموت حينما تشاء.

وفجأة تلقى بصدره تسعة سهام أطلقها شيخاندين، فلم يتزحزح، ثم تلقى خمسة وعشرين سهماً من قوس أرجونا وأتبعها بمائة سهم. اخترقت درعه وأحس عندئذ بتيار بارد يسري في جسمه.

ترنح بهيشما، وصاح يوديشترا بجنده أن بادروه بكل ما في أيديكم، فهرعوا إليه بالسيوف والفؤوس والرماح وأعملوها في جسمه حتى تأكدوا من سقوطه بلا رجاء في القيام.

وهكذا انتهى اليوم العاشر وجثث القتلى في عسكر الباندوفيين تملأ الساحة.

سقط جسد بهيشما، مثخناً بالجراح، حتى يكاد لا يخلو موضع

منه من طعنة سيف أو رمح أو سهم غرس في لحمه. واضطربت الأرض في تلك اللحظة من الغروب، وهناك على تلك الأرض المباركة سجي جسد البطل العظيم على فراش من السهام، ووجهه إلى الشرق، وعندئذ هطل مطر بارد، وتحولت الشمس إلى الجنوب، وتعالت أصوات من السماء تنعي أعظم الأبطال.

ولكن بهيشما رد صائحاً من فراشه أنه لم يمت بعد، وأنه مازال حياً.

سمعت غانجا أمه وابنة الهمالايا نداءه فأرسلت إليه من بحيرة مانسا جماعة من أهل القداسة الأطهار، متخفين في شكل سرب من البجع، تحلقت البجعات حوله وأخذت تندب أسفاً لغيابه والشمس مازالت في الجنوب. غالب البطل العظيم آلامه وصاح أنه وحده يملك أن يحدد وقت أفوله، ولن يكون ذلك قبل أن تدخل الشمس زاوية الشمال.

ذاع نبأ سقوط بهيشما وانتشر انتشار النار في الهشيم. ولم يعد المحاربون يقوون على القتال، بعد غياب سيد الساحة، فألقوا بأسلحتهم، ومشوا في موكب عمّه الحزن، إلى حيث كان مسجى.

واجتمع عندئذ الجمعان آل باندو وآل قوروش عند فراشه ليقدموا له آيات الاحترام اللائق بهذا الكائن الخارق، البطل والمعلم.

نظر إليهم البطل المسجى ورحب بهم، ملوكاً وأبطالاً، وأرخى رأسه، ثم نادى أن آتوني بوسادة. وهرع الناس من كل جانب ليعودوا بوسائد من الحرير، فيردها، ويومئ إلى أرجونا مبتسماً أن يأتيه بوسادة الأبطال.

التقط أرجونا قوسه، وهز لبهيشما رأسه، ثم أطلق ثلاث سهام حطت على الأرض من أعلى السماء، ولاحت على وجه البطل ابتسامة سرور: «نعم هذه وسادتي! فهكذا ينام المحارب في ميدان المعركة. والآن سأغمض عيني حتى تدخل الشمس، تجرها الجياد السبعة

المطهمة، زاويتها الشمالية، فأودع الحياة عندئذ كما يودع الصديق صديقه. والآن احفروا حفرة من حولي، أيها الملوك العظام، يا أهل القوة والبأس، ودعوني وحدي أصلي للشمس!».

ويتدافع الأطباء البارعون وأهل الخبرة لانتزاع السهام من جسد البطل وتضميد جراحه فيصرفهم بإشارة من يده، ويشير إلى دريودانا أن يصلهم ويجزل لهم العطاء. نعم، لقد عزم الرجل على مغادرة هذه الحياة، وما عاد للدواء جدوى معه.

حل الليل والقوم مجتمعون حوله يرشون جسده الطاهر بعصير أشجار الصندل وينثرون عليه الأرز والورود.

تنهد الرجل عميقاً وطلب جرعة من الماء. فهرع القوم إليه بعصير الفواكه والماء البارد، فأشار لهم بالابتعاد، وأشار إلى أرجونا أن يأتيه بماء يرطب به جوفه!

صعد أرجونا مركبته ومد يده بقوسه الرباني وشد الوتر إلى أقصاه، متمتماً بترنيمة مقدسة، وأطلقه موجهاً سهمه إلى الجنوب. وللتو تفجرت الأرض عن بئر تدفق منه ماء طاهر من نعم الآلهة، فجرع منه بهيشما حتى استراحت نفسه. والتفت عندئذ إلى دريودانا قائلاً: «أرأيت، فمن سوى أرجونا يأتي بمثل هذه المعجزة، فهيا، يا بني، واطرح من قلبك الغضب، وأوقف هذه الحرب التي لن تجلب في النهاية إلا الموت وخراب العالم، ودع الجنود للعيش! أعد ليوديشترا إندرابراستا. هذه وصيتي، وليعم السلام الأرض بعد موت بهيشما!».

غادر الجمعان تاركين بهيشما ليخلو إلى نفسه، وتفرق كل إلى معسكره، ولكن كارنا شاء أن يزور البطل الذي ذوى، ليودعه الوداع الأخير.

ظل بهيشما ثابتاً في وضعه، شاخصاً إلى السماء، أو لعله كان مغمض العينين، أو لعل عتمة الليل أفسدت نظره، فلم يتبين زائره.

انحنى كارنا فوق البطل المسجى، وقال بصوت خنقته العبرات:

- «انظرني، فأنا كارنا ابن رادا الذي لم تكن لترتاح إليه من قبل!».

مد بهيشما ذراعه وضم كارنا إليه ضمة حنان لم يألفها من كان غريماً له، وقال بلين:

- «لا، إن رادا ما كانت لتقدر على حملك. فالحق أنك ابن كونتي، وأنا، يا كارنا، لا أحمل لك غلاً أو ضغينة. فأنت محارب عظيم، وهذا ما لا أنكره عليك، فإن قسوت عليك في الكلام يوماً في معسكر القوروشيين، فلما ظهر من عجرفتك وتعاليك. ولكن الحق أنك محارب عظيم وند لأرجونا، وتلتزم بالأصول وقواعد الشرف في القتال، وأراك متبتلاً ملازماً للبراهمة في التقوى والصلاح. وها إني أودع الحياة الآن، ولا أملك إلا أن أوصيك، وأنا برئ من كل غرض، بأن تعود إلى معسكر الباندوفيين، أهلك وعشيرتك. ولتتوقف الحرب. وتذكر أن يوديشترا وإخوته هم إخوتك، وكريشنا حليفهم، ولن يفشلوا في أمرهم».

رد كارنا:

- «اعلم ذلك يقيناً. ولكني لا أملك إلا أن أقاتلهم فذلك عهدي وقسمي. ولا أحتمل أن أنكث بقول. سأقاتل ونفسي مطمئنة إلى أني أنهض بواجبي. وإني لأرجوك أن تقبل مني هذا. فاصفح عني إن أخطأت في فعل أو قول، وامنحني إذنك بالقتال!».

- «لك ذلك، يا كارنا! فقاتل بنفس خالصة من الغضب، بلا أمل في ثواب أو عقاب. وتذكر أني لم أكن أبغي إلا السلام بين القوروشيين والباندوفيين. وها إني أعلن فشل مسعاي!».

السفر السابع

درونا

اضطرب دريودانا لغياب بهيشما أشد الاضطراب، وثار به القلق، وحدث صاحبه كارنا فيما يشغل باله: فها هو يفقد قائداً فذاً وبطلاً عز مثله. فمن يتولى قيادة الجيوش بعده؟ فهو يحتاج إلى قائد له من المزايا ما يجعله يجمع الجنود وراءه، ويحوز على ثقتهم، وإلا أصبحوا أشتاتاً، وانهار معهم كل أمل بالنصر.

فاقترح عليه صاحبه أن يولي درونا فهو أهل لهذه المهمة، وقد عرفه القوم خبيراً بالحرب والقتال، ويسلمون له بالقيادة.

ووافقه دريودانا على هذا الاقتراح، فحمله وصاحبه إلى درونا، وأعلن قراره على ملأ من قادة الفرق والجنود:

ـ «لقد عقدت لك، أي درونا، لواء القيادة، فسر، إن ارتضيت به، وابلغ بنا النصر! ولسوف يتبعك المقاتلون البواسل وينصاعون لأمرك متى أمرتهم. لقد ادخرناك لهذا اليوم العظيم وأنت له، فمن يقوى على التصدي لك حين تتولى قيادتنا؟ إن أرجونا ذاته ليتردد ألف مرة قبل أن يجرؤ على قتالك. والرأي عندي، إن قبلت بهذه المهمة، أن نعمل على أسر يوديشترا حياً، فإذا أُسِرَ فقد الباندوفيون

رأسهم، وتيسر لنا أن ننهي هذه الحرب بالنصر بأقل كلفة، وسَلِمَ أبناء العم، وغدا لنا أن نتدبر الحال معهم في السلم».

تعالت أصوات الجنود مرحبة بهذا الإعلان، وقف درونا عندئذ يرد على هذا التكريم بالقبول، ويعرض كفاءته للمهمة: فقه بأسفار الفيدا وشروحها الستة، ومعرفة بالنفس البشرية، ومهارة في استعمال الأسلحة وإذن فهو يقبل بقيادة الجيوش للقتال ضد الباندوفيين.

جمع دريودانا الجيوش ونظمها في تشكيل دائري، ووضع ألف ملك من الأعلام على رأس الفرق. وعندئذ سأل هؤلاء القادة إن كانوا على استعداد للقتال ضد الباندوفيين، فتعالت أصواتهم بالعهد على القتال حتى الموت، فلما تأكد من ولائهم، ولى حفيد ديتراشترا الأمير لكشمان قيادة قوة ضخمة في المقدمة، وتقدمت بعده الفرق، منسقة الحركة، للقاء أرجونا.

أما دريودانا فقد اتخذ موقعه في الوسط، يحيط به كارنا ودوشاسنا وكريبا، وبجانبه ابن درونا أشفاتمن وثلاثون أميراً من أبناء ديتراشترا.

انتاب يوديشترا القلق، حين أبلغته عيونه وأرصاده بما دبره دريودانا، فعهد إلى ابهيمانيو، ابن أرجونا، أن يتولى خرق هذه الدائرة، ثم تتبعه الجيوش بتحطيم صفوف الأعداء، فإذا نجح في الهجوم يكون قد تم له كسر دريودانا، قبل عودة أرجونا الغائب لقتال بهغداتا.

ويقبل ابهيمانيو المهمة على صعوبتها، مع علمه بأنه قد يقضي قبل أن يكملها. وكيف له أن يرفض، وهو أحد الأربعة الذين يمكن لهم إنجاز مثل هذا الخرق.

وللتو تهيأ ابهيمانيو لحملته، وأسرع عند اكتمال استعداداته للاصطدام بصفوف القوروشيين.. ثم تابع الضغط عليهم حتى تم له

اختراق أطواق الدفاع القوي، وكاد يشتبك مع كارنا، لولا أن أخا كارنا بالرضاع اعترضه بموجة من السهام، وعندئذ رد عليه ابهيمانيو بسهم فصل رأسه عن جسده. فانسحب كارنا من المعركة بعد مقتل أخيه، وترك ابهيمانيو طليق اليد في مطاردة الملوك الآخرين.

كان هجوم ابهيمانيو المفاجئ وضغطه وانسحاب كارنا بعدئذ أقوى مما يستطيع القوروشيون احتماله. وسرعان ما انهارت صفوفهم، وتفرقوا في كل اتجاه مذعورين، تطاردهم سهام ابهيمانيو، بينما تعثر آخرون في اندفاعهم للهرب من هذا الجحيم، فوقعوا فوق بعضهم، فيما كان البطل المغوار يصول ويجول بين صفوف من صمدوا، إلى حين، ويناور بينهم حتى أصبحوا فلولاً هاربة. وعندئذ أسرع جيادراتا على رأس قوة لسد الثغرات في صفوف القوروشيين بعدما هرب منهم من هرب وتراجع من تراجع وانسحب من القتال من انسحب.

رأى كارنا الموقف يغدو صعباً، وخشي من انهيار معنويات الجنود، فتتحول المعركة لصالح الباندوفيين، وعرض الأمر لدرونا، فأصغى إليه بشدة واهتمام، ثم علق على كلامه قائلاً:

- «إن ابهيمانيو فتى شجاع غير هياب. ذلك أمر لا ريب فيه. وها أنت تخبرني بأن درعه قوي لم يقدر أحد على خرقه. ولا عجب. فأنا الذي علّم أباه أرجونا اختيار الدروع وارتداءها. ولاشك في أن الابن أخذ عن أبيه هذا الفن، ولكن اعلم أن لكل حال تدبيراً. فلك أن تقصم قوسه وتقطع الوتر وتقتل جياده وتصرع سائسي عربته، فإذا كان ذلك وانتزعت منه قوسه وعربته، فستجده ضعيفاً لا حيلة له!».

التقط كارنا تلك النصائح وأخذ بها فتربص وخمسة من الرجال بابهيمانيو ليحسموا الأمر معه. فكان أن سدد كارنا سهمه إلى قوسه كما وجهه درونا فقصمه من وسطه، وأرسل رفيقه كريتافارمان

سهامه فأصابت جياده، أما كريبا فهاجم سائسي عربته وصرعهما، ثم تابع الجمع الضغط على ابهيمانيو الراجل الأعزل من قوسه، فتصدي لهم بسيفه مهاجماً وبدرعه مدافعاً يرد عنه ضرباتهم، يصول ويجول بينهم وينزل عليهم بخفة وسرعة كأنه ملك الطيور الغارودا، وكاد يتغلب عليهم في لحظة، ولكنهم أدركوا خطره، فأخذوا يمطرونه بسهامهم من بعيد، ثم أرسل إليه درونا سهماً كسر مقبض سيفه، وأتبعه كارنا بسيل من السهام اخترقت درعه، فغدا أعزل تماماً لا حيلة له ولا قوة.

التقط ابهيمانيو رمحاً من الأرض وأسرع يريد توجيهه إلى ابن درونا أشفاتمن، ولكن المحارب الفتي تراجع خطوات قليلة يبحث عن مهرب من الموت المحقق.

وكاد الرمح يبلغ غايته، ولكن ابن دوشاسنا اعترضه برمية من رمحه، بعد أن انطلق الرمح من يد ابهيمانيو وأصاب هدفه. وللتو سقط المحاربان معاً على الأرض كشجرتين عملاقتين، أو فيلين ضخمين، بعدما نال منهما التعب والإرهاق كل منا، ثم انهارا صريعين. وهكذا قضى هذا المحارب الصنديد بضربات من كل اتجاه.

ما أن وقع بطل الباندوفيين، حتى أصابهم الذعر، وتفرقت صفوفهم، وأخذ كل ينشد خلاصه في كل اتجاه: وبات إله الموت سيد الساحة في تلك الساعة من الزمن، حين مالت الشمس إلى المغيب، وسمع عواء الذئاب عندئذ بالقرب من المكان.

عاد كريشنا وأرجونا من حملتهما على بغهداتا فوجدوا القوم في حزن ووجوم، فبادر أرجونا إلى سؤالهم عما وقع لهم في غيابه، ولاحظ غياب ابنه فتساءل عن سبب تلكئه في الحضور للسلام وتهنئة أبيه بعودته مظفراً بعد غياب. فما وجد أحداً يجيبه، فأدرك عندئذ أن مصيبة قد ألمت بابنه، أشجع الشجعان ابهيمانيو: «أخبروني يا قوم،

أهو مطروح، غارق في دمه، على أرض المعركة، هل أفلت حياته كالشمس الغاربة؟ وماذا تراني أخبر أمه سوبهدرا؟ وماذا ستقول دروبدي حين تعلم بمقتله؟».

ولكم حاول كريشنا تعزية أرجونا وتهدئة خواطره فعجز، فقد بلغ الحزن بالأب ما لا ينفع معه أي عزاء.

- «كيف وسعكم أن تتركوه لحتفه، وأنتم مدججون بالسلاح؟ أتراني أخطأت حين خلفته بين أيديكم أيها الأبطال الصناديد؟ لقد كان الأجدر بي أن أعتني به بنفسي. إن إندرا ذاته ما كان بوسعه أن ينال منه، لو أنكم وفرتم له الحماية. فكيف جرؤوا على اعتراضه وقتله وهو في حماكم؟ الحق أنكم خلوتم من الرجولة والحمية وأصبحتم جبناء أضعف من أن يقوى ساعدكم على حمل السيف للدفاع عن بطل عجزت الأمهات عن أن يلدن مثله.

ولكن ها قد كان ما كان وإني لكفء لقتلته! وها إني أقسم على أن أفنيهم وأهلهم وأنصارهم، وأقضي على جيوشهم وأمزقهم شر ممزق. وإني لقاتل جيادراتا في الغد!».

التقط أرجونا قوسه الرهيب الغانديفا وشد وتره حتى انحنى في دائرة فأثار ضجة ملأت السماء، فحمل كريشنا بوقه ونفخ فيه وانضم إليه أرجونا في النفخ في بوقه فتردد صوت النفير في أرجاء العالم الأربعة، حتى بلغ أرصاد دريودانا فنقلوا الخبر إلى جيادراتا فانخلع قلبه من شدة الرهبة. ومضى الرجل يحمل خوفه واضطرابه إلى حلفائه ليتداول معهم في ما اعتزموا قبل أن يتمكن منه أرجونا وكريشنا.

وسمع من دريودانا ما طمأنه إلى أن الجميع سيوفرون له الحماية أينما توجه أو حل، وجعلوا له إحدى عشرة كتيبة لتحرسه من أية داهمة.

في تلك الليلة مضى دريودانا ومعه جيادراتا إلى قائد جيوش

القوروشيين درونا، وجلسا بين يديه بكل وقار وتواضع، ثم بادره دريودانا بالسؤال: «أخبرني بلا مجاملة أيّنا الأفضل، أنا أم أرجونا، في دقة التسديد وسرعة الذراع في التقاط السلاح وقوتها في الضرب؟»

رد عليه درونا:

ـ «لقد علمتكما أنتما الاثنين، وتلقيتما علماً واحداً لا يفضل أحدكما الآخر فيه، ولكن أرجونا خبير برياضة النفس، ويعرف اليوغا. ويأخذ نفسه بالشدة والصرامة، وله نهج في الحياة. وإذن، فهو الأفضل. ولكن لا تخش شيئاً. فالآلهة ذاتها لا تستطيع أن تمس إنساناً في حماي. ولسوف أقوم في الغد بتنظيم قواتي بشكل لا يستطيع أرجونا اختراقه. وبعد، فإنك أديت فروضك الإلهية، ولن تهاب الموت حينما تواجهه».

ورأيت معسكر القوروشيين، في فجر اليوم التالي، في حركة شديدة، والقادة والجنود يتفقدون أسلحتهم، ويصيحون صيحات الوعيد منذرين أرجونا بالشر. إن تجرأ على مواجهتهم: «أين أرجونا؟ بل أين كريشنا؟ وأين بهيما؟»».

أما درونا فقد انشغل بتدبير خطة لدحر أرجونا وهزم الباندوفيين، فقال لجيادراتا أن يضم إليه كارنا وأشفاتمن وفريشيسينا وكريبا ويتبعه بمائة ألف فارس وحصان وستين ألف مركبة وأربعة عشر ألف فيل ويبقى بعيداً عنه مسافة اثني عشر ميلاً. وعندئذ اطمأن قلب جيادراتا وعمل بما أمره درونا.

بدأ أرجونا بالهجوم، فوجه الضربات إلى العدو قوية متلاحقة ولم يتح له أن يتوقف لالتقاط أنفاسه، وتمكن في النهاية من اختراق صفوف الفرسان والعربات. ورد عليه القوروشيون بوابل لا ينقطع من السهام وأمواج من الرماح الطائرة. ولكن أرجونا تمكن من صدها بسهولة ويسر.

وفيما كان القتال على أشده لاحظ بهيما كارنا متوارياً في عربته فداهمه في لحظة وانتزع رايته. فثار عندئذ غضب كارنا وبرز للقتال، فدارت المعركة بينهما شديدة ضارية، ورأى الجنود بهيما يقبل على العربات فينزع منها دواليبها ويعترض الفيلة فينقض عليها انقضاضاً ويعمل في عظامها كسراً وتحطيماً، ويقذف كارنا بكل ما تقع عليه يداه، ومازال ينزل به ضرباً حتى تمكن منه في لحظة وكاد يطبق على عنقه ويزهق روحه، لولا أن تذكر قسم أرجونا بقتله، فتراجع عنه، وهم كارنا من طرفه يدفع عنه بهيما في تلك اللحظة وخال الفرصة أتيحت له ليصيب منه مقتلاً، ثم أمسك عن ذلك حين تذكر وعده لكونتي بألا يكون السبب في قتله.

وهكذا تباعد المقاتلان وافترقا.

قال أرجونا:

- «قدني يا كريشنا إلى جيادراتا، فلم يعد في الوقت متسع، والشمس تميل إلى الغروب خلف التلال»، ودارت العربة، فتفرقت الصفوف وتبعثرت، بينما اندفعت براكبيها نحو جيادراتا بجانب رايته التي تحمل علامة الخنزير البري.. فأرسل أرجونا سهمين من قوسه فصلا رأس سائس العربة، ثم اخترقا الراية فمالت وسقطت ممزقة كخرقة بالية.

نظر كريشنا وشاهد الشمس تكاد تغيب في الأفق، فقال لأرجونا أن جيادراتا يتحصن بين ستة ملوك ولن يتمكن منه إلا إذا دحر هذه القوة. وإذن، فليس له إلا التوسل بقوة اليوغا الخارقة ليوهم جيادراتا بأن الشمس غابت فيطمئن ويخرج من بين الصفوف، وله عندئذ أن يوجه إليه الضربة القاصمة. وأجابه أرجونا بأنه لن يتلكأ في الضرب.

وللتو نشر كريشنا بقوة اليوغا الظلام حتى غطى وجه الشمس، وشاهد القوروشيون غيابها، فوقفوا وجيادراتا معهم يتأملون خسوفها في ذلك اليوم.

قال كريشنا:

- «هيا، يا أرجونا، وانتهز فرصتك، فالرجل يتأمل الشمس الآفلة، وها هي ذي الفرصة تحين لك، فاضرب الآن واقطع رأسه. ولكن احذر أن تقع على الأرض وإلا انفجر رأسك شظايا، كما تقول اللعنة!».

زم أرجونا شفتيه، وشد وتر قوسه، ثم أرسل سهماً انتقاه بعناية وهو يتلو مانترا سحرية، فأسرع يختطف رأس جيادراتا من جسمه كما يخطف الصقر العصفور من مكانه على الفنن.

عادت رحى الحرب تدور في الصباح التالي، وشهد الباندوفيون درونا يومذاك يأخذهم كالعاصفة فيشيع بينهم الموت والدمار، فتداعت صفوفهم، ونفرت الفرسان في كل اتجاه. وكاد اليأس يستولي عليهم، فتراجعوا ليعيدوا تنظيم الصفوف بعدما شاع، فيها الاضطراب والفوضى.

تأمل كريشنا الوضع ملياً، وقال لأرجونا:

- «إن درونا قائد فذ، ولن نتمكن من دحره ما لم يجرد من سلاحه، فدعك من الدارما، وتدبر خطة لتجعله أعزل من السلاح، ولعلك تعلم مدى شغفه بابنه أشفاتمن، ولو قتل لرأيته يعزف عن القتال، فابعث بمن يعلن مقتله في المعركة!».

ولكن أرجونا امتعض من هذا الرأي، بينما مال إليه آخرون، أما يوديشترا فلم يقبل به إلا عن كره وبعد كثير تردد.

وعندئذ انتقى بهيما فيلاً ضخماً يسمى أشفاتمن وصرعه برمحه! ثم صاح بصوت فيه شيء من الحرج: «مات أشفاتمن».

شعر درونا بأطرافه تخور حين بلغه الصوت معلناً موت أشفاتمن، وإن راوده إحساس بأن في الأمر كذباً. فهل يهوي ابنه صريعاً هكذا، وهو البطل المقدام ذو البأس؟ ولكن الأمر لم يطل به

كثيراً فعاد واستجمع قوته واستأنف القتال بأقوى مما كان، فأعمل سيفه وأسقط عشرين ألفاً من فرسان البانتشالا، وخمسمائة من الماتسيا، وستة آلاف من الفيلة.

وفيما كان درونا يصول ويجول في الميدان، تجلى أمامه الحكماء فيشفاميترا وجادا غني وبهاردافاجا وغوتما وفاسيشطا وكشيابا وآتري يحف بهم الأتباع، وسمع منهم تقريعاً وتنديداً فما له وهو البراهمي وصنعة السلاح؟ أليس الأجدر به أن يدع السيف جانباً وينتقل إلى ملكوت برهما؟ نعم الأحرى به أن يتذكر الفيدا ويتبع جادة الصواب ويعود إلى طريق الحق!

التفت درونا، خائر العزيمة، حزيناً، إلى يوديشترا يسأله الحقيقة، يوديشترا الذي عرفه لا يكذب ولو ملك العوالم الثلاثة: «هل حقاً مات أشفاتمن!»؟

فأسرع كريشنا يهمس في أذن يوديشترا أن لا ضير في كذبة إذا كانت تنقذ نفساً، وليس من الخطأ الكذب على الزوج، أو لإنقاذ ملك أو براهمي! فهيا ولا تتردد، فلو استمر دورنا بقية اليوم لأفنى الباندوفيين مالم تضع لحياته نهاية ولو بكذبة! وثنى عليه بهيما: «هيا، فالرجل يثق بقولك ولسوف يصدقك، فأنت معروف بالصدق في العوالم الثلاثة».

ورأى يوديشترا نفسه أسير منطق كريشنا وبهيما ورغبته في النصر تتملكه، فاستسلم لقدره وقرر أن ينطق بالكذبة: «نعم، قد مات أشفاتمن! تمهل هنيهة ثم تابع همساً: «الفيل!».

عاد اليأس يستولي على جماع نفس درونا حين سمع يوديشترا يؤكد له خبر موت ابنه، وفقد عندئذ كل رغبة في متابعة القتال، وفي تلك اللحظة، بادره دريشتديومنا بسهم حاد حاول درونا أن يناور لتفاديه، ولكن سلاحه خذله. فهب بهيما وأسرع يحمل دريشتد يومنا بعربته ويهيب به أن يبادره بالضرب، ثم يلتفت إلى درونا قائلاً: «ألم

تسمع بموت ابنك أشفاتمن الأثير إلى نفسك؟ أفلم يؤكد لك يوديشترا نبأ موته؟ فما جدوى قتالك الآن؟».

أما درونا فأشار إلى كارنا أن اصبر وناجزهم ولا تدعهم يقربونك، واحمل عني عبء القتال بعد هذه الساعة! ثم جلس على مقعد عربته وهو يردد اسم ابنه الحبيب «أشفاتمن، أشفاتمن»، واستغرق بعدئذ في تأمله ورياضة النفس.

وللتو رمى دريشتديومنا قوسه وكنانته وهرع إلى درونا بسيفه، والرجل غارق في تأمل برهما والحقيقة والكلمة القدس أوم، ورأى الشهود الخمسة:

سانجيا وأرجونا وأشفاتمن وكريشنا ويوديشترا نوراً يصعد من جسده إلى السماء، وعرفوا في تلك اللحظة أن ذلك المهاتما قد غادر العالم الفاني. أما الآخرون فكانوا غافلين عما حدث، والظن يذهب بهم إلى أن درونا مستغرق في اليوغا.

أسرع دريشتديومنا يلوح بسيفه نحو درونا، بين صيحات الاستنكار من حوله، وبضربة واحدة احتز رأسه، وجر الجثة الهامدة ودار بها. هكذا كانت نهاية هذا الشيخ الجليل ذي الثمانية والثمانين عاماً، والذي عرفته ساحة القتال بطلاً يضارع الفتيان خفة وسرعة ومهارة. ورأى أرجونا دريشتديومنا يرفع الرأس بيمينه، فصاح به أن قف، ترفق فهذا شيخنا! ولكن الرجل لم يأبه بالنداء، بل وجده يحمل الرأس ويرمي به بين الجند، فيثير فيهم الفزع، فينفرون في كل اتجاه.

وصل أشفاتمن إلى الموقع في تلك اللحظة من الاضطراب والفوضى، واندفع لتوه يعمل سيفه حوله، ثأراً لوالده القتيل.

نظر أرجونا إلى هذا الجامح واضطرب لما رأى روح الانتقام تتمالك هذا المقاتل المغوار، فلم يتمالك نفسه من التهجم على يوديشترا: «انظر هذه الثورة فأنت سببها. لقد كذبت لتكسب معركة

وأنت ترى في هذا نصراً! ولسوف تردد العوالم الثلاثة اسمك لهذه الفعلة الشنيعة، كما تردد اسم راما لافترائه على فالي. نعم، لقد استسلم درونا لحسن ظنه بك وثقته فيك، فما كان ليخطر بباله أن تنحدر إلى الكذب، وأنت الذي طالما عرفت بالفضيلة. أما أنا فقد وقفت شاهد زور كالأحمق، ولم أنطق بكلمة، لا، ولم أتدخل لمنعك من الكذب وأنت تزينه كالحقيقة. حقاً إن عذابي لن يقلّ عن عذابك!».

وهكذا تدفقت العبارات، غضبى، تهدر هديراً، من بين شفتي أرجونا، والملوك. من حوله وقوف، صامتون، لا يأتون بكلمة، إن تأييداً وإن استنكاراً لما كانوا يسمعون. وجاء الاعتراض في النهاية من بهيما: «هراء ما تقول! إنك تتشدق بالحديث كالحكيم في صومعته! فهل نسيت أننا أهل سياسة وحرب وقتال؟ أفليس واجبنا حماية أنفسنا؟ دعك من المغفرة فهي من صفات الآلهة، وشيمة من شيم البراهمة والمعلمين، أما نحن المحاربون فلدينا واجبات لا مهرب منها. ولكن ها أنت ذا تهذي فلا تدري الصواب من الخطأ، والخير من الشر. فاختلطت عليك الأمور وأصبحت تضع هذا محل ذاك!».

وتدخل دريشتديومنا: «لعلك نسيت ما أصاب دروبدي على أيدي هؤلاء. فاعلم إذن أن واجبات البراهمي ستة:

أداء الطقوس، والتعليم، والإحسان، وقبول العطايا، والمساعدة في الاحتفالات، ودراسة الأسفار المقدسة.

هل ثمة نص يوصي البراهمي بالقتال؟ أما درونا فلم يتورع عن انتضاء السلاح وقتل جندنا! الحق أنه كان براهمياً زائفاً يخدعنا بسحر زائف، وكان الخير اليوم حين انكشفت أباطيله. وتذكر، بعد، أنه كان يدعم عدونا بهغداتا، فأين الخطأ في قتله؟ هيا، دع عنك اللوم، واستعد لاستئناف القتال، فمازالت الحرب دائرة سجالاً!».

جرى ذلك الحديث لا يعترضه أحد بقول، إلا أرجونا فظل يتابع

دريشتديومنا بطرف عينه وفجأة هم ساتياكي برمح، وهو يرتعد غضباً، ويطلق فحيحاً كالأفعى، وهجم على دريشتديومنا: «أيها الوغد، إني لن أبادلك الكلام، ولكني قاتلك الآن لا محالة!».

أسرع بهيما يعترض هذا الوحش الكاسر، فتماسكا، وشرعا يتصارعان كثورين هائجين، ومازالا يتشابكان، حتى تدخل يوديشترا وتمكن في النهاية من فض هذا الصراع قبل أن يقضي أحدهما على الآخر!

السفر الثامن

كارنا

كان لمصرع درونا وقع المأساة في معسكر القوروشيين فبدا أبناء ديتراشترا في ذهول لهول الكارثة، حتى خشي دريودانا أن تثبط عزائم المقاتلين. فنهض يحث إخوته على عدم اليأس وقال لهم: «لولا ثقتي بقوتكم وبأسكم، ما كنت لأخاطر بخوض الحرب. أما وقد قضى بعضهم في المعركة، فإن ذلك من طبيعة الأمور. وبعد، أفليس الموت مصير المحاربين؟ أليس حقاً أن قدر المحارب أن ينتصر أو يسقط في الساحة؟ فهيا! قاتلوا، فكارنا في صفكم، ومعه الحشود والأسلحة الفتاكة! قاتلوا فأرجونا يخافه كما يخاف الظبي الذئب».

ثم دعا دريودانا حلفاءه قادة الفرق إلى اجتماع ليتدبروا الأمر بعد مغيب درونا، ويشيروا عليه بما يرونه مناسباً. فما وجد منهم إلا الرغبة في الصمود والقتال.

وعندئذ قال أشفاتمن مخاطباً المؤتمرين:

- «اعلموا أيها الملوك والأمراء، أن أساس النجاح، الإرادة إن توفرت، والحظ إن أتيح والتدبير للإفادة، والخطة لإحكام الأمر، واعلموا، بعد، أن القدر هو المرجح إن تساوى الطرفان، فلئن سقط منا الكثيرون وافتقدنا بعض أبطالنا العظماء لم نفتقد المواهب. فلا

تقنطوا! ولنعقد إمارة الجيوش لكارنا، ولنتطلع معه إلى النصر، فهو البطل المغوار الذي لن يقهر».

وخاطبه دريودانا بأرق العبارات، وأطنب في مدح شجاعته وأبدى له كل الاعتزاز بصداقته، وها هو ذا يبغي الإفادة من أقدامه، وشجاعته، ويتوسل بصداقته ليحل محل أفضل القادة، بهيشما، ودورنا اللذين سقطا في ساحة المعركة. أفلا يقبل المهمة، وصاحبه يوليه كل الثقة؟

ورد كارنا، بقوله:

ـ «قد عاهدتك، يا دريودانا، على دحر الباندوفيين وصاحبهم كريشنا. وها أنا ذا أقبل إمارة الجيوش. وفاء بالعهد. فلتطمئن نفسك، ولتعتبر الباندوفيين مدحورين منذ اللحظة!».

انصرف كارنا بعدئذ إلى تنظيم صفوف القوروشيين، واتخذ موقعه في الوسط. وكان من اليسير التعرف إليه بقوسه الذهبي، وعربته المتألقة كالشمس، ورايته التي تخفق عالياً، وإن المرء إن لم يلحظه في البداية لم يعتم أن يتبينه حين رفع الصدفة المطعمة بالذهب ونفخ فيها، فشخصت إليه الأنظار لتراه حاملاً قوسه يهزه متحدياً الأعداء.

وقف يوديشترا يرقب مشهد استلام كارنا إمارة الجيش في جو من الهيبة والرهبة ثم التفت إلى أرجونا قائلاً:

ـ «لقد مات شجعانهم، ولم يبق لهم الآن إلا كارنا! فإن قتلته غداً كان النصر لنا، بلا ريب!».

وفي تلك الساعة من الليلة كان كارنا يحدث دريودانا مثل هذا الحديث، كأنما يتنبأ بما جرى في معسكر يوديشترا:

ـ «في الغد سأبرز لأرجونا، فإما أقتله أو هو قاتلي!».

ـ «أنت وما شئت يا كارنا! قد عزمت، ولك أن تعتمد على ما

توفر لك من محاربين شجعان لا عد لهم، وعتاد لا حصر له من العربات والخيول والفيلة والسيوف والأقواس والرماح».

وجال في فكر دريودانا أن يختار لعربة كارنا سائساً موثوقاً بخبرته، فلم يجد أفضل من ملك مدراس شاليا لهذه المهمة فلما فاتحه في الأمر وجده ينتفض غضباً لهذا الانتقاص من قدره: «أيكون مثلي سائساً لكارنا؟» فسعى دريودانا عنده حتى طمأنه إلى مكانته ومرتبته وأثره: إنه البطل والخبير والند لكريشنا، فإذا انضم إلى كارنا كان النصر حليف هذا المعسكر ولن تقدر قوة على الوقوف في وجهيهما».

ولقد أسعد شاليا أن يسمع هذا الإطراء من دريودانا فاستراحت نفسه، وقبل أن يسوس لكارنا عربته، شرط أن يكون له قول ما يشاء بلا حرج. ووافق دريودانا، وكارنا حاضر! فعانقه وقطع له العهد بأن يمتثل لأمره مهما كان، والتفت إلى كارنا يسأله أن يمسك نفسه عن الغضب إذا ما أفلت من شفتيه ما يضيق به، فهو لا يضمر إلا أحسن النية لصاحبه.

ورد عليه كارنا أنه سيكون عنده مثلما كريشنا عند أرجونا!

فقال شاليا:

- «قد قيل أن الإنسان الفاضل يترفع عن مثالب أربعة: التنديد بالنفس، ومدح الذات، وقذف الآخرين، وتملق أهل السلطان. ولكني لن أتحرج الآن من مدح نفسي. فما أقوله إنما للتعريف بنفسي، لتطمئن وأنت في سبيل ما اعتزمت. إذن فاعلم أني كفء لسائس عربة إندرا متالي ذاته، في الانتباه، والسيطرة على النفس، وتوقع ما يدور في فكر القائد، والمناورة!».

وفي الصباح، سأل كارنا شاليا أن يقترب به من الإخوة الخمسة ليبارزهم، فقد تهيأ لينزل بهم قتلاً وتدميراً!

- «أراك لا تعطي أبناء باندو حقهم! أتراك سهوت عن

شجاعتهم، ومهارتهم في استعمال السلاح وخوض الحرب؟ تذكر أنهم خصوم لا يستهان بهم. ولسوف تنسى كلماتك هذه حين تسمع الغانديفا يلعلع وترى السهام تهطل عليك كالمطر من السماء».

أشاح كارنا بوجهه عن شاليا، وقال له: «هيا، حث جيادك وأسرع!».

وقف أرجونا في عربته يراقب عن بعد جيوش الباندوفيين وعلى رأسها دريشتديومنا، ورأى قوات البانتشالا تتقدم زاحفة للهجوم. ولكن سرعان ما تصدى لها كارنا، فقتل سبعاً وسبعين من هؤلاء. ثم رأى أرجونا عشر عربات تداهم كارنا فيردها ويفني قوادها المحاربين واستمر مندفعاً يخرق الصفوف، ويسرع إلى يوديشترا، فيشتت الجند من حوله. فامتطى يوديشترا حصاناً وانسحب من موقعه.

أسرع كارنا في إثره ولحق به. حتى مسه بكفه التي رسمت عليها العلامات المباركة، صور البرق والمظلة والخطاف والسمكة والعلم والسلحفاة والصدفة، فكأنما أراد أن يمسك به.

تذكر عندئذ عهده لكونتي، وأخذ يندد بيوديشترا ويستخف به، وإذ نال منه كفايته، أشار لشاليا أن يمضي به إلى بهيما.

كان بهيما يتابع ذلك المشهد ورأى كارنا يسرع نحوه، والتفت إلى ساتياكي ودريتشديومنا وأشار إليهما أن يوفرا الحماية ليوديشترا، بعدما كاد أن يلقى حتفه قبل لحظات. ثم دار بعربته وأسرع ليلاقي كارنا.

لاحظ شاليا سرعة اندفاع بهيما، كأنه الريح العاصفة، وأشار إلى كارنا: «انظره! إن الثورة تتفجر من عينيه، كالوحش يتهيأ ليتقيأ غضباً بعد أن أقام عليه ورعاه على مدى السنين!».

سدد كارنا سهماً إلى مقبض قوس بهيما فشطره، فما زاده ذلك إلا غضباً وثورة، فالتقط قوساً آخر وأرسل منه سهماً أصاب كارنا

كالصاعقة، وأفقده الوعي. وللتو استدار شاليا بالعربة، وانسحب بصاحبه من الميدان.

ولما شاهد دريودانا كارنا ينسحب من المعركة، أمر إخوته بالإسراع إلى حماية تراجعه، وإنقاذه من بهيما.

وهرع هؤلاء الفرسان لملاقاة بهيما ومنعه من متابعة كارنا، فصمد أمامهم كالطود الشامخ، وقاتلهم. فكانت جولة سقط فيها خمسون من الفرسان ومازالت المعركة دائرة، قاسية شرسة، والجنود في ضجة وصخب بين اشتباك السيوف، وتطاير السهام، والرماح من طرف إلى آخر.

ولكن ذلك الضجيج تلاشى في لحظة من لحظات المعركة الدامية، حين طغى صوت الغانديفا عالياً فلم يعد يسمع سواه.

ورأى دريودانا الفرصة تلوح أمامه، فأشار إلى كارنا الذي كان قد استعاد رشده، أن يستغل حالة الفوضى ويباغت الباندوفيين بالهجوم.

التقط كارنا قوسه الشهير الفيجايا، المنصور، وتلفت حوله يتحين لحظة يستطيع فيها تسديد سهم واحد يخترق جسم أرجونا ويرديه صريعاً. ولكن أرجونا كان قد لمحه. وهو يتربص لقتله، فأشار إلى كريشنا أن يقترب به من كارنا.

شاهد شاليا أرجونا يقترب منهما، فلفت نظر صاحبه: «هاك هو ذا في عربته يجرها ذلك الحصان الأبيض ذو الذيل الأسود. إنه يسرع نحونا، متفادياً الاشتباك مع الآخرين، فأرنا يا كارنا براعتك الآن. لأن الأمل معقود عليك، ولا أحد سواك يستطيع إنقاذ الموقف، وأنت له».

افتر فم كارنا عن ابتسامة واسعة وهو يقول: «ها أنت ذا تعرف فن الحديث. وقد أحسنت القول. إن كلماتك أصبحت حلوة كالموسيقى في أذني».

كان ذلك الحديث مايزال يدور بين كارنا وشاليا، حين تقدم دوشاسنا من بهيما مسرعاً بعربته، مطلقاً عليه السهام رشقاً، فأصابت إحداها بهيما فغاب عن الوعي وتداعى، ولكن سرعان ما استعاد وعيه، وسدد رمحاً نحو خصمه: «سهم لي. ورمح لك!».

أصاب الرمح دوشاسنا وأطاح به عدة أمتار من عربته ليطرحه أرضاً، وهو يتلوى من شدة الألم. وفي تلك اللحظة تذكر بهيما صورة دروبدي في محنتها مع هذا الوغد، يوم أخذ يجرها على الأرض على مرأى من أزواجها والملوك. فازدادت ثائرته اتقاداً، وقفز من عربته، وغرز سيفه في صدر دوشاسنا، فتدفقت دماؤه، فانحنى فوقه، وأخذ يرشف دماءه مستمتعاً، ويطفئ جذوة الانتقام في قلبه، تحت نظر دريودانا وكارنا. ثم وضع ركبته فوق صدره، واحتز رأسه، وعاد يشرب من دمه ويتلذذ بكل نقطة، ويصيح بمن حوله: «إن دمه أطيب من حليب الأم وأحلى من العسل، ومن خمر العسل، أو الرحيق، مجتمعين!».

نظر إلى الجثة التي غدت شائهة الآن، وقال: «قد فرغت منك. ولكن الموت جاءك مبكراً!».

كان ذلك منظراً مفزعاً، أثار الفرق في الجنود، فأخذوا يصيحون ليس هذا بإنسان، بل الشيطان بعينه.

وعاد بهيما ينحني فوق الجثة الغارقة في دمائها، وينهل منها من جديد، وسمعه، حينذاك، كارنا ورفاقه من المحاربين: «ها قد شربت من دمائك يا دوشاسنا، فانهض الآن واقذفنا بالنعوت كما فعلت ذات يوم! فإن لم تفعل فإني راقص حول جثتك إلى مطلع الفجر».

وشرع يصيح والدماء تسيل من يديه، راقصاً مرحاً، شأن إندرا يوم قتل العفريت فريترا.

وأحس كارنا وهو يرقب المشهد، بفزع يستولي على كيانه كله، ويعتصر قلبه عصراً، كما لم يشعر بمثله من قبل قط.

ومع ذلك فقد نفض عنه ذلك الذهول الذي خيم عليه لهنيهات قلائل، ورفع سوطه يحث جياده، فدارت به العربة وانطلقت عجلاتها والأرض تئن من تحتها أنيناً. وأخذ يتلفت ويجيل النظر حوله باحثاً عن أرجونا، وفجأة لمح كل منهما صاحبه، واندفع لملاقاته كالثور الغاضب، ينشد المعركة الحاسمة معه. وبدا العملاقان أشبه بكوكبي شؤم. في لحظة دمار العالم. وأخذ كلاهما يستجمع قوته ومهارته في القتال ليذهل خصمه.

كانا في ميدان المعركة كالشمس والقمر لو التقيا. وفي السماء كانت تخفق راية كارنا التي تحمل صورة الفيل، وراية أرجونا التي تحمل صورة القرد الشرس فاغراً فمه ومكشراً عن أنيابه الحادة.

وفي لحظة الاستعداد للهجوم، خطر لكارنا أن يسأل شاليا عما سيفعل لو قدر لأرجونا أن يقتله. فأجابه أنه سينهض لقتل أرجونا وكريشنا معاً.

وسأل أرجونا كريشنا عما سيفعل لو تمكن كارنا منه.

ابتسم كريشنا مجيباً: «إن الشمس ستغيب من العالم، والعالم سيتفجر ألف ألف شظية، وستفقد النار الحرارة قبل ذلك، فإن قتل كان ذلك علامة نهاية العالم. وعندئذ سأواجه كارنا وأفتك به بيدي».

احتدمت المعركة، واكتشف كارنا أن أرجونا ند له في القتال وأدرك أن عليه أن يسرع للتخلص منه ليستطيع حسم الحرب، وإلا رجحت كفة الباندوفيين. فالتقط سهماً التفت حوله أفعى رقطاء تفح فحيحاً مخيفاً ولا تنقطع عن نفث سمها الزعاف، وسدد إلى رأس أرجونا، ولكن شاليا اعترضه ناصحاً أن يختار سهماً آخر، لأن هذا لن يجدي. ورد عليه كارنا أن هذه رمية لن تخيب، ومثله لا يحتاج سهمين.

أرسل سهمه فمر سريعاً كالبرق يريد هدفه ولكن كريشنا رصده، فأسرع بالعربة وحاد بها عن خطها ليتفادى السهم، أو كاد، لولا أن الأفعى تمكنت من أن تبلغ خوذة أرجونا فضربتها بذيلها وانتزعت منها جوهرة فريدة كانت تزين أعلى جبينه ففتتها تفتيتاً. ثم ارتدت إلى كارنا وبعثت فحيحاً أنبأ بما يعتمل فيها من الغيظ، أن أرسلني ثانية، ولكن تبين هدفك، وعندئذ أطلق السهم إلى قلب أرجونا.

عجب كارنا لهذه الأفعى فسألها عن أصلها. فأجابته بأن لها شأناً مع أرجونا وتسعى للانتقام منه لقتله أمها ذات يوم: «فهيا أرسلني وسأذيقه الموت الزؤام، وحينئذ سيكون النصر لك!».

- «ولكن كارنا لا يضرب بذات السهم مرتين، ولو لقتل مائة من أمثال أرجونا. وإذا نهض لا يتوسل بعون من أحد. إن في جعبتي أيتها الأفعى أسلحة كثيرة، فاذهبي واطمئني، فأرجونا قتيل اليوم».

أزعج قول كارنا هذا الأفعى، فاستدارت وقذفت بنفسها كالسهم باتجاه أرجونا. فشاهدها كريشنا تمخر الهواء نحو عربته وعرف هدفها، فصاح بأرجونا أن احذر الأفعى فهي تقصدك. وللتو أرسل ستة سهام استقرت في جسمها ومزقته إرباً إرباً.

أما كارنا فقد أسرع إلى الهجوم على أرجونا، وصياحه يسبقه. ثم وجد الإله كالا يهمس في إذنه أن ينتبه إلى عجلة عربته اليسرى التي أخذت الأرض تلتهمها، ويشير إليه أن الوقت قد أزف لرحيله.

نظر كارنا إلى جنبه ورأى العربة تميل والعجلة تنغرس في الأرض، وتأكد له ما قاله الإله كالا، فهز رأسه أسفاً، وقال بنغمة حزينة: «قد قيل إن الإله دارما يحمي ذا الفضيلة. ولكن ها هو ذا يتخلى عني، أنا الذي ما انقطعت عن اتباع الدارما. أم أن دارما لا يهتم بأتباعه المخلصين؟».

ورأى السهام تندفع من قوس أرجونا متدفقة تدفق التيار في النهر، فأخذ يدور ويناور ليتفاداها، فتنهال على الأرض دون أن تصيبه بأذى.

تابع أرجونا رمي السهام متصلة بلا انقطاع، دون أن تصيب هدفها المراوغ. فصاح به كريشنا أن يسدد سهامه إلى الأعلى، فلا تجدي عندئذ المراوغة.

وقفز كارنا من عربته، وانبطح ليرفع العجلة التي علقت في حفرة في الأرض، وصاح من موقعه:

- «قف، يا أرجونا! ها أنت تراني منبطحاً، وتعلم أن قواعد القتال تمنع الراكب من الاشتباك مع الراجل!».

وجاء الرد من كريشنا:

- «ها أنت ذا تتذكر الآن القواعد! أكنت نسيتها حين جُرَّت دروبدي وهي تكاد تكون عارية أمام جمع الملوك؟ أنسيت شاكوني وغشه في لعب النرد؟ هل كانت القواعد تجيز الغش والخداع في ذلك اليوم؟ وهل كانت القوانين تبرر منع الباندوفيين من حقهم في استرداد مملكتهم؟ أتذكر، بعد، حرق قصر اللك؟ وما قولك في السخرية من دروبدي وهي تقف حائض لا يسترها سوى غلالة رقيقة، فتطلب منها ساخراً أن تختار زوجاً فوق أزواجها؟ وماذا عن قتل ابهيمانيو غدراً؟ فماذا كانت القوانين يومذاك؟».

ولقد حاول كارنا وجهد ما استطاع أن يرفع العربة من مكانها حيث كانت عالقة.

وإذ ذاك صاح كريشنا بأرجونا ـ «اقطع عنقه قبل أن يتمكن من انتزاع العربة!».

فالتقط سهماً حاداً خارقاً، وأرسله إلى كارنا، فأصاب عنقه، واجتثه عن جسمه اجتثاثاً، ليحمله إلى إله الموت، ياما!

دوى النفير في معسكر الباندوفيين، كما أطلق أرجونا وكريشنا النفير معهم، بينما تراجع شاليا وانسحب مخلفاً وراءه رأس كارنا، جميلاً متألقاً كالشمس، مهيباً ساحر العينين كإندرا.

انتهى ذلك اليوم من القتال ومعسكر القوروشيين مبعثر الصفوف، والجند في حالة من الفزع، والذهول. فيما تهاوى الملك ديتراشترا، والملكة قندهاري من هول الصدمة، وانصرف فيدورا وسانجيا لمواساتهما في لحظة المحنة.

السفر التاسع

شاليا

انتاب دريودانا الغم، وتكدر لمّا بلغه نبأ الفاجعة أشد الكدر. فها هو ذا بطل آخر يسقط من صفوفه. وها هو ذا ينعي صديقاً مخلصاً، وقائداً عظيماً كان يركن إليه في قيادة جيوشه، وركناً راسخاً بين حلقته من الخاصة يلجأ إليه في التخطيط والتنفيذ. ولكم شاركه هذا الحليف في ما واجه من لحظات الحرج، وكم من الليالي قضاها، وعيناه لا تعرفان الرقاد حين يخلد إلى مخدعه وهو يتدبر معضلة اعترضته، ويحسبها مشكلة خاصة. فلا عجب إن تطور به الحال وكاد يبلغ حد اليأس، حين فقد هذا الأخ والصديق. ولكن إن كان الأمر كذلك، فليتطلع إلى الغد وليعد له عدته فيتفادى وقوع الأسوأ، حين يصاب الجند بالقنوط بعد تكاثر الخطوب فيتقاعسون، وتذهب أرواح من سقطوا هدراً وتحبط مشاريعه. وسرعان ما لملم شعث أركان جيوشه وقادة الفرق، وقفل عائداً إلى تلك الساحة عند سفوح جبال الهمالايا، حيث دارت بالأمس المعارك الطاحنة، وسقط على أرضها أولئك الأبطال صرعى بسيوف الأعداء وسهامهم ورماحهم، وتحت سنابك الخيل، وبين عجلات العربات. وجمع حوله ليلتئذ أخاه تشيتراسينا ونخبة أصحابه، شاليا وشاكوني واشفاتمن

وكريبا وكريتفارمن وجياتسينا وسواهم من الأبطال الأشاوس، ليشاورهم في من يتولى إمارة الجيوش. وقر القرار على تولية شاليا هذه المهمة، فليس هناك من هو أعرق منه أصلاً، ثم أفلم يبرهن على إخلاصه وولائه حين وضع جيشه العظيم في خدمة هذا الحلف؟ ألم ينكر ابني أخته مدري ناكولا وسهديفا حين انضم إلى هذا الحلف مضحياً بمملكته، مبدياً كل ضروب الشجاعة والبأس؟

قبل الرجل بالنهوض بإمارة الجيش، وأخذ على نفسه العهد أمام الجمع ببذل الغالي والرخيص إلى أن يتحقق النصر، وعرض لهم خطته لقتال الباندوفيين، بين صيحات الجند وتهليلهم.

ثم كان اليوم الثامن عشر من الحرب، ووجد دريودانا شاليا قد حشد قواته ورتبها للمعركة الوشيكة، فجعل كريتفارمن على رأس جيش التغراتيين، وكريبا على رأس جيوش الشاكا الإغريق والفرس، وأشفاتمن قائداً للكامبوجيين في المؤخرة. أما دريودانا فقد وضعه في قلب التشكيل قائداً لنخبة القوات الضاربة، وجمع للمعركة المحتومة أحد عشر ألف عربة، وعشرة آلاف وسبعمائة فيل، ومائتي ألفاً من الفرسان، وثلاثة آلاف ألف من المشاة، واصطف مقابل ذلك الحشد ستة آلاف وستمائة عربة، وعشرة آلاف من الفرسان، وألف ألف من المشاة من معسكر الباندوفيين.

وفجأة بدأت المعركة، واشتدت بسرعة واحتدم القتال بين المقاتلين ضارياً، وتعالت قرقعة السلاح، وكأنما نزلت الآلهة لتقاتل الشياطين، فغمرت الميدان الدماء، وتبعثر ركام العربات في كل أرجاء الساحة، واختلط لحم البشر بلحم الدواب، وامتزجت العظام ببعضها مسحوقة مع النخاع. وكان المقاتلون يعبرون بعرباتهم ذلك النهر الرهيب من الدماء واللحم والعظام الذي كان يجري إلى عالم الموت.

وإذ تطور القتال عمد شاليا إلى شن الهجوم على يوديشترا

واستمر في رميه بسيول من السهام. ولكن يوديشترا تمكن من كسر هجومه، ثم رد عليه بسهم عريض كسر سارية رايته. وصاح بكريشنا وإخوته: «إن بهيشما ودورنا وكارنا ماتوا جميعاً، ولسوف تكون نهاية شاليا على يدي اليوم».

اختار يوديشترا إحدى النبال المصنوعة من الذهب والمرصعة بالماس، والبراقة كالشمس، وحدق في شاليا بعينين تشعان بالغضب والبأس، وهو يسدد تلك النبلة المختارة بعدما أشبعها بالتراتيل، ثم أرسلها بقوة عظيمة، وحاول شاليا أن يتفاداها، ولكنها كانت أسرع فاخترقت صدره وتدفقت الدماء عندئذ من فمه وأذنيه كالينابيع، ثم خر صريعاً على الأرض، أمام يوديشترا. وبدا لمن شهد ذلك، أن الأرض قامت قليلاً لتحية. شاليا، الدرة بين الأبطال، وهو يغادرها إلى عالم آخر.

ساد الهلع صفوف جند القوروشيين، فأخذ كل يبحث عن نجاته، بعد مصرع أمير الجيوش شاليا، وتدافعت الصفوف في كل اتجاه هاربة من جحيم المعركة، بعدما فقدت الجيوش رأسها وأميرها. ورأى شاكوني الجند تختلط بالفيلة وتتزاحم مع العربات، وأخذ يحاول تجميع الصفوف والأرتال من جديد، ويحث المقاتلين على الصمود والقتال.

ورأى يوديشترا شاكوني يفلح في أمره، ووجده يعيد تنظيم الألوية والكتائب فتأخذ مواقعها وتتابع القتال. فالتفت إلى سهديفا وعهد إليه بقوة كبيرة للهجوم على شاكوني وقتله، فيما تولى هو مهمة جذب بقية القوات المحمولة بالعربات.

وسمع في تلك اللحظة عواء الذئاب تحوم حول الميدان، بينما لاحت الطيور الكواسر تحلق في السماء، تنتظر سقوط الأبطال لتغدو فرائس لها.

مر رمح ألقاه شاكوني على جبهة سهديفا فخدشها، فرد عليه

سهديفا بسهم أصاب قوس منازله فشطره شطرين. وانتضى شاكوني عندئذ سيفه، وهم يهجم على سهديفا من جديد، ولكنه وجد السيف ينكسر برمية سهم من سهديفا.

ولقد تتابعت محاولات شاكوني لقتله، مرة بعد مرة، وكان يجد هجماته تحبط وتفشل أمام رمي سهديفا المحكم. وهكذا دارت الحرب في ذلك اليوم سجالاً، إنما دون طائل أمام صمود سهديفا. شعر القوروشيون باليأس والقنوط بعدما تأكد لهم أن سهديفا لابد متحول إلى الهجوم، وليس عندهم ما يرده عن الفتك بهم، فانسحبوا فزعين، كل إلى حيث وجد الملجأ، وما لبث أن لحق بهم شاكوني هارباً من جحيم المعركة.

ولكن سهديفا لم يدعه يفر، فاستمر يطارده بسهام من كل نوع وشكل ويمطره بها من كل حدب وصوب، من الأعلى والأسفل ومن حواليه، ويصيح به أن قف، وقاتل كالرجال، مذكراً إياه باحتياله في لعبة النرد: «قف وانتظر السهم ذا النصل الحاد كحد السيف، الذي سيقطع رأسك فيسقط كما تسقط الثمرة اليانعة عن الغصن».

توقف شاكوني واستدار وبيده رمح يريد به سهديفا، فبادره سهديفا بسهم شطر به الرمح، ثم أتبعه بسهمين أصابا ذراعيه. وسمع الجند زئير سهديفا يدوي فرحاً في أركان الساحة، حين سدد إلى شاكوني سهماً رابعاً أزهق روحه، فأصبح جثة هامدة ذلك الذي كان الرأس المدبر وراء تلك المؤامرات التي خاض فيها القوروشيون.

أجال دريودانا النظر من حوله، وأحس باليأس يستولي عليه، إذ رأى الميدان قد خلا من جيوشه بعدما كانت تغمره غمراً، وها قد أخلته الآن لجيوش الباندوفيين لينتشروا فيه ويملأوا ساحته. واستقر قراره عندئذ على الالتجاء إلى بحيرة ديفيبايانا.

أما جمع الباندوفيين فقد ظل أمير لوائهم دريشتديومنا يعمل

على تثبيت مواقعه، ويمضي الوقت في إعادة تنظيم قواته التي ضمت عشرة آلاف من المشاة، وخمسة آلاف من الفرسان، وألفي عربة، وسبعمائة فيل.

وأما القوروشيون فقد وجد قادتهم كريتفارمن وكريبا وأشفاتمن الكفة ترجح لصف الباندوفيين، وقرروا فيما بينهم الانكفاء والإنضمام إلى دريودانا عند بحيرة ديفيبايانا التي توسل بقواه السحرية ليجمد مياهها، واتخذ ملجأه في وسط القاع.

وهناك، في ذلك الملجأ، جاءه الملوك الثلاثة ليعرضوا عليه الهزيمة التي لحقت بجيوشهم، ويناشدونه الخروج للقاء يوديشترا والانتقام منه. وكان الخيار فيما قالوا بسيطاً: «فإما نصر يحفظ لهم مجدهم، وإما هزيمة مشرفة لا قيام بعدها، فيلتحقون عندئذ بذلك الركب الطويل من رفاق السلاح، والأبطال العظام الذين سقطوا قبلهم، كما ينبغي للمحارب أن يسقط!».

وجاءهم صوت دريودانا من أعماق البحيرة مرحباً، ثم مشيراً بالاستراحة قليلاً بعد عناء المعركة، والمسيرة الطويلة، وليكن ما يكون في الغد.

ورد أشفاتمن يلح عليه بأن ينهض للقتال، مقسماً أنه لن يخلع عنه دروعه الليلة حتى يقوم للقتال وينال النصر.

وظل القوم في نقاش طويل، استمر ردحاً من الليل، ثم صادف أن مر بالمكان جماعة من الصيادين يحملون صيدهم ويبغون إرواء ظمئهم من ماء البحيرة. وسمعوا عندئذ ما كان يدور بين قادة القوروشيين من المؤامرة والاستعداد لمتابعة القتال في الغد، فزين لهم الخاطر أن يحملوا النبأ إلى بهيما لينالوا مكافأة منه، وقد كانت لهم به صلة، وزاد أحدهم بأنهم ربما ينالون مثل هذه المكافأة من يوديشترا، خاصة وأنه كان قد طلب من أحدهم قبل حين، أن يأتي إليه بالخبر إن صادف أحد القوروشيين.

ولما بلغ النبأ يوديشترا، وبهيما تحفزا للمسير إلى البحيرة التي جعل منها دريودانا ملجأ له. وهكذا جدَّ الباندوفيون في المسير، على الرغم مما كانوا عليه من التعب والإرهاق، يقصدون مقاتلة دريودانا وأصحابه لحسم الحرب.

ومن بعيد سمع أشفاتمن وقع أقدام الباندوفيين وهم يتقدمون من المكان، وخاطب دريودانا في الانسحاب إلى موقع أفضل. ورد عليه دريودانا بأن ينسحب وجمعه ويتحصنوا.

وانصاع الحلفاء لرأي دريودانا فانسحبوا وعلى رأسهم كريبا يجلّلهم الحزن والأسى، ويشغلهم أمر صاحبهم ومصيره إن عثر عليه أعداؤه.

نظر يوديشترا إلى البحيرة ودرس أحوالها ورأى فعل السحر في تمويه المكان، والتفت عندئذ إلى كريشنا مشيراً إلى فن دريودانا في الإيحاء والإيهام: «أيحسب أن ذلك ينجيه من الموت؟ قسماً أنه لن يفلت من يدي بعد هذه الخطة!».

أشار عليه كريشنا أن يتوسل بقواه السحرية ليفك سحر دريودانا ويبدد الوهم. فالوهم إنما يبدده وهم آخر.

ابتسم يوديشترا والتفت إلى البحيرة مخاطباً: «لم تختبئ بين المياه، يا دريودانا، بعدما فني القوروشيون؟ ألتنجو بجلدك؟ فأين هي كبرياؤك، وأين هي كرامتك؟ إن قومك يزعمون أنك بطل! باطل كل ما يقال فيك! ها أنت ذا الشتريا، المحارب، ثم أراك تختبئ متنكراً لحسبك ونسبك، معرضاً عن واجبك، فإن كنت من المحاربين حقاً، فابرز، وقاتل، وادحرنا، ولك العالم كله، أو نقتلك ونستريح! أما كتب إله الخلق برهما على المحارب أن يقاتل، حين يدعو الداعي؟ فهيا ابرز ونازلنا كما يملي عليك الواجب أيها المحارب!».

وجاء قول دريودانا من أعماق البحيرة: «لقد عم الخوف يا يوديشترا واستفحل وتملك القلوب. ولكن لا تعتقد أن الخوف هو ما

حملني إلى هنا. فقد تحطمت عربتي، وأصبحت كنانتي خاوية من السهام وقتل سائسو عربتي، ونال مني الإرهاق. وكذلك هو حالك من التعب، فلا تحسبن أنني إنما قدمت إلى هذا المكان بدافع من الخوف، أو خوار العزيمة، أو الحزن للخسارة التي منيت بها في الحرب، لا، ولم ألجأ إلى هنا هرباً من القتال، وحباً في الحياة. ولكنني تعب كما أنت تعب. فلتكن بيننا هدنة فنستريح الليلة، ثم يكون لنا في الغد أمر آخر»!

أجاب يوديشترا: «قد نلنا كفايتنا من الراحة، وطال المسير في طلبك، فلا بد من المبارزة الآن!» قال دريودانا بلهجة اختلطت فيها نغمة الحزن، برنة الأسى، وما يفصح عن شيء من الغضب، وشيء من التعب والإرهاق حاول الرجل أن يكتمهما: «قد قضى إخوتي جميعاً. نعم، مات كل من رفعت السيف من أجلهم وها أنا ذا أرى نفسي تعزف عن العالم كما تعزف عن الأرملة. ولكن إن دعا الداعي فلسوف تراني أنهض لقتالك. أما الآن فقد فقدت لذة الحياة بعدما غابت تلك الوجوه الحبيبة: درونا، كارنا، بهيشما! دونك العالم... هاكه يباباً، قفراً، خاوياً، فتمتع به بلا صديق أو حليف. أما أنا فما بي رغبة في السلطان بعدما مضى الأصدقاء والأحلاف. إليك هذا العالم الذي أصبحت تعافه نفسي!».

رد يوديشترا غاضباً حانقاً: «إنك تهرف كالمأفون. ولكن لا أحسب أنك تظن بأن كلماتك تؤثر فيَّ كما كانت تؤثر في شاكوني. ومع ذلك فما الذي جاء بنوبة الكرم هذه لتقدم لي العالم اليوم بينما كنت تنكر عليَّ بعضه، وهو حق لي. إذن، فاعلم أني أرفض هذه الهدية. فليس هناك محارب يقبل الصدقة. واعلم، بعد، أني سأقاتلك ولسوف أزهق روحك، فمتى تم لي ذلك أخذت العالم أخذ عزيز قادر بيدي، لأستمتع به كما ينبغي أن تكون المتعة. أما أنك تقدم لي عرش العالم الآن، فإنه من شيمك أن تقدم بنفحة من الكرم ما لم يعد من ملكك. لقد أخطأت في حقنا حين أنكرت علينا مملكتنا، ثم بالتآمر

علينا، ثم بالتعريض بدروبدي وإهانتها، وإذن، يا صاحبي لابد من قتلك!».

أصغى دريودانا إلى تلك الكلمات، وشعر بالغيظ ينال منه وبالغضب يغلي في قلبه، فأطلق الزفرة تلو الزفرة، وسمعه يوديشترا يصيح من أعماق البحيرة: «إنك تملك الجيوش الجرارة، وعندك جياد وعربات، ولديك الأحلاف، وأنا أعزل أمامك، فكيف لي أن أواجه وحيداً هذه القوة الكاسحة. ولكن إذا شئت أستطيع أن أنازلكم رجلاً لرجل. فلست بالرجل الذي يخشاكم، ولو كان بينكم كريشنا، ولسوف ألقاكم كما يلقى العام فصوله، وأهزمكم في الساحة حتى يأفل نجمكم، وأقتص منكم جزاء ما أقدمت عليه أيديكم، يوم قتلتم درونا، وكارنا، وبهيشما!».

هز يوديشترا رأسه، وقال: «إنك لجدير بالثناء إن تذكرت واجب المحارب، وإنه لأمر طيب أن تنهض للقتال ومبارزتنا رجلاً لرجل. إذن، فهيا اختر من شئت للمبارزة، ولك، بعد، حق اختيار السلاح للقتال. وعهداً على أن أمكنّك من ملكك، إن استطعت أن تنتصر على أي منا!».

- «إذن، فإني أختار الصولجان ولنتبارز راجلين. وليتقدم الآن من يظن أنه قادر على التغلب علي».

صاح يوديشترا متحدياً: «اخرج من ملجئك، واثبت لأني عازم على قتلك!».

كان صدر دريودانا قد ضاق أشد الضيق بهذه الجرأة وأخذ يطلق الزفرات عميقة قوية حارة كفحيح الأفعى في وكرها، ودفع عنه الماء، وبرز من أعماق البحيرة كالطود الجبار، مسنداً صولجاناً ضخماً على أحد كتفيه.

تصاعدت القهقهات من الإخوة، وشرعوا يهنئون بعضهم البعض بالمصافحة، ويتغامزون فيما بينهم هزءاً وسخرية. وبدا

الغضب جلياً على الرجل حين أخذ يرمق غرماءه بطرف العين، وأمسك بقوسه يضغط عليه ويثنيه، وشرع يعض على شفتيه: «اسخروا ما شئتم، وقهقهوا ما طاب لكم، واستنفذوا هذه اللحظات، لأنكم ستغادرون هذه الحياة اليوم. والآن أنا لكم، رجل لرجل. ولتشهد الآلهة أني أبارزكم وحيداً، وليقرر يوديشترا ما إذا كانت هذه المبارزة عادلة!».

رد يوديشترا بلهجة التساؤل: «عجباً أكان ابهيمانيو قد قتل عدلاً؟ إنكم تعلمون جميعاً واجب الشتريا، وإذن فلماذا اجتمع على قتله ذلك الجمع؟ حقاً أن الناس ينسون الدارما سريعاً حينما تحل المحنة. والآن يا دريودانا، هيا ارتد درعك، واشبك شعرك، واستعد للمبارزة!».

ارتدى دريودانا درعه المذهب، ووضع على رأسه خوذته المصنوعة من الذهب الخالص، وانتصب متألقاً زاهياً كالصخرة عند حافة الهاوية، وصاح: «ها إني مستعد للقائكم الآن، فليبرز لي من يسعى إلى حتفه!».

همس كريشنا في أذن يوديشترا: «أحسب أنك تسرعت في القول حين وعدته بالملك، إن استطاع دحر أي منا، فماذا لو أنه اختارك أو أرجونا أو ناكولا أو سهديفا؟ تذكر أنه ظل يتدرب على القتال بالصولجان ثلاثة عشر عاماً، وهو اليوم أبرع من استخدمه في القتال، وليس هناك من يضارعه إلا بهيما.

حقاً إن بهيما ذو قوة وبأس، ولكن دريودانا داهية ماكر، وأنت تعلم أن للدهاء والمكر الغلبة على القوة. ولست أرى إلا أنك أقدمت على مجازفة طائشة، كما جازفت مع شاكوني!».

اعترض بهيما، حانقاً، قائلاً: «أنا له، ولسوف ترون ما أنا فاعل به بصولجاني الذي يتضاءل أمامه صولجانه!» ثم التفت إلى دريودانا، ذلك الجبار الذي يضاهي بقامته واعتداده جبل كايلاسا،

مرتع الآلهة في الهمالايا، وذكره بأنه سوف يجني الآن شر أعماله من إهانة دروبدي والتعريض بها وحثه على الإيقاع بيوديشترا وتجريده من مملكته بالغش في المقامرة. وإذن، فقد حانت ساعة الحساب، فتهيأ للسداد.

سخر منه دريودانا، وهزأ من ثرثرته، وما أطلق من الصخب، وهو لم يتحرك، بعد، من مكانه قيد أنملة، وشرع يتحداه للنزال والاشتباك معه في عراك نزيه، وإلا كان نصيبه العار.

صرخت الفيلة وصهلت الجياد، حين صاح دريودانا صيحته، وهمّ ببهيما يريد الإطاحة به بضربة من صولجانه. وسرعان ما التقى الاثنان وتشابكا كما تتشابك قرون الثيران ببعضها في العراك، ثم تصادم الصولجانان وقدحا ناراً من شدة الصدمة. كان العراك شديداً، فلم يمض الخصمان في القتال إلا بعض الوقت حتى وجدا نفسيهما منهكين، فتوقفا عن الصراع وجلسا يستريحان، ولكن الغضب كان يغلي في قلبيهما، فلم يستطيعا القعود طويلاً، وسرعان ما نهضا ليتابعا النزال، وكل منهما يحاول استجماع قوته، ولولا ذلك لما بديا أكثر من كتلتين من اللحم تتلاطمان ببعضهما. وأخذ كل منهما يدور ويناور مع خصمه، فيحسب من يراهما أنهما أقرب إلى اللعب منهما إلى القتال حقاً. وفي لحظة خاطفة بادر دريودانا بهيما بضربة من صولجانه أصابت فخذيه، طار صوابه من هذه الضربة المفاجئة، فهجم على عدوه كما ينقض النمر على فيل في البرية، ورد ضربته بضربة مماثلة.

كانت ضربة شديدة انهار معها دريودانا ووقع على الأرض، ولكنه سرعان ما تحامل على ركبتيه، ووجه إلى بهيما ضربة أصابت جبهته وشعر بالدم الحار يتدفق منه، وبسرعة البرق التقط صولجانه وسدد ضربة قوية إلى دريودانا جعلته يتداعى ويتهاوى على الأرض كما تتهاوى شجرة البلوط حين تنزل بها صاعقة. وسمعت عندئذ صرخات التهليل تعلو من الباندوفيين.

ولكن سرعان ما نهض دريودانا من عثرته، وعاد منتصباً بقامته كالفيل ليستقبل بصدره ضربة من صولجان بهيما، أصابت درعه فمزقته شر ممزق.

دارت المعركة سجالاً بين هذين العملاقين، ولاحت لدريودانا فرصة انتهزها فسدد إلى بهيما ضربة حسب أنها أفقدته وعيه، فانتظر برهة حتى يستعيد قوته، إلا أنه رأى بهيما يندفع نحوه كالعاصفة الهوجاء. وقد حاول دريودانا أن يتفادى الصولجان الرهيب من أن يصيبه، فما أسعفته حركته، ولم يستطع أن يتفادى اصطدام كتلة الصولجان بفخذه، ولم يعد بوسعه بعد هذا أن يتماسك ويصمد، فخرّ وسقط، فاهتزت الأرض من وطأة الصدمة.

وفي تلك اللحظة هبت ريح عاصفة، وارتفع الغبار وعلا، وحجب الرؤية واهتزت الأشجار، وزأرت السماء بالرعد، وانهالت على الحشد شلالات من الدم، ومن أعماق الأرض تصاعدت ضجة هائلة صمت لها الآذان، وظهرت على الأديم وحوش، رهيبة مخيفة بلا رؤوس، ولكن لها أطراف عديدة، فأخذت تدب راقصة رقصات عنيفة، وأخذت البحيرات والآبار تقذف قيحاً ودماً، بينما اضطربت الأنهار وشرعت تتدافع عكس مساراتها المألوفة.

أما الباندوفيون فقد استبد بهم الفرح والبهجة وأخذوا يطلقون صيحات النصر، في حين وقف بهيما فوق دريودانا المنبطح على الأرض متشفياً: «أتتذكر يوم وقفت تسخر من دروبدي وهي تُعرى؟ أتذكر حين سخرت منا وقللت من شأننا ووصفتنا بالبقر؟ إذن فهاك فرصة أخرى للسخرية فانتهزها، واضحك ما شئت من الضحك الآن!».

وإذ ذاك أخذ يركل دريودانا بقدميه، ومازال يكيل له الضربات والرجل ثابت يتلقى الضرب برأسه ولا يحيد.

كان مشهد التمثيل بدريودانا العاجز أقوى من أن يحتمله

يوديشترا، بل لقد ضاق ببهيما وهو يجده ينزل بغريمه كل ذلك الضرب وذلك الركل، فلم يتمالك نفسه عن نهيه عن الاستمرار في هذا العنف مذكراً إياه بمكانة الرجل بين قومه: «أفليس هو القريب وابن العم؟ ثم أليس يليق به أن يلقى معاملة الملوك وهو منهم؟ وبعد، فأي جزاء يجنيه إذ ينفرد به، ولو كان عدواً، وقد بقي الآن بلا أصدقاء يؤازرونه أو مشير ينصحه أو جند ينصرونه. أفليس حاله إلى الإشفاق أدعى؟».

وكان أخو كريشنا، بالاراما، أشد من يوديشترا ضيقاً بما رأى، فأخذ يندد ببهيما وغدره، وهم به يريد ضربه أو أن يرده عن دريودانا، ولم يتوقف إلا حينما اعترضه كريشنا وأمسك بذراعيه هامساً في أذنه مذكراً بقرابة الباندوفيين له وتحالفهم معاً: «ثم ما الضير في وفاء المرء بنذر قطعه على نفسه، كما يفعل بهيما بدريودانا الآن، بعدما أقسم لدروبدي بأن ينتقم لما نالها منه؟ وبعد أليس هذا الذي حل به تحقيقاً للعنة الحكيم ميتريا الذي دعا أن يهشم فخذ دريودانا؟ اهدأ يا صاحبي، واقنع بما ترى، فقد حل الكالي يوكا، ودخلنا عصر الظلام، وحسبك من بهيما أنه وفى بعهده!».

ولكن بالاراما ما كان ليقتنع بمنطق كريشنا الملتوي، فظل على حنقه من غدر بهيما، ولم يجد في النهاية إلا أن يمتطي عربته ويمم شطر دفاركا.

التفت كريشنا عندئذ إلى يوديشترا وذكره بما يعرف من قواعد الدارما، فكيف ترك بهيما يركل دريودانا، وهو الملك والفارس؟

ورد يوديشترا بأنه ما كان ليستسيغ هذا بأكثر مما استساغه هو، وهل يحسب أنه يرتاح لهذه الحرب؟ بل الحق أن نفسه أخذت تعاف كل شيء، وأما بهيما فما كان منه إنما حملته عليه ذكريات المنفى، وتلك العبارات الفظة التي كان القوروشيون يرموننا بها، وذكرى التدليس ثم الغش في مباراة النرد.

ما كاد يوديشترا ينهي كلامه حتى وجد بهيما يقف أمامه، متألقاً، متوهج العينين، ويخبره فرحاً بأن الحرب انتهت واستقامت الأمور واستتبت لهم، وها هو العالم يستسلم لهم. فقال يوديشترا بنبرة حزينة: «الحرب انتهت ودريودانا عاجز لا حول له ولا قوة، الحق أن الفضل كله يعود لكريشنا فلولا دعمه لما حالفنا النصر».

أما وقد وضعت الحرب أوزارها فإن كريشنا رأى أن أوان الرحيل قد أزف، فجمع جنده وهيأهم للمسير قائلاً لهم إنه لابد من العودة الآن، فلا جدوى من الانتظار بعد أن سقط دريودانا وبات حطاماً لا يستحق حتى نظرة إشفاق.

استمع دريودانا إلى خطبة كريشنا، واستبد به الضيق لما سمع، وجهد متحاملاً على نفسه ليستوي على قدميه فما أمكنه إلا القعود على الوركين، وهو يفح كالأفعى إذا فقدت ذيلها. وقال على الملأ أمام حشود الجند، يرد على ما سمعه الجمع من غض من قدره: «أراك نسيت يا كريشنا هذا الغدر الذي نالني حين أعرض بهيما عن أصول الحرب والقتال. أما كان ذلك بتحريض منك. ولا تظنن أني لم ألحظك تشير إلى بهيما بالتسديد إلى فخذيَّ؟ ثم ألست أنت الذي جعلت شيخاندين في المقدمة لتنال من بهيشما؟ أو لست أنت الذي قتلت فيلاً فسميته أشفاتمن ثم أعلنت موته لتضمن انهيار درونا فيسهل قتله؟ الأجدر بك أن تخجل من نفسك يا كريشنا بعد هذا لا أن تعرض بي! ولا، تنكر أنك أنت الذي قتل كارنا حين أوعزت لأرجونا أن يضربه وهو يحاول انتزاع عجلة عربته من الحفرة، وها أنت ذا ترى أني أعرف كل أحابيلك. لقد قتلت أفضل الملوك من حلفائي بلجوئك إلى أقذر الوسائل والخدع. فلا تزهو، فليس فيما جنت يداك ما يدعو للزهو!».

رد عليه كريشنا معدداً له مثالبه حين قتل ابهيمانيو: «أفي هذا ما يدعو للفخر؟» وها هو ذا يجني مازرعت يداه. أتراه أصغى إلى نصائح الحكيمين بريهسباتي وأوشناس؟ وهل كان يوقر كبيراً وهو يستسلم لأهوائه وينقاد للجشع والطمع؟

فأجابه دريودانا: «إني لم أنقطع عن دراسة الأسفار المقدسة، وكنت أفي بالنذور، كما نصت عليه الأسفار ولقد كنت أحكم مملكتي على أحسن ما يكون، وإذا طلبتني مقاتلاً في ساحة القتال لم تجدني هياباً من الموت، بل كنت أطلبه ولا أتوارى عنه. وكانت حياتي هنيئة، فعرفت الأطايب كما لم تعرف الآلهة مثلها، فهل كان هناك ما أطمع به بعد هذا؟ وما الذي يحملني على الحسد. نعم لقد عرفت المجد وتذوقت النصر وخبرت الملذات، فإن قضيت كان مآلي مع أشقائي وأحلافي في الجنان. أما أنت يا كريشنا فلسوف تمضي حياتك في بؤس هذا العالم!».

وعندئذ تناثرت من السماء زهور عبقة بالطيب وسقطت على دريودانا، وكأن الآلهة تعبر عن موافقتها على أقواله، فيما كانت تلك المخلوقات الإلهية الغانديرفا تعزف أعذب الألحان، وأصوات أرواح الكُمَّلْ تمجد باسم دريودانا من عليائها! واستنشق الناس عندئذ الأريج الذي حملته نسمات من الهواء أخذت تهب على المكان من كل صوب، وكأن مصدرها السماء الزرقاء الصافية في العلى.

أخذ الإخوة باندو يتبادلون نظرات تفصح عن إحساس كل واحد منهم بالخجل والعار في ذلك الجو الرهيب. فالتفت كريشنا إليهم وقال بصوت جهوري، كطرق الطبول، مذكراً بأنه لولا ما قدمه من الدعم لحاقت بهم الهزيمة، أمام جحافل القوروشيين: «وهل كان لهم أن يتغلبوا على دريودانا في معركة شريفة؟ لقد ناصرهم لأنه يبغي لهم الخير، ولهذا كان يتوسل بما ملك من قدرات سحرية للإيهام، كلما اقتضت الضرورة أثناء المعركة، ولولاها لما كان لهم أن ينتصروا في الحرب. وإذن، فلم الأسف والندم على الخديعة لكسر الخصم؟ حقاً إن الخديعة واجبة أمام العدو إذا كان الأقوى. بل الحق أن الآلهة لا تتورع عن الخديعة ـ ونحن إنما نقتدي بها في لحظة الحرج!».

كان الليل قد أرخى سدوله حينما انتهى ذلك الجدل الذي دار،

وتلك الخطبة التي ألقاها كريشنا، بالإشارة بنفخ الأبواق ليمضي كل منهم إلى حيث يهجع ويستريح. وهكذا انفض الجمع تاركين دريودانا وحده في مكانه عند طرف البحيرة، ومضوا إلى معسكر القوروشيين قبل أن يقيموا مضاربهم وعملوا فيه نهباً وسلباً، وحملوا معهم ما احتوى من الكنوز النفيسة واللآلئ والديباج الغالي، ثم التفتوا إلى الكريمات الحسان والجواري الجميلات والعبيد الأشداء وساقوهم إلى حيث أقاموا معسكرهم، واستراحوا بعض الوقت وأدوا ما يتكلفون من الاغتسال في نهر أوغاقي المقدس، ليبرأوا من إثم الحرب والقتال. وفي الصباح كانت قوافلهم تسير نحو هاستينبورا، يسبقهم كريشنا إلى ديتراشترا لينقل له ما وقع لأبنائه وليقدم واجب العزاء إلى قندهاري التي لابد وأن تشعر بالحزن حين تعلم بأنها فقدت كل أبنائها في تلك الحرب الضروس.

وكان أشد ما يقلق يوديشترا أن يثور غضب هذه المرأة القادرة ذات الكرامات، حين يبلغها نبأ المصاب، فتنزل عليه وإخوته لعناتها، وألح لهذا على كريشنا أن يعمل على نقل النبأ بكل حرص لئلا تفجر الفاجعة ثورتها. وكريشنا أهل للمهمة فهو الملجأ في الملمات، والعارف بالأسباب والغايات، والسفير المجرب.

كان السكون يطبق على هاستينبورا حين دخلها كريشنا وسار بعربته في طرقاتها، وكاد المرء من بعد يظنها خوت من سكانها، فلا صوت يعلو مما يألفه في البلد، ناهيك عن الحواضر الكبرى، ولكنه سرعان ما يرى الأهالي مجتمعين على الأطراف وبهم وجل، وكأنهم قد أحسوا بالداهية التي وقعت، فرأيتهم يتطلعون بأبصارهم كالمأخوذين إلى كريشنا وهو يتابع طريقه إلى قصر ديتراشترا. ولم يكن القصر حين دخله أفضل حالاً، فقد ران عليه صمت ثقيل رهيب، وكأنما أخبار الفاجعة قد سبقته إليه. ولكن ذلك لم يكن ليؤثر على كريشنا فيمنعه من أداء المهمة التي قدم من أجلها، وتابع خطواته حتى اقترب من ديتراشترا الذي جلس فياسا بجانبه، وانحنى عندئذ

ولمس قدمه احتراماً، ولبث ممسكاً يده وعيناه مغرورقتان بالدموع حيناً، ثم إذا طال هذا الوضع مسح عينيه ووجهه بالماء، وانطلق يخاطب العجوز المكلوم بعبارات متدفقة وصوت عذب، وهو يحدثه حديث العارف الذي يعلم حوادث الماضي ولا تخفى عليه أحداث الحاضر ثم لا شيء يحجب عنه خفايا المستقبل. وهل ثمة ما يمكن أن يخفى عليه والزمن لا يكتمه سراً من الأسرار. ويخبره عندئذ بما بذل أبناء أخيه من الجهد لوقف الحرب والمذبحة إكراماً له، إنما عبثاً، فما كان لشيء أو أحد أن يحول دون تلك المقتلة.

والتفت بعدئذ إلى قندهاري وشرع يخاطبها بعبارات الإجلال، وهي سيدة العالمين، ويستذكر نصحها لأبنائها، وهم يعرضون عنها، يوم حذرت دريودانا من أن النصر سيكون من نصيب من يقتدي بالدارما وإذن فها قد تم النصر، وإذن فهو من نصيب من التزم الدارما فدعي عنك الحقد، يا مولاتي، ولا تطلبي الدمار لأبناء باندو!.

وتجيب قندهاري بأن كلماته قد أتت بالسكينة إلى قلبها. أما زوجها المكلوم بأبنائه فله كريشنا وأبناء أخيه يتولونه في شيخوخته.

كانت الكلمات تجري من فمها سريعة وبصوت متهدج وفي لحظة توقفت ورفعت العصابة عن عينيها لتمسح دموعها أما كريشنا فاستمر في مواساتها وجهد في التخفيف من الألم الذي كان يعتصر قلب الأم الثكلى.

أجال دريودانا الطرف حوله، وهو لا يملك أن يتحرك من مكانه، وتحامل على آلامه ـ حسبه أن ينظر إلى فخذيه المهشمين ويفح كالأفعى بقلب يغلي حقداً. استوى في جلسته، وسوى شعره المشعث، ونظر إلى سانجيا الذي هرع إليه في مكانه بالقرب من

البحيرة ليطمئن إلى حاله: «تسألني عن حالي؟ إذن فأخبر والديَّ، يا سانجيا، أن بهيما ما انقطع يركل رأسي بقدميه وأنا مهشم الفخذين لا أقوى على الوقوف! أخبر والديّ بأني كنت أراعي الطقوس في أوقاتها، وأرعى أعواني وخدمي وأكرّم الأقربين، ولم أبخل بشيء على من يستحق مني الصلة. وأخبرهما أني فتحت البلدان والممالك وخضع لي العديد العديد من الملوك. وكنت لا أحيد عن الدارما وأنشد السعادة وأجهد في جمع الثروات في كل ما كنت أعمل وأبتغي. ولقد درست أسفار الفيدا أحسن درس كما كنت أمتطي أحسن الجياد. فقل لهما، إذن، أني نلت من المجد ما لم ينله إنسان من قبل، وقل لأشفاتمن ألا يثق بكلمة من أبناء باندو، هؤلاء الكفرة أهل السوء، الذين يعرضون عن الدارما، وها أنا ذا أقضي الآن كمسافر بلا زاد على درب الحياة، لأنضم إلى خُلاني الأماجد، درونا، وكارنا، وبهيشما، وسواهم من الأبطال العظام.

هرع أشفاتمن وكريبا وكريتفارمن إلى دريودانا على أسرع جيادهم حين بلغهم نبأ محنته. وهناك في مكانه بالقرب من البحيرة وجدوه غارقاً في دمائه التي كانت تنزف من جراحه، وبدا لهم كما الشمس لو سقطت على الأرض، أو كأنما هو المحيط أزاحت مياهه ريح عاصفة، أو القمر وقد غطاه السديم.

أقبل عليه أشفاتمن وتمعن بملامحه قائلاً: «أراك قد سقطت! حقاً أن لا شيء يبقى على حاله، وكل حال إلى زوال. وها أنت ذا تنتظر الموت وحيداً بالقرب من بحيرة مهجورة يا من خضعت لك الدنيا ذات يوم!».

فرك دريودانا عينيه ونظر إلى أشفاتمن وقد انحنى فوقه قائلاً: «الموت نصيب كل حيٍّ. تلك هي إرادة الخالق، وها قد أزف الوقت لأموت أنا أيضاً. ولكن أعلم أني قاتلت وجليّت في القتال، وها إني أقضي نحبي محارباً شديداً كما عشت محارباً. فلا تحزن! واعلم أنك قاتلت وثبت في قتالك، وكنت أهلاً للواجب في كل ما قمت به!».

تدفقت الدموع من عينيه، ولكنه سرعان ما تمالك نفسه، ومسح مآقيه، وصمت عاجزاً عن الحديث. ضغط أشفاتمن على يده وكاد يعتصرها في قبضته وقال بلهجة تفصح عن عزمه: «إذن، فاصغ إلى ما أقول: قسماً بكل الأرباب وبكل مالي من مكرمات، ولتكن الحقيقة شاهدي أني قاتل الباندوفيين منذ الليلة فاسمح لي يا مولاي بالقتال!».

رمقه دريودانا بعينين راضيتين، وسأل كريبا أن يأتيه بجرة من الماء، فلما وضعها أمامه غطس فيها يده ورش أشفاتمن ببعض ما علق بكفه، وأعلن على الجمع أنه ينصبه أميراً على جيوشه، وفقاً لما نصت عليه الأسفار حين أباحت للبراهمي القتال حين ينهج نهج المحاربين.

عاد أشفاتمن وانحنى معانقاً دريودانا، ثم أسرع مغادراً مع صحبه. أما دريودانا فاستعد لليلة رهيبة وهو يعلم أن أولئك الأبطال الثلاثة سينشرون فيها الرعب في معسكر الباندوفيين.

السفر العاشر

ليلة ليلاء

توقف أشفاتمن ورفيقاه عند بقعة قريبة من معسكر الباندوفيين، ونزلوا عن صهوات جيادهم، والشمس تميل إلى الغروب، وقد أثار فيهم الفزع ما كان عليه المعسكر من الاتساع والترامي، ثم ما بلغ مسامعهم من أصوات الجند وتناديهم للبحث عنهم حين وقعوا على آثارهم، فلجؤوا إلى غابة واسعة صادفتهم في طريقهم. وهناك حطوا الرحال قانعين بالأمن الذي توفر لهم بين أشجارها، وإن لم يقلل ذلك مما كان يعتمل في نفوسهم من الحقد والكراهية، وما بهم من العطش، فنهلوا ما أطفأ ظمأهم من غدير قريب.

وفي عتمة الليل اجتمعت الطيور ووحوش البراري حتى ضاقت بها الغابة، وتجلى القمر على سطح البحيرات المتناثرة وفاحت رائحة أزهار اللوتس الجميلة وملأت الجو بروعة أريجها. وهنا أراح الثلاثة جيادهم، والتجأوا إلى شجرة التين الهندي الضخمة، وجلسوا تحت أفنانها المديدة. ونظروا إلى القمر فوق تلال الآستا ورأوا السماء مطرزة بالنجوم. وإذ ادلهم الليل شق أحشاءه صراخ الوحوش في الغابة. وتحت الشجرة رقد كريتفارمن وكريبا مستسلمين لنوم عميق لم يستطيعا دفعه عن أعينهما. أما

أشفاتمن فجلس على الأرض مسهداً يؤرقه حقده، فلا يلبث على حال، إلا ما كان ينفثه من زفرات تكاد تتصل ببعضها كالفحيح، ولاحت منه نظرة إلى أعلى الشجرة ورأى الغربانِ قد خلدت إلى النوم صفوفاً على الأغصان كأنما احتلتها احتلالاً، ثم رأى حدأة تنقض عليها فجأة فتعمل بمنقارها ومخالبها تمزيقاً في تلك الغربان، وإذا بالأرض تمتلئ بالآلاف من تلك الطيور الوادعة في نومها، وعلى غصن عال وقفت الحدأة مزهوة بنصرها.

نظر أشفاتمن إلى ذلك المشهد المروع، وهز رأسه محدثاً: «ها إني أتعلم درساً من هذه الحدأة! فالحق أن منازلة ذلك الحشد من الباندوفيين وحلفائهم بهذا العدد القليل هو الانتحار بعينه. إذن فعلي أن آخذهم بالمفاجأة إن شئت الانتصار. وما الضير في هذا؟ ألم ينصحنا الحكماء بضرب العدو حين يكون في حالة إنهاك، أو مثخناً بالجراح، أو عندما يجلس للأكل، أو ينتجع للراحة، أو النوم؟ ألم يوصوا بمداهمته في الهزيع المتأخر من الليل، أو الانقضاض عليه حين تضطرب صفوفه، أو إذا افتقد الأمير؟».

كان عزم الرجل قد استقر على خطة، وتهيأ عندئذ لتنفيذها أيقظ رفيقيه من النوم، وأسر إليهما بتلك الخطة التي وجدها مناسبة للاقتصاص من الباوندوفيين، فوجدهما لا يأنسان إليها، بل لقد قابلاها بالاعتراض والاشمئزاز أيضاً. أفيليق بمحاربين من مثل مقامهما أن ينحدرا إلى هذا الدرك؟

ولكن أشفاتمن لم ييأس من استمالتهما، ورد عليهما محاججاً: «يا صاحبي، إن دريودانا مات، أو هو ميت لا محالة فما حالنا بعده؟ إذا كان لديكما خطة أخرى فستجدانني طوع أمركما، وإلا فليس عندي سوى ما اقترحت».

قال كريبا: «الإنسان محكوم بأمرين، قدره وشخصيته، من فكر وأهواء وميول ونوازع. فإذا اجتمع الأمران واتفق القدر مع الشخصية كان النجاح مؤكداً. وهناك من يعرف انتهاز الفرصة حين

تلوح له، كما أن هناك من يدعها تفلت من يديه. أما أنا فالحق. أني في حيرة من أمري، والأجدر بمن كان مثلي أن ينشد النصيحة من أولئك الخبراء العارفين المجربين. والرأي عندي أن نمضي إلى ديتراشترا وقندهاري وفيدورا ونسألهم المشورة ونعمل بها. فإذا فشل أمرنا علمنا أن الأقدار تناهضنا».

أضغى أشفاتمن إلى مقالة صاحبة، وبان عليه الأسى لما سمع منه، ورد عليه: «الناس مذاهب وآراء. ولن تجد أخاً يماثل أخاه في الفكر. ولذلك فإني سأمضي في هذا الأمر الليلة، لأقتل الباندوفيين وحلفاءهم في مراقدهم. ذلك أمر لن أتراجع عنه، فإن قضيت هذا الواجب ارتاح ضميري وكنت أسعد الناس!».

رد كريبا: «أرى أن الكراهية قد تملكت قلبك، ولا أحسبك إلا وقد وطنت أمرك على هذا. ولكن اخلع عنك درعك الآن واخلد للنوم قليلاً، فإذا كان الصباح مضيت وكريتفارمن معك حيث أردت لنا».

قال أشفاتمن وهو يصعد الآهات من صدره: «أنام؟ وكيف للنوم أن يطرق أجفاني، والغضب يفتك بقلبي فتكاً؟ وهل يستطيع من تملكته الشهوة أن ينام؟ وهل يعرف النوم من يسعى إلى اكتناز المال؟ ولكني لسوف أنام طويلاً وعميقاً متى تمكنت من رقاب أعدائي».

وعندئذ نهض وأخذ يشد الأحصنة إلى عربته. فاعترضه صاحباه يحاولان تهدئته، فالأمر يمكن أن ينتظر حتى الصباح، فعلام العجلة؟ أفلم يعدانه بالإنضمام إليه في الغد؟

ولكن هل يهدأ هذا الذي اضطرم الغضب في قلبه وهو يستعجل اللحظات ليطفئ نار الانتقام. نعم، العجل، العجل، يا صاحبي! إني لن أُمهل دريشتديومنا حتى الصباح، فإذا داهمته الآن مات أعزل، ولا يبلغ الجنة محارب أعزل.

إذن فلتمض هذه العصبة القليلة إلى حيث شاءت لهم الأقدار، وليبكروا في الضربة قبل أن يفيق جمع الأعداء من نومهم.

أسرع ينهب الطريق نهباً إلى معسكر العدو، وصاحباه يلحقان به ولما بلغوا المكان ترجلوا ومضوا على أقدامهم يستطلعون الموقع قبل دخوله، كثلاثة مشاعل ضخمة في احتفال تقديم القرابين.

تقدم أشفاتمن راجلاً من مدخل المعسكر، وصاحباه يتبعانه، حتى أصبحوا على مقربة من البوابة.

وهناك رأوا مخلوقاً رهيباً يدب على الأرض دبيباً، يروح ويجيء حارساً للبوابة، كان مخلوقاً بشعاً لم تر العين مثله من قبل، يستر وسطه بجلد نمر مايزال يقطر دماً ويأتزر بجلد غزال أسود، وقد تدلت من كتفه أفعى ضخمة كأنها الخيط المقدس: وذراعاه الطويلتان تحملان الأسلحة من كل نوع وصنف، وفمه القبيح ينفث أنفاساً كريهة ووجهه تتوزعه ألف عين، وللتو بادره أشفاتمن بوابل من سهامه، فاستقبلها هذا الخفير الرهيب بفمه والتهمها كما يلتهم الماء النار. وعاد فسدد إليه نبلة فتاكة فتلقاها، ولكنها غرقت في جسده الهائل وضاعت كما تضيع الشهب في وهج الشمس. فامتشق عندئذ سيفاً مسلولاً من الفولاذ المطروق وهمّ بالمارد يريد الفتك به، ولكنه ضاع في كتلة جسمه، شأن الأسلحة الأخرى، واختفى كما يختفي الخلد في حجره. صاح أشفاتمن من شدة ذهوله، واستنجد بالإله شيفا الذي يتقلد قلادة من جماجم الموتى: «أي شيفا، أي هارا، يا من لا يفوقه إله إجلالاً، أسألك العون ـ يا شيفا ذا البأس، يا من يسمى رودرا وإشفارا وغريشا، أي شيفا صاحب المكرمات، يا إله الكون، يا أزرق العنق، يا رب أوما، يا مثلث العيون، يا ذا الشعر المشعث، يا من لا ينقطع عن الطواف في حقول الموتى، حاملاً بيده العصا التي تتربع على قمتها جمجمة، تمجدت يا شيفا العظيم، يا أحمر الشعر، يا مدمر المدينة المثلثة، يا شديد، يا من أسلس الثور له القياد، يا من يتحلى جبينه بالقمر. ومن أجلك يا شيفا أصب روحي في هذه النار. فأعني وانصرني في محنتي، يا صاحب المنن!».

تجلى له شيفا عندئذ، مبتسماً وخاطبه مترفقاً: «اعلم أن

كريشنا لا ينقطع يتوجه إليّ بقلب وجل مخلص لي الحب والعبادة وبعقل ثابت، قولاً وفعلاً، ولذلك فليس هناك من هو أقرب إليّ منه. واعلم أني أنا الذي حفظ قبائل البانتشالا في الحرب ولكن الزمن أخذ الآن في النيل منهم، وبدأ حبل الحياة يقصر بهم».

وللتو حمَّل من ناداه سيفاً بتاراً يخطف بريقه الأبصار، ثم ولج جسمه، فإذا به يضجُّ بالحيوية والقوة وتتألق فوق هامته هالة تشع بالمجد. وسار الرجل متقدماً بخطى ارتجت لها الأرض، تحيط به الراكشا المردة من كل جانب والأعوان المخفيين على ميمنته وميسرته، ودخل على هذا الحال معسكر الباندوفيين.

دخل أشفاتمن المعسكر واجتاحه بسرعة العاصفة، بل كإله الموت ياما، وأخذ يتنقل بين المهاجع حتى عثر على دريشتديومنا حيث كان غارقاً في نومه، بين جماعة من البانتشالا، على فراش من الحرير يفوح منه أريج الأزهار المتناثرة. ولما تبينه بين الآخرين ركله بقدمه، فهب من نومه مذعوراً.

أمسك بشعره، وجرّه من فراشه، وشرع يطوف به في أرجاء المكان، والرجل يكاد لا يتبين أمره بين النعاس والفزع من هذه الداهمة. ولقد حاول الرجل أن يقاوم هذا الذي فاجأه في نومه فما أجدت محاولته، إذ كان أقوى منه عزيمة، وكان له فضل المفاجأة. وأخذ يركل رأسه وعنقه وصدره بقدمه ودريشتديومنا يئن من شدة الألم ويحاول مقاومة غريمه فلم يفلح إلا في خدش وجهه بأظافره قليلاً، وحين عجز عن التغلب على مهاجمه لم يتمالك نفسه عن التضرع إليه أن يدعه يحمل سلاحه ثم يقتله، ليموت ميتة البطل. ولكن أشفاتمن لم يأبه بضراعته وذكّره بأن من يقتل مرشده لا حق له في موقع في السماء، ثم تابع ركله تحت الحزام حتى قتله.

وكانت نساؤه قد خرجن يتدافعن ليستطلعن سر الصراخ الذي كان ينبعث من مهجعه، بينما هرع حراسه لنجدته، فرأى الجمع، وهم وجوم مسمرون في أماكنهم، ذلك المخلوق الغريب يوسع

دريشتديومنا ضرباً وركلاً وهو يتضرع إليه والغريب لا يصيخ السمع، فيظنونه عملاقاً حط عليهم ليقتل ملكهم.

ولما انتهى أشفاتمن من أمره، ركب عربته واندفع يدور في ساحة المعسكر، يلاحقه عويل النساء، فلا يلوي على شيء، بل يتابع صولته ويعمل سيفه في من يعترض طريقه. وكانت أصوات النساء تزداد وتعلو كلما رفع سيفه لينشر الموت حيثما وقع، ويستصرخن أزواجهن لينهضوا ويردوا هذا الوحش الضاري، والرجال في حيرة واضطراب لا يعرفون سبيلاً لوقف هذه العاصفة الجامحة، فلا يدرون إن كان إنسياً أم من الراكشا المردة، ولا يتبينون مقصد هذا الزائر الغامض الغريب الذي قتل الملك، ومع ذلك لا يبرح المعسكر.

تابع أشفاتمن مذبحته واستمر يعمل سيفه ضرباً وتقطيعاً في أوصال من يصادف في طريقه من الجند الذين تدافعوا في اضطراب، كل ينشد خلاصه من الموت الماثل، وكانت الأجساد العملاقة تتهاوى على الأرض بعد كل ضربة، فمن أفلت عنقه من حد السيف ناله في صدره أو فخذه.

رأى أمامه خيمة شيخاندين، فدخلها وضرب صاحبها ضربة واحدة كانت كافية لتشطره شطرين.

كانت تلك ليلة ليلاء رآها البانتشالا وكأنها عجوز تنقض عليهم كالموت، عجوز شمطاء يقطر فمها دماً وعيناها تقدحان شرراً، متشحة بوشاح أحمر قرمزي وقد دهنت كلها بمثل لون الوشاح، حاملة بيدها حبلاً تجر به ما يصادفها فلا تبقي أحداً بل تسوقه إلى حتفه المؤكد وهي تهدر بصوتها المخيف بالتراتيل الجنائزية.

استمرت المذبحة على هذا النحو والجند في اضطراب عظيم، وفي حال من الفوضى أشد، فكان الكل يسعون إلى الهرب في كل اتجاه، وأصبح الذعر عندئذ سيد الساحة، واختلط الصراخ بوقع أقدام الرجال وحوافر الخيل ودوران عجلات العربات والسيوف حين تلاقت ببعضها لا تتبين العدو من الصديق. وكانت مذبحة هائلة

من نجا فيها من القتل لم يفلت من الذبح وهو يحاول الهرب، واستمر أشفاتمن يحرق الخيام وكأنما لم يكفه ما أنزله بالقوم من موت وقتل ودمار.

انتهت الواقعة ورأيت جثث القتلى تنتشر في كل بقعة من الساحة، وسمعت أنين الجرحى يتصاعد من كل مكان، وكانت أعمدة الدخان تنتصب من الحرائق وتلوح للناظر من بعيد.

وفي عتمة تلك الليلة خرجت المردة، مخلوقات بشعة متعطشة للدماء وأخذت تطوف بين الجثث وهي ترقص فرحة، وتلعق شفاهها ثم تنقض على تلك الجثث فتنهش في لحمها أو تمتص النخاع من العظام أو تشرب من دماء الضحايا.

ظل أشفاتمن يصول ويجول في أنحاء المعسكر، ولم يحاول مغادرة المكان إلا حين أخذ ضوء الفجر يتسرب من الأفق البعيد، وعندئذ مسح الدم عن سيفه دون أن يفلته من قبضته ولو للحظة، بل لقد بدا كأنه أصبح امتداداً لزنده وتوحد به. ثم ألقى حوله نظرة وغادر المكان الذي غدا كالمسلخ.

استقبله صاحباه، كريبا وكريتفارمن، فهنآه على عمله الجليل، حين أخبرهما بأنه أنجز النصر كاملاً، كما عزم، فلم يبق أحداً ينبض فيه عرق بالحياة: «لقد قتلتهم جميعاً ـ أبناء دروبدي، بل ولم أدع واحداً من قبائل الماتسيا والسوماكا ينجو من حد سيفي. فلنمض الآن لنزف النبأ إلى دريودانا!».

وجدوا دريودانا مايزال مسجى على الأرض حيث غادروه، يجر أنفاسه جراً، وقد قارب الموت، وأخذ يتقيأ دماً، والذئاب والضباع تدور حوله تنتظر موته لتنال وجبتها من لحمه. مسح الجماعة الدماء عن وجوههم بأيديهم، ووقفوا يبكون هذا الذي كان تخر له الجبابرة متى لاح بقامته ويثير اسمه الوجل في نفس السامع.

تقدم كريبا من مليكه ليرثيه، فلعن القدر الذي أذل فخر الملوك، أمير الجيوش الجرارة، وها هو ذا قد غدا مغلوباً على أمره، فريسة

تقصدها الذئاب والضباع لتنشب أنيابها ومخالبها في جثته، بعد أن كان البراهمة يحومون حوله ويطوقونه من كل جانب.

وكان أشفاتمن أكثر صاحبيه تأثراً بما أصبح عليه حال هذا المحارب العظيم، فصاح بصوت اختنق بالعبرات: «اسمعني يا دريودانا إن كان بك رمق من الحياة، فقد جئتك بالأخبار الطيبة: لقد أفنيت معسكر الأعداء ولم يبق إلا سبعة منهم، الإخوة الخمسة وكريشنا وستياكي. أما أبناء دروبدي فإني أعملت السيف في رقابهم ورقاب أبناء دريشتديومنا، ولم يبق منهم أحد حياً. كان انتقامي سريعاً، فلن تجد لأبناء باندو خلفاً بعد اليوم!» أما دريشتديومنا فقد ذبحته ذبحاً بحد سيفي هذا كما أذبح الشاة!».

وسمع دريودانا يرد بصوت خافت كأنما قارب الموت: «قد أنجزت يا أشفاتمن مالم يكن بهيشما ودرونا وكارنا قادرين عليه، فاهنأ، وليكن ملتقانا في السموات العلى!».

قال هذا وأسلم آخر أنفاسه، بينما ظل جثمانه على الأرض، وصعدت روحه إلى السماء. وتوالى الثلاثة يعانقونه الواحد تلو الآخر، ويلقون عليه نظرة الوداع الأخير.

أسرع سائس عربة دريشتديومنا متحاملاً على نفسه في تلك الليلة لينقل خبر المذبحة إلى يوديشترا.

بكى الرجل لما سمع من الرواية، وعلق: «في البداية هزمناهم وها هم يعملون فينا فتكاً في النهاية: المنتصر يهزم والمهزوم ينتصر. إن حالنا يشبه تجاراً غفلوا فغرقوا في نهر بعدما اجتازوا عاصفة هوجاء في البحر! والآن هل قلت إن الجميع قتلوا؟».

وللتو أسرع يوديشترا بعد بلوغه الخبر إلى الموقع ليرى جثث أبنائه مقطعة الأوصال، متناثرة وبجانبها جثث أولئك الأحبة من الأصدقاء والأهل والحاشية، ووجد منهم من قضى وآخرين ينتظرون رحمة الموت.

ثم جاءت دروبدي في إثره، ووقعت عيناها على ذلك المشهد

المروع، فما تمالكت نفسها فتهاوت منهارة على الأرض ليحملها يوديشترا بين ذراعيه ويضمها، فلا تملك إلا البكاء: «الثأر، الثأر، يا يوديشترا، فإن لم تبلغني مرادي فارقتكم إلى الأبد».

وإذ أبلغها أن أشفاتمن قد غادر إلى الغابة، أبدت المزيد من الإصرار على مطاردته، فقالت ليوديشترا: «قد علمت أن أشفاتمن ولد وعلى رأسه جوهرة نادرة، فاقتله وآتني بها لأزين بها رأسي!».

شد يوديشترا قافلة من العربات وسار بها على امتداد ضفة الغانج حتى بلغ بقعة كان يجلس عندها الحكيم فياسا يحيط به جماعة من الحواريين يتلقون منه الحكمة، ثم لاحظ بينهم أشفاتمن متستراً برداء من العشب قد تلوث بالتراب، وممسوحاً بالسمن.

وما كاد بهيما يلحظه حتى حمل قوسه صائحاً «أنا له، ولاح لأشفاتمن أن ساعة موته قد حانت، فاستذكر تعويذة كان قد أخذها عن أبيه، فالتقط عشبة طويلة قاطعة الحد مدببة الرأس وتلا عليها تلك التعويذة، فإذا بها تغدو نبلة رهيبة، ودعا أن تأتي بنهاية الباندوفيين، ويرسلها فتصبح سهماً من النار الحارقة.

ولكن بهيما كان سريعاً في تبين نوايا أشفاتمن، فاستبقه بأن طلب إلى أرجونا أن يهيئ ما أعطاه إياه درونا من سلاح لاعتراض ما يسدد إليه ويبطل مفعوله.

وللتو قفز أرجونا بخفة من عربته وسدد سهماً من قوسه ودعا إلى الآلهة أن توفقه في إفشال أشفاتمن، فتفجر ينفث ناراً حارقة اعترضت النبلة التي أطلقها بددتها في شظايا كالشهب مالبثت أن تناثرت على الأرض فاهتزت تحت أقدام الجمع كالزلزال، فمالت الأشجار السامقة ودانت الأرض، واضطربت الجبال والأنهار اضطراباً شديداً.

ولما رأى الحكيمان فياسا ونارادا هذه الأسلحة توشك أن تأتي على العوالم الثلاثة نهضا ووقفا بين المتحاربين وفصلا بينهما ليضعا حداً لهذا الدمار:

«ما ظنكما فاعلين؟ إن أولئك الأبطال كانوا يملكون مثل هذه الأسلحة ولم يتوسلوا بها، ومع ذلك فها هم أموات جثثهم ملقاة متناثرة على الأرض. فلم توجهون هذه الأسلحة الرهيبة إلى البشر؟».

كان أرجونا المبادر إلى سحب سلاحه، وتكبد في ذلك مشقة كبيرة، سوى أنه نجح في النهاية في مسعاه.

والتفت فياسا عندئذ إلى أشفاتمن وطمأنه إلى أن أرجونا إنما جرد سلاحه المسمى البراهما شسترا دفاعاً عن نفسه: «فهيا دع عنك الغضب، ودع سلاحك من يدك، واترك الباندوفيين وشأنهم، وأعطهم هذه الجوهرة التي على رأسك».

لم يشأ أشفاتمن أن يتخلى عن هذه الجوهرة، إلا بعد لأي، وكرامة لفياسا، إذ كانت تعني عنده ما يفوق كل كنوز الدنيا، فهي تقي صاحبها من المرض والجوع. ولكنه أبى أن يعيد العشبة، بل ولا سبيل إلى ذلك، فمتى انطلقت مضت إلى هدفها، ولا شيء على الأرض يستطيع استعادتها. وها هي قد انطلقت، ولسوف تلج أرحام الباندوفيات!

ابتسم كريشنا وقال لأشفاتمن: «إذن فاعلم أن براهميا تنبأ لأوتارا، ابنة الملك فيراتا، يوم عقد عليها ابن أرجونا، ابهيمانيو، بأنها ستلد ابناً سيدعى باركشيت، بعد أن تنقرض عشيرة الباندوفيين».

صاح أشفاتمن حانقاً: «إذن لتدخل هذه العشبة رحم أوتارا ولتدمر هذا الجنين الذي يبدو أنك يا كريشنا حريص على حمايته!».

قال كريشنا منذراً: «إن سلاحك لفتاك حقاً، ولسوف يقتل الجنين كما تشاء ولكنك إذ لا تتورع عن قتل الأطفال ستمضي في التيه ثلاثة آلاف سنة، تهيم على وجه الأرض بلا صديق أو خِل، وحيداً في وسط الناس ولسوف ينزف جسمك قيحاً ودماً، ولن تجد لنفسك ملجأ سوى الغابات والسبخات، ولسوف يصيبك وأنت في

ترحالك ما يصيب الناس من مختلف الأوبئة والأمراض. وحسبك هذا عقاباً على سوء فعالك!».

سمع أشفاتمن نبوءة كريشنا فهز رأسه، ثم سلم الجوهرة كما شاء له فياسا، ودخل الغابة لاجئاً إليها مستسلماً لقدره.

وإذن فقد تمت المهمة، ولم يعد أمام القوم سوى العودة، فقفلوا راجعين يتقدمهم كريشنا وفياسا ونارادا، إلى حيث كانت تنتظرهم دروبدي المستغرقة في طقوسها.

لم تبد المرأة أي اهتمام بالجوهرة حين قدمت إليها، بل قالت إنها لم تكن تنشد الجوهرة ذاتها، وإنما الانتقام فحسب فليجمل بها يوديشترا رأسه.

أمسك يوديشترا بالجوهرة بكل احتفال كما لو كانت هدية من مرشد حكيم، ثم وضعها على رأسه فتوهجت وتألقت مثلما يتوهج القمر ويتألق بجلال فوق الهضبة.

السفر الحادي عشر

النساء

ركن ديتراشترا إلى اليأس بعدما فقد أبناءه، وخلد إلى الصمت المطبق فلا يتفوه بعبارة ولا يحادث حتى أهله، وكان يحسبه من يراه كالشجرة التي فقدت أغصانها.

وإذ وجده سانجيا الحكيم على هذا الحال من البؤس، سعى عنده ليطرح عنه الحزن ويواجه حقيقة الظواهر العارضة: «كل حال إلى زوال! أما علمت أن جحافل من الجيوش سقطت ومات الآلاف من الجند على أرض المعركة، كذلك قضى كل أولئك الملوك الذي حالفوا ابنك. نعم لقد خلت الأرض ولم يبق إلا أن نقوم بالجنّاز وحرق جثث أولادك وأحفادك والأقرباء والأصدقاء!».

وكأنما أفاق ذلك الملك العظيم من حلم ثقيل، وعندئذ أدرك فداحة الخطب الذي نزل به، ها إنه فقد الأبناء وأصحاب الشورى والأصدقاء وبات وحيداً في هذا العالم، لقد بت وحيداً في هذا العالم! بعد أن فقدت المُلك والأهل، وقبلها غادرني البصر. وها أنذا أجد البهاء الذي كان يسطع مني قبل حين يهجرني بلا أثر. الحق أني كنت في ضلال وسفه حين أعرضت عن نصح الأصدقاء، فلم آخذ برأي بالارما، وأشحت عن نصائح العارفين نارادا وفياسا. وقد

ضللت حين أشحت عن نداء كريشنا لي في القاعة، وكان نداءً عاقلاً، أن أحفظ السلم وأعطي أبناء باندو ولو خمس قرى، ويحتفظ ولدي بالمملكة كلها. نعم، لقد أعرضت عن النصيحة يوم كان الأحرى بي أن آخذ بها. وها أنذا أحتمل العذاب، ويا لطول عذابي! ولكن إذا كان هكذا هو الحال فليكن! ولسوف يشهد أبناء باندو رحلتي الأخيرة البطيئة إلى عالم برهما».

وعاد سانجيا يحاول مواساة الملك المفجوع وإنعاش قلبه بالعزاء: «دع عنك الحزن، يا مولاي! قد كان ذاك يوماً مضى حين كان بوسعك أن تتخذ قرارك بلا تحيز! ولعل الأمر كان صعباً، ولكن الفرصة لاحت لك، ثم تركتها تفلت منك، وهل هناك من لايدرك أن علينا تجنب كل ما يؤدي بنا إلى الندم والأسف؟ قد كنت تؤثر ابنك وعاضدته. وها أنتذا ينتابك الندم. فما جدوى الحزن؟ إن من يشتهي العسل ويسعى إلى الخلية فوق الشجرة ولا يحسب حساب السقوط حري به أن ينتهي إلى الندم. والحكماء ما كانوا ليرضوا عن إهدارك الدموع، ولا كانت الأسفار لتقر البكاء، فلتكن دموعك شعلة توقد النار ـ النار التي تحرق الموتى الذين تبكيهم الآن. دع عقلك الراجح يكبح شعورك بالحزن، ثم تقو واثبت بقوة روحك!».

قال ديتراشترا: «أروني الطريق الواضح المنير في معارج الدارما المعتمة!».

تطوع فيدورا لمخاطبته وإجابته، عن سؤاله فقال له: «لقد شبه العارفون الراسخون الحياة بالغابة. ومثلنا مثل براهمي جوّاب وجد نفسه في غابة كثيفة جافلة بالوحوش الكاسرة، ترتع فيها الأسود، والنمور والفيلة والدببة تزأر وتعوي، ويا له من مشهد يثير الخوف حتى في الإله ياما ذاته.

فيذعر البراهمي وترتعد أوصاله، ويستولي الخوف على عقله، فيسرع الخطى، ثم يجري هارباً باحثاً عن ملجأ، ويتلفت ذات اليمين وذات الشمال، عله يجد من ينقذه من هذا المشهد المخيف فلا يجد إلا

تلك الوحوش الضارية ولا يسمع إلا أصواتها الرهيبة أو صداها أينما اتجه أو مضى، من أمامه وخلفه وعلى جانبيه.

وفجأة يلاحظ أن هذه الغابة المرعبة ملفوفة في شبكة هائلة، ويرى أمامه امرأة ذات ملامح مخيفة تقف مادة ذراعيها نحوه لتستقبله بينهما، ثم أفعى ذات رؤوس خمسة تفح مهددة، ومعها أفاع ضخمة كالتلال، وتنتصب كالرماح كأنها تريد أن تقذف نفسها إلى السماء.

يندفع البراهمي هارباً من هذا الخطر الماحق، فيتعثر أثناء هربه ويقع في بئر كان مستوراً عن النظر بكومة من الأعشاب، وقبل أن يصل إلى القاع يتمسك بعشبة متسلقة. وينظر إلى الأسفل فيرى ثعباناً ضخماً وعلى طرف القاع فيل ذو ستة رؤوس واثني عشر قدماً، ثم يرى وحشاً مخيفاً فاغراً فمه ينتظر سقوطه ليبتلعه. ثم يطرق أذنيه طنين نحل يقوم ويحط على خلية فوقه يرشف عسلها، وتسقط منها قطرات تنزل عليه، فيفتح فمه ويأخذ في لعق تلك القطرات ويا لحلاوة مذاق العسل التي يعرفها الأطفال.

وهكذا يظل البراهمي ممسكاً بالعشبة المتسلقة، معلقاً بين السماء والقاع، وهو مستمر في ارتشاف العسل ويزداد فلا يرتوي له ظمأ، حسبه من ذلك أنه يعيش ويستمتع بالحياة.

وفي ما هو في حاله متلذذاً بقوة الحياة، تقبل جماعة من الفئران وتأخذ في قرض ذلك الحبل الذي يتعلق به، فيداهمه الخوف من الوحوش والمرأة المخيفة، ومن الأفعى الرقطاء والفيل المرعب، وينتابه الرعب من أن تنقطع تلك العشبة ولكنه يظل مع ذلك يغذي الأمل في وجه الأخطار التي تنتظره في هذه الغابة».

بدا ديتراشترا متأثراً بما سمع من رواية فيدورا، فصاح: «هذه قصة رهيبة. ولكن أخبرني يا أفصح الناس، ما الذي جعل هذا المسكين يبقى متعلقاً بالحياة بهذا القدر من القوة؟ وما الذي جعله

مبتهجاً حتى في بؤسه؟ الحق أن علينا أن نهرع لمساعدته. بل يجدر بنا أن نتحلى بالرحمة ونعمل على خلاصه من البؤس!».

قال فيدورا: «يا مولاي، هذه رموز يتوسل بها العارفون الراسخون لتقريب الحقائق العصية ليدرك الإنسان سبيل الانعتاق ويبلغ السكينة، فالغابة هي الحياة، والبقعة المظلمة حول البئر هي العمر، والوحوش الكاسرة هي الأمراض والأوبئة، والمرأة القبيحة المفزعة هي الانحطاط والتفسخ اللذان يدمران الشكل ويفسدان الجمال، والبئر هو العالم المادي، والأفعى الهائلة في قاع البئر هي كالا، الزمن العاتي الذي يقضي على كل شيء ولا راد لأمره. والنبتة المتسلقة التي يتعلق بها الإنسان هي غريزة البقاء التي تشترك فيها كل المخلوقات. والفيل ذو الوجوه الستة عند فوهة البئر هو السنة بتحولاتها الستة، وقوائمه هي شهور السنة بتعدادها. والفئران القوارض هي الليل والنهار التي تقرض حياة كل الكائنات. أما النحل فهو الرغبات. وما قطرات العسل إلا الملذات التي تتحقق بإشباع الرغبات. إنها الرحيق الذي تتغذى به حواس الإنسان. ذلكم يا مولاي تفسير الحكيم لدورة الحياة. وتلكم هي سبيل الانعتاق والخلاص منها.»

ولكن مهما بذل فيدورا في الرواية وبسط رموزها، فإن كلماته لم تفلح في خلاص ديتراشترا من همه وغمه، فظل غارقاً في اجترار أحزانه بعد أن رزئ في أبنائه. بل لقد طالت به الغيبوبة مما حمل فياسا وسانجيا وفيدورا ومن كان حاضراً من الحاشية على التعاقب على رش وجهه بالماء وهزه وترويح الهواء بسعف النخيل. وحين أفاق من غيبوبته لم يتمالك نفسه عن البكاء والنحيب أسفاً وحزناً.

ثم أمر بشد عربة واستدعى قندهاري وكل نساء أسرة بهراتا ومعهن كونتي أيضاً وما كاد يركب العربة حتى كانت قندهاري تهرع إليه ومعها كونتي، تلحق بهما الأميرات والوصيفات، ناحبات باكيات ولقد حاول فيدورا أن يخفف عنهن حزنهن ما وسعه الأمر،

وأعانهن على ركوب العربات، ثم رافق الجمع في رحلتهم حتى أطراف البلد.

حقاً كان الحزن قد سرى في كل بيت فكنت لا تسمع إلا البكاء والنحيب لفقدان زوج أو أب، ابن أو أخ، أو لعل البيت افتقد كل هؤلاء جميعاً، مما كان مألوفاً في ذلك اليوم. وكنت ترى تلك النسوة العفيفات من القوروشيات اللواتي كان عهدك بهن يحتجبن خفراً عن أهل أزواجهن من الرجال يخرجن الآن أمام العامة كاشفات عن شعرهن لا يستر أجسادهن إلا إزار بسيط يكاد لا يحجب شيئاً عن عيون الناظرين.

هكذا ولى الملك ديتراشترا ظهره لعاصمة ملكه وخلف أبوابها من ورائه، ومضى بين عويل الثكالى والأرامل إلى الساحة التي شهدت تلك الواقعة المشهودة.

وسرعان ما بلغ يوديشترا نبأ خروج عمه ديتراشترا من هاستينبورا مع حريم القصر ليودع أبناءه المائة الراحلين. فترك الرجل حزنه وهرع للقائه ومعه الروح السامية كريشنا ويويودانا ويويوتسو ودروبدي المفجوعة وإخوته الأربعة. وهناك على ضفة الغانج رأى يوديشترا نساء البهراتا وسمع عويلهن يبكين أحبتهن، ولكنه تجاوزهن، ولم يلتفت إلى شكواهن ومضى إلى الملك ديتراشترا، فمس قدمه بيده احتراماً للملك والعم الشيخ، وتبعه إخوته الأربعة في تقديم الاحترام أسوة به، وكان كلما تقدم منه أحدهم أعلن اسمه.

ورأيت الملك العجوز يضم يوديشترا إلى صدره، على كره منه، واضطرمت في نفسه عندئذ جذوة الحقد على بهيما ولم يلطِّف منها إلا ريح الحزن في فؤاده.

ووجدت كريشنا يبعد بهيما عنه ويدفع بكتلة من الصلب ضخمة تكاد توازي حجمه بين ذراعي الشيخ المكلوم حين هم بضمه ولا يعلم أحد كيف تهيأت له، حسبه أنه قدَّر ما انتوى ذلك الشيخ. فما أن

طوقها حتى أطبق عليها واعتصرها بين ذراعيه بقوة عشرة آلاف فيل فانهارت شظايا على الأرض، بينما نفذ بعضها إلى صدره، وكان ضغطه شديداً فرأيته يتقيأ دماً من فمه، ثم يتداعى على الأرض غارقاً في دمائه، كما تتداعى شجرة الباريجاتا تحت ثقل ورودها الحمراء.

ورأيت سانجيا يقترب منه وينهضه من سقطته، وسمعته عندئذ يقول له بين التأنيب والنصح: «ما كان يجدر بك، يا مولاي، أن تفعل ما فعلت!».

وللتو تلاشى الغضب من نفس ديتراشترا وأجهش في البكاء يصيح: «أوه بهيما، أواه! أواه بهيما، أواه!».

وسمع كريشنا يخفف عنه: «خفف عنك، خفف عنك، يا ديتراشترا! فما قتلت بهيما، وإنما حطمت كتلة من الصلب وضعتها بين يديك، بدلاً منه وأنت تهم باحتضانه. ولكن ماذا يجديك لو قتلته؟ أتراك تظن أن ذلك كان يعيد الحياة إلى ابنك؟

يا ديتراشترا، إنك قد درست أسفار الفيدا وتبصرت في القوانين في كتب الشاسترا، وعرفت الأخبار في البورانا، ثم إنك تبحرت في دارما الملوك. وأنت حبيت بعد بالحكمة. فلماذا تقيم على هذا الغضب والكراهية؟ في حين أن ما حدث كان بجريرتك، وما كان ليحدث لولا الهوى الذي جعلك تترك لابنك الحبل على غاربه».

أصغى ديتراشترا ساكناً وسمع الحقيقة الساطعة من كريشنا، فأجاب بأنه إنما نطق بالحق، فقد أعمى حبه لابنه بصيرته. وأثنى عليه لأنه أبعد بهيما. وها هي ذي نفسه تبرأ من الحقد والكراهية، وترغب في عناق ابن باندو التالي. فإذا به ينسى أبناءه القتلى ثم يرى كل سعادته في أبناء باندو.

ثم أخذ ديتراشترا يعانق أبناء أخيه الواحد تلو الواحد ويباركهم جميعاً، ويسألهم عندئذ أن يلتمسوا قندهاري علَّ خاطرها يهدأ وهم لا يدرون أن الأم الثكلى تحمل لعنتها عليهم. ومن بعد تنبأ

العارف فياسا بقوة بصيرته بذلك الأمر الذي عزمت عليه. فنزل النهر وتطهر، وأصبح، بلمح البصر، إلى جانبها، يكشف أسرارها ويشير عليها أن تطرح الحقد والكراهية من قلبها، وأن تدع لعن الآخرين. بل الأجدر أن تعالج الحال بالصفح والغفران، وأن تمارس اليوغا لتكسب السلام وطمأنينة النفس.

وأجابته قندهاري أنها لا تحمل للباندوفيين سوءاً، ولا هي تتمنى لهم الموت. فإن وجدها مضطربة فلأنها فقدت أبناءها. بل الحق أنها تفخر بالباندوفيين قدر ما تفخر بهم أمهم كونتي. ولذلك فهي تصفح عنهم ـ إلا بهيما الذي لا تملك أن تنسى منه أمراً واحداً قام به في حضور كريشنا، حين تحدى دريودانا للنزال، فلما عجز عن مقارعته بالسلاح ضربه تحت السرة. ولهذا وحده غضبت. فما الذي جعل محارباً يخرق قواعد القتال التي وضعها المهاتما الحكماء؟

بان الفزع عندئذ جلياً في عيني بهيما، إذ أدرك أن الأم توشك على إلقاء لعنتها فحاول أن يهدئ من روعها: «لقد كنت جزعاً، ولذلك قمت بما قمت به، إن خطأ أم صواباً. فهل كان لي أن آمل بالانتصار على ابنك، هذا البطل الصنديد، في مبارزة متكافئة؟ وإذن فلم يكن أمامي خيار سوى الانتصار، مهما تكن الوسيلة. وبعد فقد كان هو الذي بادرنا بالظلم. فما حيلتنا معه؟ ثم إنه كان آخر من صمد من الأبطال القوروشيين، لو خليت عنه لتركنا المملكة تفلت من بين أيدينا، وما كنا لنرضى بهذا. فكان ما كان. وأنت تذكرين بلا ريب ما أنزل بدروبدي من المهانة، حين عرَّضها لأعين الجميع في إزارها البسيط، وهي حائض.

قالت قندهاري معلقة: «أراك تطنب في مدح مهارة ابني في القتال. فإذا كان هو ذاك البطل الصنديد كما تقول، فلا ريب بأنه جدير بموت أرفع من هذا الذي لقيه على يديك ـ أما أنت فقد شربت من دم دوشاسنا في ساحة المعركة. فأية فظاعة وأية حقارة! أترى إذن الدرك الذي انحدرت إليه؟».

«إنها لحقارة بلا ريب أن يشرب المرء من دم الغريب، وإنه لأشد بشاعة أن يشرب المرء من دم أخيه فكأنه يشرب من دمه هو. ولكن اسمعي، أيتها الأم، وإني لأصدقك القول إذا قلت إن ذاك الدم لم يمس سوى شفتي وأسناني، ولم يتلطخ بدم دوشاسنا سوى يداي. وما أقدمت عليه كان وفاء لقسم أقسمته في لحظة غضب بأن أشرب من دمه، جزاء جرّه دروبدي من شعرها، بعد مباراة النرد. ولو لم أف بقسمي لما كنت جديراً بلقب المحارب. ولا تضعي اللوم كله عليّ، ذلك أنك أنت قصرت عن كبح جماح أبنائك ـ فكيف نكون نحن الملومين لخطأ سوانا؟».

فردت قندهاري تخاطبه بلهجة يمتزج فيها الغضب والتنديد معاً، أفلم يتمكن من كل أبنائها، فماذا يضيره إذن لو أبقى على حياة واحد منهم لم يأت منه شر عظيم، ليكون عوناً لأبيه الضرير وأمه في شيخوختهما؟

ثم التفتت عندئذ ثائرة، حانقة، غاضبة وصاحت: «أين الملك؟ إليَّ به، إليَّ بالملك!».

تقدم يوديشترا منها مضطرباً، مرتعداً، ضاماً كفيّه إلى بعضهما، وقال: «أنا يوديشترا، ياديفي، من قتل أبناءك عسفاً! أنا من تسبب في هذه المذبحة! وإني لجدير بلعنتك، فأنزليها بي. فقد أصبحت زاهداً في الملك وعافت نفسي الحياة، بعدما قتلت أصحابي وكرهت أصدقائي وقتلتهم. فيا لي من مغفل أحمق!».

أطلقت قندهاري آهة عميقة، وسكتت لا تنطق بكلمة.

نظرت المرأة ورأت من وراء العصابة، بما ملكت من بصر نافذ بفضل عمق دراستها للدارما، يوديشترا ينحني ليمس طرف قدمها احتراماً وتوقيراً، وللتو ظهرت البثور على أظافر قدميه الجميلتين.

لاحظ أرجونا هذه الظاهرة فأصابه الفزع وأسرع ليتوارى وراء كريشنا، فيما استولى الاضطراب على الأخوين ناكولا وسهديفا.

وسرعان ما عادت السكينة إلى نفس قندهاري، وأخذت تحدث الإخوة برقة وعذوبة حديث الأم لأبنائها.

أما كونتي فقد وقفت شاهدة على هذا اللقاء، تغطي وجهها بوشاح رأسها وتمسح الدموع التي ترقرقت في عينيها، وهي تشاهد أبناءها بعد فراق طويل، وأخذت تتلمس جراحهم وتضمهم إلى صدرها واحداً بعد الآخر، وتعود فتجهش بالبكاء من جديد.

وبكت دروبدي وازدادت نحيباً وعويلاً، وركعت على الأرض، وأخذت تصيح: «أين ذهب الجميع؟ أين غاب ابهيمانيو؟ لم لا يأتون إليَّ؟ وما جدوى المملكة وقد مات أبنائي؟».

مدت كونتي يديها لتعين دروبدي على النهوض، وتقدمت المرأتان من قندهاري.

قالت قندهاري: «لا تحزني يا بنيتي. وانظري إلى حالي فمصابي أعظم من رزئك. إن الزمن يا بنيتي أتى إلينا بالفوضى حتى عمت الكون. والذنب في هذا كله يقع عليّ. فإن حزنت فمن يواسيني؟» ونظرت المرأة بقوة بصيرتها ورأت، من وراء حجاب العصابة المذبحة التي نزلت بالقوروشيين، وكانت تلك بصيرة تهتك الحجب وتتجاوز المسافات، منَّ بها العارف الكبير فياسا على هذه المرأة المؤمنة التي تأخذ نفسها بالشدة في صلواتها وتأملاتها وتفي بالنذور.

نظرت المرأة إلى ساحة المعركة وكشفت ببصيرتها تلك الجثث المتناثرة على الأرض، فشهقت شهقة عظيمة، وأخذت تشتد في العويل.

سار الجميع، الملك ديتراشترا يمسك بذراع فياسا، وأبناء باندو يتقدمهم يوديشترا، وفي إثرهم كريشنا وحريم القوروش، إلى أرض المعركة.

وهناك رأت النساء إخوتهن وأبناءهن، آباءهن وأزواجهن، جثثاً متناثرة على الأرض، نهشت لحومها الضباع والذئاب والطيور

الجارحة، والوحوش مصاصة الدماء والراكشا العماليق، وغيرها من مخلوقات الليل.

تعالى صراخهن وعويلهن حين رأين هذا المشهد المروع، وأُصيبت منهن بالإغماء من أصيبت، وتقيأت من تقيأت، فلا عجب إن طار صواب بعضهن فأخذن يهذين كالمجنونات. وقعت عينا قندهاري على جثة دريودانا مضرجة بدمائها، فنزلت إليه وضمته إلى صدرها في عناق أخير، وأخذت تصيح منتحبة، تطلق العويل بصوت رتيب: «أواه يابني! أواه!».

انهارت قندهاري من شدة الحزن، وانتابتها إغماءة حيناً، ثم استعادت وعيها، وتوجهت إلى كريشنا بالتنديد واللوم: «ها قد قضي على الباندوفيين والقوروشيين عن بكرة أبيهم! فكيف أجزت هذه المذبحة ـ لَم لم توقف هذه الحرب المدمرة، يا كريشنا؟ وها إني ألعنك يا كريشنا لأنك لم تتدخل لوقف المجزرة! إني ألعنك بقوة الزوج المخلصة، اللعنة عليك يا رامي القرص والصولجان إليك بنبوءتي لك ـ إنك ستذبح أهلك، بعد ست وثلاثين سنة، كما ذبح أبنائي أهلهم، وكما أفنى الباندوفيين أهلهم، ولسوف تهيم على الأرض مجللاً بالعار وستموت أهون ميتة... ولسوف تبكي نساء عشيرتك كما تبكي نساء البهاراتا اليوم».

ارتسمت ابتسامة رقيقة على فم المهاتما كريشنا، وهو يستمع إلى تلك اللعنات التي استنزلتها قندهاري عليه، وقال: «ليس هناك سواي من يستطيع قتل الفريشنيين هذه حقيقة لا ريب فيها. لذلك أنا ممتن لك أعظم الامتنان لهذه اللعنة، لأنك تيسرين لي مهمتي... فهيا انهضي، يا قندهاري، ودعي عنك الحزن والحق أنك المسؤولة عن هذا الأمر. فأنت تعلمين فساد ابنك دريودانا وعجرفته.

فلم لومي؟ إنك ملكة، وقد حملت وولدت أبناء ليقضوا في ساحات القتال، فهذا شأنك ومن طبيعة الملك، وكل ميسر لما خلق: ذلك هو شأن الأم من البراهمة التي تلد ليتابع أبناءها أداء الطقوس المقدسة، والبقرة التي تلد الثيران ليحملوا النير، والفرس التي تأتي

بالمهر ليصبح جواداً يسابق الجياد الأخرى، وكما تضع الشودرا القروية الأطفال لينشأوا ويقيموا على خدمة الآخرين، ومثلما تلد الفيشا لتزيد من ملاكي قطعان الماشية!».

كان قلب قندهاري يضطرب في صدرها ويغلي: بالكراهية وهي تصغي إلى كريشنا، مطبقة الشفتين لا تنبس بكلمة.

قال ديتراشترا ليوديشترا، بما يشبه التساؤل، وفي صوته رنة من الحزن: «قد آن الوقت لحرق جثث الموتى من الأصدقاء والأعداء. ولكن أتحسب أن هؤلاء الموتى الذين أكلتهم الوحوش الضواري والطيور الكاسرة سيذهبون إلى الجنة مثل الآخرين؟».

وكان أن استدعى يوديشترا كاهن القوروشيين سودرمان وكاهن الباندوفيين دهوميا، ومعهما سانجيا وفيدورا ويويوتسو، وأمر بإقامة جناز يتوحد فيه آلاف من القتلى الذين سقطوا في تلك الأرض المباركة، فلا يكون هناك من ينكر عليه الشرف والتكريم.

شرعت تلك الجماعة في نقل خشب الصندل وسواه من الأخشاب الكريمة والسمن والزيت والعطور، وجمعوا كل ماوقعت عليه أيديهم من ملابس الحرير وأخشاب العربات المهشمة والأسلحة المحطمة وأقاموا المحارق، وأودعوا فيها الجثث وسط الطقوس وصلوات الكهنة.

وحين انتهت مراسم الحرق ترك يوديشترا الملك ديتراشترا على رأس القوم ومضى مع جمع من أتباعه إلى الغانج المقدس ليتطهروا في مياهه، فيما كانت القوروشيات يؤدين طقوس الماء الأخيرة.

وهناك انتحت كونتي جانباً بأبنائها، وخاطبتهم بصوتها الرقيق قائلة:

ذاك البطل السند،

المقاتل العمد،

ذو البأس.

من صرعه أرجونا
من ظننته أنت ابن رادا.
من قاتلكم.
جلداً، ثابتاً،
راسخاً، صامداً،
لا يهتز له جنان.
من زها حين تقدم،
ولواء جيوش دريودانا له
معقود
من كان يصول، ويجول،
كالعاصفة
يجتاح كل الصفوف أمامه ووراءه
ومن حوله.
ذلك المحارب، المقاتل،
من أقبل على المنية،
وأبى الدنية.
إنه أخوكم الأكبر، كارنا.
إنه ابني
إنه ابن إله الشمس سوريا،
من ولد بدرعه،
وكان ألقه من ألق الشمس.

السفر الثاني عشر

العزاء

دأب أبناء باندو على طقوس الاغتسال للتطهر من أدران الحزن، واستزدادوا طوال شهر، وهم مقيمون لا يبرحون ضفاف الغانج المقدس.

وكان يأتي إليهم في ذلك المزار العارفون والزاهدون، ومنهم فياسا ونارادا وكريشنا ذاته، مصحوبين بحوارييهم، فيحلون بينهم، فينالون من يوديشترا كل التكريم، ويردون عليه بعبارات العزاء.

ولكنه ظل مقيماً على حزنه لا يبرحه، مثابراً على سقامه لا يغادره، وقلبه مكلوم لا يروّح عنه شيء مما كان يبلغه من عبارات العزاء التي جهد أصحابها أن تخفف من وقع المصاب وخاطب أرجونا بقوله: «ها إني قد ملكت العالم بين يدي، بفضل مشورة كريشنا ومساندة بهيما وأرجونا، ثم الصلوات التي كانت تتصاعد من آلاف البراهمة. ومع ذلك فإن الحزن يثقل قلبي: لقد مات ابهيمانيو وكذلك أبناء دروبدي ـ فماذا ستقول أم ابهيمانيو سوبهدرا؟

وماذا سيقول أهل دفاركا لكريشنا؟ بل ويثقل على قلبي أن كونتي لم تشأ أن تخبرنا أن كارنا كان أخاً لنا غير شقيق حملته

سراً، ولم تخبرنا بأمره إلا بعد موته. ولو كان كارنا وأرجونا إلى جانبي لتحديت كريشنا ذاته! ومع ذلك فإن أذكر أن عيني وقعتا على قدمه في لحظة بلغت فيها من الغضب أقصاه، في تلك اللحظة الرهيبة حين ندد بنا في قاعة القصر، فهدأت نفسي، إذ تذكرت مبلغ شبه قدميه بقدمي أمنا كونتي، ولكم جهدت في المقارنة، يومئذ بين قدميه وقدميها، وحاولت أن أعود بالشبه إلى سبب، وخلت حينئذ أن ثمة علاقة بينهما، بيد أنه لم يخطر لي ببال أن... وكيف كان لي أن أحدس هذه الحقيقة. قد كانت الحياة أرحم بي لو أن الأرض انشقت وابتلعت عربتي! وأية لعنة نزلت بأخينا ليموت بأيدينا؟»

أطلق يوديشترا آهة من أعماق صدره، وتابع: «قد كان الأجدر بنا، يا أرجونا، ألا نعود من منفانا! فإذا عدنا أخذنا نتقاتل كما تتناحر الكلاب على عظمة ـ وها قد انتصرنا، فإذا بالعظمة بلا مذاق أو طعم، ثم تُرمى العظمة بعيداً فتتنساها الكلاب. إيه! ما كان جديراً بنا أن نقاتل القوروشيين ولو مقابل جبال من الذهب، ولا مقابل كل ما في العالم من جياد وقطعان ماشية! وها نحن قد أبدناهم عن بكرة أبيهم، ولسوف نتحمل إثم هذه الفعلة ما عشنا. وأحسب أن الأفضل أن أمضي للاعتكاف في الغابة وأعتاد الصمت وسلوك طريق الحكماء والزهاد!».

لعق أرجونا شفتيه بلسانه ضيقاً وبرماً بما سمع من يوديشترا، لكنه تمالك نفسه وابتسم قائلاً: «لكم يؤلمني ويحزنني أن أراك على هذه الحال وأنت كبيرنا. ولكني أراك تتجاهل ماجاء في الأسفار، وهي في هذا واضحة جلية، إذ تقول إن ما ينتزعه المحارب الشتريا حلال له. أفسمعت بُملك لم يؤخذ اغتصاباً؟ وهل اجتمعت الثروة بلا مستغل، وبلا حيف أو ألم ينزل بأحد الطرفين؟ هيا، إن العالم ملك يديك الآن، فأقم الصلوات وطهر نفسك بالطقوس ثم تمتع بما هو حلال لك!».

أطرق يوديشترا لحظة ثم استأنف قائلاً: «إذن، فاصغ، أي أرجونا، بما يتسع له ضميرك، ولسوف تفهم عندئذ وتعي فليس

هناك طريق أمامي سوى طريق الفضيلة وهجر ملذات العالم: ولسوف أمضي إلى الغابة وأحتمل البرد والرياح والقيظ، ولسوف أحتمل الجوع والعطش والإرهاق وأسلك الطريق التي رسمتها الأسفار المقدسة. ولن أصغي بعد الآن إلا للعنادل وأصوات الحيوانات واستنشق الهواء الصافي المعطَّر بأريج الأزهار، وهكذا أرى الحياة تمضي أمامي شيئاً فشيئاً حتى تأفل وتغيب ولسوف أواجه كل لحظة ومسألة، بعقل هادئ رصين. فلو أتى من يبتر ذراعي لم أحفل، ولو جاء من يشل الأخرى لم أواجهه إلا بالبسمة. نعم لسوف أطرح عني كل رباط وعلاقة، وأتخلص من كل إسار، وأمضي حياتي الباقية حراً كالهواء لا يقيدني قيد، وفي هذه الحرية وحدها تتحقق سعادتي الخالصة.»

نزلت كلماته كالصاعقة على بهيما، فلم يتمالك إلا أن يقاطعه: «هذا تخريف، كالأحمق إذ يعبث بالصحف. وإلا فقل ما جدوى تلك الحرب ولأي سبب وقع كل هؤلاء القتلى إذا كنت تأبى النهوض بعبء النصر؟ الحق أننا ما كنا لنتكلف تلك الجهود، ونحتمل المشاق، ونصبر على الألم والموت، لو كنا نعلم أن هذا ما سيواجهنا في النهاية. ولكن قل لي أتحسب أن الشتريا جلف متبلد الحس قاصر عن المغفرة والتعاطف والإحسان والامتناع عن العنف؟ واعلم أنه لو كان الانعتاق يتحقق بالعزوف عن أداء الواجب المفروض على الإنسان لكانت الجبال والأشجار أسبق إلى هذا التحرر! بل إن السمك كان يسبقنا إلى هذا الحال. ولكن انظر حولك: ألست ترى أن عمران العالم إنما يكون بأداء الواجب؟ فكيف يحقق تفادي الواجب السعادة للإنسان؟».

صمت يوديشترا ولم يعلق بكلمة على ما سمع من أخويه فانبرت دروبدي الجميلة لتثني على حديثهما، بصوت رقيق عذب، وتلمح له، بأن يتفكر فيما جهد أخواه في نصحه: «أتراك نسيت قولك لأهلك عند بحيرة ديفيتا أن يستعدوا بعد انقضاء مدة المنفى لمنازلة دريودانا؟ فلم هذا التحول والإعراض عن الواقع؟ ألا يعلم أن كلاً ميسر لما

خلق؟ فكيف للسمكة أن تضع بيوضها في حفرة جافة؟ وهل للخصي أن ينجب؟ وإذن، فهل يستطيع ذو العزيمة الواهنة، الضعيف، أن ينهض بصورة المحارب الشتريا؟».

فالتفت يوديشترا عندئذ إلى بهيما، وقال: «اعلم أنك إنما ترغب في المملكة بدافع من حبك للسلطان، وبتأثير من الحماقة، والطمع، وشهوة الامتلاك، واعلم أن النجاة في البعد عن الشهوة، والترفع عن الطمع، واعلم، بعد أن السعادة في القناعة. وبعد فإن الملك ذاته لا يملك إلا معدة واحدة شأن كل إنسان ـ فما مقدار ما تستطيع هذه المعدة أن تختزن من الطعام».

ولم يملك فياسا عندئذ سوى أن يشير إليه بأن حزنه قد أخذ يغلب على حكمته: «فما جدوى الحزن؟ ومصير الإنسان منذ ولادته إلى الموت. أما رأى أن ما هو موحد مآله التقسيم، وما حيلة الإنسان في الحزن والمصير معروف ومآله إليه؟ أليس العالم ظواهر تبرز ثم تتلاشى كالفقاعات على سطح الماء. نعم إن الأصدقاء لا يأتون بالبهجة، ولا الشقاء والبؤس من فعل الأعداء، والحق أيضاً أن الحكمة لا تورث الجاه ولا الجاه مصدر السعادة.

نحن جميعاً رهن القضاء: وأنت يا يوديشترا قد ولدت شتريا، محارباً، فأنت إذن مسير منذ تلك اللحظة. فليس لك أن تعيش عاطلاً، لأن العمل فرض عليك، فاعمل كما يقضي الواجب.»

وإذ رأى أرجونا يوديشترا صامتاً لا يبدي أثراً لانفعال نظر إلى كريشنا، فالتقط كريشنا النظرة فأمسك بيد يوديشترا بين يديه، يداً تفوح برائحة الصندل، بيضاء كعمود من المرمر، وأخذت كلماته العذبة تتدفق من شفتيه ووجهه متألق كزهرة اللوتس: «دعك من هذا الحزن الذي يفسد عليك حياتك، ولا تحسبن أن من سقطوا وقضوا عائدون لقد غادروا وتلاشوا كالأحلام العابرة، وإذا كانوا قد سقطوا ففي مواجهة العدو. وحسبك أن أحداً منهم لم يقتل وهو متراجع، ولم يوجد في ظهر واحد منهم جرحاً. إن مأواهم في السماء، وإنهم لجديرون منك بأكثر من هذا الحزن الذي حل بك».

ولقد وافقه فياسا الرأي، أما إذا كان لابد له من أمر فليؤد قربان الحصان، الأشفاميدا، ويبرأ عندئذ من كل الآثام ويحكم مملكته سعيداً.

وعاد كريشنا فثنى على قول فياسا وألح عليه أشد الإلحاح بأن يهجر هذا الحزن الذي رأى فيه علامات المرض، وزاد في الرجاء بأن يقوم إلى مهمته التي انتُدب لها.

وعندئذ نهض يوديشترا تلبية لهذا الرجاء وخدمة للإنسانية، فطرح عنه الحزن والقلق، ثم ركب عربة بيضاء مكسوة بالسجاد وجلود الغزلان، يجرها ستة عشر عجلاً أبيض من العجول المقدسة، وقد أمسك بهيما بأعنتها وسار في إثره الشعراء والمنشدون يشدون بمدحه، فيما جلس هو متألقاً كإله القمر على مقعده. وأرجونا بجانبه يحمل مظلة بيضاء تخيم فوقه كسحابة مرصعة بالنجوم أما سهديفا وناكولا فكانا يحملان مروحتين كبيرتين من أذناب الياك يروحان بها الهواء منْ حوله. حقاً كان مشهد الإخوة الخمسة في العربة يومذاك أشبه بعناصر الطبيعة الخمسة، التراب، والنار، والهواء، والماء، والأثير التي تبرز وتسيطر على العالم.

دخل الموكب باب المدينة، وسار في دروبها، والناس مصطفون على الجانبين، ويملؤون الساحات، والنساء يتزاحمن في الخروج لإلقاء نظرة على هذا المشهد حتى كادت البيوت تنهار من شدة الاضطراب في زحمة هذا المحيط العظيم، بين قرع الطبول ونفير الأبواق.

وفي بهو القصر جلس يوديشترا على عرش من الذهب الخالص، متوجهاً نحو الشرق، وفي مقابلة البطلان المجيدان ستياكي وكريشنا، وإلى كل جانب جلس بهيما وأرجونا على كرسيين مرصعين بأندر الجواهر، بينما جلس ناكولا وسهديفا على مقاعد ذهبية وتحلق سانجيا ويويوتسو وقندهاري حول ديتراشترا، وكل يجلس على مقاعد محفورة من العاج، وهناك جاءت الوفود

يقودهم الكهنة، فيستعرضهم يوديشترا، ويتقبل منهم الطاعة والولاء وما حملوا من الهدايا الغالية: قدور من الذهب والفضة والنحاس، وجرار الفخار تحمل العسل واللبن ووقود النار المقدسة وأعشاب الكوشا، فضلاً عن الأزهار والأرز. كانت الهدايا تمر وتتراكم والوصفاء يرصفونها في تناسق، أو كيفما اتفق، مما جعل بعضها في متناول يد ديتراشترا فأخذ يتحسسها بأصابعه أو يلتقط بعضها، أو يحملها بكفه.

وجاء الكاهن دهوميا وأشار إلى يوديشترا ودروبدي بالجلوس على مقعد خاص مكسو بجلد النمر، وشرع في ترتيل المانترات المقدسة، وهو يصب السمن في النار المقدسة، على ذلك المذبح الخاص الذي أنشأه كريشنا، باتجاه الشمال والشرق. ونهض بعدئذ فأخذ يصب الماء من الصدفة المقدسة فوق رأس يوديشترا. وبتوجيه من كريشنا قام ديتراشترا بصب الماء كذلك، مبايعة منه ومن الشعب للملك الذي بات الآن يحتل العرش.

وبعد انتهاء مراسيم التتويج أمر يوديشترا بطقوس الجناز لكل الذين قضوا في الحرب، وحين انتهت الطقوس أشار لرعاياه بالانصراف، أما إخوته فمضى كل منهم واحتل قصراً بأمر منه، فكان قصر دريودانا من نصيب بهيما، واتخذ أرجونا مقره في قصر دوشاسنا، أما ناكولا فاستقر في قصر دورماشنا، وأقام سهديفا في قصر درونا وكان كل قصر من هذه القصور أية من آيات الفخامة والعظمة، ووجد الإخوة في قصورهم كل ما يخلب النظر والقلب من أسباب الرفاهية والراحة، والحوريات الحسان والخمور. وهكذا أمضوا الليلة في أنس وسعادة، ليصحوا مبكرين ويغتسلوا ويمثلون أمام يوديشترا في صباح اليوم التالي.

ولما مثلوا أمامه سار بهم، وأكفهم مضمومة إلى بعضها، إلى كريشنا ذي البشرة الزرقاء، بثوبه الجليل من الحرير الأصفر الموشى بالجواهر، وقد قلد صدره بدرّة فيشنو المرصعة بثلاث عشرة جوهرة من الجواهر النادرة، والتي حملتها إليه أمواج البحر.

ووجده القوم متربعاً على عرش ضخم من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة وكل واحدة منها تنفرد بجمال خاص لا مثيل له. وكان البهاء يسطع منه حتى لتعجز الكلمات عن وصف روعته في ذلك اليوم.

بادر يوديشترا بسؤاله، مبتسماً ابتسامة رقيقة، هل أمضيت يا ملجأ العوالم الثلاثة ليلة هنيئة؟

كان كريشنا مستغرقاً في تأمل عميق، فلم يجب، وكأن السؤال لم يبلغه، بل لم يبد منه أنه لاحظ الواقفين أمامه.

تابع يوديشترا حديثه: «إني أضرع إليك، يا كريشنا يا أقدم الأحياء، ومبدِّد الشكوك، أيها الثابت كالصخرة، المنير كلهيب المشعل».

افتر ثغر كريشنا عن ابتسامة رقيقة عذبة، وقال: «أرى بهيشما مستلقاً على سرير من السهام، كشعلة توشك أن تنطفئ، وأنا ماثل في فكره الآن. فامض إليه، أي يوديشترا، ودعه يعرض عليك خفايا القوة، والمتعة، والانعتاق».

«وليحدثك في الطقوس وواجبات المراتب الأربع، وفصول الحياة الأربعة وواجبات الملك، أسرع إليه وليودعك علمه قبل أن يموت ومعه أساس كل معرفة!».

وأجاب يوديشترا بأنه يصدع لأمره، شرط أن يرافقه في رحلته إلى بهيشما.

سارع كريشنا يأمر ستياكي بتجهيز عربته، فجاءته تبرق وتلمع فيها الجواهر من كل نوع، تدور على دواليب من الذهب، ويجرها حصانان من أكرم الأحصنة، يمسك بأعنتهما سغريفا وشاييفيا، ترفرف فوقها راية جميلة يتوسطها رسم ملك الطيور، الغارودا.

وانطلق الجمع إلى حيث كان بهيشما مسجى على فراشه الذي شكلته مجموعة ضخمة من السهام، يحيط به حشد من الزهاد، كما إندرا إذ يحيط به الأرباب.

وهناك قدموا له آيات الاحترام وجلسوا متحلقين حوله. وبعد حين سأل كريشنا بهيشما الذي عُرف بأنه أفصح البشر وأبلغهم، ولما وجده شاخصاً ببصره إلى السماء، وكأنه لم يتبين زائريه، إن كان يشعر بالألم فوق هذا الفراش من السهام، وما إذا كان يشكو من علة في البصر أو مرض. ولكم حسده كريشنا لتلك المكرمة التي شاءها له أبوه شنتانو بألا يموت إلا وقت ما يريد ويشاء.

أفلا يجدر به، وهو الذي يملك من العالم ما لم تبلغه حتى الآلهة، أن يكشف خفايا الماضي، وخبايا الحاضر، وأسرار المستقبل؟

ردَّ بهيشما عليه السلام، وحدثه بالآلام التي تنهك بدنه وروحه وتنال من عقله: فهذه السهام أشبه بالنار أو السم، وتشوش عليه الرؤية، وتجعل أوصاله تخور، ولسانه يكاد يعجز عن الكلام. ولكن من هناك أعظم من كريشنا محدثاً عن ألغاز الحياة، ليجرأ تلميذ مثله على الخوض فيها أمام مرشد عظيم مثل كريشنا!

كانت الشمس تميل للغروب في ذلك الوقت، فنهض الزهاد من مجلسهم، وأدوا التحية لكريشنا وبهيشما ويوديشترا. وعندما انفض اجتماعهم نهض كريشنا ويوديشترا مودعين البطل المحتضر على وعد بالحضور في الغد.

نام كريشنا ملء جفنيه في تلك الليلة، ولما صحا في الفجر اغتسل ونظر إلى نفسه في مرآة صقيلة، ثم استدعى ستياكي ليأتي بيوديشترا ليمضيا معاً إلى بهيشما كما وعداه.

وجاء إليه يوديشترا كما شاء وتجهزا. للذهاب إلى ذلك المعلم العظيم بلا رفقة أو حاشية، حرصاً على الدرر التي سينطق بها، لئلا تقع على أذن غير جديرة بها، وليفيدا من الاجتماع فلا تتبدد الفائدة من اتساع الحضور.

وهكذا أسرع كريشنا ويوديشترا إلى تلك البقعة المباركة، ونظر كريشنا فزعاً إلى البطل المسجى كالشمس إذا حطت على الأرض.

وهناك سأله كريشنا إن كان قد استراح في ليلته، وما إذا صفا ذهنه ووضحت رؤيته؟

«لقد غادرتني، بفضلك يا كريشنا، كل آلامي وتلاشى الضعف والوهن، وشفيت من الحمى وها إني أرى الماضي، والحاضر والمستقبل أمامي، مثل حبة الفاكهة في كفي!».

قال كريشنا: «إذن، فاعلم أني أصل الصيت والفضيلة. ومن قوتي يصدر كل شيء. خيراً كان أم شراً، مثلما تصدر خيوط النور من القمر الساكن البارد! لا أحد يستطيع أن يزيد في صيتي! لذلك أقول يا بهيشما أن كل ما تستودع الباندوفيين سيبلغ حد القداسة كما كلمات الأسفار مقدسة!».

«إن بيوديشترا خشية من أن تقذفه باللعنة، لأنه أثم حين أثار الحرب، وبسببه قتل أهله!».

«ليتقدم ولابأس عليه. إن واجب الشتريا، المحارب، يفرض عليه القتال في حرب عادلة وقتل أهله إن عارضوه عن غير حق!».

اقترب يوديشترا ببطء من بهيشما، وبسرعة لمس قدمه، وسمعه يأذن له بالجلوس والسؤال عما يبدو له من الأسئلة المحيرة والألغاز.

«سمعت العارفين يقولون أن واجب الملك أسمى الواجبات ما هي هذه الواجبات؟ بل ما معنى الواجب؟».

«إذن، فإني محدثك عن الواجب: إن واجب الملك ألا يفقد رباطة جأشه في الملمات والدواهي، بل يظل ثابت الجنان حين تضطرب الأحوال وتفاجئه تحولات العالم من حوله.

ثم إن واجب الملك أن ينشد الحقيقة ويخلص لها. ذلك هو الواجب الأعلى: ومن يخلص للحقيقة هو الغني. وليحذر الملك التباسط مع خدمه، ففي مخالطة من هم أدنى منه ضرر عظيم، فهؤلاء لن يتورعوا عندئذ عن الكذب، والسرقة، ومعاشرة الخادمات

في حضرته. بل لسوف تجدهم يحاولون ارتداء مثل أزيائه، أو لعلهم يحاولون بزه، والاحتيال عليه وتملقه في وجهه ثم سلقه بألسنتهم في غيابه، فيتلاعبون به ويكون شأنه معهم شأن الطير المربوط بخيط حين يتلاعب به الأطفال. ذلكم هو عاقبة تباسط الملك وتساهله.

وينبغي أن يكون صالح الرعية شغله الشاغل. ألم يحذر المشرّع مانو من الستة: مرشد صامت، وكاهن جاهل بالأسفار المقدسة، وملك يهمل رعاياه، وزوج سليطة اللسان، وراع يلازم القرية، وحلاق لا يصبر على مهنته.

ثم إن العمل واجب على الملك. ذلكم هو واجبه الأسمى، فعليه أن يدأب على العمل بلا انقطاع. ألم ينصح أبو الآلهة بريهسباتي أنه بالعمل ينال المرء الرحيق الرباني، وبه يقضي الإنسان على الشياطين، وبه أيضاً يحكم إندرا ملكوته. والملك العاطل لا يزيد عن أفعى منزوعة الأنياب، وإن كان داهية. وعلى الملك أن يرصد عدوه مهما بدا ضعيفاً. وحسبه أن يعلم أن شرارة، وإن كانت صغيرة، كفيلة بأن تحدث حريقاً يلتهم غابة، واعلم أن نقطة من السم تكفي لقتل رجل..».

كان يوديشترا يجلس مستغرقاً في التأمل وهو يلتقط من بهيشما فصوص حكمه، وعاد يسأله: «وما واجبات المراتب الأربع؟»».

«اعلم يا يوديشترا، أن من العسير أن يعرف الإنسان واجباته. فهي غالباً ما يعتورها اللبس، بل وكثيراً ما تكون السيادة للآراء الخاطئة على تلك السليمة، فيخلص المرء إلى نتائج خاطئة، كذلك يتبع الناس مناهج في الفكر والأخلاق تبحث في طبيعة الواجب، وهي مفاهيم لم توصل أصحابها إلى معرفة حقيقة الواجب».

وسأله من جديد أن يحدثه عن واجب الحكم؟ قال بهيشما: «إذن اعلم أن لتتويج الملك وولايته الأهمية المطلقة في الحكم، لئلا تسود

الفوضى، وتفسد المملكة، ويترك الحبل على غاربه للصوص، ويتلاشى احترام الدارما من قلوب الناس. وليس هناك أدعى للشفقة من بلد ممزق بالحرب بين أهله».

سأله يوديشترا: «إذا فشت اللصوصية واختلطت المراتب بلا حدود معينة في حمأة الفوضى، وبات السادة الشتريا عاجزين عن النهوض بمهامهم، ثم رأيت حاكماً قادراً يقر النظام بالعقاب الشديد.. فهل تجيز الأسفار المقدسة لمثل هذا الحاكم شدته وقسوته؟ ثم هل يجوز لغير الشتريا حمل السلاح؟

قال بهيشما: «ليس لاعتبارات المرتبة أن تحول دون التصرف في وقت الأزمة؟ إن الرجل الذي ينقذ قوماً من الغرق جدير بأعظم التقدير. فما جدوى الثور إذا كان لا يستطيع حمل الأثقال، أو بقرة لا يدر ضرعها؟ وما نفع الزوج إذا كانت عاقراً؟ وما قيمة ملك لا يقوى على فرض القانون والنظام؟ الحق أنه لا يزيد عن فيل من الخشب، أو غزال من الجلد، أو تاجر مفلس، أو أرض قاحلة، أو براهمي جاهل! إليَّ بالحاكم الذي يعرف كيف يجزي ذا الخير ويعاقب ذا السوء!».

سأل يوديشترا: «الحقيقة والبهتان كلمتان شائعتان على كل لسان فما الحق؟ وما الباطل؟ متى يجب قول الحق؟ ومتى يمكن للإنسان أن يكذب؟».

«متى رأيت الصادق وجدت الدارما معه؟ الحق أنه ليس هناك أسمى من الحقيقة. وإني مشير عليك بأمر لا يدرك كنهه إلا القلة إنه من الخطيئة أن تصدق حين يكون القصد من الصدق التمويه على كذبة أو فريَّة، ولكن من الصواب الكذب إذا كان القصد منه تبرير حقيقة».

ثم يسأله يوديشترا: «كيف للعالِم أن يتصرف حين يسفهه أحمق تافه أمام الناس؟».

«ليس هناك إنسان أشد حمقاً من ذاك الذي يترك للكراهية أن

تتملكه. فأثبت حين تواجه بالإهانة، واحتمل حماقات الآخرين. فما الذي يفيد أو يضر من مديح الأحمق أو قدحه؟ فلو كان الشرف يثلم بكلمات الحمقى فمن كان يزهو بشرفه اليوم؟ ولكن احذر من يتملقك في وجهك ثم يغتابك في ظهرك، وتجنبه كما تتجنب الكلب المسعور!».

سأله يوديشترا: «من الخاطئ؟ وما هي الخطيئة؟».

«الشهوة هي أم الخطايا، فمنها يولد الطمع، ومن الطمع ينشأ الشر. إن الطمع هو أصل كل الخبث والنفاق، وهو السبب في الغضب والحمق وفساد النفس، إنه منشأ الاضطراب والفوضى والخديعة، وجرثومة الأنانية وسوء الطوية. وعن الطمع يصدر الجشع واللؤم، ويحمل صاحبه على هجر الحياء، والتيه والغرور والتباهي، ثم إنه يخنق في الإنسان نزعة التراحم، ويغذي الارتياب، وهو العلة التي تحفز على الزنى، ومبرر الكذب والدافع إلى الفسق، وهو الحافز إلى العنف والقسوة إن جرثومة الطمع والجشع كامنة في كل نفس: في الطفل والفتى واليافع من كل جنس، ولا تموت مادامت الحياة تسري. إنه وحش رهيب لا سبيل إلى إشباع نهمه. فكلما قدمت له ضحية طلب المزيد، ولن تجد من يخلو من شروره، حتى أهل العلم، ويتوسل بكل وسيلة نبيلة ليفشو ويتملك ضحيته».

وسأله من جديد أن حدثني عن الجهل، أصل كل بلاء؟

قال بهيشما: «الطمع والجهل صنوان، وجهان لعملة واحدة، والجهل هو أحد أسماء الأنانية والغرور والشهوة، فإن قلت الغضب أو الكسل أو الغيرة، بل الخفة أو الإسفاف في الحزن، عنيت الجهل. وكلما ازداد الطمع ازداد معه الجهل وفشا، وكلما تضاءل الطمع خبا الجهل معه. فاطرح عنك الطمع الذي هو أصل كل بلاء».

قال بهيشما هذا ثم أطبق عليه صمت عميق، وعندئذ غادره الإخوة الخمسة إلى القصر. وطفق يوديشترا بعد ذلك اللقاء يتساءل

ويكرر السؤال: «لمن المقام الأول: أهو للشرعة، «دارما» أم للثروة والنجاح «آرثا» أم للشهوة «كاما»».

أجاب فيدورا حي حين سمعه يتساءل: «إنه للدارما، فعليها يقوم الـ آرثا والـ كاما». ولكن أرجونا اعترض قائلاً: «بل هو العمل الذي لا يكون بدونه العالم ولذلك فإني أضع الـ آرثا في المقدمة!».

وجاء صوت بهيشما: «الـ «كاما» هي الأساس إذ بدونها لن تقوم الـ «آرثا» ولن تسود الدارما!».

صمت يوديشترا حيناً ثم قال: «ولكن من ذا الذي يملك الحرية كلها فيتصرف كما يشاء؟ فالإنسان إنما هو محكوم بالقدر. وإذن فلا أمر يعلو على الـ «موكشا» الانعتاق، فعلينا أن ننشده!».

وعاد يوديشترا يسأل بهيشما: «كيف للمرء، أيها النبيل، أن يختار الصديق؟».

«احذر أن تختار صديقاً ترى منه أنانية أو لؤماً، غشاً أو صغاراً، ريبة أو كسلاً أو خبثاً وسوء طوية! واحذر من يهمل الواجبات التي تأخذ بها، وتجنب من يصغِّر مرشده ويتباهى بالإلحاد والكفر، ولا يتورع عن الكذب، ثم اعرض، بعد، عن المقامر!».

والرغبات إذا تحققت كانت مجلبة للبهجة، وفي السماء مسرة أيضاً. ولكن لا هذه ولا تلك تعادل البهجة التي تأتي من موات الرغبة!

وكما تسحب السلحفاة رأسها وأقدامها إلى داخل صدفتها، كذلك يجدر بك أن تتحكم بأشواق النفس فلا تدعها تفلت، ولسوف تسعد الروح «أتمن» وتتألق.

وكما أن الموت كامن في الجسد كذلك حال الخلود. استسلم للجهل تمت. وانشد الحقيقة تبلغ الأبدية والخلود.

ما من أمر كالمعرفة تحمل إليك البصيرة النافذة، ولا شيء يطهر النفس كالحقيقة، ولا أدعى إلى البهجة كالعطاء، ولا أشد استعباداً للنفس كالرغبة.

وإن تكن فقيراً لا تجد لك عدواً، وإذ تكن غنياً تغدو بين أنياب الموت. ولقد وازنت بين الغنى والفقر فرأيت كفة الفقر ترجح بفضائله.

العطاء القليل يأتي بالسعادة، والعطاء الكثير يأتي بالفرح الأعظم، فالقليل يذهب بالخوف، وأما الكثير فيجلب راحة النفس.

اطرح عنك رغبات النفس، وأشح عنها ـ تنل راحة النفس.

واعلم أن في العلم أقصى السعادة، وهو الكنز وهو الخير العميم.

الحق هو برهما، وهو الجنة، والنور. والجهل هو الجحيم والظلام. آفة العالم الموت والفساد. إن الأيام والليالي إلى انقضاء. وحق عليك اليوم أن تعنى بأمرك. ولسوف ترى الموت يجرك إليه قبل أن تكمل مهمتك. فاصحُ وانهض، وإلا تخمد ذكراك إلى الأبد!

السفر الثالث عشر

النصيحة الأخيرة

أعادت كلمات بهيشما الهدوء إلى نفس يوديشترا، وبدأت السكينة تحل محل الاضطراب الذي عصف بعقله، منذ تلك المذبحة المروعة التي أتت على الأصدقاء والأعداء معاً. فإذا به يطلب من بهيشما المزيد من الإجابات عن تلك الأسئلة التي مازالت تلح عليه، فخاطب بهيشما قائلاً: «قد قبست الكثير من علمك، أيها الشيخ الفاضل، وأراني كلما نهلت من بحر حكمتك أطلب المزيد من فضلك. ألا أخبرتني أي الرجال أجدر بالاحترام؟».

قال بهيشما: «سؤالك أشبه بسؤال كريشنا لنارادا، حين وجده مستغرقاً في تكريم جماعة من البراهمة الأفاضل، أيهم أجدر بالتقدير والتوقير؟

فأجابه، نارادا: «إن أجدرهم هو من يدرس أسفار الحكمة «الفيدا»، ويدأب على التكفير، ويكرّم الآلهة تواضعاً بلا تظاهر، ومن ينزع قلبه إلى الصفح والمغفرة، ويأخذ بالتقشف، والزهد، وضبط النفس، والصدق في حياته، ويأوي إلى الغابة ويقتات النبات والفواكه، ومن كان كالحمام لا يخشى ما تخبئه الأيام. ثم إني أقيم من الاعتبار أعظمه للمضياف الذي يكرم ضيوفه، ومن يرعى خدمه،

ولا يتناول الطعام إلا بعد تقديمه للآلهة، ولمن ينطوي فؤاده على التواصل مع الآخرين في لحظة المحنة، ولا ينزع إلى الأنانية، ومثل هذا يشيع السعادة في هذه الحياة والحياة الأخرى».

سأله يوديشترا: «ما الفضل في إغاثة الملهوف؟».

«هاك هذه الرواية عن الملك فريشهادربها، الذي كان يحكم فارناسي، حين لجأت إليه يمامة، خوفاً من صقر جارح، كان يطاردها. نظر إليها الملك وتأملها في حضنه فراعه جمالها، وسألها عما حملها على اللجوء إليه فأخبرته بقصتها، فهدأ من روعها وطمأنها بأنه لن يدعها للصقر، مهما كلفه الأمر. ولكن الصقر الذي كان قد بلغ قصر الملك في إثرها، وسمعه يقطع لليمامة العهد بحمايتها منه، اعترض قائلاً إنها طريدته وهي حق له، وليس للملك إلا أن يسلمها له، فإن كان الواجب يفرض عليه حماية رعيته فليس له أن يحرم الكواسر الجائعة من حقها في طرائدها في السماء، ولينظر الملك أثر مخالبه في جسم اليمامة ليتأكد من دعواه - وإذا كان سلطان الملك يبلغ أعداءه، وحاشيته، وخدمه، ورعاياه، فإنه لا يبلغ مخلوقات السماء. أما إذا شاء أن ينقذ اليمامة من الموت بداع من الشفقة فلتمتد شفقته إلى الصقر الجائع كذلك.

وجد الملك صواباً في منطق الصقر، فسأله أن يختار ما يشاء من الغزلان أو الخنازير أو الجواميس، إلا اليمامة لأنها دخلت في حمايته، وهو لن يخذل من يلجأ إليه.

ولكن الصقر رفض ذلك العرض لأن نفسه تعاف لحم هذه الحيوانات، فهو من مخلوقات السماء واعتاد لحم الطيور. وإذا كان الملك يؤثر اليمامة إلى هذا الحد، فليقتطع من لحمه هو ما يزن لحم يمامته الأثيرة إلى نفسه.

وافق الملك، ومضى فقطع قطعة من لحمه ووازنها باليمامة فوجدها دون الوزن، فعاد فقطع قطعة أخرى، بين صراخ الوزراء

المجتمعين حوله وعويل الحاشية وبكاء النساء في جناح الحريم. ولكن الملك وجد أن ما اقتطعه من لحمه مازال دون الوزن، فزاده قطعة أخرى. وفجأة أرعدت السماء واهتزت الأرض لمأثرة الملك. وهكذا أخذ هذا الفاضل يقطع من لحمه حتى لم يبق منه إلا هيكله فجعل نفسه في الميزان.

ولقد بلغ النبأ الإله إندرا ذاته فنزل لحضور هذه الواقعة العظيمة، وأخذت المخلوقات العلوية الخفية ترقص حول الملك، فيما كانت حوريات الغانديرفا والابسارا تغني وترقص، والسماء تمطر زهوراً ووروداً، تكريماً لتضحيته الجليلة. ثم رفعه إندرا وأركبه عربة من الذهب الخالص المطعم بالماس والزمرد لتصعد به إلى السماء.

نزل عراف الآلهة بريهسباتي من السماء لسماع بهيشما فسأله يوديشترا: «ما الذي يجلب أعظم الثواب ـ أهو اللاعنف «أهيمسا»، أم الدأب على الصلاة، أم التأمل أم السيطرة على الحواس، أم الزهد، أم طاعة المرشد؟».

قال بريهسباتي: «اعلم إن في ذلك كله ثواباً وطريقاً إلى الدارما وإني مخبرك عن أعظم القوانين الأخلاقية اعلم، يا يوديشترا، أن ليس هناك ما يفضل التعاطف، فمن عرف المرحمة برئ من الشهوات والغضب والجشع، ومثل هذا الإنسان يرى كل إنسان آخر وكل شيء في العالم بعضاً منه، فلا يرضى للآخرين ما لا يرضاه لنفسه. ذلك هو جوهر الدارما فإن أحببت الآخرين بادلوك حباً بحب، وإن بادرتهم بالأذى ارتدوا عليك بمثله!».

قال بريهسباتي هذا ثم صعد إلى السماء أمام أنظار أبناء باندو الأبطال.

التفت يوديشترا إلى بهيشما المسجى على سريره من السهام وعاد يسأله من جديد: «قد علمت أن التعاطف جوهر الدارما، ولكن

كيف يمكن أن يتطهر من ارتكب إثماً إن في خاطره، وإن بقوله أو بفعله؟».

قال بهيشما: «اعلم إذن إن الإعراض عن التعاطف والتواصل سقوط عن الأخلاق، وكما أن أثر الفيل يسع أثر كل الحيوانات كذلك التعاطف والتواصل يحتويان كل دين والمرء خاطئ حقاً إن ارتكب الاثم، إن راود الإثم خاطره، أو لفظ لفظاً نابياً، أو أتى فعلاً قبيحاً. إن في ذلك معصية للدارما. لذلك أقول إن في الرجوع إلى الدارما عصمة للعقل من الضلال، وعفة للسان من فحش القول، وبراءة من قبيح العمل.

واعلم أن الـ «أهيمسا» هي العقيدة الأسمى والمذهب الأرفع والكفارة الأجل والتضحية الأعظم، والسعادة القصوى، والحقيقة الأمثل ولا يعادلها أي ثواب أو جزاء.

ولا تحزن، يا يوديشترا، على الأبطال الموتى فقد وجدوا جزاءهم في السماء التي يستحقون، واعلم أن الخير كل الخير والشر كل الشر، في ما ينتهجه الإنسان ويختاره في حياته. فالماء يحل الملح، كذلك فإن الكفارة تمحو لصاحبها سيئاته.

واحذر أن تتستر على إثم فإنه يزيد في الخفاء، ولكنه يزول بالاعتراف لأهل الفضل. وارع، بعد، ذمام الناس: الفقير والشيخ، القريب والصديق، الأخت الأرمل والمعلم، وابن الكرام والعالم. واحذر الغيرة فإنها تقصّر في الأعمار! وتحصن بحكمة عقلك الصافي، وخفف من الغلو في الحقيقة!

واعلم أن يوم الجاهل كدر وذعر أما الحكيم فلا يتأثر بعوارض الحياة! السعادة التامة مستحيلة المنال ولو في جنة إندرا.

واعلم أن كل ما تجنيه إلى زوال،
كل شيء إلى فساد، والصاعد إلى هبوط
والإتحاد إلى فراق، والحياة إلى موات!

في جمع الثروة عناء لا ينقطع،

وفي حراستها جهد متصل،

وفي سرقتها تعاسة لا حد لها

كما في إنفاقها إرهاق لا مثيل له.

لنضرع الآن

إلى برهما ذي الألف ذراع وعين وقدم وصاحب الألف اسم، من احتوى على ألف «يوكا» دهر!.

توقف بهيشما عن الكلام وانقطعت عباراته، وخيم الصمت على الجمع حتى كان المرء يخالهم تماثيل لا أثر للحياة فيها.

ولم يقطع ذلك الصمت الرهيب إلا قول فياسا مخاطباً بهيشما: «قد كفى يوديشترا ما ناله من حكمتك، ولك منه كل الإجلال والتقدير، واسمح له بالعودة إلى المدينة».

ورد بهيشما: «امض، يا يوديشترا، وخفف من النار التي تستعر في قلبك. وأحسن إلى رعاياك وأصدقائك وأهلك فهم يعتمدون عليك، كما يعتمد الطائر على شجرة فاكهة في أرض مقدسة. وعُد إلى حين تقترب الساعة، وترى الشمس تتوقف في انقلابها جنوباً وتتحول إلى الشمال!».

جهز يوديشترا قافلته، ووضع على رأسها ديتراشترا وقندهاري، يصحبهما كريشنا والعديد من القديسين، وفي إثرهم أهل الشورى والرعايا، وقفل الجميع عائدين إلى هاستينبورا فلما بلغت القافلة البلد أمر بأن يعود كل إلى بيته، وبتقديم الهدايا لأرامل القتلى. ثم كرس جهده في الأيام التالية حتى كسب ولاء أمراء الجيش وحب رعاياه والدعوات من البراهمة. وظل مواظباً طوال خمسين يوماً على ترتيب شؤون الدولة والناس، ثم وجد الشمس تتوقف في انقلابها جنوباً وتتحول إلى الشمال. وللتو تجهز وهرع

ليزور بهيشما، وفي صحبته الكهنة يحملون البخور، وعقود الزهور، وأثواب الحرير، والسمن، وخشب الصندل، وقوداً لنار المحرقة. وكان بين جملة من حضروا بصحبته ديتراشترا وقندهاري وكونتي ويويوتسو وآخرون من الأهل والأقارب وحشد من الناس والشعراء والمنشدين.

وأمام سرير بهيشما الذي يحيط به الحراس، وقف الجميع صامتين أمام جلال هذا المشهد، وفي تلك اللحظة قام يوديشترا سائلاً البطل المسجى أن يوجهه إلى واجبه.

فتح بهيشما أجفانه ورأى ذلك الجمع متحلقاً حوله، ثم أمسك بيد يوديشترا وخاطبه بصوت واضح عميق، وقال إنه سعيد بهذه اللحظة التي ترحل فيها الشمس إلى مستقرها الجديد في الشمال، سعيد لانقضاء هذه الأيام الخمسة والثمانين وهو على هذا السرير من السهام الحادة. فها هي ذي آلامه تنقضي بعد هذه الأيام المعدودات وكانت تبدو له دهراً لا ينصرم.

والتفت إلى ديتراشترا يذكّره بما يعرف من الواجب في الأسفار ويوصيه خيراً بيوديشترا الملك الفاضل الذي لن يخرج عن طاعته له، وألا يحزن على أبنائه فهم الذين سعوا إلى هذا المصير، بعد أن انقادوا إليه انقياداً بالحسد.

ثم التفت إلى كريشنا مكاشفاً بأنه لطالما سأل دريودانا أن يعقد صلحاً مع يوديشترا ويحول دون هذه الحرب فلم يجد منه إلا الإعراض. وها قد مات بعد أن أحرق الأرض وما عليها وجعلها يباباً! والآن إئذن لي بمغادرة هذا الجسد، فقد أزف وقت الرحيل.

أما أنتم يا أصدقائي فأوصيكم بالسعي إلى الحقيقة، لأنه ليس هناك ما هو أسمى منها. وأما أنت يا يوديشترا فقرّب منك البراهمة واستمع إلى نصائحهم في مسائل الحكم والدارما.

قال الرجل هذا ثم خلد إلى صمت عميق، بين دهشة من حوله

وهم يرونه يتنفس أنفاس الحياة صعوداً وهبوطاً كما تنص تعاليم اليوغا، وازدادوا عجباً عندما شاهدوا أنفاسه تصعد إلى قمة رأسه فتسرع جراحه في الالتئام الواحد بعد الآخر، وزاد عجبهم حين وجدوا أنفاس الحياة تقصر عن الخروج من الثقوب التي أحدثتها رؤوس السهام في جسده، فتندفع وتنطلق من قمة رأسه إلى عنان السماء. وعندئذ سمع الناس قرع طبول من بعيد، ورأوا السماء تمطر زهوراً ووروداً على جسد البطل المسجى على فراش من رؤوس السهام، ثم رأوا أنفاس الحياة تلمع في السماء كالشهب وتغيب عن النظر.

وللتو أشعل فيدورا وأبناء باندو الخمسة محرقة ضخمة، بينما وقف يويوتسو والآخرون يشهدون طقوس الحرق فيما حمل فيدورا ويوديشترا جثمان الراحل بعدما جللاه بثوب من الحرير ونثرا فوقه الزهور، قبل حرقه على ترتيل المرتلين للفيدا.

السفر الرابع عشر

قربان الحصان

انتهت طقوس الجنازة وغاب بهيشما، وغرق يوديشترا في حزن عميق، وأخذ يمضي وقته عند ضفة الغانج، وكان من يراه يجده أبداً دامع العينين، كأنه فيل أصابه سهم صياد، وظل مقيماً على هذا الحال من الحزن، حتى جاءه كريشنا وبهيما لينتزعاه من وحدته مع أحزانه. ولكن عبثاً! ثم انضم إليهما في الرجاء إخوته وديتراشترا، رغم أنه مازال مغموم القلب لفقدان أولاده، وما انفكوا يلحون عليه أشد الإلحاح لينهض إلى واجبات الملك ورعاية الناس حتى قبل بهجر الحزن وقطع خلوته والعودة إلى عاصمته هاستينبورا.

وهناك في العاصمة أخذ أرجونا وكريشنا في قضاء الوقت في الترويح عن النفس والتنزه بين الرياض. وفي ذات يوم من تلك الأيام، قال أرجونا لكريشنا، وهما كعهدهما يتريضان، أو قل يتسكعان. «قد عرفت عظمتك يوم كشفت لي، قبل اندلاع الحرب، عن هيكلك الذي احتوى الكون كله. ومازلت أذكر أثر كلماتك حينئذ، لكنني لا أذكر عباراتك. ولطالما نقبت في ذاكرتي عن تلك الكلمات والعبارات، فلم أجد شيئاً منها قد علق في خاطري. وها أنت ذا ستتركني وحيداً لتعود إلى دفاركا».

ويمد كريشنا ذراعيه معانقاً أرجونا، ويقول: «لقد بسطت أمامك يومئذ أسراراً يراها أكثر الناس ألغازاً يستغلق فهمها، فأعجب لك أن تنسى تلك الكشوف وما حوت من عرض لطبيعة الدارما، وكان الأجدر بك أن تحفظها كما لو كانت تلقيناً، فوا أسفاً، ذلك أنني أعجز الآن عن استذكار تلك الكلمات والعبارات، ولو شئت ذلك لما استطعت!

وهكذا مضى الرجلان متمهلين في مسيرهما، يتبادلان الأحاديث، حتى دخلا على يوديشترا في قاعة قصره الملكي. فعرض عليه أرجونا رغبة كريشنا في العودة إلى بلده وزيارة والده فاسوديفا، واستئذانه في الرحيل.

ورد يوديشترا مجيباً بالإذن، وفي الحال، إن شاء، وحمل كريشنا تحياته. وآيات التوقير إلى خاله.

ودع أرجونا صاحبه كريشنا وظل في مكانه يرقبه حتى غاب عن ناظريه في الأفق البعيد إلى حيث يقوده الطريق إلى دفاركا وعشيرته اليدافا.

قطع كريشنا القفار والبوادي والبحيرات والغابات في رحلته، مصطحباً ستياكي معه، ومازال يجد في طريقه ليبلغ بلده إلى أن دخلها في عيد ريفاتكا، ورأى التل مزيناً بالجواهر والحلي، وعقود الأزهار تتدلى من أغصان الأشجار، والقناديل مضيئة تنشر النور، فلا تكاد تعرف أيهما الليل أم النهار. وكانت الموسيقى تتعالى مع غناء المغنين من قمة تل ريفاتكا وجوانبه وسفحه حتى ليحسب المرء أن هذا الغناء وتلك الموسيقى قد هبطت إلى الأرض من السماء. وأخذ يرنو إلى هذه البهجة التي عمت الناس بين مشارك في الغناء أو الرقص، وآخر يلوح بالأعلام والرايات، وآخر بعد، يتنقل بين الحوانيت التي حفلت بكل المغريات وكل ما تهوى النفس فتجتذب الصغار والكبار، والرجال والنساء، سواء بسواء.

دخل كريشنا القصر وقدم على أبويه فحياهما وبادلهما العناق، ثم استقر في مسكنه يحيط به أبناء عشيرته الذين غسلوا له قدميه وأجلسوه أحسن مجلس. ولكن مهما حاول التلكؤ وإرجاء لحظة الصراحة فقد كان عليه في نهاية المطاف أن يخبر الأهل بالحقيقة، وإن كانت مرة. ولقد جهد عند اللقاء أن يتفادى التفاصيل في رواية وقائع الحرب، والأب دأبه أن يلاحقه بالأسئلة عن أخبارها وتطوراتها وتحولاتها، ثم هو يجيب على أسئلته ويفيض بالحديث، ولا يخبر بموت ابهيمانيو. فإذا بأخته سوبهدرا تقاطعه قائلة: «إذن، فأخبرنا كيف قتل ابني، يا كريشنا!» ويتبعها أبوه فاسوديفا، فيلح عليه أن يصارحهما بالحقيقة، وهو الذي عرف بالصدق.

ويحاول كريشنا عندئذ أن يحمل السلوان إلى أخته: «لابأس عليك! قد كان ما كان، وحم القضاء، مهما حاولت أنا وستياكي ويوديشترا في حمايته. فلا تحزني يا سوبهدرا على ابهيمانيو إن قضى ولكن الأجدر بك الآن أن تلتفتي إلى زوجته أوتارا فهي تحمل ابنه. والتفت إلى أوتارا يحاول تهدئة خاطرها ويشير عليها بالانشغال بالجنين في رحمها، فهو العزاء عن فقدان الزوج.

عاد كريشنا تصحبه عشيرته اليادفا، وأوتارا معهم، إلى هاستينبورا، لحضور قربان الحصان الذي اقترب موعده ولكن لم يطل المقام بالقوم، فإذا بالمخاض يشتد بأوتارا، فتضع مولودها ميتاً، بعد أن لحقت به لعنة أشفاتمن وتعلو عندئذ أصوات النساء بالندب والعويل حزناً على المولود الملكي.

ويسمع كريشنا النساء يستنجدن به ويضرعن إليه ليهرع لبعث الطفل من غيبوبة الموت، كما وعد يوم حوّل أشفاتمن العشبة إلى سلاح قاتل!

وإذ رأت النساء كريشنا يدخل الغرفة التي احتوت على جسد الطفل، صرخن وهللن من شدة الفرح. وهناك وجد الطفل مسجى

على فراشه، فأمر بتطهيره بعقود من الزهور البيضاء وجرار مملوءة بالمياه، وخشب التنديكو وبذور الخردل الممزوجة بالسمن، كما أمر بإشعال نار ووضع أسلحة ماضية لامعة في كل ركن من الغرفة.

اقترب كريشنا من أوتارا في فراشها، فيما غطت جسدها بغطاء حياء وخفراً، واستوت بعدئذ في مكانها، وضمت كفيها احتراماً. ولمس الماء ثم تمتم قائلاً: «بالجاه الذي أنا جدير به أسأل أن يستعيد هذا الطفل حياته! وبحق دارما الذي أجلُّ، وبحق البراهمة الأثيرين إلى نفسي أدعو للطفل بالحياة بقدري أنا الذي قتل كامسا الجبار اللعين أطلب، للطفل الحياة!» وإن هي إلا لحظات حتى رأى من كان في الغرفة رعشة الحياة تسري في جسم هذا الطفل الذي بات يدعى منذ ذلك اليوم باركشيت، وأخذ يحرك ذراعيه وساقيه، وإن بضعف. وهكذا أبطل لعنة أشفاتمن، فعلت الأهازيج ابتهاجاً بالمعجزة، أما الراكشا فقد ولت هاربة.

كان يوديشترا قد شغلته فكرة إقامة الطقس الملكي وكاشف العارف فياسا بهذا الشاغل وسأله الإذن بإنجاز الطقس، وسمع منه ما يؤيد رغبته: «لك ذلك، يا يوديشترا، فأجر الطقس، إن شئت، وتقرَّب من الآلهة بالهدايا: حقاً أن ليس ثمة أشد تطهيراً للنفس من هذا الطقس!».

جاء الخدم بالقرابين مقيدة حسب التقاليد، فقام العارف فياسا بتحرير الجواد المبارك المكرس لهذه المناسبة، فانطلق يجري أمام يوديشترا، وهو في أحسن حلة، وفي إثره أرجونا في عربته التي كانت تجرها أحصنة بيضاء، يلاحقه شرقاً فيفتتح الممالك حيثما دخل الحصان. ولقد خاض المعارك مع أولئك الملوك الذين سقط أفراد من أسرهم في ساحة كروكشيترا وأرادوا اعتراضه والانتقام منه، وكان يذيقهم الموت في كل معركة، فلا يستطيع أحد الصمود في وجهه.

وكان من ضحاياه كريتفارمن من التغارتيين فقتل ثمانية عشر من أبطالهم، بينما استسلم هو وخضع له.

ودخل بعدئذ براغجيوتيشا واشتبك مع ابن الملك فاجراداتا الأمير بهغاداتا، ودارت معه معركة حامية استمرت ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع استسلم بهغاداتا، وخضع لشرطه بأن يحضر القربان وحفل نحر الحصان المبارك بيد الراجا يوديشترا.

واستمر الحصان في عدوه، ودخل يلحق به أرجونا بلاد السند الذين قضى منهم كثيرون في ساحة الحرب في كروكشيترا، فهب لقتاله السندافيون. وهنا برّز أيضاً وأنزل بمحاربيهم مقتله عظيمة، وكاد يسحق فلولهم، لولا أن تدخلت ملكتهم دوشالا، ابنة ديتراشترا، وزوجة جيادراتا، وتوسلت إليه بحفيدها ابن ولدها سوراتا، فخفض البطل أرجونا سلاحه الرهيب وقبل ضراعتها. وعلم منها أن ابنها سقط ميتاً من شدة الأسى حين بلغه أنه دخل البلاد، وأدرك أنه سيخضعها بعد أن قتل والده جيادراتا: وها هو ذا ولده قد قدم ليخضع ويدخل في حمايته. وكان أن طمأنها إلى عفوه، وعقد معها معاهدة سلام.

ومازال أرجونا يتبع الجواد وهو يدخل أرضاً ويخرج إلى أخرى، فتكون له الوقائع المشهودة، ويزداد مجداً فوق مجد بعد كل نصر.

أما وقد جال الحصان في الممالك وسلك طريقه بينها على مدى الساحل، فإنه التفت برأسه ومضى نحو هاستينبورا من جديد. ولكنه ما أن بلغ راجغريها حتى توقف حين اعترضه ابن صاحب المدينة. وكانت لأرجونا يومئذ جولة مع هذا، وانتهت بأن دخل في طاعته.

أصبحت الأرض حين ذاك منبسطة، رحبة أمام أرجونا، فتوغل جنوباً يقصد بلاد التشيديين وعاصمتهم شوكتماني. وصال مع سَرَبها، وكان ابناً لشيشوبالا، صولة أتت بهزيمته هو أيضاً.

ولما تم له النصر على سرَبها مضى إلى بلاد الداشميين

وأخضع صاحبها. وسار من ثم إلى الناشادا التي كانت في حكم ابن ايكلافيا، وكان محارباً صنديداً، فدان له. واتجه بعدئذ إلى مملكة الغاندرفا، وكان صاحبها ابن شاكوني قد عزم على هزيمة أرجونا وقتله جزاء وفاقاً على مقتل أبيه، لولا أن الملكة أمه اعترضته وأكرهته على الخضوع له فاشترط لعفوه أن يظهر في قصر يوديشترا ويكون له سهم في طقوس التضحية فوافقه.

لوى الحصان عنقه بعد أن جاب الممالك كلها، واستدار نحو هاستينبورا وأسرع يسابق الريح إليها.

وكانت الرسل أسرع إلى يوديشترا ليزفوا إليه خبر عودة أرجونا وشيكاً إلى البلد، فاستدعى بهيما حال سماعه النبأ وسأله أن يقوم بجميع الاستعدادات، وأن يطلب إلى البراهمة اختيار المكان المناسب لتقديم القربان حين يكتمل القمر.

ولكم أسعد النبأ بهيما، فجرى وأخذ في شق الطرقات العريضة وإقامة الساحات الواسعة وإشادة القصور والمباني العامرة، وتولى بنفسه الاهتمام بغرس الأشجار والشتائل الخضراء والأزهار من كل لون فاستحال المشهد إلى جنة خلابة، وزاد فيها زينة من أقواس النصر المذهبة المرصعة بالماس والزمرد على طرفي كل درب، وحول الساحة وأمام القصور التي خُصَّ بها البراهمة من المدعوين.

وحين اكتملت الاستعدادات، بعث بهيما يدعو ملوك الأرض ليشاركوا في طقوس التضحية، فجاؤوه من كل حدب وصوب، حاملين معهم الهدايا الثمينة والكنوز النادرة، من الجياد الكريمة والأسلحة التي تزهو بها أية ترسانة والجواري الحسان مما لا يعد ولا يحصى. واتخذوا أماكنهم للراحة في القصور المنيفة التي شادها بهيما خصيصاً لهذه المناسبة والتي حوت كل أسباب الراحة والرفاهية من الفراش الوثير وأطايب المأكولات.

بدأت الطقوس بنقاش عميق خاض فيه الفلاسفة والمناطقة في علة الكون والحقيقة والوهم.

وفيما كان الملوك منشغلين باستطلاع أعاجيب القصر، والبراهمة منصرفين إلى تناول الطعام، بين قرع الطبول ورنين الصناجات، دخل من يعلن وصول أرجونا إلى المدينة، ومعه ابنه فبروفهانا من زوجته تشيترانجادا، وقد صار صاحب مانيبورا، مصطحباً معه أمه ووصلت في الوقت ذاته زوج أرجونا الأخرى أولوبي الناغية. وقد استقبلت كونتي كنتيها أحسن استقبال وأغدقت عليهما الهدايا الثمينة الفاخرة، وبادرتهما كل من دروبدي وسوبهدرا بمثل ذاك الكرم.

وفيما كانت الطقوس تجري قام يوديشترا ينثر آلاف آلاف القطع الذهبية على البراهمة. أما فياسا فإنه حظي منه بالعالم كله، لكن العارف العظيم حين قبل الهدية ردها إلى صاحبها، وسأله أن يعطيه ذهباً، فأعطاه ماشاء فقام بتوزيع، قطع الذهب بالعدل والقسطاس بين الكهنة الذين قاموا على الطقوس. وأما الملوك فكان نصيبهم عظيماً أيضاً، فتلقوا الهدايا الثمينة من الماس والأحجار الكريمة الأخرى والفيلة العظيمة والجياد الكريمة.

كانت الزهور تتناثر فوق يوديشترا من الأعالي وكأنما السماء تكرم المناسبة ببركتها في ذلك اليوم، والمدعوون بين مشاهد يعجب وآخر يفرغ من أطايب المائدة أمامه.

كانت الطقوس قد انقضت، وكاد الحفل أن ينقضي، حين حط أمام يوديشترا، فجأة، نمس أزرق العينين جسمه يتوهج بلون الذهب، وقال بصوت هادئ عميق، واضح النبرات: «باطل أيها الملوك هذا الطقس العظيم! باطل لا يساوي ذرة واحدة من الرز يقدمها براهمي فاضل إذ يتم كفارته!».

وصاح الجمع هناك وقد أخذتهم المفاجأة: أخبرنا بحق الآلهة من تكون؟ وماذا قصدت؟

ابتسم النمس، وقال: «حسبكم مني الحقيقة: والحقيقة ما قلت.

فليس هذا الحفل العظيم يساوي ذرة واحدة من الرز تقدم بتواضع الإيمان فتدبروا ما أقول. فما نفع القداس العظيم إن شابت دوافعه شائبة؟ واعلموا، إذن، أن الكفارة إن جاءت مخلصة أكرم دائماً من القداسة التي تنطوي على مباهاة ومفاخرة!».

قال النمس هذا ثم اختفى عن أنظار الحضور!

السفر الخامس عشر

الأشرما

خمسة عشر عاماً مرت على حكم آل باندو، وكانوا يرجعون في كل أمر إلى ديتراشترا الذي كان يتولى العناية به فيدورا وسانجيا ويويوتسو وكانت دروبدي والنسوة الأخريات في القصر يقفن على أموره ويسهرن على خدمته وخدمة قندهاري، كما لو كانا حموين لهن. أما يوديشترا فكان لا ينقطع عن وصل عمه الكفيف بالصلات. وقد ألف الرجل من الحكيم فياسا أن يأتي لزيارته ويروي له سير الحكماء الزهاد. والحق أن أحداً لم يقابل رأياً من آرائه بالاعتراض أو حكماً من أحكامه بالنقض. وهكذا ظل دأب من حوله رعايته وتدبير شؤونه والسهر على حاله، والجميع في طاعته ويجلونه كل الإجلال إلا بهيما الذي لم يغفر له تشجيعه مباراة النرد التي كانت بداية المأساة.

ولكن بهيما كان داهية في التعبير عن نفوره من عمه وتحريض خدمه على عصيانه، وتحين الفرص لمضايقته وزوجه، وتذكيرهما بأنه قاهر أبنائهما.

ولقد كانت قندهاري تقابل استفزازه بالتجاهل، وديتراشترا يعالج الحال بالحلم حتى ضاق بالأمر في النهاية. ومع ذلك فإنه لم يبد ما ينم عما كان يجول في خاطره، مؤثراً الصبر والجلد، ولولا

الحب الذي كان يكنه لناكولا وسهديفا، بسبب من رعايتهما له، لما تكلف مكاشفتهما ذات يوم بإحساسه بالإثم لتلك المأساة التي انتهت بدمار القوروشيين ولتنصيبه دريودانا ملكاً، وها قد أزف الوقت للتكفير عن الخطيئة، قبل فوات الأوان: «لا تظنا أني أسمعكما شكوى ولكني منذ عهد لا أنال من الطعام إلا بما يبقي الحياة. وأحسب أن خادمي ينال كفايته. هذا هو حالي ولا يعلم به أحد، سوى قندهاري. ولم أشأ أن أخبر به يوديشترا لئلا يتأذى. أما بقية اليوم فلعلي أستلقي على الأرض ولا يسترني إلا مئزر من جلد الغزال، وليس تحتي سوى فراش رقيق من العشب، فاستغرق في التأمل، وبرفقتي قندهاري. نعم لقد فقدنا أبناءنا المائة ولكننا لا نحزن لفراقهم، فهم قضوا كما يقضي الأبطال الأشداء!».

جلس ديتراشترا ذات يوم يحادث يوديشترا: «بورك فيك يا بن أخي فقد رعيتني طوال خمسة عشر عاماً، نعمت فيها بالسعادة والرغد ولكني أسألك الآن أن تأذن لي بالانتجاع إلى الغابة مع قندهاري لأمضي بقية العمر هناك داعياً لك بالتوفيق والسؤدد. ولقد شخنا يا بني وحق لأبنائنا الآن أن يتقلدوا مقاليد الحكم محلنا ولعلك، يا بني، تشاركنا الكفارة، وقد قيل إن الملك شريك في كل ما يجري في مملكته!».

فقال يوديشترا: «لن يعود للملك مذاق إن ذهبت على حالك من الأسى. إن مملكتي بلاء وأنا ضحيته. الحق أني لست ملكاً بل أنت الملك. فأنا أعتمد عليك. ولقد خيل لي أني سأفلح في التخفيف من الحمى في قلبك باللطف والطاعة».

سرت قشعريرة في بدن يوديشترا، وأحس بانفعال رقيق يجتاح كيانه، وهو يسمع من العم الكفيف إصراره على هجر القصر والاعتكاف في الغابة، فيسعى عند سانجيا وكريبا أن يحاولا ثنيه عما اعتزم كرامة له، وإلا فقدت الحياة مذاقها عنده وخوت روحه إن هو غادره.

بدا ليوديشترا وكأنما الحياة هجرته فجأة، وداهمته خشية

حملته على التفكير في حاله: «هاك ملك كان له جبروت الفيل ذات يوم، وها هو ذا الآن يتكئ على امرأة!».

لقد استطاع ذات مرة أن يهشم مثال بهيما من الحديد بيديه، فإذا به اليوم يجد معتمده في امرأة! عار علي إن قبلت بهذا، وعار على حكمتي وعلى شرعتي! فإن قررت قندهاري الصوم صمت أنا كذلك.

وفي لحظة بدا ديتراشترا وكأنما غاب عن الوعي، فأخذ يوديشترا يرطِّب وجهه ويمسح صدره بالماء البارد، بيده المزينة بالأحجار الكريمة المباركة والمعطرة بالأعشاب الشافية، حتى عاد إلى الملك الشيخ رشده.

وبدا فياسا مشفقاً على ديتراشترا أشد الإشفاق مما حمله على السعي عند يوديشترا ليجيب رجاءه ويأذن له بالانتجاع إلى الغابة عله يجد في آخر العمر السلوان عن أبنائه الذين مازالت ذكراهم تلح على خاطره.

ولقد لبى يوديشترا رجاء عمه الكفيف فأذن له بالعزلة في الغابة بعد لأي، وما كان هذا إلا امتثالاً لمن يعتبره مرشداً وأباً ناصحاً.

وإذ نال ديتراشترا الإذن من الملك انسحب متحاملاً على نفسه يجر الخطى جراً، تتبعه قندهاري إلى قصره، وهناك أدى طقوس الصباح وتناول من الطعام القليل، قبل أن يأتي إليه أبناء أخيه باندو ويتحلقوا حوله، فيخاطب يوديشترا وينصحه بأن يتمثل الدارما في خاطره وأن يقتدي بها في كل ما يأتيه في حكمه، وإن يجزل العطاء للصالح من الرعية، وألا يسمح لفن أو حرفة أو لمهنة أن تذوي وأن يتروى في مسائل الحرب والسلام.

وبعث ديتراشترا فيدورا في الصباح إلى يوديشترا لينبئه بموعد رحيله إلى الغابة ويسأله بعض المال لإقامة شعائر القداس الأخير لذكرى بهيشما ودرونا وأبنائه المائة، ولربما أذن له فأقام قداساً لجيادراتا الخبيث أيضاً.

وقد وقع هذا النبأ موقعاً حسناً عند يوديشترا وأرجونا، إلا بهيما فبدا يوماً، معارضاً وما كان ليقبل بأن يُعطى مالاً لإقامة شعائر لأبنائه الذين كانوا أصل البلاء والسبب في حياة التشرد التي حُمل عليها أبناء باندو بالتدليس والخداع، والأب لم يرفع إصبعاً واحداً يومئذ ليحول دون الكارثة!

ولكن أرجونا قاطعه وأشار عليه بالصمت فصمت. والتفت يوديشترا عندئذ إلى فيدورا وأجابه بأن يخبر النبيل ديتراشترا بأن له ماشاء من المال لإقامة الشعائر الأخيرة.

وفي يوم المغادرة استدعى ديتراشترا الإخوة باندو إلى قصره وزوّدهم بنصائحه.

احتشدت جموع الناس على الشرفات، والأرصفة، لإلقاء نظرة على ديتراشترا قبل أن يغادرهم ويعتكف في الغابة مع زوجة قندهاري، وكان من العجب أن تبرز كونتي لتنضم إلى الشيخ وزوجه في رحلتهما إلى الغابة. وحاول يوديشترا أن يحملها على تغيير هذا القرار. ولكن عبثاً! فما كانت لتحيد عن هذا الأمر، مهما حاول أبناؤها، بل تنظر إليهم مشفقة بعينين دامعتين، وهي تمضي في طريقها، ثم تتوقف لحظة وتخاطب أبناءها فتذكرهم بالحنان الذي أغدقته عليهم، والتأييد الذي محضتهم، فقوي عضدهم في لحظة الأزمة، حرصاً على استمرار سلالة باندو، فليدعوها وشأنها، ولتتبع الدارما، وليترفعوا عن الأحقاد والصغائر.

أحس أبناء باندو بخجل شديد وتوقفوا عن إلحاحهم، وعادوا مع غيرهم إلى المدينة، إلا يوديشترا وفيدورا وسانجيا فقد لحقوا بهم إلى أعماق الغابة وهناك جهز سانجيا وفيدورا بساطاً من العشب لينام فوقه ديتراشترا وقندهاري وكونتي وادعين هانئين.

وهكذا انقطع القوم منذ ذلك اليوم إلى حياة الزهد، واستغرقوا في التكفير ليبلغوا ثوابهم المنتظر، والتزموا بنظام صارم من صفاء الفكر من الضلال، وعفة اللسان عن قول الفحش، والعمل الصالح

والبعد عن الأذى، منهمكين في هذا كله في التأمل العميق، حتى أصاب الهزال ديتراشترا فلم يعد يتبين منه المرء إلا هيكله، شأن الزهاد العظام. أما فيدورا وسانجيا فقد جعلا من الملك الكفيف قدوة لهما، وترسما خطاه في كل ما كان يأتي به.

أما هاستينبورا فقد غدت منذ ذلك اليوم في حال آخر غير عهدكم بها، وبات الناس في ضيق واشتد بهم البرم بعد هجرة تلك النخبة من القوم. ولقد شاء يوديشترا أن يتدبر الأمر فسير ثلة من الحرس ومشى على رأس مسيرة من الأهلين إلى الغابة لمقابلة الملك الزاهد ديتراشترا وصحبه.

رحب ديتراشترا بيوديشترا ووفده أحسن ترحيب وسأله عن حاله راجياً له الهناء والسعادة، ومضى يستفسر عن أحوال المملكة والرعية إن كانوا آمنين مطمئنين في حياتهم، وإذ جرى الحديث على هذا النحو مد ديتراشترا يده إلى ضيفه ليقدم له الماء وبعض الفاكهة وجذور النباتات، جرياً على القول إن المضيف يضيف مما يتناول وهكذا كان، وتناول يوديشترا شيئاً من الفاكهة وجرع بعضاً من الماء. وحين انتهت تلك الجلسة أوى الإخوة إلى شجرة وخلدوا إلى النوم تحت أغصانها.

وكان لهم في الصباح لقاء مع فياسا نظر الحكيم نظرة عميقة، وأسف أن يرى في قلوبهم أثراً مازال باقياً من الأسى، فسألهم أن يمضوا معه إلى نهر بهغيراتي ليخلصهم هناك مما علق بهم من الحزن، ويعرض أمام أبصارهم الأبطال الموتى.

مضى الجمع متحلقين حول الحكيم العارف إلى النهر، وشاهدوا بحراً من الناس قد أقاموا خيامهم على ضفافه. ومر ذلك اليوم ببطء حتى خاله القوم عاماً بتمامه، وهم ينتظرون حلول الليل لتتجلى أمامهم الرؤى الموعودة. ثم كانت اللحظة المنتظرة إذ غرقت الشمس في مياه النهر المقدس، فيما كانوا قد فرغوا من صلاة المساء.

مضوا في عتمة المساء إلى فياسا
وجلس ديتراشترا مع آل باندو والبراهمة
واجتمعت النساء في حلقة مع قندهاري
واصطف الناس، حسب أعمارهم يتقدمهم أكبرهم
وأخذ فياسا يستدعي الأبطال الموتى.
سمع الناس صخباً وجلبة
وكأنما جيوشاً التحمت في معركة،
رأى الناس الموتى يبعثون وبهيشما، ودرونا في المقدمة
وآلاف الملوك الموتى ينهضون من البهغيراتي
فيراتا، ودروبدا، وأبناء دروبدي،
ابن سوبهدرا، والراكشا المارد غاتوتكاتشا،
كارنا، ودريودانا، وشاكوني،
وأبناء ديتراشترا، وفي المقدمة دوشاسنا،
لكشمانا بن دريودانا، وبهغاداتا،
وشاليا وكل الأبطال الآخرين
نهضوا جميعاً، من الماء متألقين كالشمس
في أحلى رداء، متجملين بأقراط برّاقة
أبرياء من الكراهية والغرور،
قلوبهم خالصة من الغضب والغيرة.
تحف بهم الحوريات
شاهدهم ديتراشترا ببصيرة خارقة
ورأت قندهاري أبناءها المائة
وعم الفرح الناس أجمعين.
ولكن ثمة آخرين وقفوا واجمين، فزعين
لهول المشهد الرهيب

يعرض الأبطال الموتى
مبرئين من الكراهية والغيرة
والتقى في تلك اللحظة
الابن والأب والأم، والزوجات
وحيا الصديق صديقه.
تقابل آل باندو وكارنا
وتعانقوا.
مشهد مصالحة:
لابأس، ولا خوف، ولا ريبة، ولا عتاب.
لا شيء سوى التقاء عقول خلصت إلا من الحب
هكذا مضى الليل
ثم انتهى.
وغاب الأبطال فجأة كما ظهروا
بإشارة من فياسا،
وغرقت عندئذ العربات وتوارى المحاربون في
أعماق البهغيراتي المقدس.

قفل آل باندو عائدين إلى هاستينبورا واستأنفوا حياتهم على نحو ما ألفوا عامين بالتمام، حتى أطل عليهم ذات يوم حكيم الآلهة نارادا وقد احتفى به يومذاك يوديشترا أعظم احتفال، وشرع يسأله عن أسفاره في الأصقاع وزياراته الأنهار المقدسة، والحكيم يجيب ويزيد في البسط، فذكر أنه قادم من ضفاف البهغيراتي. فسأله عن ديتراشترا، إن كان قد التقى به، وعن قندهاري وكونتي وسانجيا، إذ بلغه أن الجماعة انقطعوا لمجاهدة النفس؟ فقال له نارادا: «إذن، فاصغ إليَّ جيداً وتمالك نفسك واعلم أن ديتراشترا قد عكف منذ غادرته على رياضة النفس، واشتد بها فملأ فمه بالحصى وصام

عن الطعام فلا يغذي جسمه إلا الهواء حتى بات جلداً على عظم. أما قندهاري فلا تتناول إلا الماء. وكونتي إنما تتناول الطعام مرة كل شهر، كذلك سانجيا يتناول طعامه مرة كل ستة أيام. وقد خبرت ديتراشترا هائماً على وجهه في الغابة، والمرأتان في إثره، وسانجيا يقوده كلما سنحت له الفرصة، وبلغني أنه ورد موقعاً قريباً من الغانج ذات يوم فاغتسل في النهر المقدس ثم صعد إلى صومعته. فإذا بنار شديدة تشتعل بالغابة وتنتشر وتلتهم في طريقها الأشجار والحيوان، وتحاصر ديتراشترا في صومعته فلا يتمكن الملك من الهرب لضعفه وهزاله.

وقد نصح الملك سانجيا بالنجاة، أما هو وقندهاري وكونتي فمآلهم إلى السموات العلى. ولكن سانجيا يعرض عن هذه النصيحة، بل قل الأمر، ويلح على الملك أن يسعى إلى الهرب، لأنه لا يرى قداسة في هذه النار أو سمواً في هذا الموت. ويكرر ديتراشترا عليه الأمر أن امض إلى حيث نجاتك، أما هو فيجد في الماء والنار والهواء عوناً لمثله من الزهاد. ثم اتجه بوجهه إلى الشرق وجلس ومعه قندهاري وكونتي مستغرقين في تأمل عميق، مشحونين بطاقات ذهنية عظيمة.

دار سانجيا حوله دورة، متضرعاً أن ينجح هذا الشيخ وأهله في مجاهدة النفس التي وجدهم قد استغرقوا فيها، في ذلك الحال من الهدوء والثبات حتى بدوا للناظر أشبه بأعمدة من الخشب. ثم سرعان ما أحاطت بهم النار وقضوا فيها. أما سانجيا فقد قُدِّر له أن ينجو من ذلك الحريق. فالتقيته مع جماعة من الزهاد عند الغانج، ورأيته يودعهم ويمضي إلى الهمالايا. ولقد عثرت في طوافي بالمكان على جثث الملك والملكتين محترقتين.

ولكن لا تبتئس وتجلد، أي يوديشترا، فقد ذهبوا سعداء، لأنهم شاؤوا الموت، فكان الأمر كما أرادوا! ومن أعماق القصر تعالت أصوات الندب شديدة تهز الأفئدة هزاً.

السفر السادس عشر

حصاد الأرواح

ها قد انقضى ستة وثلاثون عاماً على تلك الموقعة العظيمة، وها هي ذي نذر الشؤم تلوح أمام يوديشترا؛ عواصف رملية تهب على المدينة، الطيور تطير متراجعة، والأنهار تجري عكس مجراها، وسديم كثيف يحجب الأفق أبداً، والشهب تنزل وتصطدم بالأرض فتتناثر شظايا حارقة، ثم ها هي ذي العتمة تجلل الشمس، وجثث بلا رؤوس تحوم عند الفجر، والشمس والقمر ابداً تحيط بهما هالة حمراء قانية.

وفي ذات مرة صادف أعيان عشيرة كريشنا، اليادفا، الحكماء المبجلين الثلاثة فيشفاميترا وكانفا ونارادا، يدخلون مدينة دفاركا. فجاؤوهم بابن كريشنا شمبا وقد أخفوه في زي امرأة، وعرفوه بأنه زوج عين من الأعيان تسألهم أن يتنبؤوا بالولد الذي ستلده.

ولكن ما كان لمثل هذه الخدعة أن تنطلي على هؤلاء الحكماء فأنبؤوهم بأن شمبا سيلد قضيباً من الحديد وسيأتي بالدمار لليادفا، هؤلاء القوم الحمقى الذين دارت برؤوسهم خمرة الغرور والكبر، والذي سيدمرون أنفسهم، إلا كريشنا وأخاه بالاراما الذي سيلج البحر، في حين يأتي صياد اسمه جارا فيقتل كريشنا.

وما كاد اليوم التالي ينصرم حتى أخرج شمبا من أحشائه قضيباً من الحديد كريه الشكل، أشبه بمنجل الموت الكبير حاصد الأرواح، ولما بلغ أمره ملك اليادفا أوغراسينا أمر بأن يُطحن حتى يصبح ذرات دقيقة فتنثر في البحر. ثم أصدر إرادته بتحريم الخمر وصنعها وشربها، وفرض عقوبة الموت على من يخالف هذا الأمر، بوضعه على خازوق ليراه كل ذي عين.

ولكن هيهات أن ينجي الحذر من القدر! لقد أخذ الزمن الرهيب الأصلع ذو البشرة الداكنة المخيفة يجول في الشوارع والطرقات وبين الأزقة، فيمد بصره ويدخل كل بيت، وبدأت الفئران والجرذان تغزو الشوارع، وتداهم النائمين وتعمل في شعورهم وأظافرهم قرضاً وقضماً. ورأى الناس الجرار تتصدع دونما سبب، وضجت الآذان بأصوات طيور الميمانا تقلد أصوات البشر فلا تنقطع ليلاً أم نهاراً، وأخذت الماعز تعوي كبنات آوى، والأتان تلد البقر، والبغال تضع الفيلة، والقطط تلد من الكلاب، والفئران من النموس.

وأخذ اليادفا بأسوأ السبل فهجروا الحياء، ورأيت البراهمة يطاردون بالإهانات، والشتائم تنزل بالآلهة والأسلاف في كل مكان. بل ولم يسلم من الأذى حتى أهل العلم وكبار السن. وانهمك الأزواج في الخيانة والتهتك. وبدأت النار تلقي ظلها على البلد وظهر الدود في الطعام النظيف. وكان يسمع وقع أقدام تنزل فجأة حينما يتلقى البراهمة هدية، أو يرتلون مباركين اليوم، أو وجدت الزهاد يجلسون للتأمل، كذلك أخذ القمر يبدي شذوذاً في وقت اكتماله.

وإذ لاحظ كريشنا هذه النذر جمع اليادفا، وخاطبهم بلهجة النذير مذكراً بنبوءة قندهاري بأن ساعة الدمار قد حلت وها هو منتصف الشهر قد استقدم يومه، وهذه من علامات الساعة، وليس لها سابقة إلا يوم تهيأ الباندوفيون والقوروشيون لتدمير بعضهم البعض.

وكان من يصيخ السمع ويعمل الفكر في خطبته يتلمس في

لهجته رغبة خفية لا يملك لها تحديداً، وإنما يلتقطها بحسه، فيرى وكأنما يود لو تحققت النبوءة، فلعل فيها الخلاص من هذا الانحطاط الذي بلغه القوم.

وختم كريشنا الخطبة بدعوة اليادفا إلى الحج إلى شاطئ المحيط والاغتسال في مياهه، فلربما تطهروا عندئذ من هذا الرجس الكبير.

في تلك الليلة رأت النساء فيما يرى النائم عجوزاً شمطاء، سوداء اللون، ذات أسنان بيضاء، تطلق الضحكات المجنونة، وتجري في طرقات دفاركا، وتقطع خيط الإيمان المقدس عن رسوغهن، ولم يكن الرجال أفضل حالاً، إذ طاردتهم الكوابيس، وأقضت مضجعهم، فتبدت لهم الطيور الكواسر تنقض عليهم وتنهش في لحومهم، ورأوا الراكشا الشياطين فالتة من عقالها، فتداهمهم وتختطف منهم كل ثمين من حلي ومظلات وأعلام ودروع، ورأوا قرص كريشنا الرهيب يطير في الفضاء، ثم صور لهم سائسه داروكا في عربة تجرها خيول أربعة تعدو على سطح المحيط.

أقام اليادفا مضاربهم في برابهاسا، وهناك استأنفوا ما كان العهد بهم من انهماك في الطعام والشراب والسفه. فكانوا يمزجون طعام شيوخ البراهمة بالبول، ثم يقدمونه للقرود والحمير. وإذا فرغوا من هذا السخف تحولوا إلى دنان الخمر يفرغونها في أجوافهم فيسكرون حتى يغيبون عن الوعي، بين رقص الراقصات وغناء المغنين، ورأيت بالاراما يومئذ يشرب والآخرون في حضرة كريشنا.

وسمع القوم في لحظة من تلك اللحظات ستياكي يشتم كريتفارمن ويقلل من شأنه ويعرض به على الملأ، وهو الذي لم يتورع عن قتل العزل في نومهم، ويهم بطرده من بين المحاربين ثم سمعوا كريتفارمن يرد عليه مشيراً، بيسراه استخفافاً أن ليس لمثله أن يأخذ عليه مأخذاً، أفلم يقتل هو بوريشرافاس غدراً حين احتز رأسه وهو مستغرق في صلاته؟

وكان أن نال كريتفارمن من كريشنا نظرة غضب، ولقد رأى القوم ستياكي يهتز مخموراً غضباً، وسمعوا منه وعيده بأنه قاتل كريتفارمن في تلك الليلة كما ذبح وأشفاتمن أبناء دروبدي في فراشهم ذبحاً.

وما كاد الرجل يتم كلامه حتى هم بكريتفارمن وبضربة واحدة من سيفه أطاح برأسه عن جسده، ثم أخذ يجري كمن أصابه مس، وذهب يطوح بسيفه ويضرب ذات اليمين وذات الشمال، حتى أمسك به كريشنا وشرع يهدئ من روعه.

ولكن ما كاد الرجل يهدأ حتى هب أبناء البوجا والانداكا وبادروه بجرار الخمر وعندئذ هرع لنجدته ابن كريشنا براديومنا من زوجته روكميني، فسقط وستياكي قتيلين على الأرض. وثارت في تلك اللحظة ثائرة كريشنا فالتقط بقبضته حفنة من الأعشاب تحولت كل عشبة منها إلى قضيب من الحديد مريع، فكان ينزل على أولئك الرعاع مثلما تنزل الصاعقة.

وكانت تلك مجزرة لم يعرف الناس مثلها من قبل، فرأيت الابن يقتل أباه، كما يقتل الأب ابنه.

أما كريشنا فقد وقف بعيداً يرقب المشهد، وبيده انتصبت عشبة حادة كحد السيف. وعندئذ افتقد داروكا بالاراما في المعمعة، ولفت نظر كريشنا إلى غيابه فمضى الاثنان يبحثان عنه ليجداه قد اتخذ مقامه تحت شجرة وجلس مسنداً ظهره إلى جذعها، مستغرقاً في الصلاة والتأمل.

أشار كريشنا إلى سائسه أن يمضي فوراً إلى أرجونا ويخبره بفعله اليادفا. ثم أمر فابرو بأن يعمل على حماية النساء من الأشرار القتلة واللصوص لئلا تغريهم جواهرهن وحليهن بالسوء.

ولكن ما كاد فابرو يقطع بضع خطوات، مترنحاً مخموراً، حتى أصابه قضيب من تلك القضبان المتطايرة فخر صريعاً على الأرض.

وعندئذ قال كريشنا أن ينتظره حيث هو، بينما يمضي هو

لتأمين النساء في حماية أبيه في دفاركا، بانتظار قدوم أرجونا وحين تهيأ للعودة إلى بالاراما في الغابة، بعد أن أودعهن في عهدة أبيه، لم تتمالك النساء أنفسهن وشرعن يبكين وينتحبن، وأصواتهن تتردد في أرجاء القصر.

عاد كريشنا إلى الغابة ليجد أخاه مستغرقاً في مجاهدة النفس، ورأى أفعى هائلة تطل من فمه وتخرج بألف رأس، حمراء العينين لم ير مثلها من قبل، وشاهدها تزحف نحو المحيط، وإذا بأمواجه تعلو شاهقة وكأنما تحيي القادم، وبالاراما يتبعها، ويخوض في اليم، وكريشنا يتابعه بنظره حتى غاب في بطنه، مخلفاً عالم الأحياء وراء.

أخذ كريشنا يجوب الغابة، مستغرقاً في أفكاره. وتذكر في لحظة من اللحظات لعنة قندهاري، فانزوى في بقعة، وانهمك بكله في ممارسة اليوغا، وفيما هو مستغرق في المجاهدة، مر به الصياد جارا، وحسبه في ردائه الأصفر وثباته غزالاً. مد يده وشد القوس ورماه بسهم، فإذا به يصيبه في نقطة ضعفه قدمه. ولما اقترب مما ظنه طريدة ورأى كريشنا هم يقبل قدميه ويسأله الصفح والغفران، فيجيبه ويخفف من شدة الحزن في قلبه، ثم إذا به يصعد إلى السماء ويتلقاه إندرا في مملكته، بين أصوات الغانديرفا والآلهة والإلهات تصدح بمديحه.

اضطرب أرجونا وهاجت نفسه حين بلغه نبأ المذبحة التي أنزلها اليادفا ببعضهم، ولم يتردد لحظة في المسير إلى دفاركا.

بدت العاصمة كئيبة كأنما فارقتها روحها، وقد كانت تضج بالحياة من قبل. وكاد قلبه ينفطر لمرأى أزواج كريشنا الست عشرة ألفاً وهن يقابلنه بالنحيب والعويل. وخال أنه سيجد أباه فاسوديفا أحسن حالاً، ولكن الرجل تذكر في أرجونا أبناءه وإخوته وأصدقاءه القتلى، فبكى وتدفقت العبرات من مقلتيه، وهو يقول آسفاً: «انظر! ها إني مازلت حياً، بينما مضى الآخرون!».

كان الحزن قد أخذ أرجونا كل مأخذ، وبدا له العالم خالياً من كل بهجة بعد مغيب كريشنا. وها هو ذا لا يرى لنفسه مهمة إلا حماية النساء في إندرا براستا.

ثم جمع أهل دفاركا والجند، وأشار لهم بأن يتبعوه قبل أن تبتلعها أمواج المحيط، وأوعز لهم بحمل كل ثمين ونفيس على العربات، وأن يتهيأوا للمسير في فجر اليوم السابع.

وجاء اليوم التالي يحمل نبأ رحيل فاسوديفا عن العالم بنفس راضية، وقد عثر عليه أهله وهو مستغرق في مجاهدة النفس ومن جديد تعالى الندب والنحيب وعم القصر حزناً على الراحل. ورأى من شهد الجنازة نساءه ديفاكي وبهادرا وروهيني وماديرا يصعدن إلى حيث سجي جثمان مولاهن فوق المحرقة ليلتهمهن معه لهيب النار.

وبقلب حزين قام أرجونا بالطقوس الأخيرة. ورأى اليوم السابع قافلة عظيمة من الجياد، والعربات، والثيران والبغال، والجمال، تغادر المدينة في الفجر وتحمل الشيوخ، والنساء، والمحاربين، والأطفال، والجند المشاة، وسائسي الفيلة، والبراهمة، والشتريا، والصناع والشودرا ملاكي الأرض الأثرياء، وزوجات كريشنا.

كانت القافلة لم تبلغ الأطراف حين سمعت ضجة هائلة من ورائهم، وحسبوا لوهلة أن الأرض قد انشقت أو تفجرت. فالتفتوا وراءهم ليروا موجة هائلة تعلو وتجتاح المدينة وتفرغ فيها ماحوت من بطن المحيط من وحوش، ثم تمتد وترسل الأمواج متعاقبة ويمتد مداها فتلاحق القافلة، فتسرع وتحاول الافلات من عبثها والنجاة بالأرواح، والناس يستنجدون من أعمال القدر.

واستطاع أرجونا بعد جهد إنقاذ القافلة الهائلة من الفناء، وأودع النساء كي يسترحن من العناء في غابة ساحرة صادفته أثناء استطلاعه الطريق، وأقام مضاربه في تلك المراعي ذات الأنهار الخمسة الغنية بقطعان الماشية. ولقد كانت هذه الأرض كذلك ملجأ

للصوص يقصدونها للاختفاء فيها أو لنصب الكمائن لسرقة من يمر بها من التجار وأهل الثراء فلاحت لهم هذه القافلة الفخمة فريسة سهلة طيبة، إذ بدا الحراس متعبين مرهقين، وليس هناك من يمنعهم منها إلا النساء والصبية. وهكذا كان أن أغاروا على القافلة بقضبان من الحديد تسبقهم صرخات كزئير الأسود، فسرى الذعر بين النساء والصغار ودبت الفوضى في صفوف حرس القافلة.

وللتو اعترضهم أرجونا مهدداً متوعداً بقوسه الرهيب وسهامه الفتاكة. ولكن اللصوص لم يبالوا بهذا الوعيد، وإنما تابعوا هجومهم، واندفع بعضهم نحوه وقابلهم ذلك البطل الهمام وصمد أمامهم، ولكنه لم يقو على حمل سلاحه إلا بشق النفس. فتحول بذهنه إلى سواه من الأسلحة الربانية يحاول عبثاً استدعاءها. ولكم شعر البطل العظيم بالخجل لهذا العجز، ولكم شق عليه أن يرى النساء النبيلات الجميلات يتعرضن للسبي رغماً عنهن أو يمضين طواعية مع هؤلاء اللصوص. ولقد رمى من السهام ما استطاع حتى نفذت. وذلك أمر لم يعتده من قبل. أما الآن فها هو ذا يجد جعبته قد خلت من سهامها، ويرى ساعده يكاد لا يقوى على حمل القوس، ولا يملك إلا الأسى والغضب فيضيق صدره وتتلاحق أنفاسه، ويمضي في لعن القدر.

ويسير أرجونا بعدئذ بقافلة صغيرة من اليادفا والنساء اللواتي أعرض اللصوص عنهن، ويدخل بهم اندرابراستا. وهناك يرى روكميني وغيرها من الملكات يصعدن المحرقة لتلتهمهن نيرانها، على الرغم من محاولته ثنيهن عن هذا الانتحار، ولكنهن أبين إلا اللحاق بأزواجهن، أما الآخرون فقد تشتت شملهم، ومضى منهم من مضى إلى الغابة معتكفاً منقطعاً للتكفير.

وأما أرجونا فقد استبد به الحزن، فشد رحاله إلى فياسا في صومعته عله يجد عنده الشفاء وراحة النفس، فوجده هناك مستغرقاً في تأمله في تلك السكينة.

قطع أرجونا على الحكيم العارف المستغرق في التأمل خلوته، واستلفت انتباهه إلى وجوده بجانبه.

ورد فياسا: «أهلاً بأرجونا! ولكن أخبرني، يا بني، لم أراك مضطرب النفس، غاضباً، ضيق الصدر؟ أترى أحداً صب عليك ماء نجساً، أم قتلت براهمياً؟ أم لعلك ضاجعت امرأة حائض، أم هزمت في معركة؟»

- «آه وألف آه! قد مات كريشنا، وإني لأفتقد عينيه الواسعتين كأوراق زهرة اللوتس. وآسف إذ أن الرماح قضت على اليادفا. حقاً قد كانت مذبحة هائلة قتل فيها أكثر من خمسمائة ألف من المحاربين الأشداء بأنصال الحشائش التي تتحول إلى رماح. وها إن الحياة تفقد كل بهجة أو بريق بدون كريشنا. فأخبرني بالطريق الصالح لي، فقد أصبحت تائهاً لا أدري طريقي، فؤادي خاو من الدليل. قد فقدت الأهل وأصبحت عاجزاً عنيناً. فمن يرشدني الآن؟».

- «ذاك من لعنة براهمي. هكذا كتب عليك، وهذا ما سيكون ولكن لابأس عليك، يا بني، فلست مسؤولاً عما كان. لقد كان بوسع كريشنا منع هذا المصاب، إلا أنه شاء أن يكون. واعلم يا أرجونا أن يد الزمان وراء كل أمر. كالا هو بذرة الكون، وهو الذي يمنح وهو الذي يمنع كالا يلهم وكالا يفشل. اليوم أنت السيد الآمر وغداً تغدو الخادم المأمور. وها قد حان وقتك فحتم عليك الآن أن تسعى إلى الغاية الأسمى.»

أصغى أرجونا إلى فياسا وسمع منه حكمته، ثم استأذنه وأسرع عائداً إلى هاستينبورا لينقل إلى يوديشترا ما جرى من الأحداث.

السفر السابع عشر

الصعود

جلس يوديشترا يصغي لأرجونا وهو يروي له ما حاق بالفريشينيين من دمار بكل تفاصيله واستغرقه الاستماع والتفكير، وانتهى به القرار إلى اعتزال العالم.

وقال لأرجونا: «إنك قد بلغت الحكمة يا أخي، إذ بت تعلم أننا من صنع تصاريف الزمن، وأننا ضحاياه العاجزون».

وسمع أرجونا لا ينقطع يردد: «الزمن، الزمن، كالا، كالا!».

وإذ قرر يوديشترا اعتزال العالم استدعى إليه ولد ديتراشترا يويوتسو وسلمه المملكة، ونصب معه باركشيت على العرش. وأنهى مراسم التنازل والتنصيب بوصية لسوبهدرا: «هذا باركشيت حفيدك سيغدو سيد القوروشيين ولسوف يبسط حكمه من هاستينبورا، أوصيك به، وتوليه بعنايتك فلا يخالف الدارما في أي أمر!».

والتفت بعدئذ إلى توزيع الحلي والمجوهرات والثياب والضياع والجياد والخدم على البراهمة، تضحية لكريشنا وتكريماً لذكراه.

ثم أكمل تلك الإجراءات بأن جمع رعاياه وأعلن أمامهم اعتزال العالم، ونزع عنه قلائده الملكية وارتدى ثوباً من لحاء الشجر،

واقتدى به بهيما وأرجونا والتوأمان ودروبدي المتألقة أبداً فتجردوا من أزيائهم الثمينة وارتدوا لحاء الشجر.

ما أشبه اليوم بالبارحة، يوم خرج هؤلاء الستة بعد مباراة النرد ليعيشوا حياة المنفى، سوى أنهم بدوا اليوم سعداء.

وفي ذلك اليوم، رأى الناس أولوبي ابنة ملك الناغا، زوج أرجونا، تغطس في الغانج عائدة إلى موطنها، أما امرأته الأخرى تشيترينغادا فقد عادت إلى مانيبورا. وأما العجائز من القوروشيات فتحلقن حول باركشيت.

سار آل باندو، أصحاب النفوس السامية، يزدادون رسوخاً في تمارينهم في مجاهدة النفس وأصالة في الزهد، تقودهم أقدامهم إلى بلدان كثيرة، عبر البحار والأنهار.

وكانوا يسيرون في صف يتقدمه يوديشترا، ويلحق به بهيما، فأرجونا، فأكبر التوأمين ثم أصغرهما في الولادة فدروبدي السمراء الجميلة ذات العينين كزهرة اللوتس.

كان هذا الصف يسير ويجد في السير وكان ثمة كلب لا ينقطع يتعقب خطاهم. تابع القوم مسيرهم وبلغوا البحر المعروف بلون مياهه الحمراء، وفيه رمى أرجونا قوسه الجانديفا وجعبتيه اللتين لا تنضب منهما السهام.

وتحول آل باندو بعدئذ جنوباً، ولما بلغوا ساحل بحر الملح الشمالي توجهوا نحو الزاوية الجنوبية الغربية، وما هي إلا مسيرة قصيرة حتى يمموا صوب الغرب فبلغوا موقع دفاركا، فوجدوها مغمورة بمياه البحر.

ثم قصدوا الشمال بعدئذ وتابعوا طريقهم، فبلغوا جبل هيمافات الشاهق فاعتلوه وإذ انحدروا من قمته واجهتهم كثبان ضخمة ومن بعيد طالعهم أعلى ما رأوا من القمم، قمة ذلك الجبل الأسطوري، جبل ميرو.

ولقد قصدوه وارتقوه بعزيمة وتصميم وبما شحذ إرادتهم من

قوة اليوغا. ولكن النهج خذل دروبدي، فانهارت وسقطت عند سفح الجبل.

نظر بهيما إلى حيث حطت جثة تلك الجميلة، وبنبرة الأسى سأل يوديشترا الصادق: «لماذا سقطت، وهي التي لم تأت بسوء في حياتها؟».

قال يوديشترا: «لقد كنا نحبها جميعاً بقدر واحد. ولكنها كانت تؤثر أرجونا. وها هي ذي تدفع جزاء هذا التفضيل».

واستمر يوديشترا يتابع تسلق الجبل بانتباه شديد، وعزيمة لا تنثني وفي الطريق سقط سهديفا.

سأل بهيما يوديشترا من جديد: «قد كان سهديفا على قدر عظيم من التواضع، فعلام سقط؟».

أجاب يوديشترا: «كان قد بلغ من التيه القدر العظيم وغدا يظن أن ليس هناك من يماثله حكمة وها هو ذا يسدد ثمن خطئه!».

خلف الجمع سهديفا وراءهم، وتابعوا تسلق الجبل، والكلب في إثرهم لا يتوقف. وما هي إلا مسيرة قصيرة حتى رأى الجمع ناكولا الشجاع المقدام يتهاوى ويلحق بسهديفا ودروبدي من قبله.

علق بهيما حين رأى سقوط ناكولا قائلاً: «قد كان على قدر عظيم من الوسامة والشجاعة والإقدام، وكان رجلاً عارفاً بالدارما، ولم يعرف عنه أنه قد حاد عن هذا الطريق!».

قال يوديشترا: «كان رجلاً على ذكاء وعارفاً بالدارما لكنه كان يظن أن ليس هناك من يضاهيه جمالاً، وفي هذا غرور وانخداع بالظاهر. ولذلك فقد سقط اليوم. إن على الإنسان أن يسلم أمام القدر!».

كان أرجونا شاهداً على سقوط دروبدي وناكولا وسهديفا، وكان يعتصره الألم لهذه الفواجع المتلاحقة. ثم حان دوره، وهو الفارس المقدام، ليسقط أيضاً كالآخرين.

ولما لفظ أرجونا، الذي كان ينبض حياة وحيوية مثل الإله

إندرا، آخر أنفاسه، قال بهيما: «إن هذا المهاتما لم ينطق بكذبة قط، ولست أذكر أنه كذب في يوم من الأيام، ولو في معرض المزاح، فأي ذنب أتى لينال هذا العقاب؟».

قال يوديشترا: «قد كان بطلاً حقاً، ولكن كان به غرور، إذ وعد بقتل كل أعدائه في يوم واحد، ثم قصر عن تنفيذ وعده. وكان ينطوي فوق هذا كله على احتقار عظيم للآخرين. وليس هذا بالطريق السليم للفوز في هذه الحياة. وها هو ذا يسقط اليوم!».

واستمر يوديشترا في صعود الجبل بلا توقف وفي لحظة وقع بهيما.

صاح وهو يتدحرج ويهوي: «انظر، يا يوديشترا، ها أنذا يا من أحببت من صميم فؤادك أسقط أيضاً. فلِمَ سقوطي؟».

قال يوديشترا: «قد كنت تكثر من المباهاة، وكنت نهماً. وما كان ليخطر لك أن تلتفت إلى حاجة الآخرين وأنت تقبل على الطعام، فحق عليك السقوط».

تابع يوديشترا صعود الجبل لا يلوي على شيء، والكلب مايزال يتبع خطاه. ويصم الآذان ضجيج هائل، فإذا بالسماء ترعد والأرض تهتز، ثم إذا بالإله إندرا يلوح قادماً من بعيد في عربته، ويقترب منه ويدعوه للركوب.

ولكن يوديشترا يعرض عن دعوة الإله ذي الألف عين: «قد سقط إخوتي على الطريق، وكذلك زوجنا الجميلة، ولن يهدأ لي بال إلا إذا كانوا بجانبي. ولن أرضى بالجنة ذاتها إن لم نجتمع فيها معاً. فإن شئت أن أتبعك أجبت ضراعتي».

قال إندرا: «إنهم قد سبقوك إلى الجنة، يا يوديشترا، وما رأيت على الأرض إنما كان أجسادهم وحسب، أما أنت فقدرك أن تدخل الجنة بجسمك، فهيا!».

قال يوديشترا: «وهذا الكلب، يا إله الماضي والمستقبل، قد تبعني بإخلاص، وبدأت أميل إليه وأحبه، فدعه يصطحبني».

قال إندرا: «اليوم منحت الخلود والبركة والمسرة فدعك من الكلب. وليس يضيرك إن تركته!».

«إنك لتعلم ياذا الألف عين. ياذا العمل الصالح، أنه ليشق على الإنسان الخيِّر أن يأتي بعمل يتعارض والخير، ولست أريد جزاء مهما كان عظيماً يقتضيني خذلان من يخلص لي».

قال إندرا: «السماء لا تسمح بدخول البشر والكلاب معاً. فامعن الفكر في ما تختار. ولكن إن شئت النصيحة. قلت لك دعك من الكلب وامض في طريقك إلى جنان الخلد. ولن يضيرك شيء إن فعلت!».

«أن يهجر المرء من أخلص له إثم كإثم من يقتل براهمياً. وأنا، يا إندرا العظيم، لن أتخلى عن هذا الكلب ولو ملكت النعيم. قسماً لن أعرض عن نداء خائف، أو أخذل رجلاً أخلص لي، ولن أشيح عن ملهوف أو أهمل ضعيفاً، لا ولن أتردد في نجدة مستغيث!».

قال إندرا يحثه على رد صاحبه لتفتح له السماء أبوابها: «وما الكلب؟ إنه دنس لا فائدة من ورائه ـ حسبك منه أن يدنس الأضاحي وما يقدم للنار المقدسة. هيا، دعك من هذا الكلب وارتفع إلى مراتب الآلهة.

وليس هذا بكثير، فقد سبق أن تخليت عن إخوتك ودروبدي فما أضرك ذلك، لأنك بالحسنة بلغت متعة الجنة فلم أراك مضطرباً؟ فعهدي بك أنك تخليت عن كل شيء وإذن فما الذي يحول دونك وهجر هذا الكلب؟».

رد يوديشترا قائلاً: «العوالم الثلاث تعلم أن المرء لا يملك أن يصادق الميت أو يعاديه. وإخوتي وزوجنا قد ماتوا، ولست أملك أن أبعث فيهم الحياة. لذا خلفتهم ورائي. لكنني لم أتول عنهم في حياتهم قط. فإن تخليت عمن أخلص لي كنت كمثل الذي يؤذي من يلجأ إليه أو يقتل امرأة أو يسرق من براهمي أو يكيد لصديق!».

ماكاد يوديشترا يتم قوله حتى رأى عجباً: أخذ الكلب يتحول وينتصب أمامه الإله دارما، يفتر ثغرة عن ابتسامة الرضى ويباركه

قائلاً: «قد أصبت، يا يوديشترا، وأحسنت القول. إن لك ما كان لباندو من العطف على جميع المخلوقات، ومتانة الخلق، ورجاحة العقل، ولقد خبرتك ذا قلب مفعم بالرحمة حتى في قلب المعركة. ومازلت أذكر امتحاني لك في غابة دفيتا، يوم بدا إخوتك أمواتاً بإشارة مني، فوجدتك تطلب الحياة لناكولا ليكون المعيل لامرأة أبيك مدري. الحق أن ليس هناك في السماء من يضارعك نبلاً وسمواً. فقر عيناً فالسعادة الأبدية ملك لك، فلقد كنت دائماً تصبو إلى الأهداف النبيلة السامية بلا دنس من الأنانية ينال منها. فحق لك الثواب فيما سعيت إليه».

وهكذا انطلقت العربة حاملة يوديشترا والإله دارما والإله إندرا يحيط بهم العارفون الكمَّل «ريشي» وصعدت بهم إلى السموات العلى وشع الكون بوهج النور من هالاتهم المتألقة كالشمس.

ودوّى عندئذ صوت نارادا حكيم السماء البليغ قائلاً: «مجد يوديشترا يفوق مجد الحكماء العظام. فحق له لصلاحه أن يفوز بالصعود إلى السماء بجسده».

وحيى يوديشترا الآلهة والحكماء العارفين، وخاطبهم قائلاً: «مكاني حيث إخوتي لا يعنيني منه إن كان مبهجاً أم قاتماً. ذلك هو خياري ولن أرضى عنه بديلاً».

أصغى إندرا إلى يوديشترا وقال له: «امكث هنا. فقد استحقيت هذا المكان المميز لصالح عملك وهذا ثواب لم ينل مثله أحد من قبل. فعلام هذا الضعف الذي يعرف به البشر؟ أفلم يبلغ إخوتك الجنة؟ فكيف تظل أسير قيود العاطفة البشرية؟ انظر، يا يوديشترا، وامض لتنضم إلى العارفين الخلَّص والكُمَّل من البشر الفانين الذي حازوا مكانهم في عالم الآلهة!».

قال يوديشترا الحصيف مجيباً ملك الآلهة: «إنني لن أرضى عن لقائهم بديلاً، فمكاني حيث هم، وحيث الجميلة الأريبة دروبدي الفانية!».

السفر الثامن عشر

السماء

كان دريودانا أول من صادف يوديشترا في السماء، فوجده متربعاً على مقعد جميل، متألقاً بهي الطلعة رائعاً كالشمس.

استولى الغضب على يوديشترا وثارت ثائرته، وصاح بأعلى صوته وهو يشيح بوجهه عن دريودانا: «دعوه عني فلست أطيق الجنة وفيها ضيق الأفق الجشع هذا! فلقد أوسعنا اضطهاداً ثم رمى بنا إلى المنفى في الغابة. ولم يكتف بهذه النقمة بل حملنا على قتال الأهل والأصدقاء! ولئن نسيت لم أنس تعريضه بدروبدي أمام جمع الملوك والأمراء. أيها الآلهة اعلموا أني ما عدت أطيق وجه هذا الأحمق الشرير. فخذوني إلى حيث إخوتي!

ابتسم نارادا قائلاً: «ليس هناك في السماء مكان للكراهية والعداء، يا صاحب الجلالة. واعتذر عما قلت في حق دريودانا. واعلم أن أتباعه في النعيم الآن يجلونه كأحد الآلهة. فقد بذل جسمه في نار المعركة، ونال الشرف الجدير بالأبطال. وإن يكن حقاً أنه أنزل بك وإخوتك عسفاً، إلا أنه ظل مقيماً على قانون الشتريا... الأشاوس، فما كان ليرتعش له جفن وهو يواجه الأهوال. ولذلك حق له أن يفوز بالمجد. أما أنت يا بني فترفع عن الصَغار تسلم. ودع

وراءك ذلك الإحساس بالإهانة الذي عرفت يوم المباراة، وانس الإهانة التي لحقت بدروبدي، وأهوال الحرب وقذارتها. فأنت اليوم في رحاب السماء. ولا يليق بك أن تحمل هذا الغضب بين جانبيك وفي عقلك، فحي دريودانا بالرفعة والسمو كما يجدر بك. واطرح من قلبك الكراهية والمرارة!».

قال يوديشترا: «إذا كانت السماء مرتع الفاجر مبيد الأصدقاء ومدمِّر العالم دريودانا، هذا الذي جعل الأرض خراباً بعد عمار وأفنى البشر والحيوان، وحملنا على الانتقام حملاً، فأرني إذن مربع إخوتي المكرمين الذين عرفوا بالصدق والشجاعة وما كانوا يحنثون بقسم! أين دريشتديومنا؟ أين ستياكي؟ أين أبناء دريشتديومنا وزعماء الشتريا الأشراف الذين كانوا أبداً يرعون شرعة المحاربين ولا يحيدون عنها؟ أرني، ياناراداا، فيراتا ودروبدا وشيخاندين؟ وأين أبناء دروبدي، والمقدام أبهيمانيو؟ إنني لا أرى أحداً منهم هنا فأين كارنا وأرجونا، وأين دروبدي؟ فهيا قدني بعيداً عن هذا المكان فهو ليس من الجنة! إن الجنة حيث إخوتي!».

قالت الآلهة: «فلتسرع إذن، إن شئت الخروج من هنا!».

وأوعزت إلى دليل السماء أن يقود يوديشترا إلى أهله وصحبه. وسار به الدليل عبر ممر وعر تتصاعد منه روائح كريهة تنبئ عن قذارته، وسرعان ما حل على المكان ظلام دامس، فلا يتبين فيه المرء موقع قدميه.

وهناك لم يجد العشب الأخضر
وإنما شعراً امتزج به الدم والصديد ونخاع العظام
الذباب والنحل واليعاسيب
والدببة تقوم وتحط على الجثث النتنة
تحيط بها النار.
غربان وكواسر مناقيرها كالحديد

أشباح مدببة أفواهها، عطشى للدم
تلال شاهقة كجبال فندهيا.
جثث مقطعة الأوصال
أحشاؤها متناثرة في كل مكان.
ويوديشترا، رجل الدارما،
ثابت الجنان، لا يتأثر، لا يحيد عن طريقه
نهر آسنة مياهه.
غابة أوراق نباتها قاطع الحد كالسكين.
صحراء رمالها بيضاء حارقة.
صخور وحجارة من الحديد.
ومراجل مليئة بالزيت المغلي.

التفت يوديشترا إلى دليله يسأله: «أترى هذا الممر يطول؟ يا للمكان العجيب، أتراه من السماء أيضاً! فأين هم إخوتي، إذ لم نلقهم بعد طول المسير؟».

توقف الدليل بعد مسيرة قصيرة، وقال: «ذلك هو الحد الذي أمرتني الآلهة بالوقوف عنده. أما إذا كنتم جلالتكم قد تعبتم من مشقة السير فإني طوع أمركم لأعود بكم إلى حيث تجدون الراحة».

كان إحساسه بالإرهاق شديداً، وراودته عندئذ الرغبة في العودة تحت وطأة الإحساس بالحيرة والضياع.

سمع في تلك اللحظة أصواتاً تندب وتنوح ترفق يابن دارما، يابن الحكيم العارف الملك باندو! امكث ولا تفارقنا. فمنذ قدمت أخذت نسمات رقيقة تهب علينا، لقد جئتنا كنسمة عطرة، فأنت، إذن، نعمة وبركة! امكث يابن كونتي لحظات فننعم بالسعادة!

ثار في أعماقه إحساس عارم بالعطف على هؤلاء البؤساء.

بدت له تلك الأصوات مألوفة وإن لم يستطع أن يتبين أصحابها على وجه الدقة، لما شابها من نواح وعويل.

وجاء صوت يعرف بصاحبه: أنا كارنا!

وتلاه صوت: أنا بهيما!

فآخر: أنا أرجونا!

وأنا ناكولا!

وأنا سهديفا!

وأنا ديتراشترا!

وأنا دروبدي!

ونحن أبناء دروبدي!

أصغى يوديشترا إلى تلك الأصوات المعذبة، وقال في خلده أي كارما، أي عمل! وأي جزاء! وأي فعل زنيم أتاه كارنا وأبناء دروبدي حتى رمي بهم في هذا المكان الموبوء؟ فلم أكن أحسبهم قد أتوا ذنباً عظيماً في حياتهم قط يستحقون عليه عقاباً. فأي عمل نبيل يستحق عليه دريودانا، بل وأنصاره أيضاً، تلك المكانة الرفيعة التي ينعمون بها. بل إن دريودانا ليتألق كإندرا ذاته ويلقى العبادة مثله! وكيف لا يكون مأوى هؤلاء إلى الجحيم؟ وقد عرفتهم أبطالاً، ولا يجري على ألسنتهم إلا الصدق، ومخلصين في اتباع الدارما، يعكفون أبداً على دراسة أسفار الفيدا. وعهدتهم يقدمون الأضاحي والعطايا إلى البراهمة، ويلتزمون بقواعد الشرف والفروسية؟ فهل ما أراه من الحلم أم أنه حقيقة؟ أتراني مالكاً رشدي أم أن ما أخبره الآن ضرب من تشوش الفكر؟

كان يوديشترا يطرح هذه الأسئلة، بتأثير من عذاب النفس والحيرة والتردد وشيء غير قليل من الأسى والحزن وإذ استغرق

في الحيرة والتساؤل وجد نفسه في النهاية يقذف الآلهة، حتى دارما ذاته، بشتى التهم من عسف وضلال.

تملك رأسه دوار وفقد السيطرة على نفسه. التفت إلى دليله قائلاً: «هيا عد إلى أولئك الذين أرسلوك وأخبرهم بأني مقيم هنا لأخفف من العذاب والهوان اللذين نزلا بإخوتي!

عاد الدليل السماوي لينبئ إندرا بما قاله يوديشترا، وفي لحظة تجلى إندرا يلحق به الآلهة أمام يوديشترا، فأنارت أنوارهم المكان وبددت الظلمة، وللتو اختفت القدور والأحجار، وتبددت أصوات العذاب والأنين، وتلاشت تلك الجثث المتفسخة النتنة وبدأت تهب نسمات لطيفة من الهواء العليل المعطر بأريج الزهور.

جاءت الآلهة جميعها، ومعها الكمَّل من البشر والحكماء العارفين، ليشهدوا إندرا يهدئ من روع يوديشترا: «هيا، قم معنا يا يوديشترا. قد زال الوهم وحق لك النصر. فلا تغضب واصغ إليَّ جيداً: اعلم يا بني أن لكل ملك نصيب من معاناة الجحيم. فمن ينال ثمرة أعماله الطيبة أولاً ينتهي إلى الجحيم أخيراً. ومن يذق الجحيم أولاً كان مأواه الجنة في النهاية. وها أنتذا تأكل من ثمار عملك الصالح وترتع في عوالم فزت بها بالجلد في العمل والدرس وما في نفسك من الرحمة. ولسوف ترى الآلهة والغنديرفا والابسارا في ثياب بيضاء يقومون على خدمتك فترضى نفسك وتطمئن. وانظر هنا يتدفق نهر الغانج السماوي. فانزل فيه وانزع منك النفس البشرية فتبرأ من الحزن والكراهية وتخلص من الأمراض!».

وقال دارما لولده: «يا بني قد سرني منك صدق القول، ونزوعك إلى المغفرة، وقوة نفسك، وتماسك عقلك، وصلابة روحك. ولقد امتحنتك ثلاث مرات وتأكد لي أنك بريء من الفساد. أتتذكر يوم جئت إلى البحيرة في غابة دفيتا لتستعيد قذيفتين، فنجحت في الامتحان. ثم جئتك في صورة كلب، فامتحنتك ثانية حين تهاوى إخوتك ودروبدي وسقطوا عند سفح جبل ميرو ومرة أخرى نجحت في الامحان. ثم امتحنتك ثالثاً ورأيتك تؤثر الجحيم على الجنة من أجل

إخوتك. فإذن، أنت اليوم طاهر من الآثام ومبارك. ولكن اعلم يا بن كونتي أن إخوتك لم يدخلوا الجحيم، وإنما ما رأيت من العذاب وهم من فعل إندرا!».

ومضى يوديشترا بعدئذ يحيط به الآلهة والحكماء العارفون إلى حيث القوروشيون الأبطال ينعمون، ورأى في ما رأى كريشنا في صورة برهما وفي حضرته أرجونا يتعبده متألقاً تشع منه الأنوار.

ورأى في غير تلك الرحال كارنا زاهياً بالنور كأنما اجتمعت فيه عشر من الشموس. ووجد في طوافه بهيما المتألق بالنور أبداً بين الآلهة بالقرب من إله الريح. وتابع تجواله في ربوع الجنة فصادف في ركن التوأمين الأشفين ناكولا وسهديفا يضيئان نوراً وبهاء.

وعثر أخيراً على دروبدي الجميلة فرآها على حسنها الآسر، مزينة بعقود اللوتس، تحوطها روعة الشمس. ولقد جنحت نفسه للتحدث معها في تلك اللحظة.

قال رب الأرباب إندرا يخبره بأمرها: «إنما هي في الحقيقة لكشمي ربة البركة، حلت في صورة دروبدي، ابنة دروبدا الرقيقة العطرة، لتأتي إليك بالخير واليمن. ولم تحملها رحم أم فشيفا هو مبدعها لتتمتع بها وتنعم. وما هؤلاء الغنديرفا العظماء المتوهجون نوراً إلا أبناؤها. ثم هاك انظر، ها هو ذا ابن سوبهدرا، يستمتع برفقة القمر سوما، أبهيمانيو الذي عرفته رجلاً ذا بأس وشدة أصبح الآن رقيقاً وديعاً كضوء القمر. وهذا هو باندو العظيم وكونتي ومدري تصطحبانه. وها أنت ترى من بعيد ابن شنتانو بهيشما يطوقه الفاسو الأطهار. وهاك مرشدك درونا جالساً بجانب بريهسباتي. واعلم أن هؤلاء جميعاً قد خلفوا أجسادهم الفانية، وباتوا ينعمون ببهجة السماء، التي ظفروا بها بفضل سمو العقل، وعفة اللسان، وصالح العمل.

هذه ملحمة تروي تاريخ الهند وشعب البهراتا وبهم عرفت ببهراتا، وقد شاعت في العالم بفضل ما حوت من عظات وعبر فسميت بالمهابهاراتا.

من يتمعن في معاني
هذه الملحمة العظيمة
يبلغ صفاء النفس،
يتطهر من كل دنس،
يبلغ الشريعة، دارما،
ينال الفلاح في هذا العالم، آرثا
ويصيب المتعة، كاما
يتحقق له الانعتاق، موكشا
المهابهاراتا جامعة شاملة
تصادفك مثل أحداثها،
وتفيد من عبرها
فما لم تذكره
لايقع في هذا العالم
هذه ملحمة النصر
جدير بأن يسمعها

من ينشد الحرية والخلاص
ملحمة حق على الملوك والبراهمة
أن يطالعوا في صفحاتها
ويتمعنوا في إشاراتها،
وكذلك الحامل،
في قراءتها فوائد:
ترشد إلى السماء من ينشدها
تدل إلى النصر من يبغيه.
جمعها ورتبها بأمر من إله الشريعة، دارما
فياسا ذو البأس،
ابن الجزيرة الذي لن تعرف الأرض
مثله من جديد.
ورواها على الآلهة نارادا
وتلاها استيا - ديفالا على أرواح السلف،
والشوك على الراكاشا والياكشا.
وقص فيشفامبيانا حكايتها
على البشر
ذلكم تاريخ قدسي،
عميق مكرم كالفيدا.
من يطالع في صفحاتها أو يصغي لروايتها
منتبهاً تبرأ روحه.
آلاف الآباء والأمهات،
مئات الأبناء والأزواج
يحلون في هذا العالم
ويبرحون

كثيرة هي مناسبات الفرح
عديدة هي مناسبات الحزن
والجاهل ضحيتها
أما الحكيم فلا يتأثر.
أرفع يدي وأصرخ.
ولكن لا حياة لمن تنادي!
من الدارما ينبثق النجاح والمتعة،
فلم يعرض الإنسان عنها؟
لا تنكروها ـ من أجل المتعة، أو الخوف
أو الجشع
الدارما أزلية. إن هجرتم الحياة ذاتها
لا تشيحوا عنها
لا اللذة تدوم ولا الألم أبدي
الروح وحدها خالدة.

تلكم هي حكاية المهابهاراتا، تبرئ نفس المستمع وتطهره من الدنس، فيتعرف إلى مثالبه وتنقشع الظلمة عن عقله وتنيره بشمس الفكر، وحينئذ يتعرف إلى روعة عالم فيشنو كما خبرها الحفيظ فيشنو ذاته.

تعريفات

ـ أ ـ

* أبهيمانيو «المكتفي بذاته»: ابن أرجونا وسوبهدرا، من الأبطال الباندوفيين قتل لكشمانا بن دريودانا في اليوم الثاني من الحرب، ثم طوقه القوروشيون في اليوم الثالث عشر وقتلوه. وكان قد تزوج من ابنة ملك فيراتا أوتارا، وأعقب باركشيت الذي تولى العرش في هاستينبورا حين اعتزل يوديشترا الحكم.

* أبسارا «السابحة»: حوريات في مملكة إندرا. من أشهرهن أورفاشي وميناكا ورامبها. عرفن بملازمتهن للغانديرفا، ومسايرتهن لكل من يسعى إليهن، واشتهرن بالرقص والغناء.

* أتمن: الروح أو النفس.

* أغني: إله النار.

* أديراثا «السائس العظيم»: والد كارنا بالتبني.

* أرثا: الثروة، الثراء، الكسب، النجاح.

* أرجونا: ثالث الأخوة لآل باندو. ابن الإله اندرا.

* آشورا «العفاريت»: خصوم الآلهة، ويعتقد بأنهم يسهمون بقوتهم في التحريض على الإبداع في الكون. شعب غريب من غير الفيديين أو الآريين.

* أشفاميدا «قربان الحصان»: طقس فيدي يتم فيه تقديم جواد قرباناً

عند تتويج الملك أو الإمبراطور ليؤكد سلطته المطلقة. ويقوم هذه الطقس على إطلاق جواد من لون معين في احتفالات خاصة، ليجري طوال عام، ويتبعه الملك أو من يختاره فإذا دخل مملكة أخرى كان على صاحبها إما الخضوع أو القتال. وإذا تم الانتصار لصاحب الجواد عاد إلى مملكته مظفراً وفي ركابه الملوك الذين أخضعهم، وأقام الاحتفالات ونحر الجواد وقدمه قرباناً للآلهة. وهو من طقوس الخصوبة أيضاً.

* أشفين: توأمان من الآلهة الفيدية. يوصفان بالجمال والقوة والذكاء.

* أمارافاتي «أرض الخلود»: عاصمة إندرا، تقع في السماء قريباً من جبل ميرو الأسطوري وتعرف باسم ديفابورا، مدينة الآلهة.

* أمبا: كبرى بنات ملك كاشي، اختطفها بهيشما وشقيقتيها، أمبيكا وأمبيليكا، ليزوجهما إلى أخيه فيتشيترافيريا. كانت قد تعاهدت والملك شالفا على الزواج ولكنه أعرض عنها بعد اختطافها، فتوسلت إلى الإله شيفا لينتقم لها من بهيشما. فأصبحت في حياة أخرى شيخاندين الذي قتل بهيشما.

* أمبيكا: أرملة فيتشيترافيريا ولدت ديتراشترا من فياسا.

* أمبيليكا: أرملة فيتشيترافيريا ولدت باندو من فياسا.

* إندرا: إله السماء. وتذهب الأسطورة إلى أنه حلت به لعنة الحكيم جوتما لإغوائه زوجته أهليا، فغطت جسده كله بثور لها شكل مهبل المرأة، فعرف باسم سايوني «المهبلي»، ثم تحولت البثور إلى عيون، فعرف عندئذ باسم سهسراكشا «ذو الألف عين».

* اندرابراستا: عاصمة الباندوفيين، ومازال يطلق اسمها على جزء من مدينة دلهي اليوم.

* أهيمسا: اللاعنف، الامتناع عن الأذى.

* أوبانيشاد «العقيدة السرانية، أو الجوانية»: مجموعة من الأسفار الفلسفية الهندوسية، وضعت بين القرن العاشر والخامس قبل

الميلاد، وتتناول مسائل أصل الكون، وحقيقة الإنسان وعلاقة أتمن «النفس أو الروح» ببراهمن «الله».

* أوتارا: ابنة ملك فيراتا، وزوجة ابهيمانيو، وأم باركشيت.

* أوطارا: ابن ملك فيراتا.

* أوم «ا ـ و ـ م» الكلمة المقدسة عند الهندوس في كافة الأدعية والتراتيل والطقوس، ولها تفسيرات كثيرة. إحداها أنها تعني الثالوث في الديانة الهندوسية «أ: فيشنو، و: شيفا، م: برهما» كما تعني حالات الوعي: الحلم، النوم العميق، السكون العميق، بعد النيرفانا «الكشف الروحي ـ العقلي».

ـ ب ـ

* براغباتي «إله المخلوقات» في الفيدا: إندرا، في شريعة مانو: برهما كما يطلق هذا الاسم على أبناء برهما الحكماء العشرة، ابناء العقل، الذين انحدرت منهم الإنسانية: مانتشي، اتزي، انجيراس، بولاسيتا، بولاها، كراتو، فاسيشتا، براتشيتاس «أودكشا» بريجو، نارادا.

* برهما: الإله الخالق، ولد من البويضة الكونية الأولى. يستغرق خلقه يوماً، يعرف باسمه ويدوم 2160 مليون سنة، يتحلل بعدها ثم يبعث من جديد. يوصف بأنه أحمر البشرة ويحمل خمسة رؤوس «غالباً ما يصور بأربعة، بعدما أحرق شيفا الرأس الخامس انتقاماً لإهانته له»، كما يصور بأربع أذرع يحمل بها سيفاً، وملعقة وسبحة «أو قوساً» وأسفار الفيدا. زوجته إلهة المعرفة، ساراسفاتي، ووسيلته في التنقل البجعة. ويعرف بعدة ألقاب: ذو الوجوه الأربعة «تشامورخا»، وراكب البجعة «همسافهانا»، ورب المخلوقات «براغباتي».

* برهمن: الروح الكونية الخالدة، المنزهة عن الصفات، المطلق.

* براهمي: أحد رجال الدين الهندوس. وقد رسم المشرِّع مانو حياة البراهمي في أربع مراحل:

«1» التنسك «براهماتشاريا»، وملازمة أحد المرشدين «غورو».

«2» الواجب العائلي «غريهاستا» أن يتزوج ويتولى الطقوس الدينية.

«3» الهجرة إلى الغابة «فانابراستا» يلجأ إلى الغابة للانقطاع لمجاهدة النفس واكتساب المهارات.

«4» الزهد «سانياسا» آخر المراحل في حياة البراهمي حتى يبلغ الانعتاق.

* بنتشاجانا: بوق كريشنا من صدفة عفريت البحر بنتشاجاتا.

* بهاراتا: ابن دوشيانا «من سلالة بورو» وشاكنتلا «من سلالة القمر» وانحدر منه قوروش، ومن سلالته شنتانو الذي أعقب بهيشما وفيتشيترافيريا.

* بهغيراتي: نهر الغانج، أنزله شيفا ليجري على الأرض لتطهير رماد الناسك بهغراتا تكريماً له، لشدته في مجاهدة النفس.

* بهاغافاتا بورانا: «التاريخ الرباني القديم»: كتاب ديني في اثني عشر جزءاً، ويتألف من 18 ألف بيت. ويختص الجزء العاشر بسيرة كريشنا.

- ج -

* جونا، جونات: صفات الشخصية عند الهندوس، وهي (1) - الحيوية (2) - الاتزان العقلي (3) - السلبية.

- د -

* دارما «دري: الثابت الوطيد»: الشريعة التي تنظم السلوك، والقانون الأخلاقي.

* ديفي «إلهة»: ابنة هيمافات، الهملايا، وزوج، أو قرين، الإله شيفا. توصف بازدواج الصفات: الرقة والجمال من ناحية والشراسة

والقسوة من ناحية أخرى. وتظهر في حالة الرقة في شكل أوما «النور» وبارفاتي «الجبلية» وغاوري «الصفراء»، أما في ثورتها فهي دورغا «العصية» وكالي «الزمن» وشياما «المظلمة».

- س -

* سانجيا: سائس عربة الملك ديتراشترا ومستشاره.

* سراسفاتي: زوجة برهما وإلهة المعرفة، وإلهة النهر. ينسب إليها نهر كبير في شمال الهند.

* سوما: عصير يشبه الحليب يستخلص من نبات متعرش، ويتناول بعد التخمير في الطقوس الدينية، وهو اسم القمر كذلك.

- ش -

* شري: «1» محظية فيشنو وإلهة الحظ السعيد.

«2» لقب يقابل كلمة السيد.

* شيفا: الإله المدمر، أو المبيد، في الثالوث الهندوسي الذي يتألف من برهما الخالق، وفيشنو الحفيظ، وشيفا المدمر. كما يعرف الإله شيفا بأسماء أخرى: أغورا «الرهيب» تشندرا راشخرا «القمر المتلألئ»، ماهيشا «الإله الكبير»، ترايمباكا «إله الزمن»، كابلا مالين «صاحب طوق الجماجم».

- غ -

* غانيشا: إله البشر، مبدد العقبات، وهو ابن شيفا وبارفاتي يصور في صورة إنسان ورأس فيل بناب واحد. وتروي الأساطير روايات عن رأس الفيل الذي يحمله. وتذهب إحدى هذه الأساطير إلى أن أمه، بارافاتي أمرته بأن يحرس البيت أثناء استحمامها، فلما أراد شيفا الدخول اعترضه غانيشا، فثار غضبه وأطاح برأسه في لحظة ثورة. ولما هدأت ثورته بحث عن رأس مناسب ليعيده إلى غانيشا، فلم يجد إلا رأس فيل.

* وغانيشا هو مدون المهابهاراتا، كما أملاها عليه الحكيم فياسا. وتصوره الأساطير بأنه ذو بشرة صفراء ويحمل بأيديه الأربعة صدفة وقرصاً وعصا وزهرة اللوتس.

ـ ف ـ

* فارونا: أقدم الآلهة الفيدية، خالق السماء والأرض، وإله الماء في الميثولوجيا الهندوسية المتأخرة.

* فاسو: حكيم ارتفع بدأبه على مجاهدة النفس إلى القطب الشمالي. ويعرف بهذا الاسم أيضاً الآلهة التي تمثل الظواهر الطبيعية مثل: آبا «الماء»، وروفا «نجم القطب»، سوما «القمر»، دارا «الأرض»، أنيلا «الرمح»، أنالا «النار»، برابهاسا «الفجر»، بهاراتيوشا «النور». كما يعرف بهذا الاسم المخلوقات الإلهية الذين يولدون لغانجا وشنتانو ومنهم بهيشما.

* فارناسي: مدينة بنارس اليوم، أعظم المدن المقدسة عند الهندوس. وكانت قديماً تعرف باسم كاشي.

* الفيدا «كتب الحكمة»: أربع مجموعات من الأناشيد والتراتيل «ريغ، ياجور، ساما، أتارفا» ترجع إلى «2000» سنة قبل الميلاد، وهي الأسفار المقدسة عند الهندوس. ويعتبر العارف فياسا مصنفها.

* فيشنو «الحفيظ»: أحد الثالوث المقدس عند الهندوس، ويعرف أيضاً باسم أنانتسيانا «النائم على الأفعى اللامتناهية»، ونارايانا «مجرى الماء»، وبيتمبارا «ذو الأزار الأصفر».

* فيشيا: المرتبة الثالثة في المجتمع الهندوسي، وتضم الباعة والتجار.

ـ ك ـ

* كارما: نظرية الهندوس في الولادة والتقمص، وتعتمد في فلسفتها على مبدأ السبب والنتيجة. فأعمال الإنسان هي التي تحكم مصيره.

فإذا قام بالخير والواجب بلغ الـ «موكشا» وانعتق من دورة الحياة والموت. وإذا أتى بشرٌ انتقلت روحه إلى جسد آخر لتتكرر دورة الحياة والموت وهكذا دواليك.

* كالا «الأسود»: أحد ألقاب إله الموت ياما. وقد ورد في سفر أثارفافيدا أنه «انتزع العوالم وعانقها، فهو الأب والابن، ولا قوة تملك أن تقهره». ويعرف بهذا الاسم أيضاً شيفا زوج الإلهة كالي.

* كالي «السوداء»: تصفها أسفار الفيدا بأنها إلهة الزمن، وبالسوداء أو ذات اللسان الرهيب بين الألسنة السبعة التي تطلق اللهب لتشرب قرابين الزبدة. أما في الأساطير المتأخرة فهي زوجة شيفا التي تبارك عبادها الذين يدركون الحقيقة وسر الزمن.

* كاليوكا «عصر كالي»: كالي هي رمز الكوارث. وعصرها هو العصر الرابع من حياة البشرية، بدأ عام 3102 قبل الميلاد ومدته 420 ألف سنة، وبعده تبدأ دورة كونية جديدة.

* كاما «الحب والشهوة والمتعة»: ويعرف أيضاً باسم كاماديفا إله الحب، زوجته راتي، إلهة الرغبة. تصوره الأسطورة حاملاً قوساً من قصب السكر ووتره من عسل النحل، أما السهام فطرفها من الزهور، وممتطياً ببغاء، حاملاً رايته الحمراء، وشعاره السمكة.

* كايلاسا: جبل في الهملايا، وهو مقر شيفا، كما تذهب بعض الأساطير إلى أن إله الثروة كوفيرا يسكنه.

* كريشنا «الأسود»: أحد تجسيدات فيشنو، وتقول الأسطورة أنه اقتلع ذات مرة شعرتين من شعره، إحداهما سوداء والأخرى بيضاء، فدخلت البيضاء رحم روهيني فولدت بالاراما، أما السوداء فدخلت رحم ديفاكي فولدت كريشنا. ويعرف أيضاً باسم كيشافا «ذو الشعر الأسود». أبوه فاسوديفا وهو أخو كونتي زوجة باندو، وخال يوديشترا وبهيما وأرجونا.

* كوفيرا: إله الثروة، وكبير الياكشا. مقره جبل كايلاسا.

* لكشمي: إلهة الحظ، زوجة فيشنو، وأم كاما إله الشهوة.

- م -

* ماغدها: منطقة في جنوب بيهار، اشتهرت بلغة «بالي» التي كتبت بها أسفار البوذية الأولى.

* مايا: مهندس من الياكشا اشتهر ببراعته في هندسة البناء.

* مايا: إلهة الوهم تصور بشكل الأنثى، وهي التي تضفي على الأوهام واقعية وتقدمها إلى البشر بصورة الحقيقة.

* مهاريشي: «مها: عظيم، كبير، ريشي، حكيم»: لقب يطلق على الرجل الصالح، أو القديس الذي بلغ أعلى درجات المعرفة والحكمة.

- ن -

* ناغا: أفعى أسطورية بوجه إنسان وجسم أفعى.

* نارادا: أحد الحكماء السبعة العظام، ولد من جبهة برهما. وتذهب إحدى الأساطير إلى أنه ابن كاشيابا. وهو البراهمي الذكي الذي يقيم في جنة فيشنو ولا ينقطع عن طرح الأسئلة الصعبة التي تحتار فيها الآلهة.

* ناراكا: الجحيم عند الهندوس. وقد ذكر مانو إحدى وعشرين جحيماً، يقضي فيها الكافرون والمذنبون ردحاً من الزمن عقاباً لهم على ما اقترفوه من الآثام والذنوب.

- هـ -

* هارا: أحد أسماء شيفا.

* هانومن: القرد المقدس في الرامايانا، ابن إله الريح فايو، ولذلك فهو يمتلك القدرة على الطيران. وهو في المهابهاراتا، أخو بهيما.

- ي -

* ياكشا: سكان السماء أتباع إله الثروة كوفيرا.

* ياما: إله الموت: وهو ابن الشمس.

* يامونا: نهر من فروع الغانج، تجسيده ابنة الشمس.

* يادفا: قبيلة كريشنا، حكمت دفاركا في غوجرات.

* يوغا: إحدى مدارس الفلسفة الهندية الست الرئيسة.

* يوكا: دورة زمنية للعالم الذي يقول الهندوس إن له أربع دورات أو عصور «كريتا، تريتا، دفابرا، كالي»والعصر الحالي هو عصر كالي. وهو يبلغ عند الآلهة 4320 مليون سنة بقياس الزمن. وفي تاريخ الإنسان 8640 مليون سنة، وهو يعادل «كالبا» أو يوماً واحداً عند برهما.